

ISSN: 2321-7928

الرقم الدولي:

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 5 العددان: 3-4

يوليو - ديسمبر 2016م

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد أنديل إيجوكيشنال ترست،

بولفور، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

| | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| أ. د. فيضان الله الفاروقي (الهند) | أ. د. بشري زيدان (مصر) |
| د. صالح البلوشي (عمان) | السيد محمد دانث الأعظمي (البحرين) |

هيئة التحرير

| | |
|-------------------------------------|--|
| د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير) | محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير) |
| د. هيفاء شاكري (عضو) | محمد معتصم الأعظمي (عضو) |

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (1)

azebazmi@gmail.com (2)

الاشتراك السنوي:

500 روبية (للطلاب) 1000 روبية (للأساتذة والمكتبات)

نشرها وطبعها محمد عمران علي ملا نائب مدير مجلة الهند،
مولانا آزاد أنديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية،
رقم البريد-731235

في هذا العدد

الصفحة

| | | |
|---------|--|---|
| 6-5 | د. أورك زيب الأعظمي | الافتتاحية |
| | | مقالات وبحوث: |
| 66-7 | - الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورك زيب الأعظمي | تفسير تدبر القرآن (11) |
| 119-76 | - امتياز علي عرشي ترجمة: د. أورك زيب الأعظمي | كتاب الأخبار للجاحظ |
| 153-120 | - البروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي ترجمة: د. هيفاء شاكري | الدولة الإسلامية (2) |
| 197-154 | - د. ماجد محمد عبده الدلالعه | حديث الولي بين مؤيديه ومعارضيه، دراسة حديثة موضوعية |
| 225-198 | - د. محمد فوزي مصري رحيل | التراث الإسلامي في تصنيف العلوم، القلقشندي نموذجًا |
| 249-226 | - د. أورك زيب الأعظمي | دور شرف "شمس العلماء" في نشر وتطوير اللغة العربية وآدابها (العلامة محمد شبلي النعماني نموذجًا) |
| 335-250 | - د. صاحب عالم الأعظمي الندوي | إسهام ملفوظات الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح الفكر الإسلامي للإدارة المغولية، "المكتوبات الربانية" نموذجًا |

- 371-336 - أبو المعالي القاضي أظهر
المباركفوري
من القاعدة البغدادية إلى صحيح
البخاري
- ترجمة: د. أورك زيب الأعظمي
- 402-372 - د. أورك زيب الأعظمي
"مقال في بلاد البنغال" دراسة تحليلية
- 413-403 - بدر جمال الإصلاحي
النيلوفر
استعراض كتاب:
- 418-414 - غياث الإسلام الصديقي الندوي
صفحات من حياة المغفور له بإذن
الله تعالى السلطان سعيد بن
تيمور سلطان مسقط وعمان
قصائد ومنظومات:
- 421-419 - د. أورك زيب الأعظمي
قصيدة في تهنئة الدكتورة هيفاء
شاكري بتشرفها بجائزة رئيس
جمهورية الهند
أخبار وتقارير:
- 425-422 - غياث الإسلام الصديقي الندوي
الندوة الدولية حول: الحكمة
الهندية: بانتش تانترا (كليلة ودمنة)،
- 429-426 - محمد معتصم الأعظمي
الأستاذ بدر جمال الإصلاحي ينال
جائزة رئيس جمهورية الهند
لخدمته للغة العربية للسنة
2016م

الافتتاحية

الحمد لله الذي وقَّعنا لإصدار المجلة الإنجليزية عن الدراسات العربية والإسلامية التي كانت حلمنا منذ أن نشرنا مجلة الهند. نشرنا المجلة واستلمنا رسائل لا تحصى من قبل الكتّاب والباحثين وكذلك من قبل علماء اللغة الإنجليزية فالكُل شجَّعونا على إصدارها ثم على علوّ مستواها وجودة قشيبها فالحمد لله حمداً كثيراً طيباً. لم نرد هذا إلا لخدمة العلم والفن ولا نريد جزاء إلا عند الله العزيز الحكيم.

بين أيديكم العددان من مجلة الهند ونصدهما كعدد مزدوج ويشتمل هذا العدد على عشر مقالات أصلية ومترجمة قام بها علماء الهند والعرب. وذيلنا هذه المقالات باستعراض للكتاب وقصيدة وتقريرو بشري.

فالمقالة الأولى هي الحلقة الـ 11 لترجمة تفسير "تدبر قرآن" وهي ترجمة الآيات من 122 حتى 162، والمقالة الثانية تحقيق "كتاب الأخبار للجاحظ" الذي قام به المحقق الهندي الشهير امتياز علي عرشي وأما المقدمة فقامت بترجمتها العربية. والمقالة الثالثة هي الحلقة الثانية لترجمة كتاب "إسلامي رياست" وهذه الحلقة تتحدث عن القانون الإسلامي (الشريعة)، وأما المقالة الرابعة فهي عن الولاية وشروطها وتميزها، والمقالة الخامسة عن مساهمة القلقشندي في تصنيف العلوم، والمقالة السادسة تذكر دور شرف "شمس العلماء" في نشر وتطوير اللغة العربية وآدابها. والمقالة السابعة عن إسهام ملفوظات الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح الفكر الإسلامي للإدارة المغولية بالتركيز على "المكتوبات الربانية" وأما المقالة الثامنة فهي ترجمة عربية للسيرة الذاتية للقاضي أبي المعالي أظهر المباركفوري الذي يعرفه العرب كمعرفة أبناءهم. والمقالة التاسعة عن رحلة "مقال في بلاد البنغال" التي قام بها محمد بن ناصر العبودي وأما المقالة العاشرة فهي عن

النيلوفر وكتبها العالم الهندي الشهير الأستاذ بدر جمال الإصلاحي الذي يفقد نظيره في العلم بحيوانات الهند وأشجارها.

وقفنا هذه المقالات باستعراض لكتاب الدكتور صالح البلوشي الذي له اليد البيضاء في تدوين تاريخ عمان السياسي والعلمي، ويتبعها قصيدة في تهنئة الدكتورة هيفاء شاكري بمناسبة تشرفها بجائزة رئيس جمهورية الهند للعام 2015م ثم يأتي تقرير لندوة دولية عقدت في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي وختمنا هذا العدد المزدوج ببشرى إعلان الحكومة الهندية عن تشريفها الأستاذ بدر جمال الإصلاحي بجائزة رئيس الجمهورية للعام 2016م والأستاذ الإصلاحي فاقد النظير في الهند عن المهارة في حيوانات الهند وأشجارها وما تتميز بها.

ونشكر كل من ساعدوني في إعداد ونشر هذا العدد، ونبشّر بأن العدد القادم سيكون خاصاً بحياة وخدمات الإمام عبد الحميد الفراهي فنرحّب بما يقدمه الباحثون من مقالات وبحوث وترجمات عن الموضوع.

د. أورك زيب الأعظمي

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة البقرة)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

(الحلقة الحادية العشرة)

47- تفسير الآيات (122-141)

قد اتضح مما سلف من المباحث أنّ أشد عرقلة وأصعبها لأهل الكتاب لاسيما اليهود في سبيل قبولهم للإسلام كانت غرورهم بأنهم أولاد إبراهيم فالهدى ما هم يمسكون به والدين ما هم يتبعونه فلا كانوا يعترفون بنجاة أحد خارج نطاقهم ولا كانوا يقولون بنبوة أحد أو رسالته خارج حدودهم فالطريقة الوحيدة لنيل النجاة والهدى عندهم كانت هي أن يكون المرء إما يهوديًا أو نصرانيًا فقام القرآن بالرد على زعمهم هذا بطرق مختلفة. وفيما يأتي يتم الرد على ما زعموه عن طريق تقديم جزء من قصة حياة إبراهيم وأولاده، يؤيد دعوة النبي ورسالته ويردّ على كافة دعاوي اليهود والنصارى والمشرّكين. وبما أن إبراهيم كان أبًا وإمامًا لكلا الثقليين بني إسرائيل وبني إسماعيل فيثبت هذا الجزء من التاريخ حجة لكليهما على السواء. لو تفكّرنا من هذه الجهة لشعرنا أن البحث الذي ابتدئ ببني إسرائيل خاصًا وببني إسماعيل عامة منذ بدء هذه السورة قد بلغ هنا نهايته.

وما أوضحه القرآن هنا في ضوء هذه القصة سيأتي تفصيلها خلال تفسير الآيات ولكن نودّ أن نشير إلى أمور مبدئية خاصة لكي يتضح نظم الكلام وسياقه، فهي كما يلي:

¹ كاتب ومفسّر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيودلهي، الهند

1. منصب الإمامة والسيادة الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام لم يظفر به كشيئ موروث بل هذا كان مما وهبه الله تعالى فأولاً امتحن الله طاعته ووفاءه عن طريق مختلف البلاءات فلما نجح فيها أعطاه هذا المنصب فهذا المنصب يبني على الصفات لا على النسب والحسب فلا يليق به من بين ذريته إلا من يتصف بهذه الصفات فلا يجدر به الفجرة الخائنون.
2. قد قرّر الله تعالى بيت الله مركزاً لكافة ذرية إبراهيم فأمر بجعلها قبلة كما ولي أمره إبراهيم وإسماعيل.
3. دعا إبراهيم وإسماعيل، حين بناء هذا البيت، أن تبعث أمة مسلمة من بين ذريتهما وأن يبعث رسولٌ منهما.
4. إن هذا الرسول هو مظهر هذا الدعاء الإبراهيمي وداع لهذه الملة الإبراهيمية وعلى هذا فمن يجتنب دعوته مدّعياً باتباع الملة الإبراهيمية يخدع نفسه.
5. قد أوصى إبراهيم ويعقوب أولادهما بهذه الملة الإسلامية وعقد أولاد يعقوب الميثاق معه على أن يحيوا عليها ويموتوا.
6. إن هذه الأحداث والحقائق تتطلب أن لا يخوض أهل الكتاب في عصبية اليهودية أو النصرانية ويتبعوا هذه الملة الإبراهيمية التي يدعو إليها النبي محمد ﷺ ولا يفرّقوا بين أنبياء الله ويختاروا دين الإسلام الذي هو دين مشترك بين كافة الأنبياء والرسول فمن يرد أن يصطبّع بصبغة الله فليختاروا صبغة الإسلام وهذه هي صبغة ربانية وليست اليهودية ولا النصرانية فمن يرد أن يختار صبغة غير صبغة الله فهم يكوّنون لهم حزباً غير حزب الله جلّ سبحانه.
7. إن الدعوى بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من أنبياء تلك السلسلة كانوا يهوداً أو نصارى فمن يدّع بما سلف فهو يريد إخفاء الحق فالله أعلم منهم بدين ومذهب هؤلاء الأنبياء.
8. والشيء الأخير الذي تكرر بيانه مرتين هو أن الآباء الذين تعتمدون عليهم هم مضوا لسبيلهم وسيلقون جزاء ما قدّموه من الأعمال فلا تتمتعون من فضل أي عمل منهم ولا تستلّون عن شيء مما قدّموه.

ضع هذه المباحث أمام عينيك ثم اتل ما يلي من الآيات. قال الله تعالى:

"يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٣٤﴾ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٣٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٣٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٣٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٤٠﴾ وَمَن يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٢﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِ إِنَّا اللَّهُ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٤٤﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾".

48- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣٣﴾
قد مضت هاتان الآيتان بشيء من الاختلاف في كلماتها وقد ناقشناهما بكل تفصيل فليراجع القارئ الآيتين 47 و48.

﴿وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١٢)

الابتلاء يعني الامتحان والاختبار وهذه سنة من سنن الله لتربية العباد الخلقية فهو ينمي ويزكي من مؤهلات العباد ما قد أودعه الله فيهم وبه يميز بين الصالح والفاجر. ويتم هذا البلاء عن الوضعين؛ المخالف والموافق، السار والمحسن، والمشجع والمؤنس، ولا يراد به في أيهما أذاهم بل الهدف الأساسي، كما ذكرناه آنفاً، تنمية ما خفي فيهم من المؤهلات وتزكيها. ولنكتف هنا بهذه الإشارة وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد.

كلمات جمع كلمة وهي تعني كلمة مفردة كما هي تعني كلاماً تاماً، والمراد هنا بالكلمات أحكام الله التي أعطاها الله لإبراهيم لامتحان عزمته واستقامته وبدوره هو عمل على تلك طائعا غير منكر فمثلاً أنه أذن في معبد قومه الوثني امتثالاً بأمر الله وكسر الأصنام التي لم تزل تعبد منذ قرون ثم ألقى في النار عقاباً على هتك عزة دينه القديم فهو وثب فيها بدون أدنى مخافة، وأراد ملك جبّار أن يثنيه عن الدين الحق فخيبه عن طريق حججه الباهرة، وأمر بالهجرة إلى غير بلاده مغادراً الأسرة والعقارات والقوم والوطن فهاجرهم وارتحل إلى بلاد غير بلاده، وأمر بأن يذبح ولده الوحيد الحبيب لديه في الغربة فامثل بهذا الأمر بدون أي تفكير وتلّ ابن ثلاثة عشر عاماً بالجبين. فكل ثانية من ثواني حياته مليئة بهذه المحامد الكبرى الفريدة المثل وقد ذكرنا نتفاً منها على سبيل المثال.

وما استخدمه الله تعالى من كلمة "الكلمات" للتعبير عن أحكامه وإرشاداته تطوي نكتة بلاغية خاصة وهي أن "الكلمة" تحمل بين جنبها نوعاً من الإجمال والإبهام فهي مثل "كن" تقدّم للمخاطب أمراً يجب الامتثال به ولكن لا يجب أن يتبعه فلسفته وأجره وجزاءه، فمثل هذه الأحكام تكون أشدّ اختبار لامتحان الوفاء والطاعة فمن ينجح في مثل هذا الامتحان فله جزاء المناسب بشدة امتحانه فمثلاً أن الله أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده الحبيب ولم يوضح الباعث عليه ولا بين الأجر عليه، فكان لإبراهيم أن يعتبر هذه الرؤيا حلمًا ولا غير كما كان له أن يأولها

تأويلًا ما ولكنه كما يمثل كل شيء من هذا الكون بكلمة الله "كن" غير مناقش عن فلسفتها ولا باحث عن أجراها فكذلك لم يسأل إبراهيم عن فلسفتها ولا الجزاء عليها فلما سئل عن أن يثب في النار فوثب فيها، وأمر بأن يغادر القوم والوطن فغادر، وأمر بأن يذبح الولد ففعل بما أمر، ولأجل هذا النوع الخاص لهذه الأحكام المليئة بالاختبار عبّر القرآن عنها بالكلمات.

ولو أن كل واحد من هذه الاختبارات كان صعبًا شديدًا ولكن امتحان ذبح الولد كان فوق هذه الامتحانات شدة وصعوبة فخياله تفتّر به عزيمة المرء ولكن إبراهيم قد نجح فيه، وعلى هذا وعده الله بـ "إني جاعلك للناس إمامًا". إن هذا الوعد الوحيد يشمل وعدين اثنين أحدهما أن الأقوام العظى تولد من نسل إبراهيم وآخرهما أنه سيكون إمامًا لكلهم. وقد استحق هذا الجزاء العظيم أنه لم يغادر أسرته وقومه لله فحسب بل رضي بأن يذبح ولده الحبيب في الغربة، الذي كان هو المركز الوحيد لكافة آماله في شيخوخته وغربته، ولو أن اليهود قد قاموا بتحريفات متنوعة في هذا الجزاء الخاص من سيرة إبراهيم في كتابهم التوراة ولكن هذا الوعد مذكور فيها بتصريف في كلماته، اقرأ ما يلي من الآيات:

"ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت يقول الرب إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرًا كنجوم السماء وكالرمال الذي على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي" (التكوين: 22/15-18)

وللإيفاء بهذا الوعد جعل الله أقوامًا عظمى من نسل إسحاق وإسماعيل، كان إبراهيم أباهم وإمامهم بالاتفاق ثم ابتدأت سلسلة النبوة والرسالة فيهم كما برز فيهم ملوك جبّارون فتحوا بلاد الأعداء ثم بعث فيهم محمد النبي الخاتم الذي هدى به الله كافة العالمين.

فلما وعد الله هذا مع إبراهيم فسأله هل هذا العهد للإمامة والسيادة يختص به أم يرثه ذريته فأجاب عليها الله قائلًا: "لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" فالمراد من "الظالم" في القرآن ليس مجرد من يظلم غيره بل ربما يراد به من خاض في الشرك والكفر فيظلم نفسه، قال تعالى مثلاً: "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ" (سورة فاطر: 32) وقال "

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ" (سورة الصافات: 113) فمعنى ذلك أن من يبقى من ذريتك على مذهبك ويستقيم على ما أعطيته من الهدى والشرعة فهو يرث هذا المنصب بعدك ولكن من لا يوفي بالوعد ويكفر نعمة الله فيتبع سبيل الشيطان فلا حظ له من هذه الإمامة والسيادة.

وقد صرح عن ذلك هنا لكي يتضح جلياً لبني إسرائيل وبني إسماعيل أن الفخر الذي يجدونه في أنفسهم بكونهم من سلالة إبراهيم وعلى ذلك ظنوا أنفسهم براء عن مسؤوليات الإيمان والعمل كلها، هذا الفخر باطل تماماً فلا حظ من تراث إبراهيم لمن خاض في الشرك والكفر وقد أوضح الله هذا الأمر لإبراهيم يوم أعطاه منصب الإمامة والسيادة.

ونرى أننا أحلنا إليه من التوراة سابقاً قد كان يشمل هذه الصراحة ولكنه بما أن هذا الأمر كان خلاف مرضاة اليهود فقاموا بحذفه كما حَرَفُوا غيره من حلقات هذه السلسلة المخالفة لأهوائهم وقد كشف الإمام الفراهي عن مثل هذه التحريفات في رسالته "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" ومن يودّ التفصيل فليراجع تلك الرسالة.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

والمراد من "الْبَيْتِ" هو بيت الله أي الكعبة الشريفة وقد استخدمت هذه الكلمة في صورتها هذه لمجرد بيت الله الحرام، وقد عبّر عنها في كتاب "التكوين" للتوراة بـ"بيت إيل"، و"إيل" بالعبرية تعني "الله".

والمثابة هي المركز والمرجع، أي التي يرجع إليها كل الناس ويتعلقون بها ويعتبرونها مركزاً لهم وقبلة.

والمراد من "لِلنَّاسِ" الذين جاء ذكرهم في "إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا" أي ذرية إبراهيم كلها التي أعطيت إمامتها وسيادتها لإبراهيم عليه السلام فهي ولو كانت من نسل إسحاق أو من سلالة إسماعيل فكما حكم الله تعالى أن يجعل إبراهيم إماماً لذريته كلها فكذلك قال الله تعالى إن يجعل بيتاً للعبادة يكون مركزاً وقبلة لكافة ذرية إبراهيم وثم يتسع نطاق بركته للعالم كله عن طريق ذرية إسماعيل كما سيأتي.

وقد قدّم الأستاذ الإمام تحقيقه في هذا الأمر كما يأتي:
"اعلم أنهم أمروا من أول أمرهم باتخاذ جانب مكة قبلة لأكبر قرايبتهم، وبيان ذلك أنه كان من الواجب في أمر القريّان أن يؤتى إلى المعبد أمام الرب، وكان قدس الأقداس يوجّه إلى الجنوب --- وكذلك الضحية السنوية التي هي أكبر الأضاحي عندهم توجّه إلى الجنوب.

ولم يعرف أهل الكتاب حكمة ذلك، راجع الفصل الثاني. فنقول: الأغلب أنهم لم يجبّوا البحث عنها، وكتموها تعمّدًا. فإنّ خيمة عبادتهم كان من الأول وجهها إلى الشمال، سفر الخروج (27:9):

"وتضع دار المسكن إلى جهة الجنوب نحو التيمن" أيضًا فيه (40: 22-24) وجعل المائدة في خيمة الاجتماع في جانب المسكن نحو الشمال خارج الحجاب (23) ورتّب عليها ترتيب الخبز أمام الرب كما أمر الرب موسى (24) ووضع المنارة في خيمة الاجتماع مقابل المائدة في جانب المسكن نحو الجنوب".

وذلك ليكون من يأتي إلى الرب متوجّهًا إلى الجنوب أي إلى مكة المكرمة والمنحدر الإبراهيمي. ويؤكد ذلك أنه في داخل الخيمة كان المسكن المقدّس الرباني في الجنوب وكان المذبح بين يديه إلى جهة الباب ولذلك كان المقرّب بقدس الأقداس يقوم على شمال المذبح ليكون متوجّهًا إلى المسكن، فيكون متوجّهًا إلى الكعبة. وعندها المروة التي هي المنحدر الأول. وعنده مسكن إسماعيل عليه السلام¹.

اتضح من هذا التفصيل أنه كما أن الكعبة هي قبلة صلواتنا وأضاحينا فكذلك أمر بأن تجعل الكعبة قبلة لكافة عبادات وأضاحي ذرية إبراهيم وعلى هذا فقد نصب مخيّم عبادتهم موجّهًا هذه الجهة كما بني البيت المقدس، فيما بعد، على هذه الجهة ولكن اليهود قد حاولوا أن يخفوا هذه الحقيقة لمجرد عصبيتهم.

ويمضي الأستاذ الإمام يوضّح هذا الأمر كما يلي:

"ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى جعل بلدة إسماعيل قبلتهم، فأسكن إبراهيم أولاده في مشرق العرب وشماله، ولكن جعل لهم قبلة إلى مسكن إسماعيل، فإنه أنزله أمام

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 59 (طبعة محققة)

جميع إخوتهم. التكوين (25:18): "وسكنوا من حويلة إلى أشور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور أمام جميع إخوتهم نزل" والتكوين (16:12): "وإنه يكون إنسانًا وحشيًا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن". ولا يصح لذلك تأويل آخر. فإن أولاد إبراهيم غير بني إسماعيل سكنوا في المشرق والشمال فلا يكون أمام جميعهم إلا أن يكون في جهة قبلتهم، فجعل الله إبراهيم إمامًا وأورثه إسماعيل.

وأشار القرآن إلى ذلك حيث قال تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن" وأكبر هذه الكلمات ذبح ولده "قال إني جاعلك للناس إمامًا، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس (أي مرجعًا يتوجهون إليه) وأما واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" فلم يجعل مسكن إسماعيل قبلة لقرايبهم إلا لكون المنحر الإبراهيمي عنده".¹

وأما "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" فهي إيضاح مزيد للفقرة السابقة فلا حاجة إلى أن يضم إليها تصريح "قلنا" أو "أمرنا" فقد قيل شيء واحد في كلتا الفقرتين عن جهتين مختلفتين فقال أولًا أن الله حكم بأن يجعل بيت الله مركزًا وقبلة لكافة ذرية إبراهيم ثم قال إن إبراهيم وأولاده أمروا، لتنفيذ هذا الحكم، بأن يجعل جزءً من مسكن إبراهيم مصلى.

وقد استخدم هنا كلمة "مقام إبراهيم" فما هو المراد من هذه الكلمة؟ نجد رأيين للمفسرين في هذا الشأن فترى الطائفة الأولى أن المراد منه ذلك الحجر الذي قيل عنه أن إبراهيم كان يقوم عليه فيبني البيت الحرام وأما الطائفة الثانية² فهي ترى أن المراد به منطقة الحرم كلها فقد اتخذت بها هذه الطائفة مسكن إبراهيم ومقره بدلًا من أن تريد به شيئًا يقوم عليه، ونقول بصحة القول الثاني فكما أن هذا التأويل يطوي بين جنبه سعة المعنى وجامعيته فكذلك أنه يوضح ما يشير إليه السياق الذي قيل فيه هذا الأمر فقد أراد القرآن هنا إثبات أن هذا البيت لم يزل قبلة لذرية

¹ المصدر نفسه، ص 60 (طبعة محققة)

² يضم إلى هذه الطائفة أكابر علماء التفسير أمثال ابن عباس وعطاء ومجاهد.

إبراهيم كلها وذلك لأنه هذا البيت الذي بناه إبراهيم أول ما بناه، بأمر من الله، في مكانه الذي سكنه مع إسماعيل بعد الهجرة.

هذه قضية نزاعية بيننا وبين اليهود فقد قام اليهود بتحريفات تافهة في المذبح وقصة حياة إبراهيم لكي يقطعوا علاقته مع الكعبة والمذبح وهكذا فقد حاولوا أن يثبتوا أن الولد الذي ذبحه إبراهيم هو إسحاق لا إسماعيل والمكان الذي ذبحه هو جبل يروشل لا المروه والبيت الذي بناه لعبادة الله هو البيت المقدس لا البيت الحرام والمنطقة التي توطئها بعد الهجرة هي كنعان لا جوار الكعبة، وبما أن التوراة هي الوسيلة الوحيدة لتصديق هذه البيانات أو ترديدها وأن اليهود قد قاموا بالتحريف في التوراة حسب مرضاتهم كما ذكرنا آنفاً فكشف القناع عن الحقائق كان صعباً للغاية ولكن أستاذي الإمام الفراهي في رسالته "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" قد قام بكشف الغطاء عن كافة تحريفات اليهود تلك في ضوء دلائل التوراة نفسها فإنه أثبت بمحتويات التوراة أن إبراهيم، بعدما خرج من وطنه، ترك والده إسحاق بكنعان ولكنه أقام مع ولده وزوجته في صحراء بئر سبع. كانت هذه المنطقة غير ذات زرع وعلى هذا فهو حفر بها سبع آبار وزرع الأشجار وهنا رأى في المنام أنه يذبح ولده الوحيد فجاء به جبل المروه وأراد أن يحقق ما رآه، وبجوار هذا الجبل أسكن إسماعيل ثم رجع منه إلى بئر سبع واصطفى لإقامته مكاناً يكاد يكون قريباً من الكعبة ويمكن منه أن يعود إسحاق.

قد أثبت الإمام الفراهي هذه كلها بدلائل قاطعة من التوراة، وبما أن تقديم المقتبسات يملّ القراء فاكتفينا بتلخيص المبحث بكلماتنا فمن يؤدّ التفصيل فليراجع رسالته القيّمة.

ومن البديهي أن إبراهيم لما أقام بهذه المنطقة ولم يقيم بالشام فلا بد من أن يؤمر بأن يبني مركزاً لأداء الصلوة وعلى هذا فقد بنى بيت الله امتثالاً لهذا الحكم، الذي ذكر في كتاب التكوين للتوراة باسم بيت إيل، وبيت الله وبيت إيل لهما معنى واحد فـ"إيل" تعني "الله" بالعبرية. فإن يرد اليهود بهذا البيت المقدس فبصرف النظر عن أن إبراهيم لم يجعل هذه المنطقة مقرّه فالشيئ البارز الذي يكذب هذه الدعوى أن

البيت المقدس قد تم بناؤه بيدي سليمان بعد إبراهيم بالمئات سنة، وبناء على قدم الكعبة وأوليئها فقد عبّر عنها القرآن بـ "البيت العتيق" و"أول بيت" فقال تعالى "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" (سورة آل عمران: 96-97).

فهنا عبّر عن بيت الله بـ "مصلّى" الكلمة التي تشير إلى الهدف الأصيل وراء بنائه بأنه سيكون مركزاً للصلوة وقد دعا إبراهيم حين إسكان إسماعيل بجوارها "رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ" ولكن أوليائها المشركين والمبتدعين الجاهليين قد جعلوها مركزاً للبدع وبقيت الصلوة مجرد تقليد وثني للنفخ والتصفيق فإن تفكروا من هذه الجهة فستعلمون أن كلمة "مصلّى" هنا إشارة إلى أن كلا فرعي إبراهيم الهدف الأساسي لقبليهما¹ والآن قد بعث الله نبيّه هذا الذي سيقوم بإحياء هدفها الأساسي.

وعهدنا إلى إبراهيم --- إلخ: ولما يأتي "عهد" بصلة "إلى" فهو يعني حمل مسؤولية عليه أو تقيده بشرط ما فقال تعالى مثلاً: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ وَلَمْ يُخَذِّ لَهُ عَزَمًا" (سورة طه: 115) وقال أيضاً "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ" (سورة يس: 60) فـ "عهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل" يعني أن الله قد حمّلهما مسؤولية تولية الكعبة وقيدهما بأن يطهرا هذا البيت للطائفين والمعتكفين والركع السجود.

والهدف وراء تطهير البيت يعني بدهيّا تطهيره من كل ما يخالف هدف بنائه سواء كان ذلك نوعاً من النجاسة التي تعكّر صفو أمزجة العباد أو لغواً من اللاعبين يخلّ بخشوعهم أو أصناماً وأوثاناً تحوّل بيت الله إلى مركز الشرك وعبادة الأوثان فقد حمّل إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيت الله عن كل ما سلف من الدنس والنجس ويشهد التاريخ بأنهما قد أدّيا خدمتهما ولكن ذريتهما لما وقعت في هوة الشرك وعبادة الأوثان فيما بعد فخالفوا ما حمّل على كاهل أبيهم من المسؤولية وجاءوا بالأصنام

¹ ولنلاحظ هنا أنه كما شطبت اليهود ذكر الكعبة عن أدبهم الديني فكذلك محوا ذكر الصلوة عنه فإن بقي لديهم شيء ما فهو الذبح فمعبدهم ليس إلا مركزاً للذبح فلا يعنى بالصلوة فيه، وربما يخطر ببالي أنهم لما قطعوا علاقتهم عن الكعبة فحرمهم الله الصلوة التي كانت هي هدفها الأساسي.

فنصبوها في كل زاوية منه وساموا من أراد أن يعمرّوا هذا البيت من جديد من ذكر الله والطواف والاعتكاف والسجود فأخرجوهم منه وقد أشار القرآن إلى فجر تاريخ الكعبة لكي يدرك القريش مسؤولياتهم تجاه هذا البيت ولكنهم لما أنكروا إدراكها فأعلن الله بأنهم معزولون عن منصب تولية هذا البيت فقال: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَتَّخِذْ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ (سورة التوبة: 17-18).

فأمر هنا بأن يخصّ هذا البيت بثلاثة أشياء؛ الطواف والاعتكاف والركوع والسجود. فالطواف يعني طواف بيت الله فأوضح النبي ﷺ بسنته طريقته التي كان يطردها إبراهيم عليه السلام فالطواف نوع من الصلوة ولكن هذه الصلوة لن تؤدى إلا عند الكعبة الشريفة ولأجل خصوصيته هذه سبق ذكره العبادات الأخرى فيختص بهذه الصلوة قدر ما يثور من عواطف الحب الرباني فيها في حدود الكرامة والأدب فقصة الشمعة والشرارة تعود حقيقة شريطة أن تشوب جانب المرء حياة ملؤها إيمان خالص.

العاكف من العكوف وهو صرف النظر عن الأشياء الأخرى والالتزام بشئ خاص ومنه الاعتكاف الذي هو عبادة التفكير والتدبر والذكر فينعزل العبد عن كل شئ ويركن إلى خالقه فيذكره وقد أوضح النبي ﷺ صورته الصحيحة بسنته فكما أن الطواف يطوي بين جنبه ما يثير في المرء عواطف الحب الإلهي فكذلك الاعتكاف فهو يثبت العقل والقلب على ذكره تعالى.

الركع جمع الركوع والسجود جمع الساجد وقد بيّنا تحقيق كلمتي "ركوع" و"سجود" حين تفسير الآيات 34-42 وهنا وردت هاتان الكلمتان للتعبير عن الصلوة فالتعبير عن الصلوة بالركوع والسجود يدل على حقيقتين مهمتين إحداهما أن هذين من أهم وأقدم أركان الصلوة فلو وقع شئ من التغيير في ظاهر الصلوة ولكنهما يضمنان إلى صلوتنا كما هما كانا يضمنان إلى صلوة إبراهيم، والأخرى أنه لم يرد من الصلوة مجرد الذكر والفكر بل أريد بها صورتها الخاصة وهيئتها المعلومة، ويكمن جمال صورتها الحقّة وهيئتها المعلومة في الركوع والسجود.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ يَأْتِيهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ: آمن يعني مأمون ومطمئن وقد قام
إبراهيم بهذا الدعاء للأرض التي أسكن إسماعيل فيها وبنى فيها بيت الله الحرام، وهذه
المنطقة، كما اتضح لنا، كانت محرومة من الحضارة والمدنية والعمران والخصبة
فكانت القبائل البدوية ينتقلون من مكان إلى مكان في البحث عن المياه مثل تحوّل
المواسم وأما معاشهم فهو كان إما رعي الإبل أو الصيد أو السلب والنهب فكانت هذه
المنطقة تعاني خاصة من قضيتين حين وردها إبراهيم أولاهما الأمن والأخرى الغذاء.
فدعا إبراهيم لهذين الشئتين فقبول هذا الدعاء من الله وظهور بركاته لذرية إبراهيم
وأهالي هذه المنطقة ثابت قطعاً من التاريخ بحيث لا ينكره الدّعدو للإسلام
والمسلمين، ومما يعجبنا أن الله قد وهب هذين الشئتين بواسطة بيت الله الحرام فلم
يحتاجوا إلى دافع آخر للتحظي من هذه النعم فما عبّر به القرآن عن هذا البيت من
كونه "مباركاً" يظهر في هذه النعم كذلك.

والآن تعال نرّ تلك الصور التي ظهر فيها دعاء إبراهيم هذا لأهالي هذه المنطقة.

أولها أن الله لم يحرم بيت الله بل الأرض التي يقع فيها فالقتال فيها حرام كما حرم
الحملة على أحد، وقتله فمن دخلها فقد دخل حماية الله فلم يسغ لأحد أن يتعرض
له وأما خارج حدودها فكله خطر فالأرض داخل حدود بيت الله أمن كلها حتى حرم
أذى حيوان أو طير فخاطب الله القريش مشيراً إلى هذا الإحسان بهذه الكلمات "أَوْ لَمْ
يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ" (سورة العنكبوت: 67).

وآخرها إنه حرم أربعة أشهر لزيارة هذا البيت وحجّه فقد منع القتال وإهراق الدماء
فيها ونظرًا إلى حرمتها تلك فيغمد أشرّ الناس سيوفهم وتبدّل أشرّ منطقة وأخطرها
إلى منطقة آمنة لكي يأتي الناس إلى هذه الأرض لأداء الحج والعمرة ثم ليرجعوا إلى
بيوتهم آمنين.

وثالثها أن الله قد آمن هذا البيت من أخطار الأعداء الخارجيين وحماه منها فيشهد
تاريخ هذا البيت أن الأعداء الخارجيين لم يجترأوا أولاً على شنّ الغارة عليه وإن همّوها

فقد خيَّهم ورجعهم وعدَّهم عذابًا نكالًا وما عانى به جنود أبرهة من العذاب النكال قد صانه القرآن في سورة الفيل.

وكذا فتحت بركة هذا البيت أبوابًا لرعدة العيش لأهالي هذه الأرض ونريد أن نشير، فيما يلي، إلى بعض جوانب هذه البركة:

أولها أن الناس قد توجَّهوا نحوها بما أنها تقرَّرت مركزًا للحج فكلما انتشرت دعوة إبراهيم توجَّه الناس من كل فجٍّ عميق نحوها أفواجًا وهكذا فقد راجت التجارة فيهم وجعلت أمتعة كل نوع تصل إلى أسواق مكة كما جعل يصدر منها ما كان ينتج فيها، وقد كان المعاش في هذه الديار مبنياً، كما ذكرنا آنفًا، على رعي الإبل أو الصيد أو السلب والنهب ولكنه الآن قد كثر من كل نوع من الرزق والثمرة بما مهَّد سبيل التجارة وبالتالي فقد وقع تغيير جميل في معيشة الناس.

وثانيها: وبفضل تولية أمور الكعبة نالت ذرية إسماعيل من العزة والكرامة ما أعطاهم سيادة دينية وسياسية على العرب كلهم، وبالتالي فقد بدأت ترتحل قوافلهم التجارية إلى الشام واليمن وتعود منهما بدون مخافة بل يدلُّ التاريخ على أن الطرق التي كانت تمرُّ منها قوافلهم كانت تعطى القبائل التي تسكن عليها ضمانًا وكفالة لحفظهم وصيانتهم.

فقد طلب منهم القرآن محيلاً إلى أسفارهم التجارية تلك في سورة الإيلاء فقال "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝" (سورة قريش: 3-4) وذلك لأن هذا كان من بركة ذاك البيت أنهم تمتعوا من الأمن في صحراء غير ذات زرع مليئة بالمخاطر ومهدت لهم السبل لرخاء العيش.

وتتضح جوانب البحث هذه اتضاحًا تامًا إلا أن هناك أمرًا يمكن أن يخلِّ ببعض الأذهان وهو أن الدعاء الذي قام به إبراهيم لأولاده كان يختص بالثمرات فقط، ودعاء أحد لرزق أولاده وهم في الصحراء أمر فطري ولكن يصعب هنا أن إبراهيم خصَّ هذا الدعاء بالثمرات ويرى الذوق أن يعمَّ إبراهيم دعاءه ويترك الأمر لربه تعالى ولا يجمع برسول أن يشترط دعاءه بشيء ما فيبدو من الأدعية التي قام بها الأنبياء الآخرون وحتى إبراهيم ذاته أن الداعي قد اجتنب مثل هذا الشرط في الدعاء.

وهذا الخلل، عندي، قد وقع في أذهان الناس بما أنهم يرون أن معنى الثمرات هو الفواكه فحسب والحال أن الثمرات لا تعني الفواكه فحسب بل هي تشمل كل صنف من الأغذية فالكلمة العربية التي تختص بالثمرات هي الفواكه فكلمة الثمرات في معناها العام الذي ذكرناه هنا، وفي مثل هذه المواقع ذكر القرآن نتيجة دعاء إبراهيم فقال " أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ " (سورة القصص: 57) فالثمرات هنا ليست للفواكه فقط.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الأرض التي أسكن فيها إبراهيم إسماعيل كانت غير مسكونة ولا ذات زرع، وقد استخدم لها التوراة كلمة "صحراء" كما عبّر عنها إبراهيم بـ"غير ذات زرع" وكذا يبدو من التوراة أن إسماعيل كان يقضي حياته على الرعي والصيد ولذلك فهو كان يقضي معظم أوقاته خارج داره، وهذا من البديهي أنه لما كانت حياة المرء مبنية على الرعي والصيد فلن يمكن أن تكون تلك الحياة مطمئنة وهادئة وذات قرار، الحياة التي كانت ضرورية لأداء واجبات تولية بيت الله وإتمام تلك البعثة، الأمر الذي فوّضه إبراهيم إلى إسماعيل وعلى هذا فقد دعا له إبراهيم أن يوفق الله هدوءاً واطمئناناً حضرياً بدلاً من فوضى وقلق البداوة لكي يخدم هذا المركز الدولي للتوحيد وعبادة الله بكل اطمئنان وسكينة، الخدمة التي فوّضت إليه. قد نقل دعاء إبراهيم هذا في سورة إبراهيم أيضاً وفيها يزيد عدد بعض الكلمات، الأمر الذي يضئ الواقع الذي أشرنا إليه آنفاً فقال تعالى:

"رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾" (سورة إبراهيم: 37)

وإن تمعن النظر في كلمات هذا الدعاء فتجد أن إبراهيم قد طلب لإسماعيل وذريته شيئين فوضي في حق ذلك الطلب شيئين. أما الطلب الذي قدّمه فهو أن تميل قلوب الناس إليهم وارزقهم من الثمرات كما وصّى لهما أن هذه الأرض غير ذات زرع ولكني أسكنت ذريتي هنا لمجرد أن يخدموا بيتك المحرّم ويقيموا الصلوة للدعوة إلى عبادتك فتفكر أنه لما يوجّه رزق الثمرات بأنها أرض غير ذات زرع فلا يكون غرضه من

الثمار مجرّد الفواكه بل غرضه هو أن يتمتعوا من اطمئنان الحضارة وهدوئها بدلاً من فوضى وقلق البداوة لكي يخدموا البيت المحرم والدين الحق أكثر فأكثر فما قيل في نهاية الآية بـ"لعلهم يشكرون" فهو أيضاً لا يخلو من فائدة عظيمة أي إذا طلبت لهم حياة مليئة بالهدوء والاطمئنان (Settled Life) فلا أريد بها توفير أسباب الرفاهية لهم بل لكي يلتفتوا إلى بعثتهم ويشكروك أكثر فأكثر.

من آمن منهم بالله واليوم الآخر--- إلخ: والدعاء الذي قدّمه للرزق اشترط فيه أن يستحقه من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا شك أن إبراهيم قد ذكر هذا الحذر على أنه قد استلم الردّ حين السؤال عن الإمامة والسيادة أن لا يستحق هذا المنصب من هو مشرك وكافر فنظرًا لهذا قيّد إبراهيم دعاءه بأنه يطلب هذا للمؤمنين فحسب. ومن هنا نقدّر درجة الإسلام والرضا التي تولّاها إبراهيم فإن فطن لشيء فيه رضا الله توجه نحوه ولو أن ما فطن له كان هدفه شيئاً آخر.

وهنا أوضح الله تعالى أن لا نقيس شؤون الإمامة والخلافة على شؤون معيشة الدنيا ولا بالعكس ولكن هذا لا يعني أن كفران نعمتهم هذا يسبّب حرمانهم من النعم فيرزق الله كل من ولد في هذه الدنيا لأجل مسعى إلا من يكفر نعمه فهو خالد في النار، والسنة التي اختارها الله تعالى في هذا الشأن قد كثر ذكرها في القرآن فنكتفي هنا بالإشارة.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٦﴾
القواعد جمع قاعدة وهي تعني البنيان والأساس وفي الآية السالفة أمر ببناء هذا البيت والآن يتمّ تذكير الدعاء الذي قدّمه إبراهيم وإسماعيل أمام ربهما الجليل خلال بناء هذا البيت والأمانى والأمال التي عقداها معه والفيض العظيم الذي دعوا الله لتدفّقه في المستقبل. ولم نجد هذا الجزء من سيرة إبراهيم إلا عن طريق القرآن ولذلك فقد قام اليهود، كما ذكرناه، إما بحذف هذا الجزء أم بالتحريف فيه حسب هواهم ولكن هذا جزء لازم من سيرته، تبدو سيرته غير تامة بدونه فأنعم الله القرآن علينا بأن سدّ هذا النقص.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ: هذه الفقرة يمكن أن تعني أن البيت الذي نبنيه لعبادتك تقبله منا وتقبل خدمتنا هذه كما يمكن أن تعني أننا نقدّم إليك بعض الطلبات

أثناء بناء بيتك المحرّم تقبّل هذه الطلبات منا، إني أرجح المعنى الآخر لأن هذه الفقرة تصوير، أولاً، مدخلاً للدعاء كله الذي يلحقها وثانياً أنه كما يتعلق ببناء الكعبة فكان يعمله إبراهيم وإسماعيل امتثالاً بأمر الله تعالى، الذي قد مضى آنفاً فقبول هذه الخدمة كان معلوماً من قبل، وكذا أحيل إلى صفتين اثنتين لله تعالى في "إنك أنت السميع العليم"، الصفتين اللتين يتكل عليهما العبد ويدعو الله سبحانه وتعالى وما يطويه من الحصر إظهار للإسلام الكامل والاتكال التام من قبل من يبسط يديه للدعاء.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

وتكرار "رَبَّنَا" من خلال الدعاء وإحالة الصفات الإلهية الموافقة لمحتوى الدعاء جزء من آداب الدعاء وبه ينال الدعاء القبول من الرب، والدعاء المذكور هنا مثال جيد لاستخدام هذين الأدبين الحكيم.

أول ما دعاه الوالد والولد كلاهما هو جعلهما مسلمين و"المسلم" يعني مطيعاً كاملاً لله تعالى فتبدو منه حقائق عديدة منها أن يجعل المرء نفسه أولاً من خلال أدعية الإيمان والإسلام وطلب الخشية والتقوى فإنها مما لا يستغني عنه أحد منا ولو علت درجته ومنزلته، وأن لا حدّ نهائياً لدرجات الإسلام فكان يدعو الكاملين في الإسلام أمثال إبراهيم وإسماعيل لجعلهما مسلمين، وأن إبراهيم وإسماعيل لم يدعوا لجعلهما يهوديين ولا نصرانيين بل دعوا لجعلهما مسلمين حين بدء بناء مركز بعثتهما وهذا ما يدل عليه نظم الكلام ويتعلق بهذا الموقع خاصة.

وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ: وبعد جعلهما مسلمين دعوا بعثة أمة مسلمة من بين ذريتهما وبما أنه لم يحضر هذا الدعاء من بين ذرية إبراهيم سوى إسماعيل فهذا يعني صريحاً أن هذا الدعاء كان مختصاً بذريته فقد بعث من بين ذريته محمد، ﷺ، وبفضل دعوته برزت أمة مسلمة قدّم لها هذا الدعاء. ولو أن هذه الأشياء قد محيت من التوراة ولكن هذه النبوة توجد بالنسبة للولد الذبيح أن "ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض".

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا: "أرنا" فعل الأمر من الإراءة أي دلّنا. والله يهدي عباده إلى دينه وشريعته بنوع من الوحي الذي نسميه "القرآن الكريم" كما يرسل ملكاً من

ملائكته في رؤيا المرء أو الكشف فيريه ما هو المراد، وهذا النوع من الوحي يسميه القرآن بـ"إراءة" فالأنبياء الذين بعثوا قبل النبي ﷺ قد أوحى الله إليهم، في معظم الأحيان، عن طريق الإراءة أي إما كان الله يريهم في الرؤيا ما هو المراد أو يظهر لهم ملك فيدلهم على ما هو المطلوب ولذلك أمثلة كثيرة في التوراة وإلى هذه الإراءة قد أشار إبراهيم وإسماعيل في دعائهما.

مناسك جمع منسك وهو من النسك الذي يعني أصلاً غسل الشيء وتطهيره فيقال نسك الثوب ينسكه نسكاً: غسله وطهره ومنه النسك الذي يعني الأضحية فالأضاحي تطهر العباد عن دنس الإثم وتقربهم منه تعالى ومنه المنسك الذي يعني طريقة الذبح والمذبح كليهما وجمعه مناسك وهي تحوي كافة أساليب وتقاليد الحج فقال تعالى "فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ" (سورة البقرة: 200).

وتب علينا: التوبة تعني الرجوع إلى شيء والالتفات إليه وعندما تأتي لها صلة "إلى" فهي تدل، كما بيّناها حين توضيح الآية 37، على معنى الرحمة وقد أشار إلى هذا المدلول بالفقرة "إنك أنت التواب الرحيم" فلما يرجع العبد إلى ربه خاشعاً فيقبل إليه الرب الرحيم برحمته الواسعة.

رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾

"وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ" أي من ذريتنا وبما أنه لم يرافق إبراهيم سوى إسماعيل بهذه المناسبة وهو الذي كان يتم إسكانه بواد غير ذي زرع فيتعلق هذا الدعاء مع ذريته ولا غير وهو لا يمت بصلة إلى ذرية إسحاق عليه السلام وكذا يبدو من كلمات التوراة أن النبي الخاتم كان سيبعث في بني إسماعيل فقد جاء في نبوءة موسى المذكورة في الباب الثامن عشر للتثنية "أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه". فهذه الكلمات تصرح عن أن المراد منهم بنو إسماعيل وإن كان المراد منهم بنو إسماعيل لقال "منهم" بدلاً من "من بين إخوتهم"

وكذا يكون "من بينك" بدلاً من "من بين إخوانك" فيبدو من هذا أن المبعوث الذي بشر به كان رسولاً، ونفس الكلمة جاءت في دعاء القرآن المذكور أعلاه وسنوضح الفرق بين النبي والرسول في موقع يناسبنا.

والرسول الذي دعي لبعثته ذكرت له ثلاثة أهداف أولها تلاوة الآيات، وثانيها تعليم الكتاب والحكمة، وثالثها التزكية.

الآية هي التي يستدل بها على شيء ومن هنا كل ما في السماوات والأرض آية وذلك لأن كل شيء فيهما دليل على قدرة الله وحكمته، ومختلف صفاته للخلق والتنظيم، وكذا من الآيات تلك المعجزات التي برزت على أيدي الأنبياء لأنها أيضاً تدل على صدق مقدمها، وكذا استخدمت هذه الكلمة لكل جملة قرآنية على حدة وذلك لأن كل آية منها دليل وبرهان نعلم به صفات الله وأحكامه وما يرضيه تعالى.

وكلمات "يتلو عليهم" تبدي هذا التوكيد والخيار اللذين يتسلح بهما رسول من الله فيبعث على الأرض ولنعلم أن الرسول لا يكون قارئاً له صوت حلو يتلو آيات كتاب الله بل هو سفير لله لدى الناس فيخبرهم بأحكام ودلائل خالق ومالك السماء والأرض وكذا كلمة الآية للوحي الرباني تكشف عن الواقع بأن دين الله لا يبنى على التحكم والجبر بل هو ينحصر كله في الدلائل والبراهين وكل فقرة منه تطوي دليلاً عليها.

والآن لنتفكر على كلمات "تعليم الكتاب والحكمة"، وهذا بديهي أن التعليم شيء يختلف عن التلاوة تماماً فتلاوة الآيات هي أن الرسول قد أخبر الناس بأن الله قد أوحى إليه وأما فهو أن يوضح مشاكل رجال كل مستوى برحمة وشفقة، ويشرح مجملاتها، ويكشف عما يختفي فيها ويشرح ما أضمر فيه، وإن ثارت أسئلة في أذهان الناس بعد هذا الشرح فيرد عليهم وفوق ذلك أن يطرح الأسئلة لتربية أذهانهم ويحاول أن يسأل عنهم الردود عليها لكي ينشأ فيهم القابلية للتدبر والتفكير في كتاب الله وفي القضايا الراهنة. هذه الأشياء كلها من لوازم التعليم وكل من درس سيرة النبي الأمي لا يخفى عليه أنه قد استخدم هذه الطرق كلها لتربية صحابته رضي الله عنهم.

وقد ذكر مع التعليم أمرين آخرين وهما الكتاب والحكمة.

فالبديهي أن المراد من الكتاب هو القرآن الكريم وقد قمنا بتحقيق هذه الكلمة حين تفسير الآية الثانية لهذه السورة وأما كلمة "الحكمة" فننقل فيما يلي ما قام به الإمام الفراهي من تحقيقه:

"--- وأما الحكمة فهي اسم للقوة التي منها ينشأ القضاء بالحق. قال تعالى في نعت داود: "آتيناها الحكمة وفصل الخطاب" فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة فكذلك طهارة الخلق وحسن الأدب من آثارها ولذلك كانت العرب تطلق اسم الحكمة على قوة جامعة لرزانة العقل والرأي وشرافة الخلق الناشئة منها فسمّوا الرجل العاقل المهذب حكيماً وكذلك يطلقون اسم الحكمة على فصل الخطاب وهو القول الحق الواضح عند العقل و القلب --"¹ وذكر الحكمة هنا بالكتاب دليل على أن تعليم الحكمة شيء زائد على تعليم الكتاب ولو أنها مأخوذة من القرآن بإسره ولذا فمن يريد بها الحديث فنقيم لهم وزناً، ولنلاحظ هنا أنه بما أن الحكمة قول حكيم كما هي القابلية للفظ القول الحكيم فكما أن تعليم الحكمة يحوي إخبار الناس بأقوال حكيمة فكذلك هو يحوي إنشاء الصفة والقابلية للحكمة في الناس.

والهدف الثالث المذكور لبعثة الرسول هو التزكية وهي تشتمل على معنيين أحدهما التطهير وآخرهما التنمية وعندنا يتلازم الأمران فالشيء الذي يخلو مما يعارضه ويعرقل سبيله فهو لينمون طبق جداراته الفطرية. فما يقوم به الأنبياء من تزكية النفوس البشرية يشملها هذا الأمران فهم كما يطهرون قلوب الناس وأعمالهم وخلقهم من المفسدات فينمون أعمالهم وأخلاقهم ثم ينشأون فيهم الصمود الثابت وقوة إثبات الاستقامة ضد المساوئ والعراقل في سبيل الحق وعلى هذا فتزكية النفوس، مقابل تعليم الكتاب، تتطلب الدقة والجهد، الصبر والممارسة فقد ذكرها القرآن كهدف وغرض للدين كله والشرعية كلها. وسنقوم بتوضيح هذا الأمر في موقع يناسبنا. وفي نهاية الآية أحيل إلى صفتي الله؛ العزيز والحكيم فالعزيز يعني المنيع والمسيطر أي الذي يحكم على هذا الكون بكل قوة وخيار وأما الحكيم فهو يعني الذي يتصف كل

¹ مفردات القرآن، ص 34-35

عمل له بالحكمة والمصلحة والهدف وقد أحيل إلى صفتي الله تينك جنبًا بجنب وهذا يشير إلى أن الله يحكم على هذا الكون بكل قوة وخيار ولكنه لا يسيئ استخدام قوته وخياره بل كل ما يفصل هو يعتني فيه بالحكمة والمصلحة فلا يخلو أي عمل منه عن الحكمة والمصلحة.

والهدف وراء إحالة هاتين الصفتين هو أن الله الذي هو عزيز وحكيم فعزته وحكمته تلزمان أن يرسل في مملكته التي خلقها هو رسولاً منه يخبر شعبه بأحكامه ويعلم شريعته وحكمته.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾

عندما تأتي "رغب" بصلة "عن" فهي تعني التنفر عن شيء والاستعراض عنه. و"سفه" تأتي لازمة في معظم الأحيان ولكنها في بعض الأحيان تأتي متعديّة مثل "سفه نفسه" أي أفسد نصيبه و"سفه رأيه" أي اختار رأياً ملؤه الحمق وكذا "سفه نفسه" يعني أنه سبب نفسه في السقوط في الحماقة.

هذا الأسلوب يجمع بين الاستعجاب والتأسف والإشارة فيه إلى اليهود فالمنعني أنهم يدعون بكونهم أتباعاً لملة إبراهيم بل يزعمون أنفسهم هم المتعبدون لها، هذا في جانب وفي جانب آخر أنهم يتنفرون عن دعوة الرسول الذي بعث داعياً لملة إبراهيم ويعتبرون من يجيب على هذه الدعوة حمقاء وسفهاء وهل حماقة وسفاهة أشد وأشنع مما هم يفعلون؟

ولقد اصطفيناه في الدنيا؛ هذه إشارة إلى ذلك الاصطفاء الذي وقّعها الله له لسيادة وإمامة أقوام العالم والتي قد جاء ذكرها في الآية السابقة (124)، ومعناها أن الذي اختاره الله لإمامة الناس كلهم لا يرضى عن اتباع ملته إلا من هو سفيه أبله. واستخدمت كلمة "الصالحين" في القرآن لعامة الصالحاء كما استخدمت للطائفة التي يضم إليها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وقد استخدمت هذه الكلمة هنا للمعنى الأخير.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾

الإسلام يعني تفويض المرء ذاته إلى مرضاة الله وأحكامه وهنا أشير به، عندنا، إلى ذبح الولد، ولو أن كافة الاختبارات التي نجح فيها كانت لامتحان إسلامه كأن كل اختبار قد واجهه طلب منه "أَسْلِمَ" ولكن الأمر بذبح إسماعيل الذي اصطفي فيه للإمامة بعدما نجح فيه كان يطلب منه نموذجًا للتفويض التام لا يمكن أن يعبر عنه بكلمة سوى "أَسْلِمَ" وقد استخدمت هذه الكلمة للإشارة إلى واقعة الذبح في المواضع الأخرى للقرآن فمثلاً قال تعالى "فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣١﴾" (سورة الصافات: 103).

وبالإشارة إلى هذا الحدث بكلمة الإسلام قد كشف القرآن عن حقائق عديدة أولها أنما وققه الله إبراهيم من الاصطفاء في الدنيا والآخرة هو جزاء لتضحياته، كما أشير إليها في الآية 124، التي قدّمها في سبيل إرضاء الرب جلّ سبحانه فلم يتمتع من هذه العظمة مجاناً كما يودّ اليهود أن ينالوها. وثانيها أن إبراهيم أمر بأن يسلم وبالتالي فهو أظهر بقوله وعمله ما أمر به لا اليهودية والنصرانية كما يزعمها اليهود والنصارى. وثالثها أن روح الإسلام الأصلية هي تفويض المرء ذاته للرب تعالى حتى لا يكون أعزّ شيء وأحبّه، أعزّ من الله وأحبّ منه لدى العبد.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

التوصية تعني التعليم والتلقين سواء يقوم بها المرء حين موته أو في أي مرحلة من مراحل حياته.

والضمير في "بها" ترجع إلى ملة الإسلام التي جاء ذكرها في الآية السابقة بـ"ملة إبراهيم". ولو أن وصية إبراهيم هذه لا توجد في أي موضع من صحف اليهود ولكن من البديهي أن الأنبياء والرسل قد سنّوا طريق النصح والتوصية في أمر الدين. أما أولادهم وذرياتهم وقد نقلت مثل هذه الوصايا والنصائح من أكابر عشائر وأسر بني إسرائيل وإسماعيل حتى نجد في التلمود وصية ليعقوب تشبه بما ذكره القرآن من الوصية ولقد تقام مثل هذه التقاليد على أيدي أكابر العشائر والأسر فهذا من المتيقن أن إبراهيم قد خلف هذه السنة للمتأخرين وأما القول بأنه قد أوصى ذريته بملة الإسلام فهذا واضح إلى حد لا يحتاج إلى دليل آخر فيتضح مما ذكر

من قصة حياته أن الملة التي عرفها، ودعا إليها، وأظهرها عن تضحياته العظمى فكيف له أن يعرض عن تلك الملة فيوصي أولاده باليهودية والنصرانية اللتين لم يعرفهما من قبل.

وقد جاء ذكر يعقوب مع إبراهيم هنا لأن بني إسرائيل كانوا من ذريته مباشرة والمعنى أنه قد جاءت الوصية بملة الإسلام أبًا عن جد حتى ثلاث سلاسل من إبراهيم فلم يتنقل شيء عن اليهودية ولا النصرانية فمن يدعي بملة إبراهيم فليتبّع الإسلام لا اليهودية والنصرانية.

المراد بالدين هو الدين الحقيقي الذي استمر منذ البداية دين الله وهو الإسلام فقال في موضع آخر "إن الدين عند الله الإسلام" (سورة آل عمران: 19) وقال في موضع آخر "أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون" (سورة آل عمران: 83) وهذا هو دين الله وهو الذي أرسله الله تعالى عن طريق أنبيائه ورسله كل مرة وقد أوصى إبراهيم ويعقوب أولادهما بأن يتبعوه ويحيوا عليه وثم يموتوا ولكن بني إسرائيل قد قاموا بالتحريف فيه وغيروا شكله وأقاموا مقامه فتنة اليهودية والنصرانية.

ويضمن قوله تعالى "فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون" أن أمانة هذا الدين أمانة كبرى وعليكم أن يؤدوها من الولادة إلى الوفاة فستأتي في سبيلها عراقيل منيعة وعليكم أن تصعدوا لها بكل ثبات واستقامة فاحذروا أن لا يضلّكم الشيطان في مرحلة من مراحل حياتكم فعليكم أن تحيوا لها وتموتوا عليها.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

وهذا الأسلوب الاستفساري قد اختير لتنبيه المخاطب وجعل الخطاب أكثر تأثيرًا ومعنى ذلك أنكم تدعون أن آبائكم كانوا يتبعون اليهودية والنصرانية فهل كنتم شهداء حين موت يعقوب ودعا أولاده للوصية وأي شيء أخذ وعده معهم وعد التوحيد والإسلام أم اليهودية والنصرانية؟ وبعد هذا السؤال نقل القرآن سؤال يعقوب الموجّه إلى أولاده وردّهم عليه الذي يصرح عن التوحيد والإسلام، والرواية

التي توجد في أدب اليهود الديني عن هذه الوصية كلماتها تؤيد ما يدعي القرآن لا ما يتقوله بنو إسرائيل ولو أنها مختلفة عن القرآن اختلافاً ما، فهذه الكلمات لا تمت إلى اليهودية أو إلى النصرانية بصلة¹.

ولنلاحظ هنا أن القرآن قد خصّ من بين الوصايا حين الموت وصية يعقوب التي تهدف إلى الإشارة إلى أمور عديدة أولها أن يعقوب عليه السلام قد أخذ هذا الميثاق من أولاده حين بلغ أجله المسّى فلا مجال للخيال بأنه قد وقع أي تغيير في مذهبه، وثانها أن الميثاق الذي يأخذه أب كريم رحيم وهو رسول من الله، يأخذه من أولاده حين يرى الموت قائماً أمامه ويكون أهم حدث بينه وبين أولاده، وهذا أكبر وأهم واجب للأولاد البارة أن يوفوا بذلك العهد في أصعب وضع وأسهله فلا يخالف هذا الميثاق إلا الخلف منهم، وثالثها أن آخر واجب لوالد يخاف الله ويحبّ أولاده أن يفكر في آخرتهم في حياته وحين موته ويلقّتهم على الاستقامة على الدين الحق، والحياة والممة على ذلك الدين. وباستخدام "ما" في سؤاله "ما تعبدون من بعدي" قد وسّع يعقوب عليه السلام لكي يظهر ما يختفي في ذهن المجيب من تذبذب بشأن الإله ولكن يبدو من ردّ أولاده عليه أن أذهانهم كانت خالية عن أي نوع من التذبذب بشأن الإله فقد أقرّوا بتوحيد الإله بكلمات صريحة واعتبره حريّاً بالعبادة والطاعة.

وكذا يجدر بالذكر في هذه الآية أن الشعور بالفخر والثقة الموجود في اعتراف أولاد يعقوب بأن إبراهيم وإسحاق من آبائهم يوجد نفس الشعور بالفخر والثقة في إشارتهم إلى إسماعيل عليه السلام، الأمر الذي يثبت أن أولاد يعقوب لم تأت فيهم

¹ وقد نقل كبيرنا الشيخ عبد الماجد الدرايادي مثالين عن أدب اليهود الديني أولهما من وصية إسحاق والآخر من وصية يعقوب وهما كما يلي:

"فلما أحس إسحاق أن أجله قد آن فدعا ولديه إليه وقال إني أنشدكما بالله الذي هو الأعلى والعظيم والقيوم والعزیز والذي هو خالق السماوات والأرض وما بينهما أن لا تخافا إلا إياه ولا تعبدوا إلا إياه". (قصص اليهود لكتر برغ، 416/1)

"قال يعقوب لأولاده إني أخاف من أحكم أن يميل إلى الوثنية فردّ عليه الاثنا عشر ولدًا له: استمع يا إسرائيل، يا أبي! إن إلهنا هو الإله الأزلي فكما تؤمن بإله واحد فكذلك تؤمن بإله واحد ولا غير". (قصص اليهود لكتر برغ، 141/2)

العصبية ضد إسماعيل وذريته حتى عصر يعقوب نفسه، إنما هذه من نتائج عصر ما بعد موت يعقوب عليه السلام.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾
جاءت هذه الآية مرتين في هذه السلسلة الكلامية فأولاً جاءت هنا ثم في نهاية هذا الجزء حيث تنتهي هذه السلسلة، والسبب وراء ذلك أن هذه هي خلاصة البحث التي يريد القرآن أن يقدمها أمام المخاطبين فيريد بها القول إن فخركم وثقتكم كليهما قد بقيا بأبائكم فتزعمون أنهم قد أدوا فرائضكم فلم يبق لكم سوى التمتع مما سلفوه من الخيرات فلم يبق أي واجب على أكتافكم فهذا الفخر وتلك الثقة بينان على الزعم والظن فقد أدوا ما كان واجباً عليهم ثم رجعوا إلى ربهم فهم يتمتعون من حسناتهم فلا خلاق لكم منها فعليكم واجباتكم فإن تؤدونها حقاً فستمتعون من ثوابها وإلا فستواجهون عاقبتها السيئة فلا تسئلون عند الله عن أعمال آبائكم بل عليكم أن تجيبوا عما قدّمتموه من الأعمال.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾
وقد بيّنا خلال تفسير الآية (111) أن اليهود والنصارى قد اتحدوا ضد الإسلام وجعلوا يقولون إن من يرد الهدى والنجاة فليكن يهودياً أو نصرانياً فهذا دينان سماويان فالدين الجديد الذي يقدم باسم الإسلام ليس بشيء.

فردّ على هذا الاعتراض بأنه "ملة إبراهيم حنيفاً" فجاءت كلمة "ملة" هنا منصوبة فلا بد من أن نقدر فعلاً ما فالمفسرون عامة يقدرون الفعل الماضي أي قل إني اتبعت ملة إبراهيم ولكني قدّرت هنا صيغة الأمر أي قل: اتبعوا ملة إبراهيم وله وجوه منها أن الرد هنا جاء على لسان النبي "قل" فالمناسب أن يكون الفعل الأمر على لسان النبي وثانها أن مثل هذا البيان قد جاء على لسان المسلمين "قولوا آمناً" فالأنسب أن نقدر هنا الأمر وثالثها أنه كلما يأتي بالعربية مثل الأسلوب فالمراد منه عامة حتّ المخاطب على شيء أو تحذيره عن شيء، الأمر الذي يناسب صيغة الفعل الأمر.

"حنيف" من الحنف الذي يعني الميل إلى شيء والركون إليه فالحنيف هو الذي يرغب عن كل شيء في الله، وهنا جاءت هذه الكلمة حالاً من إبراهيم الذي هو مجرور وقد

تردد النحويون في وقوع الحال عن المجرور ولكن الإمام الفراهي قد أثبت بدلائل قوية أن هذا الأسلوب عام في كلام العرب.

وقد أكثر القرآن صفة "حنيف" لإبراهيم عليه السلام والسبب وراء ذلك أن كلاً من اليهود والنصارى والمشركين كانوا يعتبرونه إماماً روحانياً وكانوا يدعون أن الدين الذي يتبعونه مما ورثوه عن إبراهيم عليه السلام وقد قام القرآن بالرد على دعواهم هذه بدلائل عديدة ثم قال إن إبراهيم كان حنيفاً فلم يضل عن الصراط المستقيم، ملة الإسلام، الذي أقامه الله له فلم يركن إلى ممرات اليهود والنصارى ولا خاض في ضلالات المشركين بل ثبت دائماً على شارع الإسلام الذي فتحه الله له والذي هو الصراط المستقيم الهادي إلى الرب تعالى.

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

وهذا رد من قبل المسلمين على دعوة اليهود والنصارى بأنكم تهدون إذا كنتم يهوداً أو نصارى، بأن تقولوا بأننا نؤمن بالله وهده التي نزلت علينا والتي نزلت على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط منهم عن طريق الأنبياء كما نؤمن بالهدى التي أنزلت على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء من قبل ربهم فلا نفرق بين هؤلاء الأنبياء ولا نطيع إلا إياه.

هذا موقف الأمة المسلمة أو الأمة الوسط أو كلمتها عن شريعة الله وأنبيائه ورسله وهذا يعني أن هذه الأمة لا ترد على هدى أنزلها الله ولا تكذب بنبي أو رسول بل تؤمن بكل منهم بدون أي تفريق وموقفها أن التعاليم التي أعطاهم الأنبياء والرسول لأممهم إما خلطت أممهم بها ما ليس منها أو نسوا حظاً منها فالشريعة التي أعطيت لهذه الأمة تقدم هدى الله الحق في صورتها النهائية والتامة.

الأسباط جمع السبط ومعناها اللغوي هو النمو والانتشار وعلى هذا المعنى قد استخدمت هذه الكلمة لأولاد أب وفروعهم المختلفة وأما استخدامها لأولاد يعقوب فهو مشهور إلى حد أنها وضعت لهم.

"لا نفرّق بين أحد منهم" تعني أننا لا نتبع اليهود والنصارى بالتفريق بين هؤلاء فنؤمن بالعض ونكفر بالبعض وقد أوضح هذا المعنى القرآن في مكان آخر فقال "وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا" (سورة النساء: 150) فبدا من هذا أن الإيمان ببعض الأنبياء والإنكار ببعضهم عبارة عن الإنكار بكلمهم وليس هذا مجرد التفريق بين الأنبياء والأنبياء بل بين الله ورسوله.

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

أي وإن يقبلوا هذه الكلمة الجامعة ويؤمنوا بكافة الأنبياء والهدايات مثلما آمنتم فلا شك أنهم يهتدون فليست اليهودية ولا النصرانية مما يهديك إلى الطريق المستقيم كما يدعي اليهود والنصارى بل الطريق هو الذي اخترته أنت أي الإيمان بكافة الأنبياء والرسول بدون أي تفريق وعصبية فإن ينكرون هذا الأمر فهذا يعني بالصراحة أنهم لا يريدون إلا معارضتك فتركوا طريق الاتحاد والاجتماع وجعلوا طريقاً لهم ضد طريق الله تعالى وخلقوا حزباً لا يمت إلى حزب الله بصلة، وإن هم عزموا على ذلك فدعهم يسلكوا هذه الطريقة والله يكفي منتقماً منهم. وفي النهاية أشار إلى صفته السميع والعليم، وأراد بذلك تسليّة النبي أنما يقومون من مؤامرة ضدك لا تخف منها فالله يكفيك مقاتلاً ضدهم فهو يسمع كل شيء وعلم به.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٨﴾

خوِطَبَ في هذه الآية اليهود والنصارى ووجهت الدعوة إليهم أنهم إذا أرادوا الاصطبغ بصبغة الله فليتركوا اليهودية والنصرانية وليصطبغوا بصبغة الله. هذه هي الكلمة الجامعة التي مضى ذكرها سابقاً. وبجانب جمع كافة هدايات الله وكافة أنبيائه ورسله فيها إن هذه الكلمة هي التي تصبغ الحياة الصبغة الإلهية الحقّة فإن تريدوا اصطبغ حياتهم بصبغة الله فاصطبغوا بها فهل صبغة أعلى وأسوى من صبغته، وفي كلمة

"الصبغة" هذه تعريض إلى تقليد التعميد لدى اليهود والنصارى، وكذا نصب الصبغة بدون فعل مذكور هنا يدل على أن يكون هنا فعل محذوف يضمن الحث والتحريض. قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٦﴾ أي إذا لم تؤمنوا بهذه الكلمة الجامعة التي تشمل الإيمان بكافة الأنبياء والرسل، والهدايات التي أنزلها الله والإقرار بعبادة الله وطاعته فهم قد أصرّوا على أن يؤمنوا ببعض الأنبياء ويكفروا بالبعض، ويؤمنوا ببعض هدايات الله ويكفروا بالبعض والحال أن هذه الأنبياء والرسل كلهم ممن بعثهم الله وكل هذه الهدايات مما أنزله الله تعالى، وهكذا فهم يحاجّونك في أمر الله كأن إلهك من هو ليس بإلههم والحال أن إلهك وإلههم واحد وربك وربهم واحد ولا غير. وإن قد بلغوا في أمر هذا المبلغ بحيث جعلوا لهم إلهًا آخر فلا ترج منهم خيرًا بل اقطع هذا الحديث والنقاش وقل لهم بصراحة أن أعمالنا معنا ولكم ما عملتم أي لا مفاد لإجراء النقاش معكم فإن لم تخلصوا في أمر الله فلا نريد أي نقاش معكم ونقول بصراحة أننا نخلص في أمر ربنا.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ عَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ هذا طلب إعادة ما ادّعت هؤلاء اليهود والنصارى في أمر إبراهيم وذريته طلبها منهم لمجرد إتمام الحجة أي هل أنتم تقولون هذا الأمر العجيب بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهودًا أو نصارى ثم سألهم بأسلوب ملؤه التنبيه بأنه هل تعرف حال دينهم وعقيدتهم أم الله؟ ثم قال بأسلوب ملؤه الحسرة والأسف هل أحد أظلم ممن يكتُم شهادة من الله أي التوراة التي تحوي تفاصيل دينهم وعقيدتهم وبها يعلم أن اليهودية أو النصرانية ليس لها حديث يذكر في زمانهم فقد اختلقت هذا الاسم بعدهم بقرون وقد أنزل الله دائمًا على أنبياءهم ورسلمهم الدين الذي يسعى بـ"الإسلام" ثم قال بأسلوب يملؤه التهديد الشديد إن ما تقومون به من أنواع الشر ضد دين الله ليس الله بجاهل عنه فستلقون عاقبته.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾

قد مضت آية تشبهها وبنفس السياق وقد قمنا بتوضيحها هناك فاقراً تفسير الآية (134)

49- مسؤوليات محمد ﷺ رسولاً

ولو قد قمنا بقدر ما احتيج إليه من توضيح الآية (129) لهذه المجموعة من الآيات ولكنها بما أنها تتعلق بمسؤوليات النبي مباشرة، الأمر الذي قد أثار منكرها السنة في عصرنا أسئلة عديدة تافهة فنود أن نسلط مزيد الأضواء عليها.

فيدعي المنكرون للسنة أن النبي كان مسؤولاً كني عن أن يبلغ ما ينزل عليه الله من الوحي وبهذا تنتهي مسؤوليته كرسول فلا تقع عليه بعد ذلك أي مسؤولية من الله ولا يحتل قول منه أو فعل بدون الوحي مكانة شرعية وعندنا هذه الآية تكفي دليلاً على منكري السنة هؤلاء فما فصل فيها من واجبات النبي كرسول لا ينتهي على قراءة القرآن على الناس فحسب بل هي كذلك تشمل أشياء أخرى غير هذا وكذا يبدو من هذه الآية أن هذه الأشياء أيضاً قد ذكرت هنا كواجب من واجباته المختلفة كرسول. اقرأ الآية يقول الله تعالى:

"رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (سورة البقرة: 129)

هذه كلمات الدعاء الذي قام به إبراهيم وإسماعيل لبعثة النبي الخاتم فلما بعث النبي طبقاً لهذا الدعاء فقال الله تعالى للعرب مشيراً إلى منته هذه الكبرى:

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (سورة الجمعة: 2)

تفكروا في هاتين الآيتين فيتضح لكم أن النبي المتصف بهذه الصفات الذي ذكره إبراهيم في دعائه قد بعث النبي محمد متصفاً بتلك الصفات ذاتها وقام فيما بين الأميين من الأعمال التي دعا لها إبراهيم عليه السلام.

وأما فيما يتعلق بواجبات النبي في كلا الموضعين فلا خلاف في بيانها وإن كان شيء من الخلاف ففي الآية السابقة تأخر ذكر التزكية عن غيرها من الأمور وأما في الآية الثانية فهي جاءت قبل تعليم الكتاب والحكمة ولكن بعد تلاوة الآيات. هذا الفرق ليس بما

يعبأ به وقد أوضحنا تقديم التزكية وتأخيرها في موضع آخر¹ بأنها غاية الدين والشريعة كليهما وهدف أصلي لبعثة الأنبياء والشئ الذي يكون غاية أو هدفاً لشيء فهو يقدم في الإرادة ولو يتأخر في العمل فيمكن أن يقدم ذكره في المشروع الأصلي كما يمكن أن يكون مؤخراً وعلى هذا فقد تقدمت التزكية في موضع كما تأخرت في موضع آخر. وقد اشتركت الأشياء الأخرى في الآيتين سوى هذا الفرق في الترتيب وذكر فيهما ما يلي من واجبات النبي كرسول:

1. تلاوة الآيات

2. تعليم الكتاب والحكمة

3. التزكية

أما فيما يتعلق بالواجب الأول فيما بين هذه الواجبات الثلاثة فنعتزف بدون أي نقاش وخلاف أن المراد منه تعليم الناس القرآن الكريم، ويشهد الدين والعقل كليهما أن أول واجب لرسول هو أن يبلغ ما يوحى إليه الله إلى العباد ولكن لا ننس أن هذا لم يكن بأن يقرأ الكتاب كله على الناس مرة واحدة بل أنزل نجماً نجماً في مدة 23 سنة وعلى هذا التدريج علّمه النبي الناس، وهذا دليل على أن هذا ليس بكتاب سهل غير صعب بل هو كتاب يحوي بين جنبه ما دق ولطف من العلوم والمعارف والحقائق والأسرار فوجب له أن يتم تعليمه للناس قليلاً قليلاً حتى يتمكن المرء من خزائنه. أشار إلى هذا الواقع القرآن هكذا "وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ" (الإسراء: 106)

إن خصوصية القرآن المذكورة أعلاه تتطلب أن لا ينتهي النبي على قراءة القرآن مثل القراء فقط بل يعلمه الناس مثل أستاذ بكل اجتهاد وعطف وعلى هذا فقد عدّ تعليم الكتاب واجبه الآخر بعد تلاوة الآيات فمسؤوليته عن تعليم الكتاب جزء من واجبات نبوته كما أن كونه معلماً جانب من جوانب واجبات رسالته فما علّمه الناس من الأمور وأخبرهم بها، لا انفصله عن واجبات رسالته ولا نقل من شأنه. فالآن تفكّر ما هي متطلبات هذا الواجب التعليمي؟

¹ لفهم هذه النكتة يراجع الفصل الأول لكتابي "تزكية نفس".

وأول متطلب جوهري هو أنما استخدمه القرآن من المصطلحات الشرعية مثل الصلوة والزكاة والحج والصيام والطواف والعمرة والنكاح والطلاق وغيرها لم يتم توضيح صورها العملية فوجب على النبي أن يوضحها للناس لكي يسلكوها في حياتهم العملية ويتعين لهم درجة أجزائها المختلفة في الدين.

والواجب الثاني أن الأصول التي ذكرها القرآن لإقامة عوج الفكر والعمل يجب على النبي أن يكشف القناع عن الجوانب اللازمة لما تلزمها تلك الأصول وما تتطلبها لكي تثبت هي منارة نور للاستضاء في هذه المجالات.

وكذا أنما ذكر في القرآن من أحكام الشريعة هي مثل أصول ومبادئ فيمكن أن يأتي تحت كل أصل ومبدأ العديد من الصور، فوض فيها تعيين الأحكام إلى هداية المعلم واجتهاده فمن البديهي أن تستهدي الأمة في سبيل اجتهادها، الأمثلة التي أقامها معلم هذا الكتاب المعصوم باجتهاده.

والواجب الرابع أن القرآن يقدم نظاماً للحياة الاجتماعية ولكنه يكتفي بمجرد أصول تعين جوانبه الأربعة ويجعل المعلم مسؤولاً عن تفاصيلها وكيانها العملي. وقد تعلمه الناس بمجرد تعليم النبي ﷺ.

وفوق ذلك أن الآية التي نحن بصدد البحث عنها لم يكتف فيها بذكر تعليم الكتاب بل تجاوز إلى تعليم الحكمة فتعليم الحكمة أوسع وأدق من تعليم الشريعة فالمراد منها، كما كتبنا خلال تحقيق هذه الكلمة، الحكمة والبصيرة والمعرفة التي تهدي الإنسان في أبعد جوانب الحياة حيث لا يجد نوراً يستضيئه.

فالآن تفكر هل هذه الأشياء كلها من واجبات التعليم أم لا؟ وهل كان النبي مسؤولاً عن تعليم هذه الأشياء كلها كمعلم رباني؟ فإن جاء الرد على هذه الأسئلة كلها على نحو إيجابي والبديهي أنه لا يكون إلا على نحو إيجابي فتفكروا هل يجوز أن نفصل كل ما قاله النبي وفعل باعتباره معلماً ربانياً عن نطاق واجباته النبوية والرسولية وثم كيف يمكن أن نقل من شأنه؟ ثم تفكروا هل الأحاديث تشمل شيئاً غير هذه، أخبر به النبي كمعلم للكتاب والحكمة أو عمل عليه؟

والآن تفكّروا عن التزكية فالبدئي أن التزكية أدقّ وأوسع من التعليم وقد أوضحنا فيما سبق أن هذه الكلمة تحتوي التطهير والتنمية كليهما فهي علمية كما هي عملية، ظاهرية كما هي باطنية، مادية كما هي جسدية، عقلية وروحية كما هي فردية واجتماعية فلنعلم بعض متطلباتها المبدئية التي هي كما يلي:

متطلبها الأول اللازم أن ينقب المزكي في أذهان الناس وأعمالهم وأخلاقهم فيطهرها من الجرائم التي تسبّب الأمراض الروحية والخلقية بجانب أن يبذر فيهما الحسنات التي تحسّن ظاهر الإنسان وباطنه وتثقف عاداته وسجاياه.

ومقتضاها الثاني أن يقوم بتربية الناس بحيث أن يرسو فيهم أصل كل حسنة وتتنقّر طبائعهم عن كل سيئة.

ومقتضاها الثالث أن يخلق بفضل هذا التعليم وتلك التربية جوّاً يثبت مخيماً تربوياً واسعاً لتزكية النفوس فمن يسكن فيه يتأثر به ومن يدخل فيه يصطبغ بصبغته.

ثبت من هذا التفصيل بطلان هذه الفكرة بأنه لم يكن واجب النبي كرسول سوى تبليغ القرآن إليهم فتبليغ القرآن كان جزءاً من واجباته النبوية فبجانب هذا إنه كان مسؤولاً عن تعليم القرآن كمعلّم وتوضيح ما كمن فيه وما تضمنه، وما أجمل فيه وما أشير إليه، وما خفي فيه من الأسرار والحقائق ودلالته على خزينة حكمه البديعة، وكذا وجب عليه أن يعيّن أصول وفروع تربية الأفراد والجماعة في ضوء الحكمة القرآنية ثم يزكيّ الناس على تلك الأصول.

هذه الخدمات كلها كانت مما شمله واجبات نبوته وعلى فما قاله في هذه الأهداف قد اعتبرته الأمة مما يجب عليه العمل كما اعتبرت القرآن لازماً للعمل عليه وصانته بنفس الأهمية واعتنت بنقله وروايته فيمكن أن يسأل أحد عن جزء منه أن نسبته إلى النبي ثابتة بالتحقيق أم لا تثبت ولكن إنكار كونه جزءاً من الدين والشريعة عبارة عن إنكار القرآن.

50- تفسير الآيات (142-162)

انتهى تفصيل أسباب وعمل عزل اليهود عن منصب الإمامة على هذه المجموعة من الآيات وكأنه الآن يتم الإعلان عن قيام أمة جديدة تقوم مقامهم وهذه هي الأمة الوسط التي تثبت على الصراط المستقيم الذي هو الشارع الإلهي العام للدين الحق

فملتها ملة إبراهيم وقبلتها قبله إبراهيم أي بيت الله الحرام ومن واجباتها ومسؤولياتها أنه كما أن الرسول شهد لها بدين الله الحق فكذلك هي تشهد لخلق الله بالدين. وحتى نزول هذه الآيات كان النبي والمسلمون يتوجهون نحو البيت المقدس في صلواتهم ولكن الآن وجب بالنسبة للملة الإبراهيمية أن يتوجهوا نحو المسجد الحرام وعلى هذا فقد صدر الأمر بتحويل القبلة ثم ذكرت تفاصيل ردّ الفعل هذا الذي ظهر لليهود ولبعض طوائف المسلمين بعد هذا الحدث وثم ذكرت حكم تحويل القبلة والإرشادات اللازمة عن القبلة، التي كانت لا مناص منها للمسلمين لإقامة المسلمين على الجادة المستقيمة بشأن القبلة والتي لأجل عدم اعتنائهم بها تنقّر اليهود والنصارى عن القبلة الأصلية.

ثم أخذ الميثاق مع المسلمين كأمة مستقلة، بأنكم قد تميزتم عن كونكم أمة مستقلة عن اليهود والنصارى فكما رسولكم رسول مختلف يتصف بكافة الصفات التي دعا لها إبراهيم عليه السلام فكذلك قبلتكم قبلة إبراهيمية فلا تخافوا اليهود شيئاً وخافوا الله وحده لكي تحظوا من نعمة دين الله الكامل ويمهّد لك السبيل إلى الشريعة الإلهية فإن تذكروا أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون.

ثم أشار إلى الأخطار المفطون لها التي يمكن أن تبرز من قبل المعارضين بعد ظهوركم كأمة مستقلة ثم أرشدهم إلى الاستعدادات والأسلحة الخلقية والإيمانية التي يجب على المسلمين الاتصاف بها لمواجهة تلك الأخطار.

وفي النهاية أوضح بالنسبة عن الكعبة المكرّمة أن الصفا والمروة من شعائر الله كما أن الكعبة المكرّمة منها فإن المروة هي المذبح الحقيقي ولكن اليهود قد حاولوا أن يخفوا هذه المعالم عن طريق التحريف لكي يقطعوا علاقة إبراهيم عليه السلام عن هذه الدار وبناءً على مساوئهم تلك فيستحق اليهود أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

وبعد هذا المدخل اقرءوا الآن ما يلي من الآيات:

"سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٤﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ

يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقَبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٦﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَلَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتِيتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤١﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِيَّ عَلَيْهِمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤٣﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٤﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٤٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٤٧﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٨﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٤٩﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٣٢﴾".

51- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ اللَّاتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٣﴾

السفهاء جمعٌ سفيه وهو يعني أحمق وأبله وهنا أشير به إلى اليهود والسبب وراء اعتبار اليهود سفهاء هو الذي أشرنا إليه خلال تفسير قوله تعالى " وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ" (سورة البقرة: 130) فكانت اليهود يدعون بأنهم أتباع ملة إبراهيم في جانب وفي جانب آخر قد شتموا عن ساق جدتهم لمعارضة النبي وتعليمه ودعوته والحال أنه (صلى الله عليه وسلم) قد جاء داعياً إلى ملة إبراهيم الحقة، ولا يقوم بهذه الحركة السيئة إلا من سفه نفسه وعلى هذا فقد استخدم لهم القرآن كلمة "السفهاء".

هذا مدخل إلى حكم تحويل القبلة الذي يأتي ذكره في الآيتين القادمتين فقد أشير في هذا المدخل إلى ردّ الفعل الذي سيظهر من قبل اليهود والمنافقين. والسبب وراء ذكر ردّ الفعل قبل الحكم الأصلي هو (1) أن الأمر بتحويل القبلة لم يكن شيئاً هيناً بل فقد كان هذا أمراً يسبب ضجة كبرى بين معارضي الإسلام ومعارضيه وعلى هذا فقد وجب أن تعدّ الأذهان لمواجهة ردّ فعله المفطون له قبل هذا الحكم، (2) وأنه قد كان اتضح لكل قارئ القرآن مما سبق ذكره من قصة إبراهيم وذريته أن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأسباطهم كان هو الإسلام فالمركز الذي بناه إبراهيم بمكة لعبادة الله كان مركزاً وقبله لذريته كلها حتى أنه لما بني البيت المقدس قد تم توجيه أضاحي بني إسرائيل إلى الكعبة المكرمة. إن هذه كلها تصرح أن اتجاه النبي ﷺ نحو البيت المقدس كان أمراً موقتاً وقد آن الأوان لأن يؤمر باتجاهه نحو الكعبة الشريفة بدلاً من البيت المقدس وعلى هذا فهذا المدخل كان إلى حدث كان ينتظر بوقوعه المسلمون بجانب اليهود والنصارى.

ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها: هذا بيان ردّ فعل أهل الكتاب على الأمر بتحويل القبلة أي إنهم كانوا حتى الآن قد رموا على المسلمين بأحجار الاعتراضات والآن وقد تحوّلت القبلة فهم سيرفعون هذه الضجة أن المسلمين الذين كانوا يؤلّون شطر البيت المقدس قبلة كافة الأنبياء والرسل والآن ماذا حدث بهم إذ حوّلوا قبلتهم وبها خالفوا ما قام به كافة الأنبياء والرسل.

قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم: هذا ردّ على اعتراض اليهود والنصارى المذكور أعلاه بأنكم لا علاقة لكم بالقبلة فإنكم قد رغبتُم عن القبلة وخضتم في المشرق والمغرب فالنصارى كانوا يعتبرون المشرق قبلتهم بينما اليهود يعتبرون المغرب قبلتهم والحال أن الله ليس بمحدود في هذه الجهات فهو يحكم في المغرب كما يحكم في المشرق كما يحكم في الشمال والجنوب فإن يختص به شيء فالبيت الذي يخصّه بنفسه ويقرّه قبلة له ولا يتصف بهذه الميزة سوى البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل وهو الذي قد تقرّر قبلة لكافة ذرية إبراهيم وعليها تم بناء البيت المقدس وقد وجدت معالم هذه الحقيقة في التوراة ولكنكم قد محوتموها لمجرد عصبيتكم ولكن على الرغم من محاولاتكم المعارضة فقد هدى الله من شاء إلى الصراط المستقيم عن طريق هذا النبي الخاتم، والآن هم قد ساروا على طريق واضحة بعيدين عن ضلالتكم¹.

وكذلك جعلناهم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً: والإشارة في "كذلك" إلى ما سبق من الحدث أي كما هديناكم إلى الصراط المستقيم مخرجيكم من قيد المشرق والمغرب والأغلال والعراقيل التي خلقها اليهود والنصارى كذلك جعلناكم أمة ثابتة على شارع الدين الوسط مبعديكم عن ضلالات اليهود والنصارى لكي يشهد عليكم الرسول بدين الله ومن ثم تشهدون به على خلق الله.

الوسط مثل الولد يستخدم مذكراً ومؤنثاً وواحدًا وجمعًا ومعناها الشئ الذي يقع على قصد الشيئين ومن هنا تدرج هو لكونه جيدًا لأن الشئ الذي يقع بين الشيئين لا بد أن

¹ ولفهم ما كتبناه هنا فهمًا جيدًا ليراجع ما كتبناه تحت تفسير الآيتين (115 و125)

يكون متصفاً بالتوسط والاعتدال وهذا دليل فطري على كونه جيداً والسبب وراء اعتبار الأمة المسلمة أمة وسطاً أن هذه الأمة على قصد شارع الدين الذي فتحه الله عن طريق أنبيائه ورسله لهداية الحق والذي هو الشارع العام للهدى منذ الأزل، وقد ضلّ اليهود والنصارى عن هذا الشارع بالتفريق بين أنبياء الله وأخرجوا ممرات بعضها لليهود والبعض الآخر للنصارى وكذا ضلّوا عن القبلة الحقيقية وسقطوا في فتنة المشرق والمغرب ولكن هذه الأمة لا تضل في وادي تلك الضلالات بل هي على شارع عام للدين فكلمتها ليست بالتفريق بل هي الكلمة الجامعة التي مضى ذكرها بكلمات تالية:

"قُولُوا عَامَّةً بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (سورة البقرة: 136)

وكذا لم تقع هذه الأمة في فتنة المشرق والمغرب بشأن القبلة بل اتبعت قبلة إبراهيم التي لم تزل قبلة الأنبياء والرسل منذ عهد إبراهيم المبارك ولذلك فقد بني البيت المقدس معتبراً إياها قبلته ولكن اليهود حاولوا أن يخفوها لعصبيتهم الدينية. وهذه هي خصوصية الأمة المسلمة الدينية التي تم اعتبارها خير أمة في غير هذا من مواضع القرآن وقد مضى آنفاً أن الشيء الذي يكون على توسط واقتصاد لا بد أن يكون خيراً وبما أن هذه الأمة أمة وسط فهي خير أمة.

يرى بعض الناس أنه بما أن دين اليهود صعب للغاية وأن دين النصارى سهل للغاية وأن الإسلام يقع بين وبين فالأمة التي تتبع هذا الدين تسمى أمة وسطاً ولكن هذه فكرة خاطئة لدينا. أما فيما يتعلق بالدين الحقيقي فدين اليهود ودين النصارى واحد لا غير فقد أوجب عيسى على أمته اتباع التوراة كما كان اتباعها واجباً على اليهود فإن علّم شيئاً يختلف عما لها فهو لم يكن تعليماً مختلفاً عنها بل هو كان مثل حكمة الدين وروحه فقد ضلّت اليهود عن حقائق الدين على حثهم للدنيا ووقعوا في التقاليد وأخذوا بالألفاظ فحسب فجاء المسيح وعرف لهم بحكمة الدين فالإنجيل ليس بشيء خارج عن التوراة بل هو يرشد إلى حقائق التوراة بأسلوب حكيم.

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً: هذا ذكر مسؤولية الأمة الوسط والحاجة إلى قيامها فقد اتضح من التفاصيل السابقة أن من أقامه الله لمنصب الهدى ترك ميثاق الله وراء ظهره وقام بالتغيير في شريعته وأضلَّ صراطه المستقيم ورغبوا عن القبلة المقررة من قبله وأخفى الشهادات التي جعل أميناً لها وفي هذه الظروف إذا احتاج العالم البشري كله إلى شيء فهي حاجته إلى أمة وسط يقيمها الله بينهم أمة تحمل دين الله عن طريق رسوله تعالى ثم تأمر الآخرين به إلى يوم القيامة. يستخرج من "لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" أن مسؤولية "الشهادة على الناس" التي كانت على الرسول كرسول ورثتها أمته بعد موته والآن هذه هي مسؤولية هذه الأمة أن تشهد دين الله في كل عصر وبكل دولة وبكل لسان فإن تتخلف في أداء هذا الواجب فهي تكون مسؤولة عن ضلالة الآخرين وهي ستزر وزر الآخرين من الضالين.

-ذهب عامة المفسرين إلى أن هذه الشهادة تتعلق بالآخرة بأن هذه الأمة تشهد ضد الضالين يوم الآخرة على أن الأنبياء قد بلغوا دين الله إليهم ولكنهم اختاروا سبيل الضلال. ولكني لا أرى دليلاً على هذا التخصيص والتحديد فلا شك أن هذه الأمة تتشرف بكونها شهداء الله يوم الآخرة ولكنها تتشرف بهذا المنصب لمجرد أن الله قد شرفهم بهذا المنصب في هذه الدنيا فالأمة التي تشهد على الدين الحق في هذه الدنيا هي التي تشهد يوم الآخرة هل تمّ تبليغ دين الله إلى الناس أم لا؟

وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه: كلمة "جعل" لها معانٍ كثيرة فمنها تحليل شيء وتشريعه فقال تعالى مثلاً "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ" (سورة المائدة: 103)

و"علم يعلم" كما تعني العلم والتعيين فكذا هي تعني التمييز والتمحيص والإظهار فقال تعالى مثلاً: "وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ مِنْكُمْ وَالدَّائِرِينَ" (سورة محمد: 31) وقال "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ" (سورة آل عمران: 142). والمعنى أنكم إذا أجزيت لكم الاتجاه نحو البيت المقدس في صلوتكم فهذا لا يعني أن هذه قبلتكم بل كانت هذه إجازة مؤقتة والهدف وراء هذا لم يكن إلا لكي نميز خيركم

من شركم حينما نقوم بتحويلها فنعلم أيكم يتبع الرسول وأيكم يتبع تقاليده القديمة ويرجع إلى دينه القديم الذي تركه.

لنعلم هنا أنه لما أمر النبي بالصلوة تولى شطره نحو البيت المقدس، وفي البداية كان النبي يعمل على طرق الأنبياء السابقين حينما لم يجد إرشادًا واضحًا من الله ومن هذا النوع ما فعله بشأن القبلة، ويبدو من الروايات أنه كان يصلي بحيث يتجه البيت المقدس والبيت الحرام كليهما ما دام في مكة ولكنه حينما هاجر إلى المدينة فلم يسعه أن يتجه نحو البيت الحرام لتبديل الجهة فضايق خاطره فجعل ينتظر بالوحي لتبديل القبلة ولكن شاء الله الحكيم أن يتجه نحو البيت المقدس لمدة أخرى فقد صلى النبي نحو البيت المقدس بعد الهجرة بـ 16 أو 17 شهرًا حتى تم تحويلها قبل غزوة بدر بشهرين.

وقد ذكر الله الحكمة في بقاء القبلة نحو البيت المقدس لطول هذه المدة ثم لتحويلها بعدها أنه هكذا امتحن المسلمين وميّز خيرهم من شرهم لكي يتميز من ضمّ إلى جماعة المسلمين من أهل الكتاب بعد الهجرة فإما يخلصوا انتسابهم إليها أم تفرّقوا عنها. وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم: أي تبديل هذه القبلة امتحان شديد لأن المرء إذا امتحن بشيء يتعلق بالدين خصوصًا فينقلب المرء جاهلاً ويرجع إلى تقليده القديم فهو لا يصبر على تبديل ما ولكن الشيء المهم في ذلك هو طاعة تامة لله ولرسوله وإخلاص الدين له ولذلك فلم يزل الله وأنبيأؤه يهدفون إلى هذه العصبية التي هي العرقلة الشديدة للإخلاص فيشهد تاريخ الأنبياء والأديان أن الأمم قد مرّت بهذا الامتحان بعد بعثة كل نبي من الأنبياء فهذا الامتحان سنة من سنن الله تعالى، وبناءً على هذه السنة قد وقعت تغييرات في تقاليد الدين ورواياته لكي يسهل التمييز بين الصحيح والغلط فمن يقع في شبكة العصبية القومية والطائفية يبدد نفسه بهذا النوع من الامتحانات فهو لا يختار هدى الله ورسوله بل يعتكف على رواياته ولكن من يطوي بين جنبه الإخلاص يوفق قبول هدى الله بفضل إخلاصه هذا ونفس الشيء حدث مع تحويل القبلة فمن انضم إلى جماعة المسلمين غير بعيد عن العصبية القديمة بعد عنها بعد هذا التحويل

وبالعكس من ذلك فمن دخل الإسلام تحت عاطفة عبادة الله وطاعة رسوله قد فتح له هذا التحويل أبوابًا واسعة لهدى الله ورحمته.

وأما القول "وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم" ردّ على سؤال مهمّ يبدو تلقائيًا وذلك لأنه حينما يعتبر القرآن تحويل القبلة امتحانًا صعبًا فلم شاء الله أن يمتحن الناس بهذا الامتحان الصعب، الأمر الذي يسفر عن ضياع إيمان العديد من الناس الذين سيفشلون في هذا الاختبار فردّ القرآن على هذا السؤال بأن الله لا يمتحن عباده هذا الامتحان الصعب لكي يضيع الناس إيمانهم بل هذا الاختبار مظهر من مظاهر رأفة الله ورحمته وبمثل هذه الامتحانات تنمو مؤهلات العباد وبها يسهل استخدام قواهم وجداراتهم التي أودعها الله فيهم، وبها يتم تمييز الصحيح من الغلط، والمخلص من المنافق، والصالح من الفاجر فإن لم يعقد مثل هذا الاختبار فلا يبقى أي فرق بين الخير والشر، والتام والناقص، والصالح والفاجر ووجب بدونه أن يصدّق كل مدّعٍ ويعتبر كل كاذب صادقًا حتى لا يبقى أي دليل وحجة لجزائهم ثوابًا أو عقابًا يوم الدين، وإن تفكّروا المزيد على هذا الأمر تجدوا أن جمال وحسن هذا الكون بإسرهما وحكمته وبركته بإسرهما تكمن في سنته تعالى للابتلاء فإن لم يكن هذا فيبقى هذا الكون كله عبثًا خاليًا عن الحكمة والمصلحة.

ولنرّع هنا نكتة لغوية وهي أن الله قد أحال هنا إلى صفتيه "رءوف" و"رحيم" فالرءوف من الرأفة التي يغلبها دفع الشر بينما الرحيم من الرحمة التي يغلبها إثبات الخير فإن تفكّر تجد أن الله قد راعى هذين الجانبين في سنته للابتلاء، اللذين تشير إليهما هذه الآية أي أن يطهر العباد من المساوئ والمناقص ويزيّنهم بالفضائل والمحسن، ونكتفي هنا بهذه الإشارات وسنبحث عن تلك السنة في غير هذا الموضع بمناسبات أخرى.

قد ذكر عامة المفسرين سياق هذه الآية بأنه لما تمّ تحويل القبلة فثار في الناس سؤال: ماذا يحدث مع من ماتوا قبل هذا الأمر فهل تقبل صلواتهم أم لا؟ وهذا ردّ على هذا السؤال ولكني لا أرى وجهًا معقولًا لنشأة هذا السؤال كما لا داعي للردّ عليه فالأمر هو الأمر الذي أشرنا إليه.

قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها: لنحفظ هنا أسلوبًا يختص باللغة العربية وهو حذف الماضي المركب بالمضارع فيكفي "يفعل" "كان يفعل"، وقد كثرت الأمثلة على ذلك في كلام العرب والقرآن، نقدّم بعض الأمثلة من القرآن: "فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ" (سورة هود: 109)

فانظر أنه تعالى قال: "كما يعبد" وهو في الأصل "كما كان يعبد" فحذف "كان" من هنا. وقال تعالى في سورة الزخرف:

"وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۖ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" (سورة الزخرف: 6-7)

ف"وما يأتيهم" هو في الأصل "وما كان يأتيهم" ولكن حذف "كان" من هنا طبقًا للأسلوب العربي.

وجاء في سورة الأنعام:

"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ" (سورة الأنعام: 75)

فهنا "نري إبراهيم" في الواقع "كنا نري إبراهيم" ولكن حذف "كنا" طبقًا للأسلوب العام.

وطبقًا لهذا الأسلوب "قد نرى" في الواقع "قد كنا نرى" وقد فككنا هذا الحذف في الترجمة فإن هذا الأسلوب لا يوجد في اللغة الأردوية.

فالمعنى أنا كنا نرى تقلب وجهك في السماء بما أنك كنت تنتظر بتحويل القبلة انتظارًا شديدًا فقد حكمنا أن نصرفك إلى القبلة التي تحبها.

قد مضى أنفًا أن النبي ﷺ كان يجمع بين القبلتين ما دام في مكة ولكنه لما هاجر منها لم يقدر على الجمع بينهما لاختلاف الجهتين وعلى هذا فجعل خاطره يضيق عن انفصاله عن القبلة الإبراهيمية لاسيما حينما بدا له عن طريق الوحي أنه على ملة إبراهيم الذي دعا الله له وأن قبلة إبراهيم هي القبلة المشتركة بين كافة أولاده فجعل ينتظر بتحويلها وهذا من القاعدة العامة أن المرء يرفع بصره إلى ما يرجو منه فكان يرفع بصره إلى السماء من حيث كان جبريل ينزل إليه.

وكلمة "فلنؤليّنك" تشير إلى هذا الحكم الذي أصدره الله تعالى بالنسبة لتحويل القبلة وقد أوضحت في الترجمة ما خفي فيها من المعنى ولكنه كان يحتاج إلى بعض نظائره وأتذكر أن الأستاذ الإمام قد أشار إلى بعض نظائره ولكن من الأسف أنني أفقد الآن ما أحيل إليه ويمكن أن أسدّ هذا النقص حين الطبع.

فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره: الشطر يعني الجهة والجانب والطرف والمراد من المسجد الحرام ذاك المسجد المحترم الذي يحيط ببيت الله من كل جانب مثل دائرة فالقبلة هي بيت الله فقط فالناس يتجهون نحو بيت الله داخل المسجد الحرام ولكنه يأتي تحت أمر القبلة لمن هو خارج حدوده وهكذا فقد تم توسيع مزيد بالنسبة للقبلة مثل المروة التي هي المذبح الحقيقي ولكنها تم توسيعها إلى منى رحمة على الأمة المرحومة.

عندي هذه هي الآية التي نسخت ما سمح للنبي من أن يتجه نحو البيت المقدس في البدء وأمر أن يتجه نحو المسجد الحرام وأما القول "وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره" فهو لمجرد أن لا يضل المسلمون فيما وقع فيه اليهود والنصارى فقد بيّنا، خلال تفسير الآية السابقة (115)، أن اليهود والنصارى ولو كانوا يعتبرون البيت المقدس قبلتهم داخله ولكنهم حينما خرجوا منه تفرقت بهم القبلة شرقاً وغرباً فأرشد هذه الأمة إلى هذا لكيلا تقع في هذا الضلال بأن يولّوا وجوههم نحو القبلة المعيّنة حيثما كانوا خارج المسجد أو داخله.

ولننظر في تبديل الخطاب الذي يبدو جلياً في هذه الآية فأولاً خاطب بصيغة الواحد "فولّ وجهك" ثم استخدم صيغة الجمع "فولّوا وجوهكم" والسبب وراء ذلك هو أنه خاطب النبي أولاً كوسيط ثم في المرة الثانية أوضح بأن الخطاب موجّه إلى الأمة لا إلى النبي فحسب وكذا في الخطاب الأول تلميح لطيف بأن النبي كان مضطرباً لتحويل القبلة فلما أمر بتحويلها بشّر بها النبي أولاً ثم أمته.

وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون: المراد من "أنه" كون المسجد الحرام قبلة لهذه الأمة، وحقيقة هذا الأمر من قبل الله

كانت واضحة لأهل الكتاب تمامًا وذلك لأن التفاصيل التي قدمها القرآن آنفًا يبدو منها جليًا ما يأتي:

1. أن اليهود كانوا يعلمون أن بيت الله مما قام إبراهيم وإسماعيل ببناؤه، وهذا البيت قبلة لكافة ذرية إبراهيم.
2. أن النبي الخاتم سيبعث في بني إسماعيل ويبعث الله به أمة مسلمة.
3. وأن قبلة هذه الذرية كانت هي بيت الله منذ البداية.

قد وجدت إشارات وتلميحات عن كل ما ذكرناه آنفًا وكانت بعثة النبي تثبت تلك الإشارات والتلميحات في كل آن ولكن اليهود كانوا يخفونها وعيًا وحسدًا لهم على بني إسماعيل والمسلمين فقال مهّدًا بما كانوا يفعلون "وما الله بغافل عما تعملون" أي ستواجهون عاقبة إخفائكم الحق.

وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

في هذه الآية التفات إلى النبي وهي تعزّي النبي بأن ما يفعله اليهود بالنسبة للقبلة لا يبني على شك أو ريب بل كما أوضحنا من قبل أنهم يفعلون ذلك وعيًا لمجرد بغيم وحسدهم ولذلك فإن آيتهم بالآلاف معجزة فلن يتبعوا قبلك. فإن كان بإمكان شيء أن يقنعهم فهو ليس بالدلائل والمعجزات بل اتباعك قبلتهم ولكنه حينما اتضح لك الحق لم يبق لك أي مجال أن تتبع قبلتهم ثم أوضح أن إصرارهم هذا ليس لك فحسب بل اليهود والنصارى أيضًا يخالف بعضهم البعض بشأن القبلة فهم وقعوا في خلاف الشرق والغرب الذي لن ينتهي فإن لم يتحد هؤلاء الذين يدعون باتباع قبلة واحدة على شيء فكيف لهم أن يتحدوا معك والحال أنت تخالف اتباع قبلتهم.

وفي النهاية قال إنك إذا اتبعتهم بعدما جاءك الوحي فستكون من الظالمين وهذا تهديد يوجّه الخطاب فيه إلى النبي ظاهرًا ولكن المراد اليهود والنصارى. وهنا أريد بالعلم

"العلم الحقيقي" الذي يحصل عن طريق الوحي والمراد من الأهواء بدع أهل الكتاب وقد أوضحنا معنى كلتا الكلمتين تحت تفسير الآية (120).

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾

والمراد من "الذين آتيناهم الكتاب" طائفة الصالحين من أهل الكتاب، الذين ثبتوا على دينهم حسبما علموا وبقوا يتمنون من أعماق قلوبهم ظهور النبوءات كلها التي وردت في صحائفهم عن البعثة النهائية وقد بيّنا دلائل مفصلة على إرادتنا منهم صالح أهل الكتاب تحت تفسير الآية (121).

والعائد في "يعرفونه" هو القرآن الكريم وهذا بيانه الذي أدلى به عن البعثة النهائية وقبلتها. هذه الآية جاءت في سورة الأنعام بنفس الكلمات "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم" (سورة الأنعام: 20).

وفي المعرفة مثل الأبناء تشبيه كامن وهو أنه كما أن الأب الغائب عنه ولده يقلق ويضطرب لولده وحينما يحضره الولد بعد مدة طويلة فيعرفه عن ربح قميصه كذا الأمر مع صالح أهل الكتاب فهم يعرفون كل ما يظهر لهم من النبوءات كما فعل أبو يوسف مع ولده. ونفس العاطفة لظهور تلك النبوءات قد ذكرها القرآن في موضع آخر فقال "وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين" (سورة المائدة: 83).

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٢٢﴾

"الحق" عندي خبر والمبتدأ هنا محذوف فإن فككنا الحذف لكان الكلام "هذا هو الحق" وأما "من ربك" فهو يتعلق بالخبر لا خبر ذاته وهذا من عادة العرب أنهم يحذفون المبتدأ حينما يريدون التركيز على الخبر، وكذا الأمر في الآية (144) كما هو الآن، وأما الخطاب في "فلا تكونن" فهو ظاهراً يوجّه إلى النبي ولكن العتاب موجّه إلى المعارضين، اقرأ الآية (145)¹.

¹ ولفهم أوجه الخطاب جيداً ليقراً "فصل الخطاب" في مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان وكذا يفيد القارئ تفسير سورة عبس.

وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ أَتَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

ولو أن "كل" نكرة هنا ولكن المراد منه الطائفة الخاصة أو الرجال الخواص الذين قد مضى ذكرهم خلال الحديث فمثلاً "وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً" (سورة مريم: 49) وقال "وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين" (سورة الأنبياء: 85).

فالمراد هنا من "لكل" طائفة اليهود والنصارى التي مضى ذكرها آنفاً فقال فيها إن كلاً منهم قد قرّرت جهة خاصة لقبيلتهم فالواحدة قرّرت المشرق والأخرى عيّنت المغرب فلا يجعلون القبلة إلا ما قرّروها فلا تحولون عن مكانهم ولو أفرغتم كل جهدكم فلا تضلّوا سبيلكم وراءهم بل تقدّموا على ما هداكم الله من السبيل وحاولوا أن يسبق بعضهم البعض في الخير.

فكان ما قال سالفاً "ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك" قد أعيد هنا بأسلوب آخر والهدف هو أن كل مصانعة في أمر القبلة ممنوعة ومنذ اليوم ينبغي للمؤمنين أن يبتعدوا عن طريقة هؤلاء المتعصبين تاركين إياهم وراء ظهورهم ومتقدمين على ما فتحه الله لهم من الصراط المستقيم.

"فاستبقوا" من الاستباق وهو محاولة أحد لسباقه آخر فقال مثلاً "إنا ذهبنا نستبق" (سورة يوسف: 17) فما يقرّرون معلماً للسباق يحاول كل من المشاركين أن يبلغه أولاً فكذلك هناك هدف ومعلم قرّره الله تعالى في العبودية والإنابة والفلاح والسعادة وقد أضاعه الأمم السابقة كما مضى فهم هاموا في وإٍ غير الوادي الذي كان هو المراد، ومرة أخرى أبان الله تعالى هذا المعلم للأمة الوسط ودعاها إلى أن تحاول سباق الآخر إذا لم يرض الآخرون في هذا المجال.

وأما القول عن القبلة بأنها معلم وهدف للحصول على الفلاح والسعادة فهو ليس مجرد استعارة بل هو حقيقة ثابتة، وفهم هذه الحقيقة جيداً حاولوا إحياء إعادة تذكر التاريخ العظيم الذي تم نقشه على كل حجرة من هذا البيت الذي تم تقريره قبله فهذا هو البيت الذي بناه إبراهيم خليل الله وإسماعيل ذبيح الله بأيديهما

المباركة، وهذا هو البيت الذي هو المركز الوحيد لتوحيد الرب في هذا العالم المليئ بالكفر والشرك، وبجانبه المروة التي شهدت السماء بجوارها أن أبًا عجوزًا يذبح ولده الوحيد فيثبت إسلامه أمام ربه، هذا هو البيت الذي قد اختار الله صحراءه لنشأة وتنمية الأمة المسلمة التي كانت توزّع رحمة الله فيما بين العالم كله، هذا هو البيت الذي قد بقي قبلة لكافة الأنبياء والرسل منذ إبراهيم عليه السلام، وطاف حوله واعتكف فيه وبه ركع وسجد عدد لا يحصى من الرجال والنساء الصالحات، وبضواحيه ميدان تشهد كل ذرة منه بسجديات تم أداؤها للتوبة والاستغفار وتكفل بدموع من صَبَّوها خوفًا من الله وتضرعًا إليه، وبزاوية من هذا البيت حجر مقدّس شبّه بيمين الله، ومسحه أو قبّله المئات من الأنبياء والرسل فعقدوا ميثاق الطاعة والوفاء مع الله، وبجواره جمرات هي ذكرى لذلة وصغار أعداء بيت الله وقد رمى عليها الأحجار المؤمنون وأحيوا فيهم روح الجهاد ضد أعداء الدين وفوق ذلك أن خاتم نبي وآخر رسول نشأ وترعرع في ظلال هذا البيت فبنوره استضاء العالم كله.

وتقرير بيت يحمل هذا التاريخ العظيم قبلة يعني أن نقرّره معلّمًا فنجدّ للحصول على الخزائن الروحية التي أودعت فيه منذ إبراهيم عليه السلام إلى نبيّنا محمد ﷺ وبعبارة أخرى نعتبره قوة حصانية تحصل بها الأمة كلها على الحياة والحرارة والضوء والقوة فمن لم يتضح له هذا الجانب المهمّ للقبلة فهو ربما يقعد حيران لم أعطي هذا البيت هذا القدر من الأهمية في الدين ولكنه قد اتضح مما فصلناه فيما سبق أن الأهمية لا تكمن في هذا البيت المبنى من الحجر أو الأجر بل تكمن في التقاليد والتواريخ العظيمة التي تتعلق بهذا البيت والتي هي ذريعة روحية وحيدة لهذا العالم، فبفضل هذه التقاليد يحتل هذا البيت من الأهمية في نظام الملة الاجتماعي ما يحتلّه القلب في النظام الجسدي فكما لا وجود للجسد بدون القلب وكذا لا تصور للملة بدون القبلة، وهنا نكتفي بهذا القدر من الإشارات الموجزة بالنسبة للقبلة وسنوضح جوانب أخرى لأهميتها بمواقع مناسبة.

أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، إن الله على كل شيء قدير: لهذه الفقرة معنيان أحدهما أنه كلما تفعلونه من الخير موجّهين هذه القبلة في أي بقعة من بقاع العالم

لا يضيع الله أجره فهو يجمعكم من كل مكان ويجزيكم ما قدّمتموه فهذه مثل معلم لاستباق الخير فالقرب منها أو البعد عنها لا يكون إلا محصوراً في علاقة القلب معها فلكل خيار أن يتعلق بها في أي نحو من أنحاء العالم والله قادر على أن يجمع مثل هؤلاء من مكان من العالم.

والآخر أن تتركوا الناس على ما يفعلون ويتوجهون نحوه فلا تخصموهم بل استبقوا في الخيرات فسيأتي يوم يجمعكم الله فيه ويفصل فيه من سلك الطريق السوي ومن خالفها.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾

ومن خلال الأمر بتحويل القبلة في الآية (143) قد اتضح أنه على المرء أن يتوجه نحو القبلة حيثما يكون ولكن لم يأت أي توضيح بالنسبة للسفر وهل يجب هذا الأمر أم هناك شيء من التيسير؟ والبحث عن القبلة المعينة خلال السفر أمر صعب للغاية فيتخيّل أن لا يجب تقييده في هذه الحالة ولكنه يتضح مما ذكر من أهمية القبلة أن لا ينقطع المرء عن هذه القوة الحصانية في حالة من الأحوال فإن يسّر الأمر خلال السفر فيمكن أن يضل الناس من خلاله فيما ضلّ فيه اليهود والنصارى فقد تم التوكيد الصريح لهذه الأمة أن العناية بالقبلة في أثناء السفر مثل الاهتمام بها في أثناء الحضر لكيلا تقع الأمة في شيء من التهاون في هدفها المراد ومعلمها الأصيل.

وبجانب هذا التوكيد نتهّم بأن هذه القبلة هي التي قرّرها الله تعالى فلا تظنوا أن الله غافل عن أعمالكم. هذا التنبيه يقطع دابر كل غفلة واعية والحب في البحث عن التسهيلات، في البداية خاطب بصيغة الواحد وفي النهاية استخدم صيغة الجمع وهذه إشارة إلى أن الخطاب الموجه إلى النبي كوسيط وإنما المراد به الأمة كلها.

ونعلم هنا أنه بما أن تعيين القبلة خلال السفر ربما يكون صعباً فلا يكلف الإسلام إلا ما تيسّر للمرء من أسباب معرفة القبلة فلم يكلف الإسلام أتباعه ما لا يستطيعون فليصل المرء طبق ما تيقّن له من القبلة عن طريق الأسباب المتوفرة له، ولكن هذه القيود لا تنفي تلك الرخص التي أعطتها الشريعة حين الضرورة والتي قد صرحت عنها في كتب الحديث والفقه.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

وبما أن الأمرين قد ذكرا آنفاً بالنسبة للسفر والحضر فتكرارهما تَوْأ يملّ شيئاً،
ومجئ هذا الشيء في القرآن، الذي هو كتاب معجز من ناحية الإيجاز والبلاغة، يخلّ
بالنفس ولكن هذا الخلل لا يأتي إلا بقلة التدبر في القرآن فتكرار ذينك الأمرين لن
يراد به تكرارهما البتة بل المراد منه الإشارة إلى حكم ومصالحهما الثلاث العظيمة التي
وضعت فيهما لهذه الأمة والتي سيأتي ذكرها فيما بعد. وهذه الحكم والمصالح تتعلق
بكلا الأمرين كما سيتضح وسيوقع جهل عنها أو غفلة الأمة في أخطاء لن يمكن لها أن
تقيم عوجها، وعلى هذا فقد نبّه القرآن كمدخل أذهانهم، قبل بيان هذه الحكم، على
أن هذا الأمر المؤكد بالاتجاه نحو القبلة ليس شيئاً هيناً بل يطوي بين جنبيه حكماً
ومصالح فإن تهاونتم في الامتثال به ومن ثم زلت أقدامكم فيه فيمكن أن تضلوا في
سفركم هذا فاعتنوا بها عناية شديدة واحفظوا الحكم القادمة جيداً. وبعد هذا
التمهيد يبتدئ بيان تلك الحكم والمصالح كما يلي:

لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشَوْهم وَاخْشَوْنِي ولَأَتِمَّ
نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ: فإن تفكروا يتضح لكم أن هناك ثلاث حكم ذكرت
لهذين الأمرين: (1) قطع الحجة، (2) إتمام النعمة، (3) الهداية. والآن نقوم بشرح
هذه الحكم الثلاث بإيجاز لكي تتضح فائدة تكرار ذينك الأمرين ونظم الكلام.

فالمراد من قطع الحجة أن لا يبقى أي مجال لأهل الكتاب لاسيما اليهود للنقد عليكم
وخلق الدعاية ضدكم، والمراد من "لنّاس" هنا، كما يشهد به المحل، هو أهل الكتاب
فقد كان أهل الكتاب لاسيما اليهود يثيرون الاعتراض على النبي وأتباعه أنهم إذا صلّوا
متوجهين نحو قبلتنا فلم يفرّقون بين طريقة صلاتهم وطريقتنا لها فالاختلاف في
الأشياء الأخرى بعد الاتحاد على أصل مهم يعتبرونه مختلفاً من قبل النبي ﷺ، كانت
دعايتهم هذه تؤثر في الساذجين من الناس ومن ثم هي عرقلت سبيل الكشف عن
الواقع بأن النبي بعث على ملة إبراهيم لا على اليهودية أو النصرانية، والآن آن الأوان

لقطع دابر هذه الدعاية ولهذا الهدف سدّت الثغرات التي مضى ذكرها من قبل ولكنه هبّ أنه حينما لم تتخذ هذه الخطوات المتقدمة للحذر وترك المسلمون أحراراً في أن يصلوا خارج حدود المسجد الحرام نحو جهة ما فبصرف النظر عن أن يقع المسلمون فيما وقع اليهود والنصارى من الضلال عن القبلة سهل لهم أن يعترضوا على المسلمين مباشرة أو غير مباشرة فما وضع من القيود المذكورة أعلاه قد سدّت تلك الثغرات كلها ولو أن الأشرار لم يكونوا يمتنعون بعد قطع الحجة هذا ولكنه لن يمكن أن يمسك أي حذر لسان كافة الناس فقد ذكر القرآن دواءً لمثل هؤلاء المرضى "فلا تخشوهم واخشوني".

والمراد من إتمام النعمة هي إتمام نعمة الدين التي بشر بها موسى وعيسى عن هذه الأمة والتي وعدها الله تعالى مع إبراهيم حينما نجح في امتحان ذبح إسماعيل فقد وعد الله آنذاك أن سيبعث من بني ولده إسماعيل أمة عظيمة تقسم نعمة الدين بين كافة أمم العالم ولذلك فقد بعث منهم نبياً خاتماً يسىّ محمداً الذي قرّر له قبلة بيت الله الذي هو مصدر الخير والبركة للعالم كله، ومركزاً لتكميل الدين.

والمراد من الهدى هي الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو السبيل السوي للوصول إلى الله تعالى والذي قال فيه "قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً" (سورة الأنعام: 161)، والمنارة التي تهدي إلى هذه الملة الإبراهيمية، كما ذكرنا فيما سبق، هي القبلة فوجب أن لا تغفل الأمة لهنيئة عن هذا المعلم للهدى. كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

الكاف في "كما" للتشبيه فيثور هنا سؤال: أي شيء شبّه به؟ والردّ على هذا هو أن "كما" بالعربية مثل "چنانچه" بالأردوية والمعنى أننا قمنا بتحويل القبلة لإتمام النعمة والهداية إلى ملة إبراهيم كما أرسلنا رسولاً لهذه الأهداف طبق دعاء إبراهيم. وقد تناولنا هذه الآية بالشرح المفصّل تحت الآية (129) فلا حاجة إلى إعادته. وأما قوله في النهاية "ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون" فهذا منة خاصة على بني إسماعيل أنكم كنتم أميين لا يعرفون شيئاً عن الدين فقد أرسل الله رسولاً لتعليمكم فتقدّروه أكثر من غيركم.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٦﴾

وبعد تحويل القبلة برزت هذه الأمة كأمة مميزة فقد عزلت اليهود عن منصب الإمامة وفوضت مسؤولية الشهادة على الناس إلى هذه الأمة إلى يوم القيامة وبهذه المناسبة المهمة ذكر لهم "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون" فهذا التذكير مثل ميثاق عظيم بين الله وهذه الأمة وأما الهدف وراء ذكر الله فهو ذكر كافة المسؤوليات والواجبات والعمل عليها، التي يتم تفويضها إلى هذه الأمة. ومن يؤد هذه الواجبات والمسؤوليات خير أداء فقد وعد لهم الله بأن يذكرهم أي أنه يفي بما وعد لهم من الفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة، وأما الهدف وراء "واشكروا لي" فهو الأداء الحق لتلك النعم والأفضال التي أعطاه الله وسيعطيها لهم وأكبر هذه النعم هي الشريعة ذاتها التي تعطي هذه الأمة في صورتها الكاملة وأما الكلمة النهائية "ولا تكفرون" فهي تنبيه بأنكم إذا كفرتم فلا تفلتون مما عاناه اليهود بعدما لم يؤدوا حق شكرهم.

ونفس التذكير وجّه إلى بني إسرائيل ولكنهم لم يعتنوا به، يذكر القرآن تذكيرهم هكذا "اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون" (سورة البقرة: 40).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٧﴾

والآن في هذه الآية وما يلحقها من الآيات الأربع يتم ذكر التدابير التي تفيد حين الأخطار والمشاكل التي ستظهر بعد هذا المنصب للإمامة أو يمكن ظهورها فما كانت اليهود يطوونه من العناد ضد المسلمين قد ظهر واضحاً ولكن اليهود قد كانوا يرجون من خلال هذه الخلافات والنزاعات لمحة عن اتفاق لأجل اشتراك القبلة بينهم ولكنه لما تحولت القبلة فقد رأوا بأعينهم أن المسلمين قد تميزوا عنهم كورثة لملة إبراهيم بكافة ميّزاتهم، الأمر الذي قد أثار غضبهم خلاف المسلمين وكذا القريش الذين قد اطمأنوا بعدما أخرجوا المسلمين عن مكة وقد زعموا أن هذه الدعوة الجديدة ستموت في ديار الغربة، قد شعروا بأن المسلمين يتقدمون في المدينة بالرغم من آمالهم ويصيرون قوة وهم يدعون أنهم هم الورثة لملة إبراهيم وهم الذين يجدرون

بتولي شؤون الكعبة وعلى هذا فقد قرّروا هذا البيت قبلة لهم ومن هنا يمكن أن يحاولوا السيطرة عليه فقد نهبهم هذا الشعور ومن ثم بدأوا يتفكرون عن التدابير لهذا الخطر الطارئ، الأمر الذي سهّل لهم خلق البواعث على الحرب بعد تحويل القبلة بشهرين فقط، الحرب التي تسمّى بـ"غزوة بدر" في التاريخ الإسلامي. ورأينا في هذه الغزوة، كما ذكرناه في تفسير سورة الأنفال، أن هذه الحرب قد دارت رحاها بمؤامرة قام بها يهود المدينة وقريش مكة وكان الهدف وراءها تفتير عزيمة المسلمين الذين قد برزوا مدعين بملة إبراهيم وقبلته كأمة مستقلة.

ولو أن هذه الأوضاع كانت مختفية ولكنها لم تكن مستورة على الله العلام الغيوب الذي يعرف ما خفي وما ظهر فاقتضت رحمته وحكمته أن ينبّه المسلمين عما سيأتيهم من الأخطار ويرشدهم إلى ما يثبتهم ويشجّعهم ضد تلك الأخطار.

فالأمر الأول الذي جاء ذكره في هذه الآية هو أن يستعينوا بالصبر والصلوة ضد ما يأتيكم من الأخطار وقد قمنا بالبحث المفصّل، في الآية (45) لهذه السورة، عن معنى الصبر والصلوة اللغوي وعلاقة أحدهما مع الآخر وعظمتها وأهميتها في سبيل الجهاد لإقامة الدين وكذا أشرنا إلى بعض جوانبهما في الفصل الثاني والثلاثين فلا حاجة إلى أي تفصيل هنا إلا أن هناك أمورًا خاصة بهذا الموقع فتجب الإشارة إليها.

أولها أن الصلوة التي ذكرت الاستعانة بها في سبيل الصعود للمشاكل لم يرد بها الصلوات الخمس بل المراد بها هي صلاة التهجد والنوافل وذلك لأن هذه هي الصلوات التي تخلق في المؤمن الروح والحياة اللتين تغلبان على المشاكل التي تعرقل سبيل الحق وبمعونتها تولد العلاقة المتينة التي لا تتوتّر في أشد وضع وأصعبه وبها يحصل على درجة التقرب التي تكفل معية الله والتي وعدت للصابرين في هذه الآية وسيأتي توضيح هذه الحقيقة التام خلال تفسير السور المكية فلنكتف بهذا القدر من الإشارة.

وثانيها أن الصلوة هي أكبر مظهر للذكر والشكر فيما بين كافة العبادات فقد وضّح في القرآن بمختلف الطرق أن الهدف الأصيل وراء الصلوة هو ذكر الله وشكره فإن تفكّروا عن هذه الجهة فيتضح لكم أن الصلوة هي خير وسيلة للوفاء بما أخذ سابقًا من الميثاق بأن "فاذكروني أذكركم واشكروا لي".

وثالثها أن هذه الصلوة هي المرادة للحصول على العزيمة والاستقامة في سبيل الدعوة إلى الدين وإقامة الحق فتظهر بركتها الأصلية حينما يعتني بها المرء وهو يجاهد في سبيل الله ضد الباطل فمن لا يجد في نفسه عزيمة على مواجهة الباطل فلا يفيد هذا السلاح شيئاً.

ورابعها أنه قال بعد الاستعانة بالصبر والصلوة "إن الله مع الصابرين" ولم يقل "إن الله مع المصلين والصابرين" والسبب وراء ذلك، كما يراه الإمام الفراهي، هو أن الحصول على التقرب إلى الله خلال أداء الصلوة واضح إلى حد لا يحتاج إلى إظهاره فالذي مست الحاجة إلى إبرازه هو أن الله مع من يثبت في سبيل الله ويستعين بالصلوة للحصول على الثبات.

وخامسها أن التقرب إلى الله الذي وُعدَ عنا للصابرين ليس بشيء هين بل يدلّ موقع الكلام على أن هناك العديد من البشرى التي تطويها هاتان الكلمتان فإذا كان الله الملك الحقيقي للكون كله وهو الذي يجري فيه أمره وهو مستقل بذاته وهو من وراء أحد فلن يغلبه أي من هذا الكون.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٩﴾

وهذه إشارة إلى الشيء الآخر الذي يراد في الثبات في سبيل العزيمة والاستقامة أي فهم التصور الإسلامي الحق عن الحياة والموت فمن لا يؤمن بالآخرة فهو يرى أن الحياة ليست إلا ما يعيش فيه فمن مات أو قتل فهو انتهت سلسلة حياته وأما المؤمن فهو يرى أن هذه الحياة حياة موقته ستفنى لأجل مسعى فالحياة الأخروية والتي هي الحياة الحقيقية هي تبتدئ بعدما تنتهي سلسلة هذه الحياة الموقته، وهذه الحياة سيتم الحصول عليها في البرزخ ثم في الآخرة، وأما الحياة بعد الموت فهي يتم الحصول عليها من قبل الكافر والمؤمن كليهما ولكنه بما أن حياة الكفار حياة ملؤها قلق وعذاب فلا تعباً بها إلا أن المؤمنين يتمتعون من مسرات ما سيحصلون عليها من الدرجات والمنازل في الآخرة لاسيما من استشهاد فلن يمكن لنا أن نقدر مدى فرحهم في البرزخ فهم يبدأون يتمتعون من جزاء ما أهرقت دماؤهم لإعلاء كلمة الله فقد قال الله تعالى في موضع آخر "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون" (سورة آل عمران: 169).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾

هذه إشارة مجملة إلى البلاءات التي سيواجهها المؤمنون في المستقبل، ولو أن هذه البلاءات سيعاني منها المسلمون لأجل معشر الأعداء ومؤامرتهم ولكنها بما أنها تأتي تحت سنة الله تعالى التي قد قررها الله تعالى منذ الأزل للتمييز بين أهل الحق وأهل الباطل فقد عزاها إليه وقال بالتوكيد وذلك لأن أهل الحق لا بد لهم من أن يمرّوا بهذا الامتحان والبلاء طبق السنة الربانية، وبفضل هذه البلاءات تتطوّر مؤهلات العباد وتتركّز وهكذا يتم التمييز بين الصحيح والغلط ولن يمكن لأي طائفة من طوائف المؤمنين أن تستحق نعمه الأخروية بدون أن تنجح في هذا البلاء.

فالشئ الأول الذي ذكره هنا هو الخوف، والمراد منه خوف غارة الأعداء وقد مضى فيما سبق أن القريش جعلوا يبحثون عن الحيل لشن الغارة على المسلمين حينما برزوا كأمة مستقلة كما جعلت اليهود يؤامرون ومن ثم بدأت سلسلة لا تنتهي لحملتهم على المسلمين حتى جعلت الأمم الأجنبية ترغب فيها ولم تنته هذه السلسلة إلا حينما كسّر المسلمون قوتهم بعزيمتهم وهمتهم الفائقة.

ولقد قيّد هذا الخوف بـ"بشئ" والمراد منه ليس إلا تشجيع المسلمين أي ولو أنهم يعانون من هذا الوضع السيئ ولكنه لا يتجاوز ما قد يكتفي لامتحان عزيمتكم واستقامتكم فلا تفتروا عزيمتكم ولا تتخلّفوا بل تصعدوا لها خيراً.

والمراد من "الجوع" المشاكل الاقتصادية التي قد يعاني منها المسلمون لأجل مخالفة القريش واليهود المشتركة، ووضع الخوف والخطر، والقيود الغذائية من قبلهم، وقد كانت تجارة الدولة كلها وأسباب الاقتصاد والمعيشة بأجمعيها بأيدي اليهود والقريش أصلاً فالخوض في القتال ضدهم كمثّل من لا يرضي من في أرضه هو أو كمن لا يداري من بداره هو. ولكن مرافقة الحق اقتضت أن يخوض المسلمون في هذا الخطر فقد خاضوا فيه كذلك ويشهد التاريخ بأنه لما ظهر هذا الخطر فقد كان في أشد صورة وأقبحها في بعض الأحيان ولكن لم يثبت لهزيمة مقابل العزيمة والإيمان.

ومن ثم أشير إلى القلة في الأموال والأنفس أي بلاء المال والنفوس وذلك لأن هذين الشئين هما يقومان سببين مهمّين في الحرب وهما اللذان يضجّ بهما فيها، وزدّ على هذا فقد الأمن والأمان، الأمر الذي يجرحهما الصيانة التي تجب لنموّهما وزكّاهما.

ولو أن ذكر الثمرات بعد الأموال يبدو زائداً وذلك لأنها تضمّ إلى الأموال ولكن في ذكرها يعتنى بها موقع الحديث فقد كانت أموال العرب إما الإبل أو الغنم والشياه التي كانت تستخدم لها كلمة "الأموال" أو الثمر لاسيما النخل، وطبقاً لهذا الوضع الخاص للدولة استخدمت كلمة "الثمرات" بجانب الأموال.

وفي النهاية بشر من ثبت على الحق ضد هذه البلاءات كلها ولم تضعف عزيمتهم ولا قلّ إيمانهم، ويبدو من صراحتات غير هذا من مواقع القرآن أن هذه البشرى كانت مشتملة على الفلاح في الدنيا والآخرة كليهما فقد قال الله تعالى:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرُّعٍ تُنجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَقْبَلُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾" (سورة الصف: 10-13)

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٤﴾

هذه صفة الصابرين بأنهم لا يواجهون البلاءات بقلة الهمة وفتور العزيمة بل بمسرة وعزيمة وثبات فما نقل هنا من قولهم هو إظهار عقيدتهم التي بني عليها صرح الصبر والاستقامة. فمن أجزاء هذه العقيدة أن المرء يرجع إلى الله بعد موته فمن يؤمن بهاتين الحقيقتين إيماناً ثابتاً فلن تزل أي مصيبة كبرى قدميه عن جادة الحق فإذا بعثنا الله في هذه الدنيا وحيينا ومتنا له ومن ثم رجعنا إليه بعد الموت فلننثنا عن كل شيء لمرضاته وليس شيء يثنينا عنه تعالى.

هذه هي الكلمة التي تعتبر درعاً للصابرين فهم يحتمون بها كل حملة عليهم من قبل المصيبة وما فيها من الوكالة إلى الله هي وكالة التضحية وتقديم النفس وهذه تعني أن المؤمن كلما آن الأوان فهو يصعد للبحر والجبل مرتفعاً هذا الهتاف فهو يهزم الأشياء كلها ولا شيء يقدر على هزيمته.

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥﴾

الصلوات جمعُ الصلوة التي تعني لغة "الإقبال إلى الشيء" وعن هذه الجهة استخدمت هذه الكلمة للصلوة بحيث إن العبد يقبل إلى ربه في الصلوة وكذا هذه الكلمة تستخدم للالتفات الذي يقوم به الله تجاه عباده وفي هذه الحالة هي تعني أفضال الله ونعمه فلا تختلف روح اللفظ إلا أنه إذا اختلفت النسبة اختلف نوع المعنى من التضرع إلى العناية وعلى هذا فقد ترجمناها بـ "عنايتين" ولنا أمثلة عديدة على اختلاف النسبة في اللغة العربية فالعناية والرحمة والهداية التي بشر بها هنا هي تتعلق بالدين والدنيا، وبالدنيا والآخرة كليهما كما ذكرنا آنفاً فعن طريق الصبر والثبات يستحق العباد أفضال ربهم وعنايتهم وبفضل تلك الأفضال والنعم يهتدون إلى الصراط المستقيم، التي هي تكفل بالفلاح في الدنيا والآخرة كليهما.

إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾

هذه الآية تتعلق بسلسلة البيان الأصلية أي القبلة وقد جاء الحديث القادم، كما ذكرنا، في غضون البحث لمجرد التنبيه بأن تحويل القبلة ليس بشيء هين بل هو يسفر عن بلاءات ومشاكل للمسلمين، يجب للصعود لها أن يستعينوا بالصبر والصلوة. وبعد هذا الحديث الضمني تناول سلسلة البحث الأصلية مرة أخرى وذكر أن الصفا والمروة من شعائر الله وأحكاماً وإرشادات متعلقة بهما وذلك لأن اليهود كما حاولوا أن يخفوا قبلة إبراهيم الحقيقية كما مضى فكذاك حاولوا إخفاء المروة كمذبح لإبراهيم، الأمر سيتم تفصيله تحت الآية القادمة.

الصفا والمروة صخرتان بجوار بيت الله، يسعى الحجاج بينهما خلال الحج والعمرة وقد أثبت الإمام الفراهي، في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، بتفصيل كامل أن المذبح الأصلي الذي ذبح إبراهيم إسماعيل هو المروة¹ التي ذكرت في التوراة ولكن اليهود قد حرّفوا هذه الكلمة فجعلوها من شيء إلى آخر مختلف تماماً لأجل قطع علاقة إبراهيم عن بيت الله.

¹ لنعلم أن المذبح الأصلي هو المروة ولكن قد وسّع فيها حتى منى لتسهيل السعي للأمة، ولتراجع رسالة الإمام الفراهي لمزيد التفاصيل عن هذه القضية.

الشعائر جمعُ الشعيرة التي تعني الشيء الذي يجعلك تشعر بشيء أو هو مظهر ومعلم له ولها بالإنجليزية كلمة "Symbol" وفي الاصطلاح هي مظاهر الشريعة التي قرّرها الله أو رسوله كمعلم وآية لخلق الشعور بحقيقة معنوية والمراد منها في الأصل هي الحقائق التي تكمن فيها ولكنها بما أنها قرّرها الله ورسوله فإنها تحتل درجة القدسية بالنسبة لتلك الحقائق فمثلاً أن الأضحية مظهر لحقيقة الإسلام الذي يعني أن يفوّض العبد ذاته تماماً إلى ربه تعالى فلا يعبأ بأحب شيء وأعزّه للتضحية به في سبيله وقد أظهر هذه الحقيقة إظهاراً تاماً إبراهيم عليه السلام عن طريق التضحية بابنه الحبيب وهو حدث لا نظير له في صفحات التاريخ البشري وعلى هذا فقد قرّر الله أضحية الهائم كشعيرة في ذكرى ذلك الحدث العظيم لكي تحيي بها حقيقة الإسلام فيما بين الناس.

وكذا الحجر الأسود شعيرة فمنذ عهد إبراهيم يبقى هذا الحجر آية للتقليد أن العبد يقبله أو يمسه بيديه فيجدّد ميثاق عبوديته وطاعته ولذا فقد اعتبر هذا الحجر يمين الله في بعض الأحاديث، الأمر الذي يشير إلى أن العبد كلما يمسه فهو يجدّد عهده آخذاً بيد الله تعالى وكلما يقبله فكأنه إظهار لعهد محبته ووفائه مع الله تعالى. وهكذا فالجمرات شعائر الله فقد قرّرت هذه المعالم لكي يرمي الحجاج الحصى عليها فيظهروا عزمهم على أنهم يلعنون على أعداء الله وأعداء الإسلام من ذرية إبليس كانوا أو منهم أنفسهم وهم مستعدون للجهاد ضدهم.

وكذا بيت الله شعيرة بل هو أكبر شعيرة فهو قبلة الأمة كلها ومركز التوحيد والصلوة فبالطواف حوله وبتقريره قبلة لصلواتهم ومساجدهم كلها نظهر الواقع أننا عباد الله الواحد الذي قد بني هذا البيت لعبادته فنتوجه نحوه ونعبده ونطوف حول بيته.

وهكذا الصفا والمروة من شعائر الله والسبب العام وراء كونهما من شعائر الله أن هاجر قد سعت فيما بين هاتين الصخرتين للبحث عن الماء لولدها إسماعيل عليه السلام ولكن أستاذي الإمام الفراهي يرى أن المذبح الأصلي هو المروة وفيها قد أظهر إبراهيم عبوديته لله وامتناله بما أمره به فلذا قرّرت هذاتان الصخرتان من شعائر الله وصينتا كذكرى لسعيه عليه السلام.

ولنعلم أصولاً ومبادئ عن تلك الشعائر:

أولها أن هذه الشعائر مما قرّره الله ورسوله فلا يسوغ لأحد أن يدخل شيئاً في شعائر الدين أو أن يخرج منها ما قد قرّره الله من شعائر الدين فمثل هذه التصرفات الحرّة تمهّد السبيل لتسلّل البدع في الدين فالأقوام التي قرّرت شعائر الدين حسب أهوائها يشهد التاريخ على أنها قد فتحت الأبواب للشرك وعبادة الأوثان.

وثانها أن حدود تعظيم شعائر الله قد قرّرها الله تعالى ورسوله كما تم تقريرها من قبل الله ورسوله فما قرّر من صورة لتعظيم شعيرة ما هي الصورة الوحيدة لتعظيمها، التي تكمن فيها فشيئ من الانحراف عن تلك الصورة لا يحرم المرء حقيقة الشعيرة فحسب بل هو يفتح الباب للشرك والبدعة فهب أن الحجر الأسود شعيرة وقد قرّر الرسول ﷺ كيف يقبله المرء خلال الطواف أو يمسه بيده ثم يقبل يده أو طريق أخرى فإن لم يكتف أحد بما قرّره الرسول من طرق تعظيمه بل يخوض في التعظيم إلى حد يركع له أو يقدم الذور له أو يقدم الأزهار إليه أو عمل يشبه ما سلف فيه الطرق لا يبتعد عن الحقيقة التي تكمن فيها فحسب بل يسقط في الشرك والبدع.

وثالثها الهدف في هذه الشعائر هو تلك الحقائق التي تكمن فيها فكأن هذه الشعائر مثل قالب لإبراز تلك الحقائق فالفعل الأشد ضرورة لحياة الملة أن تثبت هذه الحقائق حية وطرية في أذهان الأتباع فإذا فترت هذه العزيمة فسنفقد روح الدين ولا نجد إلا قالبها ومن ثم يتركز الناس على القوالب فحسب، الأمر الذي يسفر عن بقاء الدين كمجموعة للتقاليد والعادات.

وأما قوله في الآية "إن الصفا والمروة من شعائر الله" فهو يستهدف أن تطهر هاتان الشعيرتان عن دناسة الجاهلية وتحيطان لأتباع الملة الإبراهيمية وذلك أن عرب الجاهلية قد نصبوا صنمين على هاتين الصخرتين كما يشهد به التاريخ وبدأوا يسعون ويطوفون حولهما، الأمر لم يخلط هاتين الشعيرتين بشعار إبراهيم فحسب بل قد برزتا كمظهرين من مظاهر الشرك وعبادة الأوثان فكما طهر القرآن، في الآيات السالفة، بيت الله عن كافة أنواع الدناسة الشركية وقدمه في أحسن صورة ما شاءها الله تعالى في عهد إبراهيم فكذلك بين تاريخ الصفا والمروة الأصلي بأنهما من شعائر الله منذ زمن

إبراهيم عليه السلام وسنة السعي والطواف حولهما ذكرى لسعي إبراهيم وطوافه ولكنه كما نصب المشركون المآت من الأصنام في مركز التوحيد بيت الله فكذلك وسخوا هذه الشعائر بعبادة الأوثان والآن هذه هي مسؤوليتكم أن تدفعوا هذه الكومة للدناسة فتزكوا هذه الشعائر مرة أخرى وخصّوا السعي والطواف لهما بالله وحده.

هذا في جانب وفي جانب آخر أنما أوقعه اليهود من ستار التحريف والكتمان، كما تشير إليه الآية القادمة، قد رفعه القرآن كذلك وقد ذكرنا فيما سبق أن قد جاء بصراحة في التوراة أن إبراهيم قد ذبح ولده الوحيد عند المروة ولكن اليهود قد مسخوا هذه الكلمة ظانين أن يصرفوا علاقة إبراهيم عن مكة إلى البيت المقدس وهكذا ما توجد في التوراة من النبوءات عن النبي الخاتم تتحول من ذرية إسماعيل إلى ذرية إسحاق. وبذكر المروة هنا قد أشار القرآن إلى هذا المعلم الذي قد حاولوا أن يمحوه حسداً وبغياً.

وما أصدر من الأمر بالطواف حول هاتين الصخرتين تبثت صورتها وتتعين حدودها بسنة النبي ﷺ مثلما يفعل مع مناسك الحج الأخرى ولو أن القرآن قد استخدم كلمة "الطواف" ولكن المراد منه هو السعي الذي يتم بينهما والسبب وراء اعتبار هذا السعي بالطواف هو أن صورته تشبه صورة الطواف الذي يقوم به الحجاج حول الكعبة المكرمة، وقد اشترط هذا السعي مع الحج والعمرة، الأمر الذي يسفر عن أنه جزء من أجزاء الحج والعمرة وليس بخارج عنهما، وبه يقطع دابر التقاليد الشركية التي قد أضافها المشركون بالنسبة إلى سلسلة هذه الشعائر.

والكلمات التي استخدمت للأمر بهذا الطواف تتطلب توضيحاً ما فقال تعالى: فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما".

يبدو من هذا الأسلوب أن هذا السعي قد أجاز في الشريعة فإن لم يقم به أحد أو لم يستطع بالقيام به فلا بأس به ولكن لا يصح عندنا هذا الرأي فإن كان المراد منه ما أسلفنا ذكره لكان الأسلوب كما قالت عائشة رضي الله عنها "فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما" بدل "فلا جناح عليه أن يطوف بهما" والأمر الثاني أنه بعدما قال إن الصفا والمروة من شعائر الله لا يناسب أن يقال أن يطوف بهما أحد أو لا يطوف بهما سواء فالشيء الذي يناسب القول الأول هو أن يوجب الطواف بهما، وأما السؤال: ما هي أهمية هذا الطواف؟ هل هذا

فرض أم واجب أم مستحب فيمكن أن يقع في هذا اختلاف ولكن لا مجال لأن نفهم منه هذا الأمر التافه بعد هذا المدخل الرائع فنرى أن قد أمر بالسعي وهو واجب. ولكن يمكن أن يعترض أحد على هذا الرأي بسؤاله (لو كان المعنى كما قلت فماذا يعني "فلا جناح عليه") فالرد على هذا السؤال هو أن إزالة الحرج هذه لا تتعلق بالسعي بل تتعلق بما كان يحدث من السامة في النفوس بحضور هذه الأوثان في موضع السعي حين نزول هذا الأمر فالمعنى هو أنه ولو توجد في الصفا والمروة أوثان تسأم النفوس ولكنها بما أنها مقررّة الله من شعائر الحج فاسعوا بينهما خلال الحج والعمرة فتسألون على نياتكم.

والمراد من التطوع في قوله تعالى "ومن تطوّع خيرًا فإن الله شاكر عليم" هو أن يؤدّيه أحد كتطوع بعد أداء فريضته لنيل مرضاة الله والتقرب إليه فالتطوع هنا لا يتعلق بالسعي فحسب بل فقد اتضح فيما سبق أن السعي ليس بعبادة مستقلة بل هو من ملحقات الحج والعمرة فيجب أن يتعلق التطوع بالحج والعمرة فالمعنى أن تؤدي فريضة الحج والعمرة ظانًا أنهما مما يجب عليك ثم تقوم بهما متطوعًا إذا استطعت ومن يفعل ذلك يقبل الله هذا العمل منه وهو يحصيه له وسيجزى عليه جزاءً أوفى يومًا ما.

كلمة "الشكر" مثل "الصلوة" و"التوبة" من الكلمات التي يتغير معناها بتغير النسبة فإذا عزيت إلى العبد فهي تعني تقديم الشكر منه لله تعالى ولكنها إذا عزيت إلى الله فهي تعني قبول هذا الشكر منه تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾

هذه إشارة إلى اليهود ولو أن المراد من "البينات" و"الهدى" في هذه الآية تعاليم عامة حاول اليهود أن يخفوها ولكن المحل يدل على أن قد أريد بها معالم وآيات أوضحها الله تعالى في التوراة لكي يفتن بها اليهود لنبي خاتم ولكنهم لم يستفيدوا منها بل حاولوا جهدهم لإخفائها وقد ذكرنا أمثلة لذلك فيما مضى من صفحات هذا الكتاب وهنا نحيل إلى الفصل الثامن لكتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" للأستاذ الإمام، الذي قد بحث فيه عن تحريفات اليهود عن المروة وأثبت مفصلاً ما هي التدابير التي

قاموا بها لمحو مذبج إبراهيم في التوراة وكيف قاموا بتشويه وجه كلمة المروة لكي يخلطوا الباطل بالحق بالنسبة للنبيوات عن النبي الخاتم.

ولكن إخفاء حقيقة كبرى والحال أنها قد اتضحت في كتابهم وقد أخذ منهم الميثاق لتقديمها للناس كما جاء في سورة آل عمران "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ" (سورة آل عمران: 187)، إخفاءها كانت جريمة كبرى لليهود استحقوا عليها لعنة الله عليهم وسلبوا أمانة الكتاب الرباني التي فوّضت إليهم وأعطيت لغيرهم من الناس.

وأما قوله في هذه اللعنة "يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" فسيأتي شرحه فيما بعد. ولنعلم أنه كما أن اصطفاء أمة لإمامة العالم نعمة كبرى من الله عزّ وجلّ فكذلك هذه اللعنة عذاب شديد من الله جل مجده فالقوم الذي ينزل عليه هذا العذاب يحرمون الهداية والإمامة فتضرب عليهم الذلة والمسكنة ولهم عذاب لازم في الآخرة وذلك لأنهم لا يضلّون أنفسهم بكتماهم الحق فحسب بل يضلّون غيرهم عن الصراط السوي بمحو المعالم الهادية عن الطريق.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٦﴾

هذا بيان من سيصان عن تلك اللعنة وهؤلاء من تابوا عن جريمة إخفاء الحق، ولكن اشترط هذه التوبة بـ"أصلحوا" وهذا يعني أن التوبة لا تقبل ما لم يصلح المرء ما ارتكبه من الخطأ وكذا اشترط بـ"بيّنوا" وهذا توضيح لـ"أصلحوا" نظراً للمحل أي بيّنوا ما أخفوه من الحقائق والبيّنات الموجودة في التوراة عن النبي الخاتم.

فيبدو من هذا أن خواص اليهود وعلمائهم على الأقل لم يكونوا جاهلين عن هذه التحريفات التي قد حدثت أو كانت تحدث تحت مؤامرة إخفاء الحق، ويستدل عليه بأن من قد دخل أو كان يدخل في الإسلام من علماء اليهود قد قاموا بكشف الغطاء عن مثل هذه التحريفات.

وصلة "على" في "أتوب عليهم" تشير إلى أنها تضمن معنى الرحمة أي أقبل توبة مثل هؤلاء فأرحمهم وقد أوضح هذا الجانب الخفي من الكلمة فقرة "أنا التواب الرحيم".

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٧﴾

والمراد من "إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار" هم الذين أصروا على ما فعلوا وماتوا وهم قد حرموا التوبة فالإصلاح فبدا من هذا أن إخفاء الحق جريمة ستبطل ما يقولون مما يتعلق بالدين وما يدعونه من الإيمان ومحبة الله تعالى، وسيستحقون لعنة الله وملائكته والناس أجمعين، وهنا ذكر لعنة الملائكة والناس أجمعين مع ذكر لعنة الله يوضح ما أجمل في الآية السالفة من "ويلعنهم اللاعنون" وكذا قيد "أجمعين" بـ"الناس" يوضح الأمر أنه لما ينكشف واقع الأمر يوم القيامة فلا يلعنهم الصالحون فحسب بل يلعنهم المجرمون الذين قد ضلّوا باتباع خطاهم.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٣٢﴾

أي لا يخفف العذاب الذي سيلقون فيه ولا تنقطع سلسلته ولا يجدون فرصة للراحة لثانية ما.

كتاب الأخبار للجاحظ

- امتياز علي العرشي¹

ترجمة من الأردوية: د. أرنك زيب الأعظمي²

كان الجاحظ أديباً عراقياً شهيراً ومتكلماً متصلتاً للمعتزلة ومؤسساً³ لفرقة خاصة تسمى بـ"الجاحظية". ولم يكن عالماً مكثراً للكتابة فحسب بل كان أديباً حلو الحديث وبلغ الكلام فقال عنه المسعودي:

¹ محقق هندي شهير

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي
³ كتب أبو حيان التوحيدي (ت404هـ/1013م) أولاً كتاباً مستقلاً عن الجاحظ بعنوان "تقريب الجاحظ" والآن لا يوجد ذلك الكتاب ولكن ذكر ياقوت الحموي مقتبساته في كتابه "معجم الأدباء". وفي العصر الحاضر كتب السيد خ-مردم بعنوان "الجاحظ" (حلب 1349هـ/1930م) وبنفس العنوان كتب السيد ت-كياني (دمشق)، وكتب شفيق الجبري بعنوان "الجاحظ معلم العقل والأدب" (القاهرة 1351هـ/1932م)، وكتب حسن السندوي بعنوان "أدب الجاحظ" (القاهرة 1350هـ/1931م) وكتب فؤاد أفرام البستاني بعنوان "الجاحظ" وبنفس العنوان كتب حنا الفاخوري (القاهرة، 1953م) عن الجاحظ. وقد كتب كتاب السيرة المؤرخون عن أحواله وعقائده ومصنفاته أو عن واحد منها وهي كما يلي:

ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص 71 (طبع في مصر عام 1326هـ)، والمسعودي، مروج الذهب، 344-345 (مصر، 1283هـ) والتنبيه والإشراف، ص 55 و76 (لندن، 1894م)، وأبو منصور البغدادي، الفرق بين الفرق (مصر، 1328هـ) ومختصر الفرق بين الفرق للرسعني، ص 117 (مصر، 1924م)، الشريف المرتضى، الأمالي، 1/138-142 (مصر، 1325هـ)، ابن حزم الظاهري، الفضل، ص 1954 (مصر، 1321هـ)، الخطيب، تاريخ بغداد، 12/212-222 (مصر، 1349هـ)، الشهرستاني، الملل والنحل، 1/52 (لندن، 1848هـ)، السمعاني، كتاب الأنساب، ص 118 (لندن، 1912م) و3/162 (حيدر آباد، 1963م)، ابن الأثير، نزهة الألباء، ص 254 (مصر، 1294هـ)، ياقوت الحموي، معجم الأدباء،

"لا يعلم أحدٌ من الرواة وأهل العلم أكثر كتبًا منه وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب، إلا أنَّ أبا الحسن المدائني كان يؤدّي ما سمع. وكتب الجاحظ. تجلّو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع، خوَج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة"¹.

اسمه ونسبه: هو أبو عثمان² عمرو بن بحر بن محبوب الكناني³ الملقب بالجاحظ والحدقي¹.

80-56/6 (مصر، 1913م) و114-74/16 (مصر، 1357هـ)، ابن الأثير، الكامل، 77/7 (مصر، 1290هـ)، ابن العربي، محاضرة الأبرار (مصر، 1282هـ)، القفطي، مختصر طبقات الأطباء، ص 274 و438 (لأستسك، 1320هـ)، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، 316/1 و32/2 (مصر، 1299هـ)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 553/1 (مصر، 1275هـ)، أبو الفداء، المختصر، 230/2 (كوبنهاغن، 1794م)، الذهبي، دول الإسلام، 109/1 (حيدرآباد، 1364هـ)، اليافعي، مرآة الجنان، 162/1 (حيدرآباد، 1338هـ)، ابن الكثير، البداية والنهاية، 19/11 (مصر، 1351هـ)، الأميري، حيوة الحيوان، 312/1 (مصر، 1330هـ)، المقرئ، الخطط والآثار، 348/2 (مصر، 1270هـ)، العسقلاني، لسان الميزان، 355/4 (حيدرآباد 1331هـ)، السيوطي، بغية الوعاة، ص 265 (مصر، 1326هـ)، ابن العماد، الشذرات، 121/2 (مصر، 1350هـ)، الخوانساري، روضات الجنات، ص 503 (إيران، 1307هـ).

وما كتب عنه جزئيًا من معاصرنا فهي كما يلي:

أمراء البيان، ص 411-487، آداب اللغة، ص 167، الفهرس التمهيدي، ص 550، مجلة لغة العرب، 26/9، البعثة المصرية، ص 40، الأعلام للزركلي، 239/5، معجم المؤلفين، 7/8 (دمشق، 1378هـ). يرجى النظر إلى المراجع الغربية:

تنمة فهرس المخطوطات العربية: 466 لريو، تاريخ الآداب العربية لبروكلمان، موسوعة الإسلام: 1785/2 (طبعة جديدة).

¹ المروج، 245/2

² كنيته أبو عمران في الكامل لابن أثير وتاريخ أبي الفداء. إن لم تكن هي خطأ مطبعيًا فينسب إلى ابن آخر.

³ يصّر بعض كتاب السيرة على أنه كناني النسل، ولكن المؤرخين القدماء كالخطيب وغيره أوضحوا أنَّ جدّه كان رقيقًا لأبي القلمس عمرو بن قلع من بني كنانة. واعتبره السيد بيلات (Pellat) حبشي النسل لأجل سواد لون الجاحظ وجده.

ولد بالبصرة عام 160هـ/776م² حيث تعلّم وتربّى ومن خلال النقاش والدراسة بها توسّعت ثقافته العلمية.

أما أساتذته في الأدب فهم أبو عبيد (ت209هـ/824م) وأبو زيد الأنصاري (ت215هـ/830م) وأبو الحسن الأخفش (ت215هـ/836م) والأصمعي (ت216هـ/831م)، وأما الحديث فقد تعلّمه على القاضي أبو يوسف (ت182هـ/798م) ويزيد بن هارون (ت206هـ/821م)، وأخذ علم الكلام من المعتزلي الشهير أبي إسحاق النظام (ت231هـ/845م) والذي كان مقيمًا لفرقة "النظامية"، كما حصل على علم اللغة الفصحى من الأعراب في مريد البصرة.

واشتهر من بين تلاميذ الجاحظ نفسه المبرد النحوي (ت285هـ/899م) ويموت بن المزّرع (ت304هـ/916م) وأبو بكر ابن أبي داؤد السجستاني (ت316هـ/929م).

وبعدما أنهى دراساته جعل يتجر بالخبز والسمك فقد رآه الناس بائعًا الخبز والسمك في سيحان³. ولكنه ذاع صيته في الآفاق لأجل الكتابة فأعانه الحكام والولاة لاسيما الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسي (ت247هـ/861م).

وكان إبراهيم الصولي (ت243هـ/857م) مسئولًا كبيرًا في ديوان الرسائل في عهد هارون الرشيد والمأمون. وقام الجاحظ مقامه في معظم الأحيان⁴. وذات مرة عينه المأمون مسئولًا كبيرًا لهذا الديوان. ولكن سرعان ما استقال الجاحظ عن تلك المسؤولية وقد

¹ يرجى النظر إلى ابن أبي الحديد، 451/2. ولقب بالجاحظ والحدقي لجحوظ عينيه وبروز حدقتيهما.

² نقل الحموي عن الجاحظ وهو يقول: إني أكبر من أبي نواس سنة وولدت في أول شهر المحرم عام 150هـ (767م) وولد هو في الأخير من نفس السنة. ولكن ذكر فيه العام 160هـ كما أعتقد. أولًا لأن الخطيب ذكر سنة مولد أبي نواس 146هـ ولم يذكر أي مؤرخ سنة بعد تلك السنة. وكتب جميع كتاب السيرة الآخرون أن عمر الجاحظ أكثر من 90 سنة وذكروا سنة الوفاة 250هـ و256هـ على الأقل و255هـ على الأكثر. فإذا اعتبر عمر الجاحظ 95 سنة وسنة وفاته 255هـ فيجب إقرار ولادته في عام 160هـ.

³ معجم الحموي، 74/16

⁴ المصدر نفسه، 84/16

كان سهل بن هارون (ت215هـ/830م) يقول: لو واطب الجاحظ على هذا المنصب لأفلت نجوم كافة الكتاب¹.

وعلى كل حال فقد بدأ الجاحظ يقضي رغد العيش بفضل المنحة الشهرية الصادرة من الخلافة، وجوائز الحكّام والولاة. فذات مرة سأله تلميذه ميمون بن هارون الكاتب الأخباري (ت297هـ/910م): هل لك أيّ عقارات في البصرة؟ فردّ عليه الجاحظ قائلاً²:

"إنما أنا، وجارية لي، جارية تخدمها، وخادم، وحمار. أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي داؤد، فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار. فانصرفت إلى البصرة، ومعني ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد".

وكذا أجاب على سائل آخر³:

"سألتني عن الجملة. فاسمعها مني واحداً واحداً. حالي أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري. ويواتر الخليفة الصلات إليّ. وأكل من لحم الطير أسمنها. وألبس من الثياب أليها. وأجلس على ألين الطبري. وأتكيء على هذا الريش. ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج".

فسأله الرجل عن الفرّج فردّ عليه الجاحظ:

"بل أحبّ أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن الملك بأمرني، ويختلف إليّ. فهذا هو الفرّج". وأصيب الجاحظ بالفالج والنقرس في نهاية أيام حياته فأوذى كثيراً ولحق به الضرر الشديد فذات مرة سأله المبرد عن حالته فقال:

"كيف يكون من نصفه مفلوج، لو نشر بالمناشير ما حسن به، ونصفه الآخر منقرس، لو طار الذباب بقربه لآلمه. والآفة في جميع هذا أني قد تجاوزت التسعين".

¹ المصدر نفسه، 78/16

² المصدر نفسه، 106/16

³ تاريخ بغداد للخطيب، 219/12 والحموي، 113/16

وبعدما عانى هذه الآفة لسنوات عدة وافته المنية بالبصرة في المحرم عام 255هـ/869م¹.

مكانته الأدبية والعلمية: ساءت سمعته كمحدث فقد ذكر الخطيب أنه لم يكن يصلي، ويروي أبو الفرج الأصفهاني أن الناس سمّوه زنديقاً، ويقول الثعلب إنه كان ممن لا يوثق به كما أنه يعتبره كذاباً، فقد اعترف أبو العيناء (ت282هـ/890م) بأنه قد وضع حديث الفدك بمساعدة الجاحظ ثم عرضه على شيوخ بغداد فقبله كل منهم إلا ابن شيبه ولكن صرح ابن حزم بأن لا يوجد شيء من أكاذيب الجاحظ في كتبه إلا أنه لا يحذر في نقل أكاذيب الآخرين².

كان الجاحظ معتزلياً وهو كان من تلاميذ النظام إلا أنه خالف أستاذه في العديد من المسائل وعلى هذا فهو يعتبر مؤسساً لفرقة جديدة تعزى إليه وتسمى "الجاحظية". أما ميزات تلك الفرقة فيصعب علينا تحديدها وبيانها وذلك لأن معظم كتبه الكلامية قد ذهب بها الدهر، وأما ما ألفه المعرضون من كتب ورسائل فلن يمكن اليقين بها لأنها تذكر أن الجاحظ كان يعتبر القرآن الكريم جسداً وكان يؤمن بأنه يقدر على أن يتحول إلى صورة إنسان أو بهيمة. ومن البديهي أن رجلاً حكيماً كالجاحظ لن يرجى منه أن يتلفظ بهذا³.

ويتصدر المعترفين بفخامة الجاحظ الأدبية اسم أبي الحسن ثابت بن قرة الحراني (ت288هـ/901م). وقد نقل الحموي عن كتاب "تقريظ الجاحظ" لأبي حيان التوحيدي أن الحراني كان يقول: إنني أغبط بثلاثة أفراد من الأمة العربية فقط؛ أولهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وثانيهم حسن البصري رحمه الله تعالى وثالثهم الجاحظ والأخير يتصف بما يلي⁴:

"خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومذره المتقدمين والمتأخرين."

¹ الخطيب، 219/12، والمروج، 344/2، وكتب مؤخر الذكر 256هـ أيضاً حسب بعض الكتاب.

² لسان الميزان، 355/4

³ يرجى النظر إلى كتب أبي منصور البغدادي وابن حزم والشهرستاني والمقريزي بشأن عقائد الجاحظ

⁴ معجم الحموي، 97/16

إن تكلم، حكى سحبان في البلاغة. وإن ناظر، ضارح النظام في الجدال. وإن جدّ، خرج في مسك عامر بن قيس. وإن هزل، زاد على مزيد.

حبيب القلوب، ومزاج الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب.

كتبه رياض زاهرة. ورسائله أفنان مثمرة.

ما نازعه منازع إلا راشاه أنفًا. ولا تعرض له منقوص إلا قدّم له التواضع استبقاءً.

الخلفاء تعرفه. والأمراء تصافيه وتنادمه. والعلماء تأخذ عنه. والخاصة تسلّم له. والعامّة تحبّه.

جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم.

طال عمره. وفشت حكمته. وظهرت خلّته. ووطئ الرجال عقبه. وتهادوا أدبه. وافتخروا بالانتساب إليه. ونجحوا بالاقتداء به.

لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب".

وهذا تعليق على الجاحظ من عالم لا يدين بالإسلام. وكان يقول أبو محمد الأندلسي إمام النحو واللغة والشعر والذي تلمذ لأبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي¹:

"رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضًا عن نعيمها".

وكتب ياقوت الحموي²:

"اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة وأبو زيد البلخي. فمنهم من يزيد لفظه على معناه: وهو الجاحظ. ومنهم من يزيد معناه على لفظه: وهو علي بن عبيدة. ومنهم من توافق لفظه ومعناه: وهو أبو زيد البلخي".

¹ أدب الجاحظ، ص 76

² المصدر نفسه، ص 67

أما فيما يتعلق باللفظ فالتعليق المذكور أعلاه على الجاحظ صحيح عندي مائة بالمائة. فهو يكثر تكرار الألفاظ والتفصيل. ولكن الحموي ذاته نقل أن "أبا زيد" كان مشهوراً بلقب "جاحظ خراسان". وفوق ذلك أن أديباً وكاتباً كبيراً مثل أبي الفضل ابن العميد (ت360هـ/970م) كان يسمي بـ"الجاحظ الثاني" فينقل قوله كما يلي¹:

"ثلاثة علوم، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس.

أما الفقه فعلى أبي حنيفة، لأنه دؤن وخلد. جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه.

وأما الكلام فعلى أبي الهذيل.

وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمعارضة، فعلى أبي عثمان الجاحظ".

ولا يخفى على أحد ما لابن دريد (ت321هـ/933م) من عظمة في مجال العلم والفن، فذات مرة ذكر له أحد زينة الدنيا فقال: "هذه الأشياء ترّوق العيون فقط فأضف إليها الأشياء التي تريح النفوس". فقال الحضرة: "اذكر أنت إن أمكن لك" فقال ابن دريد²:

"كتب الجاحظ، وأشعار المحدثين وطرائف أبي العيناء".

والقاضي الفاضل (ت596هـ/1400م) الذي يلقب بـ"سيد كتّاب العرب" يقول³:

"أما الجاحظ فما منا معاصر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحارة، وشنّ عليها الغارة، وخرج وعلى الكتف منها الكارة".

ونتهي ذكره الحسن بيتين من أستاذه النظم، كتبهما في تلميذه⁴:

حبي لعمر و جوهر ثابت وحبّه لي عَرَض زائل

¹ معجم الحموي، 102/16

² أدب الجاحظ، ص 76

³ شرح لامية العجم الصفدي، 281/1

⁴ أدب الجاحظ، ص 72

به جهاتي الست مشغولة وهو إلى غيري بها مائل
مؤلفاته ورسائله:

للجاحظ مؤلفات تفوق الحصر، وهي تزهو على 360 كتابًا. رآها سبط ابن الجوزي في
مكتبة ضريح الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى¹.
وضبطها السيد بيلات (Pellat) ما يزهو على 400 محيلًا إلى أريكا 2/1956 وقال: حتى
اليوم يتوفر منها 30 في صورة تامة بينما التي لم تتم عددها خمسون².
وفيما يلي نقد فهرس مؤلفات الجاحظ وتتصدرها التي ذكرها الجاحظ نفسه وتتلوها
التي ذكرها المترجمون حسب الترتيب الزمني وينتهي هذا الفهرس على بروكلمان:

الجاحظ: الحيوان

ذكر الجاحظ ما يلي من الكتب في مقدمة كتاب الحيوان:

1. إنكار بصيرة غنّام المرتدّ
سمّاه الحموي "كتاب عصام المريد" بينما ضبطه بروكلمان بـ "كتاب بصيرة غنّام
المرتد" ³.
2. حكاية قول العثمانية والضرارية (ط)⁴
أعتقد أن الجاحظ أشار هنا إلى كتابين وهما "كتاب العثمانية" و "كتاب مسائل
العثمانية" حسبما أشار إليه المسعودي (مروج الذهب، 2/158). وأما الحموي
وابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة، 1/362 و 2/136 و 332) فذكرا "كتاب
العثمانية" فقط. وكتب بروكلمان اسمين له، وهما "مقالات العثمانية"
و "الرسالة العثمانية" بينما يذكره ريو (تتمة الفهرس بالمتحف البريطاني 709)

¹ مقدمة كتاب التاج في أخلاق الملوك لأحمد زكي باشا، ص 37

² موسوعة الإسلام، 2/386 (طبعة جديدة).

³ قد أحرق غنّام في عام 225 هـ حسب قول الطبري (3/1302، طبعة أوروبا).

⁴ يراد "مطبوعة" بكلمة "ط"، جزئيًا كان أو كليًا.

باسم "كتاب في مقالة العثمانية". والنسخة المطبوعة توافق رأي المسعودي وأشار إليه ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث"، ص 71.

3. حكاية مقالة من أين وجوب الإمامة

ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (374/3) باسم "الإمامة"، ويسميه الحموي بـ"كتاب وجوب الإمامة" وأما بروكلمان فهو يذكره بعنوان "كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض".

4. كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن

ذكر الحموي اسمه "كتاب نظم القرآن" وأما حاجي خليفة فيسميه "نظم القرآن" فقط. وقد نقل عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص 136) واحدًا من مقتبسات الجاحظ ولعله مأخوذ من ذلك الكتاب.

5. كتاب الأخبار

كتب نشوان الحميري اسمه "كتاب الأخبار" في تفسير الحور العين (ص 80 ب). و"كتاب الأخبار المروية من رسول الله صلى الله عليه وسلم" (ص 86 ألف). وقد ذكر الحموي كتابًا آخر باسم "كتاب تصحيح الأخبار وكيف نصح" أيضًا. ويرى السندوسي أنهما و"كتاب تصحيح الأخبار" كتاب واحد لا غير.

6. كتاب أصحاب الإلهام

سمّاه الحموي "كتاب الردّ على أصحاب الإلهام".

7. كتاب الأصنام

اقتبس منه الدميري في حياة الحيوان (2/428، طبعة 1330هـ بمصر) ما يلي:
"رأيت أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال في كتاب له سمّاه بـ"كتاب الأصنام":
وخلف كنانة بن خزيمه على زوجة أبيه بعد وفاته، وهي برة بنت أدبن طانجة جدّ
كنانة بن خزيمه. ولم تلد الكنانة ولدًا، ذكرًا ولا أنثى. ولكن كانت ابنة أخيها برة بنت
أدبن طانجة تحت كنانة بن خزيمه. فولدت له النضر بن كنانة. وإنما غلط كثير

من الناس لما سمعوا أن كنانة خلفه على زوجة أبيه لاتفاق اسميهما وتقارب نسبيهما. وهذا الذي عليه مشائخنا وأهل العلم والنسب. ومعاذ الله أن يكون أصحاب نسب النبي صلى الله عليه وسلم نكاح مقت، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ما زلتُ أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من بين أبي وأمي ومن أعتقد غير هذا فقد كفر وشك في هذا الخبر. والحمد لله الذي نزهه عن كل وهم وطهره تطهيراً".

8. كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات

9. كتاب أصول الفتيا والأحكام

ذكره عبد القاهر الجرجاني في الفرق بين الفرق والرسعني في مختصره (ص 106 و 118) بعنوان "الفتيا" و"كتاب في الفتيا" بينما ضبطه الحموي بـ"كتاب الفتيا" وبروكلمان بـ"رسالة الفتيا".

10. كتاب الأوفاق والرياضات

11. كتاب الجوابات

الكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب جوابات كتاب المعرفة" هو نفس الكتاب كما يبدو لي. وقد ذكر ريو كتاباً باسم "كتاب المسائل والجوابات في المعرفة". أعتقد أنه نفس الكتاب.

12. كتاب الحجة في تثبيت النبوة (ط)

ذكره الجاحظ في الحيوان (50/6) باسم "كتاب النبوات" كما ذكره عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص 208) باسم "كتاب النبوة". والكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب الحجر والنبوة" هو نفس الكتاب على ما أعتقد إلا أن السندوبي اعتبرهما كتابين أي "كتاب الحجة" و"كتاب الحجر". وقد ضبطه ريو في الفهرس (709) باسم "كتاب في حجج النبوة".

13. كتاب الحيوان (ط)

وقد ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (28/1) وغيره من الكتب والرسائل.

14. كتاب في خلق القرآن

15. كتاب في الرد على الجهمية في الإدراك وقولهم في الجهات

16. كتاب في الرد على المشبهة (ط)
ولعل بروكلمان سمّاه بـ "رسالة في نفي التشبيه".
17. كتاب الرد على النصراني واليهودي (ط)
ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص 72)، وذكر الحموي كتابين مستقلين بـ "كتاب الرد على النصراني" و "كتاب الرد على اليهود". ويتبعه السندوبي وبروكلمان إلا أن بروكلمان اعتبر "كتاب الردّ على النصراني واليهودي" عملاً مستقلاً بذاته. وأرى أن هناك كتابين للجاحظ في الرد على النصراني واليهود، جمع ذكرهما هنا. فيوجد كتاب مستقل بذاته باسم "ردّ النصراني" في المتحف البريطاني.
18. كتاب الزرع والنخل
ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (1/93 (230/1، طبعة جديدة) أيضاً.
19. كتاب الصُّرَحَاءِ وَالْهَجَنَاءِ
ذكره الجاحظ في مقدمة "فخر السودان على البيضان".
20. كتاب العباسية (ط)
ذكر المسعودي نفس الكتاب باسم "كتاب إمامة ولد العباس"¹، ويتبعه السندوبي وبروكلمان، ويذهب مذهبه الحموي إلا أنه كتب "بني" في محل "ولد". وأما النسخة المطبوعة فعنوانها "رسالة في العباسية" وهي مختلفة عن هذه كلها.
21. كتاب العرب والعجم
وما ذكره الجاحظ في الحيوان (3/7) من كتاب باسم "تفضيل العجم على العرب"² والحموي باسم "كتاب التسوية بين العرب والعجم" هو نفس هذا الكتاب على ما أظن.
22. كتاب العرب والموالي

¹ مروج الذهب، 2/157

² الحيوان، طبعة عبد السلام محمد هارون

- أشار إلى هذا الكتاب ابن عبد ربه في العقد (367/3) باسم "كتاب الموالي والعرب" وفي 83/7 باسم "كتاب الموالي". وما ذكره بروكلمان من كتاب باسم "فضل الموالي على العرب" محيلاً إلى "الفرق بين الفرق" (ص 162)، هو نفس هذا الكتاب كما أعتقد.
23. كتاب الفرق بين اعتراض القمر وبين استبصار المحق
لم يذكر هذا الكتاب أحد سوى الجاحظ.
24. كتاب فرق ما بين الجن والإنس
25. كتاب الفرق ما بين الملائكة والجن
26. كتاب الفرق ما بين الحيل والمخاريق
27. كتاب فرق ما بين النبي والمتنبي
سمّاه الحموي "كتاب النبي والمتنبي".
28. كتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس (ط)
ذكر الحموي اسمه "كتاب الفخر ما بين هاشم وعبد شمس" وتبعه السندوبي أيضاً. وسمّاه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (306/1 و239/2 و246 و294) بـ "كتاب مفاخرة هاشم وعبد شمس" وفي (13/2) بـ "كتاب مفاخرات قريش"، ونقل منها مقتبسات طويلة. سمّاه بروكلمان بـ "كتاب فضل هاشم على عبد شمس" وهذا هو عنوان النسخة المطبوعة أيضاً.
- ونقل الحصري اقتباساً طويلاً للجاحظ بعنوان "فصل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في ذكر قريش وبني هاشم" في زهر الآداب {العقد الفريد، 53/1 (الهامش)}.
29. كتاب فضل ما بين الرجال والنساء والفرق ما بين الذكر والأنثى
ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (77/1) باسم "فصل ما بين الذكر والأنثى" وفي (92/1) باسم "كتاب الرجل والمرأة".
30. كتاب القحطانية
أشار إلى هذا الكتاب ابن عبد ربه في العقد (231/6) باسم "فخر قحطان على عدنان" ويسمّيه الحموي بـ "كتاب فخر القحطانية والعدنانية".

31. كتاب العدنانية في الرد على القحطانية
ذكره الجاحظ في الحيوان (3/7) باسم "تفضيل عدنان على قحطان".
32. كتاب المسائل
ذكره الجاحظ بنفس الاسم في كتاب البخلاء (26/1)، وذكر الحموي كتاباً آخر للجاحظ باسم "كتاب مسائل كتاب المعرفة". وأعتقد أن "كتاب المسائل في المعرفة" أصبح كذلك لأجل الخطأ الواقع في الكتابة.
33. كتاب المعاد والمعاش (ط)
ضبط ريو اسمه في الفهرس (709) "كتاب في المعاد والمعاش" بينما ذكره بروكلمان باسم "رسالة المعاد والمعاش".
34. كتاب المعادن والقول في جواهر الأرض
35. كتاب في الوعد والوعيد (ط)
ذكره الجاحظ في الحيوان (3/7) باسم "إيجاب الوعد والوعيد" بينما يذكره الحموي بـ "كتاب الوعد والوعيد". والكتاب الذي ذكره ريو باسم "رسالة في استيجاز الوعد" في الفهرس (710) وأما ما ذكره السندوبي وبروكلمان من كتاب باسم "رسالة في استيجاز الوعد والوعيد" هو نفس هذا الكتاب على ما أعتقد.
36. مفاخرة السودان والحرمان (ط)
ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (71). وكتب المسعودي اسمه "فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان" في مروج الذهب (39/1). والكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب السودان والبيضان" والسندوبي باسم "رسالة في فخر السودان على البيضان" وبروكلمان باسم "فخر السودان على البيضان" هو نفس هذا الكتاب والحال أن بروكلمان يعتبره كتابين مستقلين.
37. المعارضة للزيدية
ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (71). وذكر الحموي كتاباً باسم "كتاب حكاية قول أصناف الزيدية" وذهب مذهبه السندوبي وبروكلمان. أعتقد أنه نفس هذا الكتاب ولكن السندوبي يعتبرهما كتابين مستقلين.

38. تفضيل الاعتزال على كل نحلة
ذكر الحموي وتبعه بروكلمان كتابين باسم "كتاب الاعتزال وفضله" و"كتاب فضيلة المعتزلة" ولكن السندوبي يعتبرهما كتابًا واحدًا.
39. موازنة ما بين حق الخُولة والعُمومة
40. الهاشميات
- ذكره الجاحظ في الطبعة الجديدة من كتاب الحيوان (رتبه عبد السلام محمد هارون).
41. كتاب حيل اللصوص
- كتب الجاحظ اسمه "كتاب في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل" في كتاب البخلاء (17/1). ويكتب البغدادي في الفرق بين الفرق (ص 162) والرسعي في مختصره (ص 118) اسمه "كتاب في حيل اللصوص" بينما ذكره بروكلمان باسم "حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياه".
42. كتاب غش الصناعات
- ذكره البغدادي والرسعي والحموي بنفس الاسم.
43. كتاب الملح والطرف
- لم يذكره سوى السندوبي.
44. كتاب احتجاجات البخلاء (ط)
- كتب جميع كتاب ترجمته أن اسمه "كتاب البخلاء" وتم طبعه بنفس الاسم.
45. القول في الفرق بين الصدق والكذب
46. الفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة
- وجاء في الحيوان (149/1) ما يلي من الكتاب:
47. كتاب الاسم والحكم
- ذكره بروكلمان بنفس الاسم. وتم ذكر الكتب الآتية في الحيوان (3/7):
48. تفضيل علي رضي الله عنه
- ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص 71).

49. تصويب الحكمين (ط)
ضبط الحموي اسمه "كتاب تصويب علي في تحكيم الحكمين" وأما بروكلمان
فقد ذكره باسم "رسالة إلى أبي حسان في أمر الحكمين وتصويب رأي أمير
المؤمنين". واقتبس منه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (406/1 و 560/2).
50. تقديم الاستطاعة
سمّاه الحموي بـ"كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال".
51. تثبيت الأعراض
52. تفضيل البصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشام على الجريزة
53. تفضيل عمرو على واصل
54. تفضيل مالك على أبي حنيفة
55. تفضيل امرئ القيس على النابغة، وعامر بن الطفيل على عمرو بن معديكرب،
وعباد بن الحسين على عبيد الله بن الحر
56. تفضيل ابن سريج على الغريص
57. تفضيل سيويه على الكسائي
58. تفضيل الجعفري على العقيلي
59. تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية
60. تفضيل قتادة على الزهري
الجاحظ: البيان والتبيين
ذكر الجاحظ الكتب الآتية في كتاب "البيان والتبيين":
61. كتاب الأسماء والكنى والألقاب والأنباز
62. أبناء السراري والمهيرات
63. كتاب الجوارح
لم يذكرها أحدٌ سواه.
64. كتاب العُرجان
ذكر الحموي اسمه "كتاب العرجان والبرصان" وزاده السيوطي بـ"والقرعان".

65. كتاب الإنسان

كتب عبد السلام محمد هارون في هامش تحقيقه (186/1) أن عنوانه "كتاب الإنسان من كتاب الحيوان" يوجد في جميع الكتب إلا في مخطوطة واحدة وهذا يعني أن الجاحظ قد جعل كتاب الإنسان جزءًا لكتاب الحيوان.

الجاحظ: استحقاق الإمامة

66. كتاب الرافضة

ذكره الجاحظ في "كتاب في استحقاق الإمامة" و"بيان مذاهب الشيعة" كما توجد نصوصه في تأويل مختلف الحديث (ص 71) لابن قتيبة. وأعتقد أنه هو الكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة" وبروكلمان باسم "مقالة الزيدية والرافضة" بناءً على شهادة ريو.

67. بيان مذاهب الشيعة (ط)

لم يذكره الجاحظ ولكنه ذكر فيه مؤلفه "كتاب الرافضة". فيثبت أنه من مؤلفات الجاحظ والذي أقره هو بنفسه.

68. كتاب في استحقاق الإمامة (ط)

لم يذكره الجاحظ أيضًا في أي من كتبه ولكنه أحال إلى "كتاب الرافضة" فيمكن أن يقال أنه من مؤلفاته.

69. البيان والتبيين (ط)

لم يذكره الجاحظ أيضًا ولكنه أحال فيه إلى الكتب التي ذكرت في كتاب الحيوان فأعتبره من مؤلفات الجاحظ التي ذكرها هو بنفسه.

ابن قتيبة:

ذكر ابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ) الكتاب الآتي في تأويل مختلف الحديث (ص 72):

70. حجج النصارى على المسلمين

أعتقد أنه نفس الكتاب الذي ذكره السندوبي باسم "كتاب النصراني واليهودي".

ابن عبد ربه:

ذكر ابن عبد ربه (ت 328هـ) الكتاب الآتي في العقد الفريد (2/236، طبعة جديدة):

71. كتاب الأدب

لعل الحموي والسندوبي سَمَّياه بـ"كتاب عناصر الآداب" كما سَمَّاه بروكلمان بـ"عناصر الآداب".

المسعودي: المروج

ذكر المسعودي (ت346هـ) الكتب الآتية في مروج الذهب:

72. كتاب الطفيليين¹

نقل ابن عبد ربه حادثة أبي الفلوسكي من نفس الكتاب في العقد الفريد (343/3)، على ما أظن.

73. كتاب أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان²

اعتبره الحموي "كتاب إمامة معاوية".

74. الهاشمية³

سَمَّاه المسعودي باسم آخر وهو "كتاب تفضيل صنعة الكلام". ويسمَّيه الحموي بـ"كتاب صياغة الكلام" بينما يضبطه السندوبي باسم "كتاب صناعة الكلام" ويقول: لعله "تفضيل صناعة الكلام" ثم ذكر "كتاب فضيلة الكلام" نقلاً عن ابن النديم وقال: إنه "تفضيل صناعة الكلام" كما أعتقد.

وكتب القفطي في تاريخ الحكماء (274) بشأن زكريا الرازي أنه أيضاً ألَّف كتاباً باسم "كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضيلة الكلام". وأشار نشوان الحميري إلى كتاب الجاحظ "صناعة الكلام" في تفسير الحور العين (68 ب) كما نقل الحصري قول الجاحظ عن صناعة الكلام في زهر الآداب {العقد الفريد، 167/3 (الهامش)}. وأعتقد أن هذه المقتبسات تتعلق بـ"الهاشمية".

75. كتاب الأمصار

سَمَّاه المسعودي نفسه بـ"كتاب الأخبار عن الأمصار وعجائب البلدان" في التنبيه والإشراف (ص 55). ويكتب حاجي خليفة "كتاب الأمصار" فقط في كشف الظنون

¹ مروج الذهب، 345/2

² المصدر نفسه، 158/2

³ المصدر نفسه، 405/2

ويذكره السندوبي بنفس الاسم ويكتب "عجائب البلدان" باسم منفرد "كتاب البلدان".
وسجل بروكلمان اسمه "كتاب الأوطان والبلدان" بناءً على شهادة الدكتور ريو.

أبو منصور البغدادي:

ذكر أبو منصور البغدادي (ت429هـ) في الفرق بين الفرق (ص 133، و158، و162،
و182) وذكر الرسعي في مختصره (ص 106، و118) الكتب الآتية:

76. كتاب في القحاب

77. كتاب في الكلاب

78. كتاب في اللطة

اعتبر بروكلمان هذه الكتب الثلاثة كتابًا واحدًا. وأما السندوبي فقد ذكر
الكتابين الأولين فقط.

79. كتاب في النواميس

حذف السندوبي وبروكلمان حرف الجر "في" من اسمه.

80. كتاب المعارف

81. كتاب المضاحك

82. جيل المكّدين

الحصري:

ذكر أبو إسحاق الحصري (ت453هـ) الكتب الآتية في ذيل زهر الآداب:

83. رسالة إلى المعتصم في الحض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الآداب (ط)

نقل الحصري هذه الرسالة كاملاً في ذيل زهر الآداب (ص 116-120).

84. رسالة الطول والعرض (ط)

ذكر الحصري في الذيل (ص 211)، وكتب له اسمين: "رسالة التوسع وللتدوير"

و"رسالة المفاكهات". أعتقد أنه "كتاب الترييع والتدوير" الذي ذكره الحموي وتم

طبعه باسم "الترييع والتدوير". وأصبح "الترييع" "التوسع" لوهم الكاتب.

الجرجاني:

ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) الكتاب الآتي في دلائل الإعجاز:

85. كتاب في البلاغة

أعتقد أنه نفس الكتاب الذي ذكره ريو باسم "رسالة في البلاغة والإيجاز".

الميداني:

ذكر الميداني (ت518هـ) الكتاب المذكور أدناه في مجمع الأمثال (49/2، طبعة أوروبا)¹:

86. أطعمة العرب

الحموي:

أضاف الحموي (ت626هـ) الكتب الآتية في معجم الأدباء:

87. كتاب آي القرآن

88. كتاب الإبل

89. كتاب أبي النجم وجوابه

ضبط السندوبي اسمه "رسالة إلى أبي النجم وجوابه".

90. كتاب إحالة القدرة على الظلم

91. كتاب أحداث العالم

92. كتاب الأخطار والمراتب والصناعات

93. كتاب أخلاق الشُّطَّار

94. كتاب أخلاق الملوك (ط)

هكذا في كشف الظنون، ولكن نشره أحمد زكي باشا بعنوان "كتاب التاج في

أخلاق الملوك" بناءً على مخطوطة.

95. كتاب الإخوان

96. كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب

97. كتاب في الأسد والذئب

حذف السندوبي وبروكلمان حرف الجر "في".

98. كتاب افتخار الشتاء والصيف

99. كتاب الإمامة على مذهب الشيعة (ط)

¹ بروكلمان، تنمة 245/1 رقم 48

يرى السندوبي أن هذا الكتاب طبع باسم "بيان مذاهب الشيعة".

100. كتاب الأمثال
101. كتاب أمهات الأولاد
102. كتاب الإنس والسلوة
103. كتاب تحصين الأموال
104. كتاب التفاح
105. كتاب التفكير والاعتبار
- سمّاه الدكتور ريو في تنمة فهرس المخطوطات العربية بالمتحف البريطاني (464) وتبعه بروكلمان "كتاب العبر والاعتبار" وأما السندوبي فيسمّيه بـ "كتاب الدلائل والاعتبار".
106. كتاب التمثيل
107. كتاب جمهرة الملوك
108. كتاب الجوّاري (ط)
- كتب بروكلمان اسمين آخرين له: "مفاخرة الجوّاري" و"مفاخرة الغلمان والجوّاري".
109. كتاب الحاسد والمحسود (ط)
- كتب الدكتور ريو نفس الاسم ولكن سجّل اسمه "رسالة في الحسد" في كشف الظنون و"رسالة الحاسد والمحسود" على غلافه المطبوع.
110. كتاب حانوت عطار
111. كتاب الحزم والعزم
112. كتاب خصومة الحَوْل والحَوْر
- كتب بروكلمان "القول" في محل "الحول" وهو وهم منه.
113. كتاب ذم الزنا
114. كتاب ذوي العاهات
115. كتاب الرد على من ألحد في كتاب الله

116. كتاب الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزأ
117. كتاب السلطان وأخلاق أهله
118. كتاب الشارب والمشروب (ط)
- كتب السندوبي "رسالة" في محل "كتاب" وأما بروكلمان فترك كليهما.
119. كتاب الصَّوَالِجَة
120. كتاب العالم والجاهل
121. كتاب الفتیان
- ذكر عنوانه "كتاب أخلاق الفتیان وفضائل أهل البطالة" في مقدمة "كتاب التاج في أخلاق الملوك".
122. كتاب فضل العلم
123. كتاب فضل الفرس
- كتب السندوبي وبروكلمان اسمه "كتاب فصل الفرس على الهملاج". واعتبره الحموي كتابًا مستقلًا باسم "كتاب على الهملاج". وأعتقد أنه وهم من الكاتب الحموي. والصواب "كتاب فضل الفرس على الهملاج" والذي جعل كتابين من خلال التقسيم. والجدير بالذكر أن المصحح قد قرأ "الْفُرْس" بمعنى أهل فارس في محل "الْفُرْس" في طبعة جديدة من معجم الأدباء.
124. كتاب القُوَاد (ط)
- نقله الشهاب الخفاجي كاملاً في كتابه "طراز المجالس" (67-73) وسمّاه بـ"صناعات القواد". ويذكره بروكلمان باسم "رسالة في ذمّ القواد" والعنوان في النسخة المطبوعة هو "رسالة في صناعات القواد".
125. كتاب الكبر المستحسن والمستقبح
126. كتاب المخاطبات في التوحيد
- كتب ابن أبي الحديد اسمه "كتاب التوحيد" في شرح نهج البلاغة (2/465) ونقل منه نصًّا واحدًا بينما ترك بروكلمان كلمة "كتاب".
127. كتاب المزاح والجد (ط)

- ضبط بروكلمان اسمه "رسالة في الجد والهزل" بناءً على شهادة ريو.
128. كتاب مسائل القرآن
يذكره بروكلمان باسم "كتاب القرآن".
129. كتاب المعلمين (ط)
أضاف ريو حرف الجر "في" إلى فهرسه (709) وأما بروكلمان فذكره باسم "رسالة في المعلمين".
130. كتاب المغنيين
كتب ريو اسمه "كتاب في طبقات المغنيين" في فهرسه (709). ويذكره بروكلمان والسندوبي باسم "رسالة في طبقات المغنيين".
131. كتاب المقيّنين والغناء والصنعة
التبس اسم الكتاب على السندوبي فجعله "كتاب المغنيين" ولكن صرّح المصحح للطبعة الجديدة من معجم الحموي أن هذا الكتاب لم يكتبه الجاحظ عن المغنيين بل كتب عن المقيّنين. والمقين هو اسم الفاعل لـ "تقيين" ومعناه تعليم الجوّاري فنّ الأغنية.
132. كتاب في المكاتب
تبعه الحموي والسندوبي ضابطين اسمه "كتاب آل إبراهيم بن المدير في المكاتب" ولكن حوّل بروكلمان من "آل" إلى "إلى" وأعتقد أن الصواب يرجع إليه.
133. كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية
134. كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك (ط)
كتب السندوبي وبروكلمان اسمه "رسالة إلى فتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة" بناءً على شهادة ريو (709).
135. كتاب الناشي والمتلاشي
كتب بروكلمان اسمه "كتاب اللاشي والمتلاشي".
136. كتاب النرد والشطرنج
137. كتاب النساء (ط)

- ما نقله ابن القيم الجوزية من أقوال الجاحظ في أخبار النساء (ص 20 و 113) هي مأخوذة من هذا الكتاب حسبما أعتقد. وذكر السندوبي وبروكلمان كتابًا باسم "رسالة في العشق والنساء" على شهادة ريو ولعله نفس هذا الكتاب.
138. كتاب النعل
139. كتاب نقض الطب
- ذكر ابن القفطي في أخبار الحكماء (ص 274 و 438) كتابين تمّ تأليفهما في الرد عليه.
140. كتاب نوادر الحسن
141. كتاب الوكلاء والموكلين (ط)
- يضبطه ريو (709) باسم "كتاب في الوكلاء"، والسندوبي باسم "كتاب الوكلاء" وبروكلمان باسم "رسالة في الوكلاء".
142. كتاب الهدايا
- ما ذكره الحصري في زهر الآداب (حاشية العقد، 189/1) من مقتبسات عن الجاحظ هو من هذا الكتاب على ما أظن.
143. رسالة في إثم السكر
144. رسالة في امتحان عقول الأولياء
145. رسالة في الأمل والمأمول
146. رسالة في الحلبة
- حذف السندوبي وبروكلمان حرف الجر "في".
147. رسالة في الخراج
148. رسالة في ذم الكُتّاب (ط)
- كتب السندوبي وبروكلمان اسمه "رسالة في ذم أخلاق الكُتّاب".
149. رسال في ذم النبيل
150. رسالة في ذم الورّاق
- سمّاه السندوبي وبروكلمان بـ "رسالة في ذم الورّاقة".

151. رسالة في الرد على القولية
152. رسالة في العفو والصفح
ضبطه بروكلمان باسم "كتاب".
153. رسالة في فرط جهل يقعون بن إسحاق الكندي
154. رسالة في فضل اتخاذ الكتب
155. رسالة في القضاة والولاة
156. رسالة في القلم
157. رسالة في كتمان السر (ط)
أضاف بروكلمان "وحفظ اللسان".
158. رسالة في الكوم
159. رسالة في الكيمياء
- سمّاه الحموي "كتاب رسالة في كتاب الكيمياء" ولكن أعتقد أن الكاتب أضاف
كلمة "كتاب" وهمًا. والصواب ما اخترته أنا والسندوي وبروكلمان.
160. رسالة في مدح الكتاب
161. رسالة في مدح النبيل
162. رسالة في مدح الوراق
كتب السندوي "الوراقة" في محل "الوراق".
163. رسالة في من يستئ من الشعراء عمرًا
164. رسالة في موت أبي حرب الصفار البصري
165. رسالة في الميراث
بدأ بروكلمان اسمه بـ "كتاب".
166. الرسالة اليتيمة
- ابن العربي:
- ذكر محيي الدين ابن العربي (ت638هـ) في مقدمة محاضرة الأبرار ما يلي من الكتاب:
167. كتاب المحاسن والأضداد (ط)

نسب ابن العربي هذا الكتاب إلى الجاحظ وأقره حاجي خليفة في كشف الظنون والبغدادي في خزانة الأدب (10/1) وغيره من مؤلفات الجاحظ.

ابن أبي الحديد:

ذكر ابن أبي الحديد (ت656هـ) الكتاب الآتي في شرح نهج البلاغة (36/1) وغيره:

168. كتاب السفينانية

كتب أبو عبد الله البصري (شرح نهج، 539/1) وابن أبي الحديد نفسه (شرح نهج، 62/1، 198، 239) في ردّه باسم "نقص كتاب السفينانية" الذي توجد مقتبساته الطويلة في شرح نهج البلاغة.

أبو الفداء:

ذكر أبو الفداء (ت732هـ) الكتب الآتية في تاريخه:

169. كتاب الغلمان

170. كتاب في الفرق الإسلامية

لا يبعد أنه "بيان مذاهب الشيعة".

النويري:

نقل النويري (ت733هـ) مقتبس كتاب الجاحظ الآتي في نهاية الإرب (134/3):

171. زجر الطير

أخبر بروكلمان¹ بأن مخطوطة واحدة للجاحظ صينت باسم "باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس" في ليدن. أعتقد أنه نفس هذا الكتاب.

الصفدي:

ذكر الصفدي (ت764هـ) الرسائل الآتية في شرح لامية العجم (241/2):

172. رسالة في مفاخرة المسك والرماد

وكذا نقل مقتبس الرسالة المذكورة أدناه في الشرح المذكور أعلاه (380/2):

173. رسالة في تفضيل النطق على الصمت (ط)

¹ تتمة تاريخ آداب العربية، 244/1 رقم 45.

توجد مخطوطة للكتاب في المتحف البريطاني.

ابن كمال باشا:

ذكر ابن كمال باشا (ت940هـ) الكتاب الآتي في مقدمة رجوع الشيخ إلى صباه:

174. كتاب العرس والعرائس

ذكر نفس الاسم في كشف الظنون ولكن ضبطه بروكلمان بـ "كتاب العرس العروس" نقلاً عن الكشف.

حاجي خليفة:

ذكر صاحب كشف الظنون الكتب الآتية:

175. ديوان جاحظ

176. مائة كلمة لأمر المؤمنين علي كرم الله وجهه (ط)

ذكره بروكلمان باسم "مائة أمثال علي".

177. كتاب الطبائع

كتب السندوبي اسمه "كتاب أفعال الطبائع".

الخفاجي:

ذكر الشهاب الخفاجي (ت1069هـ) الكتب الآتية من مؤلفات الجاحظ في كتابه

طراز المجالس:

178. كتاب استطالة الفهم

يوجد مقتبسه في الطراز (104).

179. رسالة في وصف العوام

نقل مقتبسه في الطراز (175).

180. كتاب الحجاب (ط)

تم نقله كاملاً في الطراز من (73) إلى (97). وأضاف بروكلمان "وذمة" إلى اسم هذا

التأليف الأخير. ويسميه السندوبي بـ "كتاب الحجات" وهمًا.

البغداددي:

ذكر عبد القادر البغداددي (ت1093هـ) الكتب الآتية للجاحظ في خزانة الأدب

(ص 101 و477):

181. شرائع المرأة

182. كتاب الشعر والشعراء

الدكتور ريو:

ذكر الدكتور ريو الكتب الآتية للجاحظ في تنمة فهرس المخطوطات العربية

بالمتحف البريطاني (709):

183. كتاب الجوابات في الإمامة (ط)

184. كتاب في تفضيل البطن على الظهر (ط)

كتبه السندوبي "رسالة".

185. رسالة في المودة والخلطة

186. كتاب في النبل والتنبل وذم الكبر

187. طبقات المغنيين

السندوبي:

أضاف السندوبي الكتب الآتية إلى فهرس مصنفات الجاحظ:

188. رسالة في بني أمية (ط)

189. رسالة في القيان (ط)

طبع السندوبي هذه الرسالة.

190. الحنين إلى الأوطان

191. رسالة في مدح النجار وذم عمل السلطان (ط)

192. كتاب فخر عبد شمس ومخزوم

بروكلمان:

ذكر الدكتور بروكلمان الكتب الآتية للجاحظ في تاريخه:

193. رسالة في النابتة (ط)

194. رسالة في ذم العلوم ومدحها

195. رسالة في الفصل ما بين العداوة والحسد (ط)

196. رسالة في مدح الخطب والخط على جمعها

197. ذم اللواط

198. رسالة في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة
199. رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دواد الأيادي
200. رسالة في فنون شتى مستحسنة
201. سحر البيان
202. التبصر بالتجارة (ط)
203. القول في البغال ومنافعها (ط)
- طبعت هذه الرسالة باسم "كتاب البغال".
204. كتاب الفرق في اللغة
205. كتاب أئمة العرب
206. كتاب المذاهب
- لا يبعد أنه "بيان مذاهب الشيعة" أو "الفرق الإسلامية".
207. المختار من كلام الجاحظ
- يبلغ عدد كتب الجاحظ إلى 207. ولا أعتبر أن أكثر كتبه مستقلة. وربما أخطئ فيها. وبناءً على هذا فلا يبعد أن يزيد على هذا المجموع ولكن سيكون أقل بكثير مما ذكره المؤرخون. ولعل الله يوفق أحدًا فيقوم باكتشاف مجموعة أخرى من رسائله. ولا يخلو من الإمتاع أن نذكر هنا أن الجاحظ قد ألف عدة كتب في البداية ثم نشرها باسم المشاهير كابن المقفع فقد كتب المسعودي في "التنبيه والإشراف 76": "كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم وينسبه إلى نفسه، فلا يرى الأسماع تصغي إليه ولا الإرادات تيمم نحوه. ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة، ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومن قد طارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى نسخها لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين".
- فانتقلت القدرة منه حتى طبع الغشاشون فيما بعد كتبهم باسمه وقد كشف القناع عما يأتي منها:
208. كتاب الإبل
- وقال الحموي عنه "ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه".

209. كتاب الهدايا
رأه الحموي بأنه منحول.
210. كتاب التاج في أخلاق الملوك
طبع هذا الكتاب من مصر عام 1332هـ/1914م مع تصحيح أحمد زكي باشا.
ويؤكد المصحح أنه تأليف الجاحظ ولكن السندوبي يرى أن أسلوبه لن يكون
للجاحظ، بل هو إنتاج مؤلف من القرن الخامس الهجري.
إذ أن السبك يتعلّق بالذوق والوجدان فقط فلا يكون حكم الذوق صحيحاً دائماً
فلذا سأكون حذراً في قبول حكمه إلى أن أظفر بشهادة مادية.
211. كتاب تنبيه الملوك والمكايد
ولا يقبله السندوبي أيضاً كمؤلف الجاحظ بناءً على أسلوب الكتاب.
212. كتاب الحنين إلى الأوطان
ولا يقبله السندوبي أيضاً بناءً على السبب المذكور أعلاه. وذكر الحموي في معجم
الأدباء (8/15) أنه من مؤلفات أبي حيان التوحيد.
213. كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والآثار
يقرّه السندوبي من مؤلفات الحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ/857م) وتوجد
مخطوطة له في المتحف البريطاني منسوخة في عام 1258هـ/1842م.
214. كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف
أما مخطوطة الكتاب الذي تم طبعه منها فهي منسوخة في عام 441هـ فينبغي أن
تكون هذه الشهادة القديمة لها قيمة فيما يبدو، ولكن السندوبي أثبت من خلال
الشواهد الداخلية أنه ليس من مؤلفات الجاحظ، فقد نقلت فيه أشعار ابن
المعتر (ت296هـ/909م) وهو كان ابن ثمان سنوات حين وفاة الجاحظ.
215. كتاب المحاسن والأضداد
اعترف به ابن العربي، كما مضى، واعتبره بعض المتقدمين من كتب الجاحظ، ولكن
السندوبي يرى أنه لا يمكن أن يكون من صنع يديه لأنه نقل فيه أيضاً أشعار ابن المعتر.
ومع ذلك ذكر فيه إساءة القرامطة إلى حجاج بيت الله وهي من حوادث عام 294هـ.

كتاب الأخبار

قد ذكر "كتاب الأخبار" فيما بين مؤلفات الجاحظ المعترف بها. ولا وجدت حتى الآن أية نسخة من هذا الكتاب ولا ذكر أحد من المتقدمين مقتبساته وعلى هذا فلم يتعين حتى الآن ما هو موضوعه.

ومن حسن المصادفة أني عثرت على مقتبسين طويلين من كتاب الأخبار حين قراءة مخطوطة كتاب "تفسير الحور العين" للقاضي أبي الحسن نشوان بن سعيد الحميري (ت573هـ/1178م)، نقلهما نشوان استشهادًا على المباحث المختلفة. ويتعلق جزء منهما بمقدمة كتاب الأخبار بينما يتصل الجزء الآخر بنفس الموضوع، ويتضح منهما أن موضوعه النقد العقلي على الأحاديث.

وقال الجاحظ في مقدمته إن التاريخ يدلّ على أن الأقوام التي حكمت على الأقوام المعاصرة في رقيّ ثقافتها وحضارتها، إنها أيضًا لا تتصف بنضوج الفكر والعقل في الأمور المذهبية وتكون متورطة في الأوهام والرسوم المروجة كعامّة الناس. فكم من أعمال قام بها العرب والهنود وأهل الروم والإيرانيون في مختلف مجالات العلوم والآراء والآداب والصنائع ولكن يبدو جميعهم "فاحش الخطأ" و"قبيح المقال" في شأن الدين.

فأولًا ذكر الجاحظ مآثر هذه الأقوام الأربعة لإثبات دعواه ثم أحصى مناقصهم المذهبية.

وأيضًا قال مثل هذا في شأن المسلمين في المقتبس الثاني وذكر عدة أحاديث من الأحاديث المشهورة من عهده وأراد أن يثبت بها أن المسلمين قد اعترفوا بصحة وصداقة الأحاديث التي لا يقبلها العقل والتجربة بأي صورة من الصور بالرغم من رقيهم في العلوم الدنيوية.

إذ أن الجاحظ قد قدّم أقوال أستاذه النظم في هذا البحث فأنا أفهم أن النظم هو الذي كتب هذا الكتاب. وقد أيده أيضًا ابن قتيبة في كتابه الشهير "تأويل مختلف الحديث" إذ أنه خاطب النظم في محل الجاحظ رادًا على الاعتراضات العقلية على الأحاديث.

وبعد ابن قتيبة ردّ بالتفصيل المحدث الشهير أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الإصبهاني (ت406هـ/1015م) في كتابه "مشكل الحديث وبيانه" على الاعتراضات العقلية. ولكنه خاطب فرق الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة والجسمية بدلاً ممن يوجّه الخطاب إلى رجل خاص.

كتاب الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1)

(80 ب) قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الأخبار:

وبعد فإن الناس يخصّون في الدين من فاحش الخطأ وقبيح المقال بما لا يخصّون به سواه من جمع العلوم والآراء والآداب والصناعات. أ لا ترى أن الفلاح والصائغ والنجار والمهندس والمصوّر والكاتب والحاسب (81 ألف) من كل أمة وملة لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة، ولا من فاحش الخطأ وإفراط النقص، مثل الذي تجد في أديانهم وفي عقولهم عند اختبار الأديان.

والدليل على ما وصفت لك أن الأمم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأي والأدب والاختلاف في الصناعات من ولد سام خاصة أربع: العرب، والهند، والروم، والفرس. ومتى نقلتهم من علم الدنيا إلى علم الدين، حسبت عقولهم مختلة وفطرتهم مسترقة.

كالعرب، فإنها مخصوصة بأمور: منها البيان ليس مثله بيان¹، واللغة التي ليس مثلها في السعة لغة²؛ وقيافة الأثر مع قيافة البشر³. وليس في الأرض قوم غير العرب يرون المتباينين في الصور والمتفاوتين في الطول والقصر، والمختلفين في الألوان، فيعلمون أن هذا الأسود ابنٌ لهذا الأبيض، وهذا الطويل ابنٌ لهذا القصير، وهذا القبيح عمٌ هذا المليح.

¹ راجع: البيان والتبيين له

² راجع: المخصّص لابن سيده، ولسان العرب للإفريقي، وفقه اللسان للكنطوري

³ راجع: مروج الذهب للمسعودي، 1/256

وللعرب الشعر الذي لم يشاركون فيه أحدٌ من العجم¹.

قال: وقد سمعت للعجم كلامًا حسنًا وخطبًا طويلاً يسمونها أشعارًا. فأما أن يكون لهم شعر على أعاريض معلومة وأوزان معروفة - إذا نقص منها حرف أو زاد حرف أو تحرك ساكن أو سكن متحرك، كسره وغيره - فليس يوجد ذلك إلا للعرب خاصة دون غيرهم. وليس في الأرض قوم أعنى بدمّ جليل القبيح ودقيقه وبحمد دقيق الحسن وجليله من العرب، حتى لو أجهد أفطن البرية وأعقل الخليفة أن يذكر معنى لم يذكره، لما أصابه. وللعرب، من صدق الحس وصواب الحدس² وجودة الظن وصحة الرأي ما لا يعرف لغيرهم.

ولهم العزم الذي لا يشبهه عزم، والصبر الذي لا يشبهه صبر، والجود والأنفة والحمية التي لا يدانهم أحدٌ فيها، ولا يتعلق بها (81 ب) رومي ولا هندي ولا فارسي، لأن هذه الأمور كلها بخلاف العرب شيئًا.

ثم لهم من بعد الهمم والطلب بالطوائل ما ليس لغيرهم، مع المعرفة بمساقط النجوم والعلم بالأنواء وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء³.

ولهم حظّ العربية مع الحفظ لأنسابهم ومحاسن أسلافهم ومساوئ أكفائهم للتعاير بالقبيح والتفاخر بالحسن، ليجعلون ذلك عونًا لهم على إتيانهم الجميل واصطناع المعروف، ومزجرة لهم عن إتيان القبيح وفعل العار، وليؤدّبوا أولادهم بما أدّبهم به آبائهم⁴.

ثم الحفظ الذي لا يقدر أحدٌ على مثله، وإن دونه عنده، وخلّده في كتبه⁵.

¹ راجع: العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني

² بالأصل: الحسن وهو تصحيف ظاهر.

³ راجع: كتاب الأنواء لابن قتيبة

⁴ راجع: أنساب قريش لزبير بن بكار القرشي، وأنساب الأشراف للبلاذري، وكتاب الاشتقاق لابن دريد، وجمهرة النسب لابن حزم الظاهري

⁵ راجع: تذكرة الحفاظ للذهبي وغيرها من الكتب التي فيها تراجم العلماء والشعراء والأدباء

وخصلة لا تصاب إلا فيهم. وذلك أن العيَّ والبيان في كل قوم مبثوث متفرق، ولست واجداً بالبادية عيباً رأساً، على أنهم وإن تفاوتوا في البيان، فليس ذلك بمخرج أخسَم إلى العيَّ.

وفهم أيضاً خصلة لا تصاب إلا فيهم. وذلك أن سفلة كل جيل وعلية كل صنف إذا اشتد تشاجرهم، فطالت ملاحظاتهم وكثر مزاحهم والدعابة بينهم، وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات وشتيمة الأمهات واللفظ السيء والسفه الفاحش. ولست بسامع من هذا وشبهه حرفاً بالبادية، لا من صغيرهم ولا كبيرهم ولا جاهلهم ولا عالمهم. وكيف يقولون ذلك، والحيان منهم يتفانيان في دون ذلك.

وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم.

وكل شيء تقوله العرب، فهو سهل عليها وبطبيعة منها. وكل شيء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه.

وللعرب البدئية في الرأي والقول خاصة.

ولهم الكنى مع الأسماء خاصة- وهي من التعظيم- وقد زعم قوم من الفرس أن فيهم الكنى. واحتجوا بقول عدي بن زيد¹:

أين كسرى. كسرى الملوك أبو سا سان²، أم أين قبله سابور

وليس كذلك. إنما كناه عدي بن زيد على عادته حين أراد تعظيمه، إن صحَّت الكنية في هذا البيت. فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس النحوي وأبو عبيدة فرووا (82 ألف) جميعاً أن عدياً قال³:

¹ لترجمة الشاعر راجع: سمط اللآلي، ص 221 لأستاذي الميمني أدام الله فضله، والأغاني، 35/2، ومعجم المرزباني، ص 141، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ص 34

² كذا في الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص 35، ومعجم المرزباني، ص 249، والمعرب للجواليقي، ص 194 و282، واللسان، 81/8

³ كذا في الأغاني، 24/2، والمروج، 129/1، والمعرب للجواليقي، ص 30، والأُمالي لابن الشجري، 91/1، وشعراء النصرانية، ص 465، وفي المروج والأُمالي: "خير الملوك".

أين كسرى، كسرى الملوك أنوشر وان، أم أين قبله سابور فأخطأ الرواية. وقيل ذلك عنه من لا علم له. وليس في الأرض عجي له كنية إلا أن تكنيه العرب.

وليس في الناس أشدّ عجبًا بالخيّل من العرب، ولا أصنع لها، ولا أكثر لها ارتباطًا، ولا أشدّ لها إثارة، ولا أهجى لمن لا يتخذها، أو لمن اتخذها وأهانها وأهزلها، ولا أمدح لمن اتخذها وأكرمها ولم يهنها. ولذلك أضيفت الخيل إليهم بكل لسان، حتى قالوا جميعًا: هذا فرس عربي. ولم يقولوا، هذا فرس هندي ولا رومي ولا فارسي. فحصّنها تحصين الحرم، وصانوها صون الأعراض، ليبتذلوها يوم الروع، وليدركوا عليها الثار.

وكانوا يؤثرونها على أنفسهم وأولادهم، ويصبرون على مئونها في الجذب والأزل، ويغتبقون¹ بالماء القراح، ويؤثرونها بالحليب، لأنها كانت حصونهم ومعاقلمهم. وقالوا في إثارة أشعارًا كثيرة في الجاهلية والإسلام، ليقتدي الآخر منهم بالأول، وليبقى ذكر مآثرهم وقديم مفاخرهم².

فمن أشعارهم في الجاهلية قول الأسعر³ الجعفي. واسمه مرثد بن حمران. وكنيته أبو حمران. سمي الأسعر بيت قاله وهو:

فلا تدعني الأقوام⁴ من آل مالك إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

¹ أي ليشربون

² راجع: كتاب الخيل لأبي عبيدة، وكتاب الخيل للأصمعي، والخيل وفرسانها للخوري، والخيل و- سباقها لزهاوي زاده

³ بالأصل بالشين المعجمة. والتصحيح من الاشتقاق لابن دريد، ص 243، وليراجع أبو عبيدة في الخيل، ص 10 و99 وابن قتيبة في المعاني الكبير، 35/1، والآمدي في المؤلف، ص 47 والأستاذ الميمي في سمط اللآلي، ص 94

⁴ في الاشتقاق والسمط:

فلا يدعني قومي لسعد بن مالك لئن أنا لم أسعر عليهم وأثقب

وكذا في المؤلف إلا أن فيه: إذا أنا إلخ

وهذا قوله¹:

لكن قعيـدة بيتنا مجفوة بادِ جناجُ صدرها ولها غنا
تُقَفَّى بعيشة أهلها وثابة أو جُرْشَع عَبل المحازم والشوى

وقال خالد بن جعفر بن كلاب²:

أريغوني إراغتكم، فإني³ وحذفة كالشجا تحت الوريد
مقرّبة أسوّمها بجـزء⁴ وأحفها ردائي في الجليـد
وأوصي الحالبين ليؤثراها⁵ لها لبنُ الخليّة والصعود

وقال الضبي⁶: (82 ب)

نولّها الصريح، إذا شتوها على علّاتنا ونلي السمارا

¹ راجع: السمط، وشمس العلوم للحميري، ص 286. وفي السمط: "يقول: نؤثر هذه الفرس الوثابة أو الجرّشع على قعيّدة بيتنا، فهي هزيلة بادِ جناجن صدرها على غناها. والجناجن عظام الصدر واحدها جنجن". أقول: وتقفي: تؤثر، وجرشع: العظيم من الإبل والخيّل، ويقال: العظيم الصدر المنتفخ الجنين. والعبل الضخم، والمحازم جمع محزم بكسر الميم وهو الحزام، والشوى اليدان والرجلان والأطراف
² قال أبو عبيدة في الخيل، ص 10: "ومما قالت العرب في الجاهلية في اتخاذ الخيل وصيانتها وأثرها لما كانت لهم فيها من المكرمة والعز والجمال قول خالد بن جعفر بن كلاب يذكر فرسه، وكانت تدعى حذفة" وليراجع اللسان، 385/1

³ في اللسان فمن يك سائلاً عني، فإني= وحذف إـخ

⁴ وفي رواية أبي عبيدة في الخيل: "أسوّمها بنفسي أو بجـزء".

⁵ وفي تلك الرواية: "أمرت الراعيين ليكرماها"، وفي اللسان، 624/17: "أمرت بها الرعاء ليكرموها". ويروى: "أمرت الراعيين ليكرماها، وقال: الخلية من الإبل المطلقة من العقال، وفيه (243/4): "قال الليث: الصعود الناقة يموت حوارها، فترجع إلى فصيلها، فتدر عليه. ويقال: هو أطيب للبهنا. وأنشد لخالد بن جعفر يصف فرساً: أمرت لها الرعاء إـخ. قال الأصمعي: ولا تكون صعوداً حتى تكون خادجاً. والخلية الناقة تعطف مع أخرى على ولد واحد، فتدرّان عليه، فيتخلى أهل البيت بواحدة يحلبونها".
⁶ لعله شمعة بن الأخضر كما في الخيل لأبي عبيدة، ص 42: والصريح اللبن الخالص، والعلات الشئون والحالات المختلفة، والسمار اللبن الكثير الماء الرقيق.

وقال عمرو بن مالك:

وسايح كعقاب الدجن أجمله¹ دون العيال، له الإيثار واللطف
وقال خرز بن لوزان²، وقيل لعنترة³:
لا تذكرني مُهري⁴ وما أطعمته
كذب العتيق، وماء شني بارد
إني امرؤ⁶ إن يأخذوني⁷ عنوة
إني لأخشى أن تقول خليلي⁹:
إن العدو¹⁰ لهم إليك وسيلة
فيكون جلدك مثل جلد الأجر
إن كنت سائلي غبوقاً⁵، فاذهي
أقرن إلى شر⁸ الركاب وأجنب
هذا غبار ساطع، فتلبب
إن يأخذوك تكحلي وتطيّب¹¹

¹ بالأصل: أجعله، والتصحيح من الخيل لأبي عبيدة، ص 3. والدجن الغيم المطبق المظلم

² بالأصل: جرير بن لوزان. والتصحيح من الاشتقاق لابن دريد، ص 212، والأُمالي لابن الشجري، 260/1، والمؤتلف للآمدي، ص 102. ونسبها أبو عبيدة والأصمعي لخرز.

³ راجع: ديوانه، ص 33 (طبع مصر، 1329هـ) وص 12 (طبع بيروت، 1881م)، والمعاني الكبير، 89/1، والسمط، ص 86

⁴ في ابن الشجري، 261/1: فرسي

⁵ بالأصل: عتوقاً. والتصحيح من طبعة الديوان المصرية. والغبوق ما يشرب في العشي من اللبن. وقال ابن قتيبة في المعاني الكبير: يقول، عليك بالتمر والماء البارد. ووعي اللبن لفرسي. يقال: كذب عليكم الحج، معناه: الزموا الحج. فإن سألتني غبوقاً، فاذهي، أي أنت طالق. أقول: الشن القرية الخلق الصغيرة.

⁶ في الديوان وابن الشجري: "وأنا امرؤ".

⁷ بالأصل: "تأخذوني" والتصحيح من الديوان وغيره

⁸ بالأصل: سير. وفي طبعة الديوان البيروتية: شد

⁹ في الديوان وابن الشجري: إني أحاذر أن تقول ظعنيتي.

¹⁰ في الديوان والمعاني: الرجال.

¹¹ في الديوان والمعاني وابن الشجري: تخضي.

ويكون مركبك القعودَ وحدجه¹ وابن النعام² يوم ذلك مركبي
وقال لبيد بن ربيعة:³

معاقلنا التي نأوي إليها بنات الأعوجيّة والسيوفُ
وقال مزار بن منقذ الحنظلي:⁴

أخلصته حولين أمسح وجهه وأخو المواطن من يصون ويدأب⁵
وجعلته دون العيال مقرّبا حتى انجلت، وهو الدخيل المقرب
وقال طفيل بن عوف الغنوي:⁶

إني، وإن قلّ مالي، لا يفارقني مثل النعام في أوصالها طول
أو ساهم الوجه، لم تُقطع أبجله يُصان، وهو ليوم الروع مبذول
تقريبه⁷ المرطى، والجور معتدل كأنه سبد بالماء مغسول
وقال آخر:

بني عامر، إن الخيول وقاية لأنفسكم، والموت وقت مؤجل
أهينوا لها ما تكرمون، وباشروا صيانتها، والصون بالخيول أجمل

¹ بالأصل: جدحه، وفي الديوان والمعاني: "رحله" وقال ابن الشجري: الحدج مركب من مراكب النساء.

² اسم فرس عنقزة

³ والبيت لا يوجد في الديوان

⁴ راجع: المؤلف للأمدي، ص 167، ومعجم المرزباني، ص 409، وسمط اللآلي، ص 70 و832

⁵ المواطن جمع موطن، وهو مشهد من مشاهد الحرب، ويدأب يجد ويتعب ويستمر في العمل.

⁶ راجع: العقد الفريد، 1/124، وترجمته في السمت، ص 210، والشعراء لابن قتيبة، ص 104،

المؤتلف للأمدي، ص 147 و184

⁷ في العقد: تقريبها

مقي تكرموها، يكرم المرأ نفسه وكل امرأ من قومه حيث ينزل
وقال آخر من تميم، وقد سأله بعض الملوك فرسًا يقال له (83 ألف) سكاب، فمنعه إياه:
أبيت اللعن، إن سكاب علق¹ نفيس، لا يعار ولا يباع
مفدّة مكرمة علينا تجاع لها العيال، ولا تجاع
سليلة سابقين تناجلاها يضمهما، إذا نسبا، الكراع
وفهما عرة من غير نفر² نحيدها³، إذا حرّ القراع
فلا تطمع، أبيت اللعن، فيها ومنعك الشيء نستطاع
وكفي تستقلّ بحمل سيفي وبني ممن تهضمي⁴ امتناع
وحولي من بني قحطان شيب وشبان إلى الهيجاس
إذا فزعوا، فأمرهم جميع وإن لاقوا، فأيديهم شعاع

ولهم أشعار كثيرة غير هذه في إكرام الخيل في الجاهلية غير ما قالوا في الإسلام.
قال: وهم، مع ما حكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البيان وسعة
المعرفة وجودة الرأي وشدة الأنفة، يعبدون الحجارة، ويحلفون بها، ويحاربون دون
كسرها وتهجينها، وينسكون لها، ويدعونها آلهة، ويخاطبونها، ولا يستجيزون عيها،
وينكرون على من ينتقصها.
ثم مع ذلك ربما رموا بها، واتخذوا سواها.

¹ العلق: النفيس من كل شيء

² الكراهة

³ أي نجعلها على حيده

⁴ أي كسرتني وظلمني

ثم كانوا يرون أن الرجل منهم إذا مات، فلم يأخذ وليّه بعده بغيره، فيحفر له حفرة، ثم يقيّده على شفيرها، ويطرح بردعته على وجهه ورأسه، ثم لا يسقيه ولا يعلفه حتى يموت، أن ذلك الرجل الميت يزعمهم يجيء يوم القيامة حافيًا راجلاً. وإذا فعل ذلك، أتى راكبًا. وذلك البعير البلية¹. قال أبو زيد:²

كالبلايا رؤسها في الولايا مانحات السموم، حرّ الخدود
يعني الناقة التي كانت تعكس على قبر صاحبها، ثم تطرح الولية على رأسها إلى أن تموت.
وقال الطّرمّاح:³ (83 ب)

منازل لا ترى الأنصاب فيها ولا حفر المبالى للمنون
أي أنها منازل أهل الإسلام دون أهل الجاهلية.

ويقولون: أيما رجل قتل، فلم يطلب وليه بدمه، خلق من دماغه طير يسمى هامة⁴. فلا يزال يزقو على قبره وينعى إليه عجز وليّه، حتى يبعث. قال الشاعر:

فإن تك هامة بهراة تزقو فقد أزيقت بالمروين⁵ هاما
وقال جريبة بن الأشيم الأسدي⁶، وهو أحد شياطين بني أسد وشعراءها:

لا تزقون لي هامة فوق مرقب فإن زقاء الهام أخبث خابث⁷

¹ راجع: ابن قتيبة في مختلف الحديث، ص 126، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، 454/2، والحميري في شمس العلوم، ص 187

² لترجمته راجع: سمط اللّالي، ص 118

³ لترجمته راجع: أول ديوانه، والأغاني، 148/10

⁴ راجع: مروج الذهب، 251/1، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، 454/2، وحيوة الحيوان للدميري، 650/2

⁵ المراد مرو الشاه جان ومرو الروذ

⁶ لترجمته راجع: المؤلف للأمدى، ص 77

⁷ في ابن أبي الحديد، 454/2: ولا تزقون --- للمرأ غائب.

وقال توبة بن الحمير العامري ثم الخفاجي:¹

فلو أن ليلى الأخيلية سلّمت عليّ، ودوني تربة وصفـــــــــــــــــائح

لسلّمت تسليم البشاشة، أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح²

وكانوا يقولون:

أيما شريف قتل غدراً، فوطئته امرأة مقلات، عاش ولدها³. قال بشر بن أبي حازم الأسدي:⁴

تظلّ مقاليت النساء يطأنه يقلن: ألا يقلى على المرء مئرز

الكناية في "يطأنه" منصرفة إلى محزوم بن ضبّاء الأسدي⁵.

وكانوا يقولون: إذا كان لرجل ألف بعير، فلم تقفأ عين بعير منها، إن السواف يأتي على إبله. فإن زادت على ألف، فقأ عينيه جميعاً. فذلك المفقأ والمعقأ⁶. قال الشاعر:

فقات لها عين الفحيل تفقداً وفيهن رعلاء المسامع والجرن

وكانوا إذا أجذبت بلادهم، فأرادوا الاستمطار، أخذوا بعيراً أورق، فشدّوا في ذنبه العثر والسلع، وصعدوه في جبل، وأشعلوا في ذنبه النار، ودعوا وتضرّعوا. فإن لم (84 ألف) يفعلوا ذلك. لم يستجب الله منهم بزعمهم⁷.

¹ لترجمته راجع: سمط اللّالي، ص 120

² والأبيات توجد في المروج، 252/1، وابن أبي الحديد، 454/2، والسمط، ص 120، وحيوة الحيوان للدميري، 101/2 باختلاف يسير

³ راجع: ابن أبي الحديد، 454/3

⁴ لترجمته راجع: السمط، ص 664 (حاشية 5)

⁵ في السمط، ص 853: مخزوم. وقال أستاذي الميمني أدام الله فضله: "الزيادات مخزوم. ولا أعرفه في الأسماء --- وسماه في النقائص سعد بن ضباء. وهو الراجح".

⁶ راجع: ابن أبي الحديد، 454/3

⁷ راجع: ابن أبي الحديد، 454/3 (وفيه البقر، بدل البعير) وحيوة الحيوان، 267/1

وكانوا إذا وقع العرّ¹ في الإبل، يأخذون بغيراً سليماً لا عيب فيه، فيقطعون مشفره، ثم يكونه ليذهب العر عن سائر الإبل، وإلا فشا فيها². قال النابغة:

لحملتني³ ذنب امرأ، وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

وكانوا يرون أن النهيش إذا علّقوا عليه الحلّ سلم. وإن لم يعلقوا عليه، هلك⁴.

وكان الرجل منهم إذا غزا، عقد خيطاً في ساق شجرة. فإذا رجع ورآه منحلّاً، فقد خانتة قعيدته بزعمهم. وإن وجده بحاله، فقد حفظت نفسها له. قال الراجز:

هل ينفعك اليوم إذ همّت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرتم

والرتم اسم الخيط بعينه⁵.

وكانوا يقولون: إذا أحبّ الرجل امرأة وأحبّته، فإن لم يشق عليها برقعها وتشق ردائه، فسد حبهما. وإن فعلا ذلك، دام حبهما⁶. قال عبد بني الحسحاس⁷:

فكم قد شققنا من رداء منيّر ومن يرقع عن طفلة غير عانس

إذا شقّ بردّ، شقّ بالبرد مثله دوايك حتى كلّنا غير لابس

هذا مع إيمانهم بغزو الجن وتلوّن الغيلان، وأن الجنّ هي التي طردت أهل وبار عن ديارهم، وصارت الجنّ سكانها. فليس بها إلا الجن والوحش⁸.

¹ وهو قرح يخرج في مشافر الإبل

² راجع: ابن قتيبة في المعاني الكبير، 229/2، وابن أبي الحديد في شرح النهج، 454/2

³ في ابن قتيبة: حملت على ذنبه آه. وفي ابن أبي الحديد: كلفتني آه

⁴ راجع: ابن أبي الحديد، 453/2

⁵ راجع: ابن فقيه في المعاني، 268/1، وابن سيده في المخصص، 28/13، وابن أبي الحديد في النهج، 455/2، والإفرقي في اللسان، 116/15، والنويري في نهاية الأرب، 125/3.

⁶ راجع: ابن أبي الحديد في النهج، 456/2

⁷ واسمه سحيم بن وثيل الرياحي. راجع: مقدمة ديوانه لأستاذي الميمني، دام ظله، والبيان في الديوان، ص 16، والمخصص، 232/13

⁸ راجع: ابن أبي الحديد، 457/2 و458، ومعجم الوزير البكري، ص 835، ومعجم الحموي، 392/8

ومع مذهبهم في الحامي والوصيلة والبحيرة والعائبة على أمور كثيرة لا يحتاج إلى ذكرها. وإنما أوردنا من ذلك أن يعرف الناس تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه. فإذا صار إلى التصديق والتكذيب والإيمان والكفر، صار إلى غير الذي كان. ثم ملنا إلى الهند¹. فوجدناهم يقدّمون في الحساب والنجوم. ولهم الخط الهندي خاصة. ويقدمون في الطب². ولهم (أسرار)³ الطب وعلاج فاحش الأدوية خاصة. ولهم خراط التماثيل ونحت الصور مع التصوير بالأصباغ كزّي المحاريب⁴ وأشباه (84 ب) ذلك.

ولهم الشطرنج⁵. وهي أشرف لعبة وأكثرها تديباً وفطنة. ولهم صناعة السيوف⁶. ولهم الكنكلة⁷. وهو وبر واحد (يمد)⁸ على قرعة فيقوم مقام العود⁹ والصنج. ولهم ضروب الرقص والخفة.

ولهم الثقافة¹⁰ خاصة.

ولهم السحر، والتدخين، والخطب الطوال.

¹ راجع: فخر السودان على البيضان له، ص 73 و80، وطبقات ابن سعد، ص 11، والمروج، 35/1-40 و356/2، وكتاب ما للهند للبيروني.

² راجع: المروج، 84/1 والبيروني

³ الزيادة من فخر السودان

⁴ في فخر السودان: ونحت الصور بالأصباغ تجد من المحارب.

⁵ راجع: البيروني، ص 146، والمروج، 38/1، ودائرة المعارف الإسلامية، 338/4 وضبط فيها بفتح الأول وهو غلط

⁶ في فخر السودان "ولهم السيوف القلعية، وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها".

⁷ في المروج، 356/2: "الكيكلة"

⁸ الزيادة من المروج، 356/2

⁹ في فخر السودان: مقام أوتار العود

¹⁰ في فخر السودان: الثقافة عند الثقافة خاصة.

ولهم الرأي¹، والنجدة، والصبر. وليس لأحد من الصبر ما لهم.

ولهم الزي الحسن، والأخلاق المحمودة، والسواك، والخضاب.

وهم مع جميع ما ذكرنا أصحاب بددة². ينحتونها بأيديهم، ويوجبون عبادتها على أنفسهم. وهم اجتلبوها، وأوجبوا طاعتها عليهم.

ثم يتكفّنون، ويتصنّدلون، ويحملون معهم الألفاف والهدايا. ويدخلون النيران، إذا اشتاقوا إلى موتاهم، على أنهم يزعمهم يرجعون إلى أهلهم إذا قضوا أوطارهم من زيارة موتاهم. لا ينهى الآخر طول غيبة الأول.

مع هذه الحكمة الشريفة، والأخلاق السنية، والمعرفة الحسنة يعرفون من أمر الدنيا ما لا يعرفه أحد، ويجهلون من أمر الدين ما يجهله أحد.

قال: ثم ملنا إلى الروم³. فوجدناهم أطباء وحكماء ومنجمين.

ولهم أصول اللحون، وصنعة القرسطون⁴، وكيان الكتب.

وهم الغايات في التصوير. يصوّر مصوّرهم الإنسان حتى لا يغادر شيئاً. ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّر شأباً، وإن شاء كهلاً. وإن شاء شيخاً. ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّر باكيّاً أو ضاحكاً. ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلاً ناعماً عتيقاً. ثم لا

¹ بالأصل: الزي" والتصحيح من فخر السودان

² جمع بد، وهو معرب بوجه لقب گوتم، مؤسس مذهب خاص يوجد معظم متقلديه في الصين واليابان وغيرهما من البلاد الشرقية، ويدعون الشمنية. ليد راجع دائرة المعارف الإسلامية، 1283/1 (طبعة جديدة)، والبيروني، ص 84 وقال الحميري في تفسير الحور العين، ص 80 ألف: "البد بالضم بلغة الهند وجمعه بددة وهي أصنام ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها ويجعلون لها بيوتاً كمساجد المسلمين وفيها بنات رؤسائهم موهوبات لتلك البدهة على وجه الأقرب بها والنذور والكفارات.

³ راجع: طبقات ابن صاعد، ص 33، والمروج للمسعودي، 154/1

⁴ القرسطون والقارسطون ميزان الدراهم، والكلمة معربة من اليونانية كما في أقرب الموارد، ص 984 وتركه الجواليقي في المعرب

يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المتبسم والمستعبر، وبين ضحك المسرور وضحك الهازي وضحك المتهدد. فيركب صورة في صورة وصورة في صورة وصورة في صورة.

ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم. ومن الخרט والتجر والصناعة ما ليس لسواهم.

ثم مع ذلك أصحاب كتاب (85 ألف) وملة.

ولهم بعد في الجمال، والحساب، والقضاء في النجوم، والحظ والنجدة والرأي والمكيدة ما لا ينكر ولا يجحد. وإنما قلّت عقول الزنج وأشباه الزنج لتباعدهم عن هذه الخصال.

ثم هم مع ذلك أجمع يرون أن الآلهة ثلاثة: بطن اثنان، وظهر واحد كما لا بد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء. وكذلك جوهر الآلهة. فزعموا أن مخلوقاً استحال خالقاً، وأن عبداً تحوّل ربّاً، وأن حديثاً انقلب قديماً. إلا أنه قد قتل وصلب بعد هذا، وفقد، وجعل على رأسه أكاليل الشوكة. ثم أحيا نفسه بعد موته. وإنما أمكن عبيده من أخذه وأسرّه، وسلّطهم على قتله وصلبه، ليؤاسي أنبياءه بنفسه، وليتحبب إليهم بالتشبه بهم، ولأن يستصغروا جميع ما صنّع بهم، ولئلا يعجبوا بأعمالهم، فيستكثروها لربهم، فكان عذرهم أعظم من جرمهم.

قال: فلولا أن رأينا بأعيننا وسمعنا بأذاننا، لما صدقنا وقبلنا أن قوماً متكلمين وأطباء ومنجمين ودهاة وحساباً وكتبة وحدّاق كل صنعة يقولون في إنسان رأوه يأكل ويشرب ويبول وينجو ويَجوع ويعطش ويكتسي ويعرى ويزيد وينقص ويقتل بزعمهم ويصلب، أنه ربّ خالق وإله رازق، وقديم غير محدث. يميت الأحياء ويحيي الموتى، وإن شاء، خلق أضعاف الدنيا. ثم يفخرون بقتله وصلبه كما تفخر اليهود بقتله وصلبه.

ثم ملنا إلى فارس¹ فوجدنا هناك العقول التي لا يبلغها عقول، والأحلام التي لا تشبهها أحلام، والسياسة العجيبة، والملك الموبد، وترتيب الأمور والعلم والعواقب.

¹ راجع: ابن صاعد في الطبقات، ص 15، والمسعودي في المروج، 105/1، والشهرستاني في الملل، ص

ثم كانوا مع ذلك يغشون الأمهات¹، ويأكلون الميتة ويتوضئون بالأبوال والماء لهم مباح²، ويعظمون النار وهم أظفروها، وإن شاؤوا أطفؤوها.

ويقولون: إن الله كان وحده، استوحش، ففكر، فلما فكر، تولد من فكره أهرمن. وهو إبليس (85 ب). فلما مثل بين يديه، أراد قتله، فلما أراد قتله، امتنع، فصالحه إلى أجل معلوم، ووادعه إلى مدة مسمّاة على أن لا يمتنع عليه، إذا استوفى الأجل، وبلغ المدة.

ثم إن أهرمن نوى الغدر، وذلك شيمته فأنشأ يخلق أصناف الشر يستمدّ بها عليه. فلما عرف ذلك منه، أنشأ يخلف أصناف الخير، ليضع بإزاء كل جند جنداً. وله بعد ذلك فضل قوته، وأنه يسمّى القديم دونه.

ثم قالوا في قسمة العوالم الخمس عندهم وفي أسمائها وجواهرها وهيئاتها، وفي خلق مهنة ومهينه³ - وهو آدم وحواء - وفي بسوس المنتظر عندهم، ما لا يستطيع وصفه أحقق منقوص ولا عالم تام، ولو جهد كل جهده، واستفرغ كل قوته.

قال: ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس بأكثر الدين، وأن شأنهم تعظيم الرجال والاستسلام للمنشأ، والذهاب مع العصبية والهوى، والرضى بالسابق إلى القلوب، واستئصال التمثيل، وبغض التحصيل، ما نجد من اعتقاد أكثر البصريين وسوادهم لتقديم عثمان بن عفان، ومن اعتقاد أكثر الكوفيين وسوادهم لتقديم علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن اعتقاد أكثر الشاميين لدن بني أمية وتعظيم عثمان رضي الله عنه، وحب بني مروان، حتى غلط لذلك قومٌ، فزعموا أن ذلك من قبل الطالع. وقال آخرون: بل من عمل التربة كما نجد لأهل كل ماء وهواء وطينة نوعاً من الأخلاق والمنظر والزّي والصناعة واللغة. وليس ذلك، أكرمك الله، إلا من قبل تقليد السلف وحبّ الرجال وما وقع في القلوب وهجنته الحمية، لأن تقليد الآباء هو الذي

¹ كذا بالأصل. ولعل هذا سهو من الناسخ، والصواب: البنات

² قال الحميري في تفسير الحور العين، (89 ب): كانت المجوس يغسلون وجوههم بأبوال البقر تخشعاً وتقرباً إلى الله تعالى.

³ في الشهرستاني، ص 128: "ميشه ميشانه"

ارتبهم، وحب الرجال هو الذي أعماهم وأصمهم، والنشؤ على التقليد هو الذي أفلّ خواطرهم وأمات قلوبهم.

ولو كان من قبل الطالع والتربة لما حسن الأمر والنهي، ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب، ولما كان لإرسال الرسل معقًى. ولو كان ذلك للطالع والبلدة، لجاز ذلك في المصيب (86 ألف) كما جاز في المخطئ، ولجاز في الناظر كما جاز في المقلد.

وإنما صير أكثر البصرة عثمانية لأنهم كانوا صنائع ثلاثة أمراء: أولهم عبد الله بن عامر¹، والثاني زياد²، والثالث الحجاج بن يوسف³. وهؤلاء الغايات في حب عثمان وبني أمية. فلم يقصروا في الدعاء إلى تقديمه واستمالة الناس إليه بالترغيب والترهيب والسياسة والتدبير.

لصنائع ابن عامر فهم فزع إليهم طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، حين قدموا إليهم يطلبون بدم عثمان. ولأن علياً عليه السلام حاربهم، وقتل أعلامهم، وفلّ حدّهم. ولذلك قال رجل من كهراء البصريين في علي رضي الله عنه: "كيف أحبّ رجلاً قتل من قومي من لدن كانت الشمس ههنا إلى أن صارت ههنا إحدى عشرة مائة".

ولو كان هذا من قبل البحث والنظر، لما صار أهل عثمان كلهم إباضية، وغيرهم مرجئة، ولما اختار أولاد النصاري كلهم النصرانية، وأولاد اليهود كلهم اليهودية، وأولاد المجوس كلهم المجوسية. وكيف يجوز أن يعتقد أولاد اليهود كلهم اليهودية بالنظر. وقد نجد الأخوين ينظران في الشيء الواحد، فيختلفان في النظر. ولربما نظر الناظر، فيصير له في عام قول. ولربما كان ذلك في كل شهر.

¹ أمير فاتح، وليّ البصرة في أيام عثمان وقتل عثمان وهو على البصرة. وشهد وقعة الجمل مع عائشة، ولم يحضر صفين، ولّاه معاوية البصرة ثلاث سنين ثم صرفه عنها ومات بمكة سنة 59هـ (679م). راجع: الزركلي، 228/4

² أمير من الدهاة القادة والولاة، ولّاه على إمرة فارس، ولّاه معاوية البصرة والكوفة وسائر العراق. فلم يزل في ولايته حتى توفي سنة 53هـ (673م)، راجع: الزركلي، 89/3

³ قائد داهية سفاك. ولّاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليها العراق فمات في سنة 98هـ (704م) وهو واليه. راجع: الزركلي، 175/2

فصحّ أن دين الناس بالتقليد لا بالنظر، وليس التقليد إلى الحق بأسرع منه إلى الباطل. ولا بد لنا من أن نضع أمام أعيننا ما ذكره نشوان الحميري من الآراء عن حجية الحديث، قبل نقل المقتبسات الأخرى لكتاب الأخبار، لكي نتعرف على وجهات نظر الجاحظ وأشياعه فيسهل بها القراء الحكم عليها فيقول الحميري¹:

"اختلف الناس في الحجة بالخبر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(1) فقالت الإمامية: لا تعقل الحجة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الإمام المؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(2) وقالت الزيدية: لا تثبت الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بشهادة أربعة رجال من أهل العدالة قياساً على شهود الزنا.

(3) وقالت الخوارج كلها إلا الفُضيلية في الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بشهادة عدلين لقول الله عزّ وجلّ: وأشهدوا ذوي عدل منكم".

(4) وقال النظام: لا تعقل الحجة عند الاختلاف من بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا من ثلاثة أوجه: من نص من تنزيل لا يعارض بالتأويل، أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه، أو من حجة العقل وضرورته. وبقوله قال أكثر المعتزلة.

(5) وقال أبو الهذيل: الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة عشرين رجلاً من أهل العدالة، لقول الله تعالى "إن يكن منكم عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَاتِينَ".

(6) وقال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد: لا تعقل الحجة إلا الإجماع، لأنه قد يجوز وجود الخطأ والكذب على الرجلين والأربعة والعشرين. وإجماع الأمة على الخطأ والكذب غير ممكن لما في إجماع الأمة على الخطأ والكذب من بطلان الدين وعدم الإسلام.

(7) وحكى الجاحظ في كتاب الأخبار أن من الناس من يقول: إن الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة سبعين رجلاً من أهل العدالة، لقوله تعالى "واختار موسى قومه سبعين رجلاً".

¹ تفسير الحور العين، 98 ب

(8) وقالت الحشوية¹: كل ثقة من العلماء يأتي بخبر مسند عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حجة.

(9) وقالت الفضيلية من الخوارج: لا تعقل الحجة في الخبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بتقليد أهل الثقة من العلماء الصالحين. وبه قالت عامة المرجئة.

وبعد أن تعرفنا على حجية الحديث لدى شتى الفرق لنز نقد الجاحظ عليها
(2)

(86 ألف) وروى الجاحظ في كتاب الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكيف يجيز السامع صدق المخبر، إذا كان لا يضطره خبره، ولم يكن معه علم يدل على صدق غيبه، ولا شاهد قياس يصدقه، وكون الكذب غير مستحيل منه مع كثرة العلل التي يكذب الناس لها ودقة حيلهم فيها.

ولو كان الصادق عند الناس لا يكذب، والأمين لا يخون، والثقة لا ينسى، والوفي لا يغدر، لطابت المعيشة ولسلموا من سوء العاقبة.

قال إبراهيم النخعي: وكيف (86 ب) نأمن كذب الصادق وخيانة الأمين، وقد نرى الفقيه يكذب في الأحاديث، ويدلس في الإسناد، ويدعي لقاء من لم يبلغه، ومن غريب الخبر ما لم يسمعه. ثم لا يرى أن يرجع في مرضه وقبل أن تغرغر نفسه، وقد أيقن بالموت، وأشفى على حفرتة، بعد طول إصراره والتمتع بالرياسة في حياته، وأكل أموال الناس به. ولولا أن الفقهاء المحدثين والرواة الصالحاء المرضيين يكذبون في الأخبار، ويغلطون في الآثار، لما تناقضت آثارهم، ولا تدافعت أخبارهم.

قال: ولو وجب علينا تصديق المحدث لظاهر عدالته، لوجب علينا تصديق مثله، وإن روى ضد روايته وخلاف خبره. فإذا نحن قد وجب علينا تصديق المتناقض وتصحيح الفاسد، لأن الغلط في الأخبار والكذب في الآثار لم نجده خاصاً في بعض دون بعض.

¹ لعل المراد من الحشوية أصحاب الحديث كما صرح به ابن قتيبة في تأويل مشكل الحديث

قال إبراهيم: وكيف لا يغلطون ولا يكذبون ولا يجهلون ولا يتناقضون؟ والذين رووا منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة" فقال أعرابي: "يا رسول الله، فما بال إبل يكون في الرمل كأنها الظبا، فيأتي البعير الأجرب، فيدخل فيها، فيجرها؟" فقال: "فمن أعدى الأول؟".

هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فرّ من المجذوم فرارك من الأسد؛ وأتاه رجل لبياعه ببيعة الإسلام، فأرسل إليه من يباعه، ولم يقربه مخافة إعدائه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حين توجه إلى بدر، أراد أن ينزل الصفراء، وهي بين جبلين، فسأل عن اسمها وعن الحيين النازلين بهما. ف قيل له: ينزلها بنو النار وبنو حراق-بطنان من بني غفار- فتطير بهما، وتعدّاهما إلى غيرهما، واسم الجبلين الضيقان¹، وأنه قال: "الشؤم في المرأة والدار والدابة"².

قال: والذين يروون عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "خير أمتي القرن الذي بعثت فيه". هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أمتي كمثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره"³.

قال: والذين رووا منهم أن الصعب بن جثامة قال: يا نبي الله، ذراري المشركين تطأهم خيلنا في (87 ألف) ظلم الليل عند الغارة. قال: "أتلوهم، فإنهم مع آبائهم، وأنه حين أغزى أسامة بن زيد إلى ناحية الشام، أمره أن يحرق المشركين بالنار وذراريهم".

هم الذين رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فقتلوا النساء والصبيان فأنكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم إنكاراً شديداً، فقالوا: "يا رسول الله، إنهم ذراري المشركين" فقال: "أ و ليس خياركم ذراري المشركين؟" و"أن خالد بن الوليد لما قتل

¹ بالأصل: الضيقين والصحيح من معجم الكبرى، ص 458 و625 ومعجم الحميري، 444/5

² راجع: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص 123 ومشكل الآثار للطحاوي، 1/339 و2/109

³ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 139

بالغميصاء الأطفال، رفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه حتى رأى المسلمون بياض إبطيه، وقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" ثم بعث عليًا عليه السلام فوداهم¹.

قال: والذين رروا "أن خديجة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، أ رأيتك أطفالاً منك أين هم؟" قال: "هم في الجنة". قالت: "أ رأيتك أطفالاً من غيرك أين هم؟" قال: "في النار". فأعادت عليه الكلام، فقال مثل ذلك. فلما أعادت عليه، قال: "إن سكنت، وإلا أسمعك ضغائهم في النار"; وأن ابن أبي معيط لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، قال: "من للصبية؟ قال" النار".

هم الذين رروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤودة في الجنة، والشهيد في الجنة، وأن أولاد المشركين خدم أهل الجنة".

والذين رروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله جلّ ذكره أوحى إليّ أني خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم"². وأنه قال: "كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه اللذين يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه"³.

هم الذين رروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اعملوا، فكل ميسر لما خلق له. أما من كان أهل السعادة، فهو يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء، فهو يعمل للشقاء؛ وأن الله عزّ وجل مسح ظهر آدم، فقبض قبضتين فأما الذين في قبضته اليمنى فقال: "إلى الجنة برحمتي" وقال للذين في اليسرى: "إلى النار- ولا أبالي"⁴؛ والسعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه⁵؛ وإذا وقعت النطفة في الرحم؛ أوحى الله إلى ملك (87 ب) الأرحام: "أكتب" فيقول: "وما أكتب؟" فيقول: "أكتب شقياً أو سعيداً".

¹ المصدر نفسه، ص 334

² راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 5 و159

³ المصدر نفسه، ص 5 و158 ومشكل الطحاوي، 162/2

⁴ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 5 و158

⁵ المصدر نفسه، ص 5 و33

والذين رَووا أن القدرية مجوس هذه الأمة وأنهم قد لعنوا على لسان سبعين نبياً.

هم الذين رَووا أن ميكائيل كان قدرياً حتى خصمه جبريل، وأن موسى كان قدرياً حتى خصمه آدم، وأن أبا بكر كان قدرياً، حتى خصمه عمر¹.

قال: وتلوا علينا قول الله عزَّ وجلَّ "وإبراهيم الذي وقَّى، ألا تزر وازرة وزر أخرى" ثم رَووا "أن ولد الزناء شرُّ الثلاثة"²، "وأن المعول عليه يعذب بعويل أهله"، "وأیما صبي مات ولم یعق عنه أبواه، محتبس عن الجنة حتى یعقا عنه"³.

قال: وتلوا علينا "الله أعلم حيث يجعل رسالته"، وقوله "ولقد اخترناهم على العالمين"، وأن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: "ما كفر بالله نبي قط" ثم رَووا أن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم كان على دين قومه أربعين سنة، وأنه قال: "ما ذبحت للعزى إلا كبشاً واحداً"، وأنه زوّج ابنتيه عتبة بن أبي لهب وأبا العاص بن الربيع⁴، وأنه قال قبل الوحي لزيد بن عمرو بن نفيل: "يا زيد، إنك فارقت دين قومك وشتمت آلهم" فقال له زيد: "يأيها الإنسان، إياك والردى، وإنك لا تخفى من الله خافياً".

والذين رَووا أن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: "لا يفضلني أحدٌ على يونس بن متى، فقد كان يرفع له في اليوم الواحد مثل عمل جميع أهل الأرض"⁵.

هم الذين رَووا أن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: أنا سيد ولد آدم، ولا فخر؛ وأن كل نبي يقول في القيامة "نفسي نفسي"، وأنا أقول: أمّتي، أمّتي؛ ومعني لواء الحمد. وهم الذين رَووا أن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: "لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض، فإنهم بنو علات، أمهاتهم واحدة".

¹ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 298

² راجع: مشكل الطحاوي، 391/1

³ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 311

⁴ المصدر نفسه، ص 134

⁵ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 141 ومشكل الطحاوي، 446/1

والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أرواح الشهداء تكون في حواصل طير خضر، تأوي بالليل إلى قناديل في الجنة؛ و"أن الأرواح في الهوى جنود مجندة، تتشام كما تتشام الخيل، فما تعارف منها، ائتلف وما (88 ألف) تنافر، اختلف؛ و"أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قلب بدر، فقال: "يا عتبة بن ربيعة، يا أبا جهل، يا أمية بن خلف، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا". ف قيل له في ذلك فقال: "والذي نفسي بيده، إنهم ليسمعون كما تسمعون؛ و"إن منكرًا ونكيرًا ليأتيان الرجل في قبره، فيسألانه: من ربك؟ وما دينك؟ و"أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده، إنهم ليسمعون خفق نعالكم".

هم الذين تلوا علينا "وما أنت بمسمع من في القبور" و"أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم رب الأرواح الفانية والأجساد البالية؛ و"أن عبد الله بن عباس سئل عن الأرواح أين تكون، إذا فارقت الأجساد، وأين تذهب الأجساد، إذا بليت، فقال: "أين يذهب السراج، إذا طفى، وأين يذهب البصر، إذا عمي، وأين يذهب لحم الصحيح، إذا مرض؟" فقال السائل: "لا أين" فقال: "كذلك الأرواح، إذا فارقت الأجساد".¹

قال: والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليؤمنكم خياركم، فإنهم وفدكم إلى الجنة؛ وقال: "صلاتكم قربانكم، فلا تقدموا بين أيديكم إلا خياركم، ولا صلاة لإمام قوم وهم له كارهون".

هم الذين رووا "صلّوا خلف كل إمام، برًّا كان أو فاجرًا"، و"لا بدّ من إمام، برّ أو فاجر". والذين رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة، رجلاه في الأرض السفلى، وعاتقه تحت العرش. وما بين عاتقه إلى شحمة أذنه سبع مائة عام خفقان الطير المسرع".²

¹ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 186

² المصدر نفسه، ص 192

هم الذين رووا أن الله عز وجل ينزل عشية عرفة، أو يوم النصف من شعبان، على جمل أورك؛ وأنه ينزل في قفص من الذهب".¹

والذين رووا أن أربعة أملاك التقوا- واحد من المشرق، وآخر من المغرب، وآخر من السماء، وآخر من الأرض السفلى- فقال كل واحد منهم للآخر: "أين تركت ربك؟" فقال: "من عند ربي جئت".²

هم الذين رووا "أن حملة العرش من فرق غضب الله تقل³ العرش على كواهلهم؛ و"أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل"⁴؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني ربي في أحسن صورة. فوضع كنفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي"⁵. قال إبراهيم: ثم يحدث فقيهم بمثل هذه الأحاديث، ويخبر بمثل هذه الأخبار، ويشهد على الله بمثل هذه الشهادة، وهو غير محتفل بذلك ولا منتج منه.

وإنما ذكر الجاحظ والنظام أن دين الناس بالتقليد، لا بالنظر والبحث والاستدلال. وقد ذم الله تعالى في كتابه المقلدين، فقال: "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"، الأمة همنا الدين.

¹ المصدر نفسه، ص 8 و 91 و 255 ومشكل الحديث لابن فورك، 58/1

² راجع: مشكل ابن فورك، 49/1

³ كذا بالأصل وفي مشكل ابن فورك، 125/1 "يثقل"

⁴ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 9 و 463، ومشكل ابن فورك، 76/1

⁵ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 9 و 463، ومشكل ابن فورك، 17/1

الدولة الإسلامية

- البروفيسور أطفاف أحمد الأعظمي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²



الباب الثاني: القانون الإسلامي (الشريعة)

معنى الشريعة ومفهومها: الشريعة (شرعة) من 'شرع' ومعناها بيان الطريق أو تحديده. يقول تعالى: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِمَّنْ آذَنَ بِهِ اللَّهُ" (سورة الشورى: 21).

ويقول في موضع آخر من نفس السورة: "وَشَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ" (سورة الشورى: 13).

ومعنى الشريعة: الطريقة والطريق. يقول تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا" (سورة الجاثية: 18).

وفي موضع آخر: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا" (سورة المائدة: 48).

وتتعلق هذه الطريقة أو القاعدة بالعبادة الخالصة لله سبحانه وتعالى، وهو الدين اصطلاحاً، وبذلك يصبح الدين والشريعة لازماً بعضهما البعض، فالدين أصل والشريعة فرع، وما منح الله من الدين لكل الأقوام كان واحداً، وهو عبادة الله

¹ كاتب إسلامي كبير من محافظة أعظم كره

² أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

الخالصة (سورة الأعراف: 59)، لكن الشريعة وهي طريقة العمل، اختلفت حسب الفروق الموجودة في مدنية ونفسية وعادات كل قوم. (سورة المائدة: 48).

إن الاختلاف في طريقة العبودية لا يهم، لأن الهدف لا خلاف فيه، بمعنى أن هدف كل شريعة ومقصودها هو عبادة الله الخالصة، ولكن للأسف قد تجاهلت الفرقة المتدنية من كل قوم هذا الهدف واعتبرت طريقة العبادة هي الدين والشريعة، وضيق وجهة النظر هذا نتجت عنه الخلافات المذهبية غير المرغوب فيها والمستمرة إلى الآن، ولا يمكن الفصل فيها في المستقبل أيضاً. والهدف من اختلاف الشرائع عند الله هو اختبار الذي ينظر إلى ظاهر الشريعة فقط ومن يركز على باطنها إضافة إلى الظاهر، وذلك هدف الشريعة. قال:

"لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُمْ فَأَتَّبِعُوا الْخَيْرَ" (سورة المائدة: 48)

ومن الجدير بالملاحظة أن القانون جزاء: أساسي (Fundamental) وهو غير قابل للتغيير، والثاني ضمني ويسمى في القانون الحديث بـ "By-laws"، والذي يتغير حسب الأحوال واحتياجات كل عصر.

وفي الشريعة الإسلامية يعتبر القرآن أساسياً والسنة فرعاً أي القسم الضمني، فالأول لا يمكن تغييره والثاني قابل للتغيير بشرط أن تقتضي الأحوال ذلك، ولكن يجب أن يكون هذا التغيير تحت إشراف جماعة تملك إدراكاً وبصيرة قانونية في الشريعة بشكل الإجماع، وإن كانت هناك دولة إسلامية قائمة فالحكومة ومجلس الشورى فيها هي المفوضة لهذا التغيير، وليس فرد أو جماعة مهما تمكنا من العلم والفقه.

ولم يأخذ كثير من العلماء وأهل العلم بعين الاعتبار الفرق المذكور بين القانون الأساسي (القرآن) والقانون الضمني (السنة أو الفقه)، فهم يعتبرون أن القوانين الضمنية أيضاً غير قابلة للتغيير، وقد اتبعهم السواد الأعظم من المسلمين وتركزت هذه الفكرة في أذهانهم. وهذا سم قاتل في حق هذه الأمة، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل في الصفحات القادمة.

خصائص الشريعة الإسلامية: لا يوجد في العالم اليوم كتاب حفظ بلفظه كما أنزل، لم تتغير اللغة فقط بل حذف فيها وأضيف بدعوى التشريح، ومن الصعب معرفة الجزء الرباني من الجزء الإنساني المذكور فيه بشأن تعاليم الدين والشريعة. وبعض الكتب لا تشتمل على الشريعة أساساً، إنما توجد فيها تعاليم أخلاقية، ولا نجد فيها إرشادات عن القضايا الاجتماعية للحياة. وكما ذكر في القرآن (سورة المائدة: 47) فإن عيسى عليه السلام قد منح الشريعة ولكن لا نجد ذكر هذه الشريعة في أي من الأنجيل الأربعة، ويقال أن بال قد أخرجها بسبب إلهامه.

وفي هذه الخلفية التاريخية من الأهمية بمكان أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي حفظ متنه بشكل كامل. (سورة الحجر: 9) وهو جامع الدين والشريعة. وكان من الضروري أن يحفظ لأنه الشريعة الربانية الأخيرة بشكلها الكامل. فلا نبي ولا رسول بعده ولا شريعة أخرى بعدها.

وإذا أمعنا النظر في هذه الشريعة الربانية فسنجد مميزات عديدة لها بشكل واضح. ومن أهم هذه المميزات أنها شريعة سهلة، وقد كلف فيها أهل الإيمان بأحكام حسب قدراتهم، ولم تثقل أكتافهم بحمل أثقال لا يقدرون عليها. يقول: "وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (سورة البقرة: 285-286).

هناك أمثلة كثيرة في القرآن على سهولة الشريعة الإسلامية، مثلاً صوم رمضان فريضة على كل مؤمن، لكن المسافر والمريض مسموح لهما بالإفطار، ويصومان قضاء بعد انقطاع العذر. وقال بعد ذكر هذه الرخصة: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (سورة البقرة: 185)

وفي الرضاعة بين أن المطلقة إذا أرضعت الطفل تكون نفقتها على الوالد، قال في توضيح ذلك: "لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا" (سورة البقرة: 233).

الميزة الثانية للشريعة الإسلامية أنها شريعة معتدلة ومتوازنة، لا إفراط فيها ولا تفريط، وقد أخذت فيها الاحتياجات المادية والروحية للإنسان بعين الاعتبار كما أوضح في الآية التالية:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩-١٠﴾" (سورة الجمعة: 9-10).

ففي هذه الآية يدعو إلى كل من كسب العيش وذكر الله، وتزداد أهمية هذه الدعوة عندما ننظر إلى المذاهب الأخرى التي تفضل ترك السعي للمعاش. انظروا إلى هذه الآية في هذه الخلفية: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" (سورة الأعراف: 32)

وكثير من الأديان تدعو إلى كبح جماح النفس، وأكبر زاهد وعابد لله لديهم هو الشخص الذي يتخلى عن لذائذ الدنيا الجائزة حتى اللباس والطعام، ومن أهم الأمثلة على ذلك الرهبان عند المسيحيين والنسك عند الهندوس وتاركوا الدنيا عند البوذيين، أما في الشريعة الإسلامية فإنها لم تدع فقط إلى اللباس الجيد والطيبات من الرزق وإنما تحبذ ذلك كما هو واضح من الآية السابقة.

وقد قام بنفي الرهبانية عندما استخدم كلمة الزينة للباس وكلمة الطيب للطعام. ويقول في موضع عن الانفاق: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا" (سورة الإسراء: 29)

في هذه الآية يراد بالغل البخل وبالبسط التبذير، وهما صفتان للانفاق بعيدتان كل البعد عن الاعتدال، ولذلك اعتبرت الشريعة الإسلامية البخل والتبذير كليهما من الأفعال غير المحمودة.

إن الأحكام المتعلقة بالمعاملات في الشريعة الإسلامية مبنية على مبادئ الاعتدال والوسطية، ولكن لا مجال هنا لبيان تفصيل ذلك.

الميزة الثالثة المهمة للشريعة الإسلامية هي مطابقتها للعقل والطبيعة البشرية، ولا يوجد فيها حكم يخالف العقل أو لم تؤخذ فيه الطبيعة البشرية بعين الاعتبار، ونذكر هنا بعض الأمثلة:

إن عاطفة حب المال قوية جداً في الطبيعة الإنسانية، "وَأَنَّهُ لَحِبِّ لِحَبِّ لَشَدِيدٌ" (سورة العاديات: 8). وعندما طلب من المؤمنين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله جاء السؤال عند مقدار الانفاق، (يسألونك ماذا ينفقون) ف قيل للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأبناء السبيل (سورة البقرة: 215) وعندما طرح السؤال نفسه مرة أخرى قال: أنفقوا ما فضل عن حاجاتكم (البقرة: 219)، فإن كانت الإجابة على السؤال السابق بأن أنفقوا المال كله كان هذا خلاف الطبيعة البشرية، وبعد الأمر الحكيم بالإنفاق بالمال الزائد عن حاجة المرء قال: "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ. فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (سورة البقرة: 219-220)

عرف من ذلك أن الشريعة الإسلامية تراعي مطالب الدنيا والآخرة.

إن صفة الانتقام في الطبيعة البشرية ليست صفة موجودة فحسب، بل هي موجودة بشدة، فسمح للمظلوم أن ينتقم من الظالم مراعاة للطبيعة البشرية ولكنه لم يهمل تعاليم العفو والسماح، قال: "وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ" وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (سورة الشورى: 39-43)

إن أكبر ميزة للشريعة الإسلامية هي إقامة العدل والقسط، ويظهر ذلك من أمر المؤمنين بإقامة العدل مراراً وتكراراً، ولا يراعى في ذلك القريب أو البعيد. قال: "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ" (سورة الأنعام: 152)

وانظروا إلى سمو هذه الشريعة التي تأمر بالعدل حتى مع العدو، قال: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ" (سورة المائدة: 8)

والحقيقة أن الشريعة الإسلامية هي شريعة لا مثيل لها، ولا يمكن لأي شريعة أخرى أن تناظرها لأنها محرفة، ولا يقابلها أي قانون من الزمن القديم أو الجديد الذي وضعه أصحاب العقول من البشر.

العناصر الأساسية للشريعة الإسلامية: هناك عنصران أساسيان للشريعة الإسلامية، الأول الكتاب الذي يتعلق بالقوانين العامة، والثاني الحكمة يعني الأحكام الأخلاقية. ويشتمل الجزء الأول يعني الكتاب على ثلاثة أمور: التوحيد والعبادات والمعاملات. والمعاملات لها ثلاثة أقسام: 1. القضايا العائلية مثل النكاح والطلاق والإرث وما يتعلق بها من الأحكام، 2. المعاملات الاجتماعية مثل البيع والشراء وغيرها أي الأحكام المتعلقة بالأمور المالية، 3. الحدود والتعزيرات أي العقوبات على الجرائم المختلفة.

ونقدم فيما يلي الأجزاء الثلاثة للعنصر الأول "الكتاب" بشكل موجز، ثم نوضح العنصر الثاني "الحكمة" بمعنى الأحكام الأخلاقية.¹

التوحيد: للتوحيد مكانة مركزية في الشريعة بل الأصح أن الأجزاء الأخرى للشريعة هي شرح وتفصيل للتوحيد، ولأن علماءنا وفقهاءنا يعتبرون الدين والشريعة منفصلين، فعندما يفصلون الشريعة يبدؤون بالعبادات بدلاً من التوحيد.

لكني أرى أنه مثلما يحمل التوحيد مكانة أساسية في العقائد، فكذلك يعتبر أساساً للأجزاء الأخرى من الشريعة أي العبادات والمعاملات. ولذلك نرى أن سورة البقرة التي تشتمل على جزء كبير من أساسيات وأصول الشريعة الإسلامية، يذكر فيها التوحيد قبل العبادات والمعاملات. يقول تعالى: "وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

¹ الكتاب والحكمة مصطلحان شرعيان مهمان للقرآن، وقد أخطأ كثير من علمائنا في تعيين مفهومهما. أنظر كتاب المؤلف: اسلامي شريعت ايك اجمالي تعارف، (الشريعة الإسلامية: تعريف وجيز)، ص 20-26

أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾" (سورة البقرة: 163-167)

فأول ما يذكر في الآية السابقة هي الحقيقة الكونية أنه لا إله إلا الله، ولا يحكم الكون كله إلا هذا الإله الرحمن الرحيم، وهو مركز القدرة الذي يعمل كل شيء تحت تصرفه ولا يمكن لأي كائن أن ينحرف عن حكمه وقانونه قيد أنملة.

وذكر بعد هذه الحقيقة الكونية أمر كبير من فساد العقيدة لدى اليهود وهو الشرك يعني تعظيم الأولياء، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًاإلى آخر الآية) وتعظيم الأولياء هذا هو العقيدة بأنهم ينفعون الناس أو يضرونهم، فقد دحض هذه الفكرة وبيّن أن التصرف والقوة بيد الله وحده، وما عدا ذلك عاجز كله ولا يملك التصرف. (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا). إن من لا يدرك هذه الحقيقة في هذه الدنيا سوف يشاهدها في الآخرة بعينه.¹

¹ قد ذكر كثير من العلماء والمفسرين معاني غير هذا. (انظر تفسير بيان القرآن لأشرف علي التهانوي) وكتب شبير أحمد عثمان في حاشية موضح القرآن (شيخ الهند) عند تفسير هذه الآيات: "أي في ذلك الوقت يتبرأ الذين اتبعوا (رجال الدين) من الذين اتبعوا ولا علاقة لهم مع الأصنام، ويصبحون أعداء لبعضهم البعض بعد أن يروا العذاب".

والسبب الأساسي لهذا التفسير الخاطئ هو أن صاحب التفسير أهمل السياق الذي يوضح أن المخاطب في الآية هم أهل الكتاب أي اليهود الذين كانوا يتبعون أولياءهم وليس عبدة الأصنام. وقد ذكر قبل هذه الآيات علماء اليهود كانوا يخفون الحقيقة عن الصفا والمروة. (سورة البقرة: 158-162) أما بعض المفسرين فلم يربطوا هذه الآيات بعبدة الأصنام، ولكنهم أيضًا لم يفهموا أن الخطاب فيها لليهود وتم فيها إبطال شركهم. فقد ذكر هؤلاء المفسرين رجال الدين عامة والذين يضلون الناس، فمثلاً يكتب المودودي: "قد ذكر هنا خاصة مصير رجال الدين والقواد ومتبعهم الجبهة حتى يتجنب المسلمون الأخطاء التي ارتكبتها السابقون وضلوا، ويميزوا بين المرشدين ولا يتبعوا المضلين. (تفهيم القرآن، 132/1، حاشية رقم: 165)

وليس معنى التوحيد فقط أنه لا إله إلا هو، وهو القوام الحقيقي، بل هو الحاكم والشارع الوحيد المطلق (سورة البقرة: 168-182). ولذلك فله الحق وحده بأن يضع القوانين لعبيده، ولا يمنح هذا الحق أبدًا لأي عالم أو فقيه ولا لأمير أو قائد للدولة الإسلامية.¹

العبادات: هي الجزء الثاني المهم من الشريعة الإسلامية، وقد ذكرت العبادات بشكل موجز في سورة البقرة بعد العقائد، وإذا نظرنا إلى تسلسل الآيات فسنرى أن ذكر العبادات بعد الطعام الحلال والحرام والقصاص والوصية يحمل أهمية كبيرة، إن الهدف من العبادات وكما هو واضح من آيات كثيرة هو التقوى، التقوى تعني تزكية الباطن والطاعة الكاملة لله وحده، وإذا خلا القلب من التقوى فالعمل على تنفيذ أحكام الله بشكل كامل أمر صعب.

ومن المعلوم أن هناك أربع عبادات فرضت في الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج. وقد فرضت الصلاة والزكاة على كل مسلم عاقل وبالغ في كل الأحوال، أما العبادتان الباقيتان ففيهما شرط، فإذا رزق الصحة وجب الصيام، وإذا استطاع السبيل إلى الحج وجب الحج وإلا فلا، ومن هنا تتضح أهمية الصلاة والزكاة.

ومن وجهة نظر التعليم والتربية تحمل صلاة الجمعة وخطبتها أهمية كبيرة في الشريعة الإسلامية. فيجب أن يكون الخطيب والإمام من تم تعيينه من قبل الحكومة، ولا يحق ذلك لعالم آخر، وكذلك الأمر في العيدين، أما الصلاة اليومية فيحق لأي مسلم أهل للإمامة أن يؤم، ولا حرج في ذلك. ويجب أن نلاحظ أن الصلوات الأخرى غير الفرائض (السنن مثلاً) فتدخل في باب التطوع، الصلاة التي يصلحها الشخص بإرادته غير الفرائض، فمن يصلي من المسلمين هذه الصلوات الزائدة يثاب عليها، ولكن لا يعاقب من لا يصلحها. (ينظر للتفصيل كتاب المؤلف: اسلامي عبادات، ايك مطالعة. "قراءة في العبادات الإسلامية")

¹ يحق لأمير الدولة الإسلامية ومجلس شورتها أن تقوم فقط باستخراج الأحكام الجزئية من الأحكام الكلية في القرآن الكريم

هناك تهاون شديد من قبل كثير من المسلمين في أمر الزكاة، وقلة من أثرياء المسلمين يؤتون الزكاة، ومن يؤتمها لا تصل أموال زكاتهم إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين، والمسؤولية في ذلك تقع على عاتق العلماء والفقهاء وأرباب النظم في المدارس الدينية، وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في الباب القادم تحت عنوان "واجبات أمير الدولة".

وأمر الصيام سيء أيضاً، فما يتم في شهر الصوم من اهتمامات تتعلق بالأكل والشرب تفسد الهدف الحقيقي من الصوم وهو كسر شهوات النفس والامتثال بأوامر الله، ولا يحبز طريقة الإفطار الجماعي لأن المدعوين إليه يكونون من الأثرياء بدل الصائمين الفقراء، وكذلك طريقة التراويح الرائجة غير صحيحة، فلا يرتل فيها القرآن وذلك سوء أدب في حق القرآن، وهناك الكثير من الحفظة ممن يقرأ القرآن في التراويح مقابل المال وهذا بيع للقرآن لا غير.

وأمر الحج لا يقل سوءاً، فقد أوضح القرآن جيداً أن من أراد الحج فعليه أن يأخذ زاده معه، وخير الزاد التقوى ويجب الاهتمام بذلك (سورة البقرة: 197) ولكن في أيامنا هذه يعتبر الزاد المادي كافياً، ولذلك أصبحت عبادة عظيمة مثل الحج بدون فائدة وسياحة دينية فقط.

ما ذكر سابقاً من المساوئ والفساد في تنفيذ العبادات الأربع يجب إصلاحه، فهدف الشريعة هو تركية الباطن عن طريق هذه العبادات، وجعل الشخص العابد إنساناً صالحاً حتى يظفر في الدنيا والآخرة.

المعاملات: قد ذكرنا من قبل أن المعاملات لها ثلاثة أقسام: القضايا العائلية (النكاح والطلاق وغيرهما)، المعاملات الاجتماعية (البيع والشراء)، والحدود والعقوبات. وقد جاء في سورة البقرة في ذكر العبادات بطريقة اللفت¹ بيان لكثير من الأمور المتعلقة بالحياة العائلية، فقد ذكرت أحكام مهمة ومبادئ أساسية في النكاح والطلاق، والخلع

¹ هذا من أساليب القرآن البيانية المعروفة، حيث يتجه الكلام إلى أشياء مفيدة ومهمة حسب السياق.

والرضاعة وعدة المطلقة، وطريقة أداء المهر عند الطلاق بعد النكاح مباشرة، ونفقة المتوفى عنها زوجها والمطلقة (المتاع)، وغيرها من الأحكام.¹

وتنفيذ هذه الأحكام المتعلقة بالقضايا العائلية كما هي، تكون مسؤولية الحكومة، وما أحدثه العلماء والفقهاء من خلافات في هذا المجال غير ضروري ومخالف لإرادة الله. مثلاً جعل التطليقات الثلاثة في مجلس واحد طلاقاً بائناً، والطلاق بدون شهود وغيرها من الأمور. يجب أن تمنع كل هذه الطرق غير الشرعية للطلاق وتطبيق الطريقة التي بيّنها القرآن والسنة. وكذلك يجب محو الطريقة السيئة في استخدام "الحلالة". (ينظر للتفصيل كتيب المؤلف: اسلام كا قانون طلاق. "قانون الطلاق في الإسلام").

قد أوجب القرآن نفقة المطلقة حتى بعد انقضاء العدة، وقد ظلمت النساء في هذه القضية منذ مدة طويلة، فيجب تحديد مدة معينة مناسبة للنفقة بعد انقضاء العدة، وكذلك تحديد المقدار المناسب لها حسب الظروف المادية لكل من الرجل والمرأة. ويجب ملاحظة أن لا يكون هناك إجحاف لحق أي منهما. فإن لم تتزوج المرأة خلال الفترة المحددة فلا نفقة على الرجل بعد ذلك، فإن كانت المرأة غير قادرة على كفالة نفسها تكون نفقتها على الحكومة الإسلامية.

قد ذكر في نهاية سورة البقرة المعاملات الاجتماعية يعني البيع والشراء بالتفصيل، وقد وجّه المسلمون في هذا الصدد بتوجيهين: الأول أن تدون المعاملات المالية كالقرض في صورة الوثائق،² والثاني يتعلق بتحريم الربا، إن نظام الربا الذي كان رائجاً في العهد النبوي كان نظاماً استغلالياً مجحفاً، وكان الفقراء بسببه يتعرضون لمشاكل مالية كبيرة.³ وهذا هو السبب أن لهجة تحريم الربا في القرآن قاسية جداً.⁴

¹ ذكرت أحكام أخرى خاصة بالقوانين العائلية في سورة آل عمران والنساء والأحزاب والتوبة والطلاق.

² قد نسي المسلمون هذا الإرشاد تماماً.

³ قد وسع العلماء دائرة حرمة الربا كثيراً ولم يأخذوا بعين الاعتبار أن قضية حرمة الربا تتعلق بالدولة الإسلامية، ويختلف الحال في الدولة غير الإسلامية (انظر للتفصيل كتاب المؤلف: "إسلامي عبادات" (العبادات الإسلامية) باب الزكاة.

⁴ ذكرت الأحكام الأخرى للحياة الاجتماعية في سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأنفال، والأحزاب، والنور وسور أخرى.

يرغب الإسلام أن لا يتولد في ذهن أصحابه مشاعر حب المال وجمعه، لذلك أرشدهم إلى كفالة إخوانهم بدل الزيادة في الأموال إن كانوا يملكون مالا زائداً عن حاجتهم. وقد تحدثنا عن هذه القضية بالتفصيل في الباب الخامس من الكتاب.

الحدود (العقوبات في القرآن): هناك خلافات كبيرة بين العلماء والفقهاء في فهم هذا القسم الثالث من المعاملات، كما سيأتي في السطور التالية.

إن العقوبات المذكورة للجرائم المختلفة في القرآن تسمى "الحدود"، وما عدا ذلك من العقوبات تسمى بـ "التعزيرات"، والمعلوم أن العقوبات لبعض الجرائم المذكورة في القرآن قاسية جداً، مثلاً قطع يد السارق، وجلد الزاني والزانية والرجم في الحالات الاستثنائية، ولذلك يعارضها بعض المسلمين المتحررين والمتعلمين ويعتبرونها عقوبات وحشية.

إن علماء المسلمين وفقهاءهم هم المسؤولون عن سوء فهم غير المسلمين للعقوبات الإسلامية، وخطأ كبير في هذا الشأن هو أنهم أهملوا الرخص في تنفيذ القوانين الشرعية التي يجب مراعاتها لتناسب الظروف في عصر معين. إن أي شخص يعرف القانون يدرك أن القوانين خاضعة للأحوال الاجتماعية والثقافية، بمعنى أنه مثلما تكون الأحوال الاجتماعية والحضارية، تكون القوانين، وهذا هو السبب أن قوانين العهد البدائي والتي تسمى بالقوانين الانتقالية تكون لينة بعض الشيء مقارنة مع قوانين الفترة النهائية من العهد.

فإن كان المجتمع في صورته البدائية من ضعف في الناحية الأخلاقية والإيمانية، وتأتي جماعة من الناس المتحمسين وتقوم بتنفيذ أحكام الشريعة التي تناسب مجتمعاً مسلماً قوياً من الناحية الأخلاقية والدينية، يكون هذا عدم علم منها ويكون كذلك مضرّاً بالإسلام وبالمجتمع المسلم على حد سواء.

هل نفذت الشريعة الإسلامية في مجتمع العهد النبوي والذي كان أقوى بكثير من الناحية الإيمانية والأخلاقية من المجتمع الحالي دفعة واحدة؟ الواضح أن الجواب هو لا، تروي السيدة عائشة رضي الله عنها:

"إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً"¹

تأملوا! عندما طبقت الشريعة الإسلامية في هذا المجتمع المثالي بالتدرج، فكيف يمكن تطبيقها وخاصة الحدود في مجتمع مسلم أقل درجة بل دينية، وإن تم تطبيقها بالإجبار فلا بد وأن يكون لذلك رد فعل، كما حدث من مسؤولي حركة الجهاد في أفغانستان.²

والخطأ الثاني لعلمائنا هو أنهم لم يهتموا كثيراً برخصة التوبة والرجوع إلى الله في عملية إصلاح الأحوال، والسبب في ذلك تغاضيهم عن الطبيعة الإنسانية، ومن لا يدرك أن الإنسان يملك بجانب العقل المشاعر والرغبات، وأن هذه الرغبات قوية جداً، ولا يستبعد ارتكاب الاثم بسبب غلبة هذه المشاعر والرغبات، وحدث جرائم السرقة والزنا في العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة لدليل واضح على ذلك، وقد أعطيت لرخصة التوبة والإصلاح أهمية كبيرة بسبب هذا الضعف الخلقي للإنسان، "وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" (سورة النساء: 28).

قال بعد ذكر عقوبة السرقة: "فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة المائدة: 39)

وقال في الزنا: "فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا" (سورة النساء: 16)

ليس هذا فقط، بل إذا تاب من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، إذا تاب قبل أن يعتقل فهو يستحق العفو. قال: "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ

¹ البخاري، باب تأليف القرآن.

² انظر كتاب المؤلف: "جاده ومنزل" (الزاد والمنزل) المقالة: فشل حركة جهاد السيد أحمد الشهيد.

يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ (سورة المائدة: 33-34)

قبل إصدار الحكم في أي قضية، من الضروري معرفة نوعية الجريمة وأحوال المجرم وحالته النفسية، هناك فرق كبير بين من يسرق بسبب الحالة المادية الضعيفة ومن يجعلها مهنة يمارسها، فلا يعاقب الاثنان بعقوبة واحدة، وقد ميزت بينهما شريعة الله. يروى أن عباد بن شرحبيل قال: أصابتنا سنة فأتيت المدينة فدخلت حائطاً من حيطانها فأخذت سنبلاً ففركته وأكلت منه وحملت في ثوبي فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما علمته إذ كان جاهلاً ولا أطعمته إذ كان ساغباً أو جائعاً فرد علي الثوب وأمر لي بنصف وسق أو وسق.¹

وحدث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن رقيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة فانتحروها فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمر عمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم ثم قال عمر أراك تجيعهم ثم قال عمر والله لأغرمك غرمًا يشق عليك ثم قال للمزني كم ثمن ناقتك فقال المزني قد كنت والله أمنعها من أربع مائة درهم فقال عمر أعطه ثمان مائة درهم.² وكذلك هناك فرق كبير بين ارتكاب الرجل والمرأة لجريمة الزنا بعد غلبة المشاعر وارتكاب الزنا قصدًا والزنا بالإجبار مع المرأة وجعل الزنا عادة أو مهنة، ومن العدل التلطف في الحالة الأولى المذكورة والعقوبة الشديدة في الحالة الأخيرة. والروايات تؤيد هذا الرأي.

"عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: (كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدج فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها فذكر

¹ أبو داؤود، رقم الحديث: 2252

² موطأ الإمام مالك، رقم الحديث: 330

ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان ذلك الرجل مسلماً فقال: اضربوه حدّه قالوا: يا رسول الله إنه أضعف مما تحسب لو ضربناه مائة قتلناه فقال: خذوا له عثكاً لا فيه مائة شمرخ ثم اضربوه به ضربة واحدة قال ففعلوا¹.

ويروى أن عمر رضي الله عنه أتى بامرأة جهدها العطش فمرت على راع فاستسقت، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال علي رضي الله عنه: هذه مضطرة، أرى أن تخلي سبيلها، فخلّى عمر رضي الله عنه سبيلها².

(عن عبد الرزاق، عن معمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رفقة، من أهل اليمن نزلوا الحرة، ومعهم امرأة قد أصابت فاحشة، فارتحلوا وتركوها، فأخبر عمر خبرها فسألها، فقالت: كنت امرأة مسكينة لا يعطف علي أحد بشيء، فما وجدت إلا نفسي قال: فأرسل إلى رفقتها، فردوهم، وسألهم عن حاجتها، فصدقوها فجلدها مائة، وأعطاهما، وكساهما، وأمرهم أن يحملوها معهم³).

رأينا أن المرأة كانت تمارس الزنا لكن نظراً لظروفها المادية خففت عقوبتها⁴ ليس هذا فقط، بل إن الإسلام يدعو إلى التغاضي عن أخطاء الأشخاص الذين لم يتخذوها عادة، حتى ينجوا من العقاب ويتوبوا إلى الله، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "تعافوا الحدود في ما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب"⁵.

وحديث آخر: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ادّروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج، فخلّوا سبيله. فإن الإمام أن يخطئ في العفو، خير من أن يخطئ في العقوبة". رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً⁶.

¹ أبو داؤود والنسائي عن أبي أمامة

² البيهقي، السنن الكبرى، رقم الحديث: 16827

³ مع العلم أن هذه المرأة ترعرعت يتيمة

⁴ انظر للتفصيل، مصنف عبد الرزاق، رقم الحديث: 13649، 13650

⁵ النسائي، رقم الحديث: 4703

⁶ الترمذي، وكذلك انظر كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ص 182

لكن هناك عقوبات شديدة جداً للمجرمين الذين تعودوا الإجرام، وهم لا يستحقون أي تلميح أو لين، وقد استخدم القرآن لفظ "فساد في الأرض" للجرائم الكبيرة، ويراد بها كل الجرائم التي تفسد على المجتمع أمنه وأمانه، وتتعرض أعراض الناس وأموالهم إلى الخطر بسببها، مثلاً التمرد المسلح ضد الدولة الإسلامية، السرقة والقرصنة بطريقة منظمة، العداوة سواء كانت لاختلاف العقيدة أو المذهب أو الأناثية، قتل الأبرياء بغير حق وتدمير أموالهم وأموالهم، التطفيف في الكيل على مستوى كبير، والتخزين، والخطف، والدعارة، والزنا بالإجبار وغيرها من الجرائم. والعقوبات التي حددت لمرتكبي هذه الجرائم الشنيعة هي التالية:

"إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾" (سورة المائدة: 33)

فعلما أن العقوبات الشديدة في الإسلام هي للمجرمين الذين تعودوا هذه الجرائم وليس للمخطئين، وإنزال العقوبة على المجرم المتمرس ليس ظلماً، إنما هو عدل، ولا ينكر أي شخص محب للعدل هذه العقوبات ويسمّيها عقوبات وحشية. وتتضح هذه الحقيقة من السطور القادمة التي تحدثنا فيها عن بعض العقوبات القرآنية لبعض الجرائم الكبيرة.

السرقة: يقول تعالى في سورة المائدة: "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾" فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾". (سورة المائدة: 38-39)

لكن ليس معنى ذلك أن تقطع يد كل سارق وسارقة، يصدر الحكم في القضية بعد النظر إلى كمية المال المسروق وقيمه وظروف السارق وغيرها من الأمور، والسؤال هنا، ما هو مقدار المال الذي تقطع اليد عند سرقة؟ قد اختلف العلماء والفقهاء في ذلك، واختلفت كذلك الروايات في هذا الباب، يرى بعض الفقهاء وهناك رواية تؤيد هذا الرأي أنه لا تقطع اليد في المال المسروق الذي لم يبلغ النصاب، بل يجب

التعزير،¹ أي يعاقب السارق بعقوبة أخرى حسب نوعية السرقة.² وفي حالة توبته يحق للقاضي أن يعفو عنه، ولا يعاقب السارق على سرقة إن كان مضطراً، كما هو واضح مما حدث في عهد عمر رضي الله عنه وقد ذكر آنفاً.

قد عبر القرآن عن السرقة بالفساد في الأرض: "قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾". (سورة يوسف: 73)

ويتضح المزيد من سورة المائدة التي ذكرت فيها العقوبة المتعلقة بقطع اليد، فقد ذكر في الآية 33 من هذه السورة بعد بيان العقوبة الشديدة لمن حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً وأمر المسلمين بالتقوى والتقرب إلى الله، ذكر أن تقطع يد السارق والسارقة (الآية 38)، ويتضح من سياق الكلام أن هذه العقوبة خاصة بالسارقين الذين اتخذوا السرقة مهنتهم وعادتهم، أي أنهم دخلوا في دائرة الفساد في الأرض.

الزنا: إن سورة النساء هي أول سورة ذكر فيها الزنا، قال تعالى: "وَالَّذِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾". (سورة النساء: 15-16)

تتعلق العقوبة في الآية الأولى فقط بالنساء الزانيات، وهي أن يمسكن في البيوت بعد شهادة أربعة شهود حتى يأتين الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً آخر. والعقوبة الثانية تتعلق بالرجل والمرأة كليهما، فقال: أذوهما".

والسؤال هنا بالنسبة للعقوبة الأولى هو لماذا قصرها على المرأة الزانية؟ وما رد به المفسرون على هذا السؤال غير مقنع بل غير قابل للذكر، وحاول بعض العلماء حل هذه المشكلة بالقول بأنها خاصة بالنساء اللاتي اتخذن من الزنا مهنة، ولكن المشكلة أنه لا توجد في الآية قرينة تؤيد هذا القول. إن كلمة "فاحشة" موجودة، ولكن يراد بها

¹ انظر أصحاب السنن، عن عبد الله بن عمرو بن العاص

² هذه عقوبة عشرة أسواط "لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله" (البخاري، ومسلم، والترمذي)

الزنا، كما قال في سورة أخرى: "وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَّ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾".
(سورة الإسراء: 32)

وإذا اعتبرنا النساء المذكورات في الآية بأنهن من صاحبات مهنة الزنا، فيصبح ما ذكر فيما بعد في الآية بدون معنى، أي "ويجعل الله لهن سبيلاً". والسبيل الذي بيّنه بعد هذا الوعد ذكره في الآية التالية (فأذوهما)، ففي ناحية هذه العقوبة الشديدة بأن يقيدن في البيوت حتى يأتي عليهن الموت، ومن ناحية أخرى العقوبة الخفيفة وغير الواضحة (أذوهما)، شيء غير مفهوم، فليس هناك أي مطابقة في العقوبتين.

لذلك علينا أن نعترف أن العقوبتين للنساء الزانيات غير صاحبات مهنة الزنا، وأما السؤال لماذا ذكرت العقوبة للمرأة الزانية دون الرجل، فالجواب على ذلك أن المرأة تلعب دورًا بارزًا في عملية الزنا بالتراضي، وهي الدافع الحقيقي وراء هذا الإثم الشنيع، وكثير من حوادث الزنا تؤيد هذا، ولإبراز هذا الجانب الواضح لعملية الزنا، اتخذ هذا الأسلوب في البيان، حتى يكون تنبيهًا للنساء الزانيات من جهة، ومن جهة أخرى ينتبه إلى هذا الإثم المسؤولون في الحكومة فيقوموا باتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقافه.

السؤال الثاني هو أن عقوبة (أذوهما) هي عقوبة دائمة أم مؤقتة والتي نسخت بالعقوبة المذكورة في سورة النور (الآية الثانية) وهي جلد مئة جلدة؟ الاعتقاد العام أن العقوبة الأولى قد نسخت، لكن رأي أنها لم تنسخ. ولا شك أن العقوبة نسخت للمجتمع المدني في ذلك العهد حينما نزلت عقوبة مئة جلدة في سورة النور، ولكن المجتمع المسلم في العهد الحديث والذي يعتبر بعيدًا جدًا عن المجتمع المدني في العهد النبوي من الناحية الإيمانية والعملية، تبقى فيه عقوبة (أذوهما) حتى يبلغ هذا المجتمع نفس مستوى المجتمع المدني من الناحية الإيمانية والأخلاقية أو يصل إلى مستوى قريب منه.

وذكرت العقوبة الثالثة والدائمة للزنا في سورة النور، قال تعالى: "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٤﴾". (سورة النور: 2)

وفقاً لهذه الآية يجلد الرجل والمرأة المرتكبين للزنا مئة جلدة، ولم يذكر في الآية كونهما محصنين أو غير محصنين، ولذلك يقول بعض العلماء أن هذه العقوبة للزاني والزانية سواء كانا محصنين أو لا، ولكن ترى جماعة كبيرة من العلماء والفقهاء أن العقوبة تتعلق بالرجل الزاني والمرأة الزانية إن كانا غير محصنين، أما عقوبة الزاني والزانية المحصنين فهي الرجم حسبما جاء في السنة. والرأيان فيهما نظر.

في رأيي أن العقوبة المذكورة في الآية هي للرجل الزاني والمرأة الزانية المحصنين، والدليل على ذلك سبب نزول سورة النور، فمن المعروف أن حادثة الإفك تتعلق بالسيدة عائشة رضي الله عنها وكانت محصنة، والدليل الثاني الأكبر هو الآيات من 6-9 من نفس السورة والتي ذكر فيها اللعان (القذف)، يقول تعالى: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٦ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٧ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ إِنْ تَشْهَدُ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ٨ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩" (سورة النور: 6-9).

وقد اختلف العلماء والفقهاء في تعيين معنى "العذاب" في هذه الآية.¹ والحقيقة أن هذا خلاف مخترع، فالألف واللام في العذاب للعهد، فبال تأكيد يراد به العقاب المذكور في الآية رقم 2 أي مئة جلدة وهو حد الزنا، يقول ابن القيم:

¹ يراد بذلك الرجم عند مالك والشافعي (بداية المجتهد، 120/2)، يقولان إن الحديث قد أوضح مفهوم "الزانية والزاني.." بأن المراد بذلك الزاني والزانية غير المحصنين، وعقوبة الزاني والزانية المحصنين هي الرجم حسب السنة، (الرسالة، ص 66-67)، ولكن هذا غير صحيح وقد أثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة.

ويراد بـ"العذاب" القيد عند أبي حنيفة والعلماء الآخرين للمذهب الحنفي. (أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، 296/3)، ورأهم أن المرأة إذا تجنبت اللعان تقيد، حتى تقوم باللعان أو تعترف بتهمة زوجها، لكن هذا الرأي لا يوافق سياق الكلام، فلم يذكر القيد قبل ذلك، وهذا الرأي خاطئ لأن المرأة إن لم تقم باللعان ثبتت عليها التهمة فلا حاجة لجسها.

"والعذاب المدفوع عنها بلعائها هو المذكور في قوله تعالى: "وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين"، وهذا عذاب الحد قطعاً فذكره مضافاً ومعرفةً بلام العهد. فلا يجوز أن ينصرف إلى عقوبة لم تذكر في اللفظ ولا دل عليها بوجه ما من حبس أو غيره".¹

والدليل الثالث في هذا الأمر الآية 25 من سورة النساء والتي جاء فيها: وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُ فَنَكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾". (سورة النساء: 25)

والسؤال هو ما هي عقوبة المحصنة الزانية؟ يقول الفقهاء أن عقوبتها الرجم، ولكن كيف يمكن معاقبة المحصنة الزانية الأمة؟ فليس هناك نصف للرجم، فلا مفر من أن نسلم بأن عقوبة المحصنة الزانية هي نفسها مئة جلدة المذكورة في سورة النور. وتجلد المحصنة الزانية الأمة خمسين جلدة وهو نصف العقوبة.

وسؤال آخر هو إن كانت العقوبة المذكورة في سورة النور تتعلق بالرجل والمرأة الزانيتين المحصنتين، فما هي عقوبة الزانيتين غير المحصنتين؟ يقول فريق من العلماء كما ذكر آنفاً أن حد الزنا المذكور في سورة النور هو للمرأة والرجل الزانيتين المحصنتين وغير المحصنتين، ولكننا ذكرنا بالدليل القاطع أن هذا الحد للزانية والزاني المحصنين فقط. ومعاقبة الزانية والزاني المحصنين وغير المحصنين بعقاب واحد لا يتفق مع العقل والعدل.

وما وصلت إليه بعد التحقيق في هذا الشأن هو أن عقوبة الزانية والزاني غير المحصنين هو الإيذاء، (فأذوهما)، والتي ذكرت في سورة النساء الآية 16. والدليل على ذلك الآية 25 من سورة النساء حيث ذكر أن عقوبة الزانية الأمة المحصنة هي نصف عقوبة "المحصنات"، ولكن لم يذكر عقوبة الزانية الأمة غير المحصنة. وهذا السكوت

¹ زاد المعاد، 4/191، انظر أيضاً التفسير الكبير، 23/146

يدل على أن العقوبة المذكورة في الآية 16 من سورة النساء باقية للزانية والزاني غير المحصنين ولم تنسخ بأي نص من القرآن الكريم.¹

هذه العقوبة (الإيذاء) قد تختلف باختلاف الأحوال، وصورة من صور العقاب أن يقيدا مع الأعمال الشاقة لمدة معينة، فإن تابا وأصلحا يمكن تخفيف مدة العقوبة، ويزوجان بعد إطلاق سراحهما بشرط رضا الأهل.

عقوبة الرجم: أشد عقوبة للزنا هي الرجم، أي رجم المرأة الزانية والرجل الزاني، ويصر بعض العلماء والفقهاء وكما ذكر سابقاً أن مستحقي عقوبة الرجم هم المحصنون من الرجال الزناة والنساء الزانيات دون استثناء، ولكن تردّ هذه الفكرة بسبب آيات من القرآن الكريم وبعض حوادث الزنا كذلك.

يعترف أغلب العلماء والفقهاء بأن السنة لا تستطيع أن تنسخ حكماً من القرآن الكريم² أو تضيف إليه شيئاً،³ وفي الحقيقة تعتبر السنة شرحاً وبياناً للمجمل من الأحكام المذكورة في القرآن الكريم، ولذلك ثلاث صور: 1. البيان العملي للأحكام المجملة المذكورة في القرآن الكريم مثل الطريقة العملية للصلاة والزكاة وغيرهما من الأعمال.

2. تفصيل حكم مجمل مذكور في القرآن الكريم، مثلاً لم يذكر القرآن تحريم الحيوانات المفترسة، لكن ذكر تحريم الدم بالصرحة في الآية رقم 3 من سورة المائدة، وقد حرمت السنة الحيوانات المفترسة في ضوء هذه الآية.

3. إصدار الحكم على أساس نص صريح لقضية لم يذكر حكمها بوضوح في القرآن الكريم.

¹ نحتاج إلى تدبر أكثر في هذه القضية

² يقول فضل بن زياد: "سمعت أحمد بن حنبل يقول: لا تنسخ السنة شيئاً من القرآن، قال: لا ينسخ القرآن إلا القرآن" (جامع بيان العلم، ابن عبد البر، 2/234)

³ تضيف السنة على القرآن فقط في حالة عدم وجود حكم صريح عاى قضية ما، يقول الإمام الشاطبي: "إن السنة إما بيان للكتاب أو زيادة على ذلك... وإن لم يكن بياناً فلا يعتبر إلا بعد أن لا يوجد في الكتاب" (الموافقات، 4/6)

وعقوبة الرجم تتعلق بهذه الصورة الثالثة، فالرجم تعزير وليس بحد، وكذلك هو تعزير استثنائي، أي لا يعاقب به إلا في بعض الظروف الخاصة، فقد أمر القرآن في سورة النور بأن يعاقب الزناة بجلد مئة جلدة، ولكنه لم يذكر العقوبة التي يعاقب بها الشخص الذي يرتكب الزنا أكثر من مرة أو يتخذ مهنة، أو يغتصب امرأة، عندما حدثت مثل هذه الحوادث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، اجتهد واختار عقوبة الرجم في ضوء الآيتين 60-61 من سورة الأحزاب والتي نزلت متصلة مع سورة النور.¹

إذا أمعنا النظر في كلمات الآية 61 في سورة الأحزاب: "وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا"، يتضح لنا أن المراد بذلك عقوبة الرجم، وكان يستحقها إضافة إلى مشجعي الشر، الأشخاص الذين تجاوزوا الحد في الشهوة، (وفي قلوبهم مرض)، وقد ذكر كلمة (ملعونين) في نفس الآية، مما يوضح سوء أخلاقهم أكثر وأكثر.

ومن المهم ذكر قضية الزنا الخاصة بماعرز الأسلمي، وقد عوقب بالرجم لأنه كان قد تجاوز الحد في هذا الأمر، وقد جاء عنه في رواية: "ينب كنيب التيس".²

وقد عوقب ماعز بالرجم كذلك لأنه جامع المرأة غصبًا دون إرادتها، يعني الزنا غصبًا، وهذا هو السبب أنه عوقب بالرجم وخلي سبيل المرأة دون أي عقوبة.³ فلا يوجد ذكر لعقوبتها في أي رواية.

ولأن الزنا غصبًا يتعلق بالفساد في الأرض، فيمكن معاقبة مرتكبيه بعقوبات أخرى غير الرجم حسب الظروف، فمثلًا يمكن قتلهم، أو إعدامهم، وفي حالة استثنائية إن كان الزاني غير محصن يمكن جلده مئة جلدة ثم نفيه عن الوطن لمدة طويلة. وقد

¹ يمكن أن يكون مصدر عقوبة الرجم الآية 33 من سورة المائدة، والتي ذكرت فيها عقوبات شديدة للذين يفسدون في الأرض، مع العلم أن سورة النور وسورة الأحزاب نزلتا في أواخر العام الخامس الهجري، ونزلت سورة المائدة في أواخر العام السادس الهجري

² مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنا

³ الطبقات الكبرى، ابن سعد، 229/3

ذكرت بعض الروايات أن الشخص غير المحصن إذا كزّر فعل الزنا فيعاقب بجلد مئة جلدة مع النفي عن الوطن، (مئة جلدة ثم تغريب عام).¹

يتضح من هذا أن عقوبة الرجم خاصة بالمتمرسين المتخذين من الزنا مهنة، والذين ينغصون على المجتمع على المجتمع أمنه وسلامته بأفعالهم الشهوانية، ويشكلون خطراً مستمراً على سمعة وكرامة العفيفات من النساء، وقد جعلت عقوبة الرجم لاستئصال هذا الخطر حتى يتطهر المجتمع من وجود مثل هذه العناصر. ومن صاحب الحق والعدل يمكنه أن يصف هذه العقوبة بالعقوبة الوحشية؟!

القذف: وقد ذكر القذف في سورة النور بعد الزنا مباشرة. قال تعالى: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ① إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ② وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ③ وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ④ وَيَذَرُونَهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑤ وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑥" (سورة النور: 4-9).

ذكرت في هذه الآية صورتان للقذف: الصورة الأولى أن يتهم شخص امرأة محصنة عفيفة بالزنا، فعليه أن يأتي بأربعة شهداء في إثبات ذلك، فإن لم يستطع، يجلد ثمانين جلدة بسبب هذه التهمة، ولا تقبل له شهادة إلا إذا تاب وأصلح.

وقد اشترط أربعة شهداء في القذف مثل الزنا حتى تصان سمعة العفيفات، وإن أخطأت امرأة بسبب غلبة المشاعر عليها فالأصلح لها وللمجتمع أن لا يهتك سترها، ولا يشهر بها، فمن الممكن أن تتوب إلى الله وتستغفره وتصلح من أمرها.

والصورة الثانية للقذف أن يتهم شخص زوجته بالزنا، ولكنه لا يملك من الشهود إلا نفسه، ففي هذه الحالة يكون الحكم بالحلف واللعنة، وذلك ما يسعى باللعان في

¹ مسلم والترمذي وأبو داؤود (كتاب الحدود)

اصطلاح الفقه، وقد ذكرت طريقته في الآية بأن يحلف الرجل بالله أربع مرات بأن ما اتهم به زوجته صحيح، ويقول في المرة الخامسة أنه يستحق لعنة الله إن كان من الكاذبين. فإن كانت المرأة أيضاً راضية باللعان بنفس الطريقة، فلا يعاقبان بأي عقوبة، ويترك أمرهما لله، وهو سبحانه يقرر من كان صادقاً يوم القيامة، ولكن إن لم ترض المرأة باللعان فتثبت التهمة وتعاقب بنفس عقوبة الزنا التي حددت في الآيات السابقة وهي جلد مئة جلدة.

ومع أن الآية ذكرت فقط اتهام الرجل للمرأة بالزنا، ولكن من الواضح أن المرأة لو اتهمت زوجها بالزنا فيصدر الحكم بنفس الطريقة أي اللعان.

وقد ذكرت في القرآن عقوبة الجرائم كالمحاربة أي التمرد المسلح ضد الحكومة الإسلامية، والفساد في الأرض مثل قطع الطريق، وقتل النفس بغير حق، لذلك تعد من ضمن الحدود كذلك. فعقوبة الجريمتين المذكورتين أولاً هي أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم أو ينفوا من الأرض. (سورة المائدة: 33-34). ويمكن المعاقبة بأي عقوبة حسب الظروف. أما عقوبة قتل النفس بغير حق فهي القصاص. (سورة البقرة: 178-179)

التعزيرات: كما ذكر سابقاً فإن العقوبات التي لم تذكر في القرآن الكريم ويقررها الحاكم أو القاضي تعتبر تعزيراً وليست من الحدود.

وقد ذكر الفقهاء أن العقوبة التعزيرية عشرة أسواط: "لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا حد من حدود الله".¹

لكن من الأفضل تحديد ذلك حسب الظروف، والروايات تؤيد هذا. أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى برجل شرب الخمر فضربه بجريدتين نحواً من أربعين،² و أما شارب آخر فالرواية إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتى برجل قد شرب الخمر، فقال: "اضربوه"، فمنا الضارب بيده، والضارب بثوبه، والضارب بنعله، ثم قال:

¹ البخاري ومسلم والترمذي، رواه هاني بن دينار

² البخاري، ومسلم، رواه أنس

"بكتوه"، فأقبلوا عليه يقولون: ما اتقيت الله؟ ما خشيت الله؟ وما استحييت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم-؟ فقال بعض القوم: أخزأك الله، قال: "لا تقولوا هكذا! لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا: "اللهم اغفر له، اللهم ارحمه".¹

وأقر أبو بكر الصديق هذه العقوبة في عهده، لكن عمر بن الخطاب أضاف على هذه العقوبة بسبب ظروف عصره وجعلها ثمانين جلدة، أما عثمان فجعلها أربعين جلدة.²

الأحكام الأخلاقية (الحكمة): الجزء الثاني للشرعية الإسلامية (الحكمة) يتعلق كما ذكر بالأحكام الأخلاقية، ولا يذكر هذا الجزء عمومًا عند ذكر الشريعة الإسلامية، مع أن له دورًا كبيرًا في بناء سيرة الشخص. إن القوانين العامة والتي تسمى "كتاب" فصل عنها في الصفحات السابقة، وهي تتعلق بالأعمال الخارجية، والهدف منها تحديد دواعي النفس السلبية داخل حدود معينة، ومعاينة من يخالف هذه الحدود حتى لا يتجاوزوا الحد مرة أخرى. لكن الحكمة تتعلق بتزكية الباطن.

وقد ذكرت الأحكام الأخلاقية التي يشتمل عليها هذا الجزء الثاني من الشريعة الإسلامية في سورة الأسراء (23-39) وسورة لقمان (12-19) وسورة الحجرات (11-12) وفي سور أخرى. وقد تحدثنا عن هذه الأحكام الأخلاقية والتعليمات بالتفصيل في الباب السابع من هذا الكتاب، لذلك نذكر هنا بعض الأمور باختصار.

أول ما ذكر من الأحكام الأخلاقية في القرآن الكريم هو شكر الله سبحانه وتعالى، بمعنى طاعته وعبادته دون أدنى جزء من الشرك، فالشرك أكبر كفران لنعم الله تعالى، أما الحكم الثاني مع طاعة الله هو الإحسان إلى الوالدين، وهو يتعلق أيضًا بالشكر، والحكم الثالث هو مساعدة الفقراء والمساكين في المجتمع والعناية بهم، وقد أكد على عدم الإسراف وكذلك تجنب البخل وحذر من جعل المال شيئًا دون فائدة بجمعه، إنما يجب إنفاقه في إعانة الفقراء.

¹ أبو داؤود، رواه أبو هريرة

² مسلم، وأبو داؤود، رواه حصين بن منذر

وكذلك أمر بعدم أكل أموال اليتامى، والتطفيف، ونقض العهود لأن ذلك يؤدي إلى تفكك المجتمع وفساده، فالناس يفقدون الثقة ببعضهم وهو شيء يأتي بنتائج وخيمة. وقد اعتبر التواضع أفضل الأخلاق، أما الغرور والتكبر سواء كان في السلوك والكلام أو أي شيء آخر فهو أسوأ الأخلاق، وقد أمر بتجنبه، وكذلك السخرية والطعن وبيان العيوب وسوء الظن والغيبة كلها عدت من الخصال السيئة، لأنها تؤدي إلى التفرقة وتوتر العلاقات بين الناس.

ولذلك أول ما ذكر من التعاليم الأخلاقية في سورة الحجرات هي كون المؤمنين كلهم إخوة فيما بينهم، وإن حدث بينهم خلاف فالإصلاح بينهم هو واجب ديني أخلاقي لكل مؤمن. مصادر الشريعة: تم التسليم بشكل عام وصادق العلماء والفقهاء من أغلب مكاتب الفكر على أن مصادر الشريعة الإسلامية أربعة: القرآن والسنة والإجماع والقياس. وقد أوضح الأحناف هذه المصادر الأربعة بأنه إذا عرض أمر فيجب البحث عنه أولاً في القرآن الكريم، فإن وجد حل الأمر قضي بذلك، فإن لم يوجد في كتاب الله بحث عنه في السنة ويقضى بذلك، فإن لم يوجد في السنة ما يرشد إلى الحل، ينظر إلى سبب مشترك بين هذا الأمر وقضية مشابهة حكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يسعى بالقياس. فإن لم يوجد السبب فيعمل بالإجماع.¹

لكن رأي يختلف عن هذا، في الحقيقة هناك مصدر أساسي ومستقل واحد فقط للشريعة الإسلامية وقوانينها وهو القرآن الكريم، والذي ذكرت فيه جميع الأحكام المتعلقة بالحياة الفردية والجماعية بشكل إجمالي، بل في بعض المواضع ذكر التفاصيل أيضاً، أما المصادر الأخرى فهي فروع لهذا الأصل، وقبل الحديث عن هذه القضية علينا أن نفهم نوعية العلاقة بين أحكام القرآن الإجمالية والتفصيلية.

¹ يأخذ الإمام الشافعي (المتوفى 204هـ/820م) أيضاً بالقياس والإجماع، ولكن القياس عنده في الدرجة الرابعة، ورأيه أن في حالة عدم وجود الحكم في الحكم في الكتاب والسنة يعمل بإجماع السلف، فإن لم يوجد أخذ بالقياس. انظر: كتاب الأم

كما ذكر سابقًا هناك نوعان أساسيان للأحكام القرآنية. قسم يتعلق بالتوحيد والعبادات، وقسم يتعلق بالمعاملات، والمعاملات ثلاثة أقسام:

1. القضايا العائلية مثل النكاح والطلاق وغيرهما

2. التعاملات الاجتماعية مثل البيع والشراء وغيرهما

3. الحدود والتعزيرات

إن الأحكام في القرآن الكريم والتي تتعلق بالتوحيد مفصلة وغير قابلة للتغيير. والسبب في ذلك أنها تتعلق بالحقائق الكونية غير القابلة للتغيير.

لكن أمر العبادات مختلف عن ذلك، فنجد لها أحكامًا إجمالية وتفصيلية كذلك، مثلًا الزكاة، فقد حُدّد فيما تصرف الزكاة ولكنه لم يذكر النصاب، والسبب واضح، لأن النصاب يتعلق بالظروف المادية للشخص، والظروف قابلة للتغيير، وكذلك المعاملات، ذكرت فيها أحكام إجمالية عمومًا حتى يتم تشكيل الأحكام التفصيلية حسب الظروف ومقتضيات العصر. كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده حسب الظروف الاجتماعية والمعيشية وتقاليد العرب المفيدة. ويجب ملاحظة أن الأحكام التعبدية غير قابلة للتغيير أيضًا مثل أحكام التوحيد.

وبعد أن أوضحنا نوعية العلاقة بين الأحكام الإجمالية والتفصيلية في القرآن ننظر إلى المصادر الثلاثة المزعومة للشرعة الإسلامية، فالسنة ليست مصدرًا لقوانين الشريعة لأنها ليست شيئًا مستقلًا عن القرآن بل هي مستنبطة منه.

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن.¹ وقد ذكر السيوطي في مقدمة كتابه الشهير "الإتقان في علوم القرآن" بعد أن نقل قول الشافعي: قلت: ويؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: إني لا أحل إلا ما أحل الله ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في الأم.²

¹ مقدمة في أصول التفسير، الإمام ابن تيمية، ص9، انظر أيضًا مقدمة تفسير ابن كثير، ص2

² انظر للتفصيل الإتقان في علوم القرآن، 65... (النوع)

فبذلك يعتبر القرآن الأصل والسنة فرع منه، وفي كلمات أخرى السنة شرح وتفصيل للأحكام المجملة في القرآن الكريم (الأصول والكتابات). يذكر الشاطبي (ت 790هـ) في كتابه "الموافقات":

"السنة راجعة في معناها إلى الكتاب فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره وذلك لأنها بيان له وهو الذي دلّ عليه قوله تعالى "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" فلا تجد في السنة أمراً إلا والقرآن قد دلّ على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية وأيضاً فكل ما دلّ على أن القرآن هو كلية الشريعة وينبوع لها فهو دليل على ذلك لأن الله قال "وإنك لعلى خلق عظيم" وفسّرت عائشة ذلك بأن خلقه القرآن واقتصرت في خلقه على ذلك فدلّ على أن قوله وفعله وإقراره راجع إلى القرآن لأن الخلق محصور".¹

وكذلك يذكر في نفس الكتاب في توضيح مفهوم كون السنة مقدمة على القرآن:

"أن قضاء السنة على الكتاب ليس بمعنى تقديمها عليه وإطراح الكتاب بل أن ذلك المعبر في السنة هو المراد في الكتاب فكأن السنة بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب ودلّ على ذلك قوله لتبين للناس ما نزل إليهم".²

والمثال على علاقة الكتاب والسنة المذكورة هو عقوبة "قطع اليد"، فمن المعروف أن عقوبة السرقة ذكرت في القرآن بشكل إجمالي أي أن تقطع يد السارق والسارقة، لكنه لم يوضح معنى "اليد" والموضع التي تقطع منه اليد، وأيضاً لم يذكر مقدار المال الذي بسرقة تجب هذه العقوبة وغير ذلك من الأمور، وقد أوضحت السنة كل ذلك، يذكر الشاطبي مشيراً إلى هذه العقوبة:

"فإذا حصل بيان قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما بأن القطع من الكوع وأن المسروق نصاب فأكثر من حرز مثله فذلك هو المعنى المراد من الآية لا أن نقول إن

¹ الموافقات، المجلد: 4، (المسألة الثالثة)

² المصدر نفسه، 7/4

السنة أثبتت هذه الأحكام دون الكتاب كما إذا بين لنا مالك أو غيره من المفسرين معنى آية أو حديث فعملنا بمقتضاه فلا يصح لنا أن نقول إنا عملنا بقول المفسر الفلاني دون أن نقول عملنا بقول الله أو قول رسوله عليه الصلاة والسلام وهكذا سائر ما بينته السنة من كتاب الله تعالى فمعنى كون السنة قاضية على الكتاب أنها مبينة له فلا يوقف مع إجماله احتماله وقد بينت المقصود منه لا أنها مقدمة عليه".¹

والسبب الثاني في عدم كون السنة مصدرًا مستقلًا للقانون هو أن ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام التفصيلية في ضوء الأحكام الإجمالية للقرآن قابلة للتغيير حسب ظروف وأحوال العصر، فقبل كل ذلك يجب النظر إلى أي درجة أخذ صلى الله عليه وسلم الأحوال المحلية وعادات ونفسيات العرب بعين الاعتبار،² يذكر شاه ولي الله الدهلوي:

"إن كنت تُريدُ النظر في معاني شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحقق أولاً حال المؤمنين الذين بعث فيهم التي هي مآدة تشريعه، وثانيًا كيفية إصلاحه لها بالمقاصد المذكورة في باب التشريع والتيسير وأحكام الملة".³

ويذكر كذلك:

"باب أسباب نزول الشرائع الخاصة" فتجيء نبوة أخرى لإقامة ما اعوج منها: وصالح ما فسد منها بعد اختلاط رواية نبيها، فتفتش عن الأحكام المشهورة عندهم، فما كان صحيحًا موافقًا لقواعد السياسة المالية لا تغييره، بل تدعو إليه، وتحث عليه، وما كان سقيمًا قد دخله التحريف، فإنها تغييره، بقدر الحاجة".⁴

فعلما أنه لا قانون يعتبر دائمًا إذا وضع أساسه على عادات وأعراف شعب معين، لأنها معرضة للتغيير مع مرور الوقت، وكذلك تختلف العادات والأعراف من شعب إلى آخر.

¹ المصدر نفسه، 8/4

² تستثنى الأحكام المتعلقة بالعبادات من ذلك، وهي غير قابلة للتغيير

³ حجة الله البالغة، المجلد: 1، باب: ما كان عليه حال أهل الجاهلية

⁴ المصدر نفسه، باب: أسباب نزول الشرائع الخاصة

وعمل الخلفاء كذلك يدل على أن السنة ليست مصدراً مستقلاً للشرعية، فمثلاً كان يسمح للنساء بالعبادة في المساجد، ولكن عمر بن الخطاب منعهن في عهده. وأيضاً كان يسمح بِنكاح المرأة من أهل الكتاب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لكن الخليفة الثاني ألغى هذا السماح كذلك. أيضاً كانت ثلاث تطليقات تعتبر تطليقة واحدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها كانت تطبق كطلاق بائن في العهد الفاروقي. وكانت العادة في العهد النبوي والعهد الصديقي أن تقسم الأراضي المفتوحة بين المجاهدين، لكن هذا لم يطبق في العهد الفاروقي.

ومثل السنة، لا يعتبر القياس كذلك مصدراً مستقلاً للقوانين، والسبب في ذلك أن أي حكم قياسي لا يعترف به إلا إذا أجمع عليه، ولا حجة للحكم القياسي الذي يستنتجه فرد أو عدد من الأفراد، ثم إن الأحكام القياسية زمانية، تتغير مع الزمن، أو تتغير صورتها التطبيقية.

المصدر الرابع للشرعية هو الإجماع، أي أن يتفق عدد كبير من العلماء والفقهاء في عهد معين على حكم ما،¹ وهذه الأحكام نافعة ويعتمد عليها أكثر مقارنة مع الاجتهاد الفردي بدون شك، لكنها كذلك لا تعتبر مصدراً مستقلاً للشرعية، لأن أي إجماع لا يستند عليه إلا إذا وافق نصوص الكتاب والسنة. وهذا الشرط بذاته ينفي كونه مصدراً مستقلاً للشرعية، وأيضاً يعتبر الإجماع زمانياً مثل القياس، أي أن الحكم الإجماعي يتغير بتغير الأحوال والظروف،² ولكن هذا التغير لا يكون إلا بإجماع آخر، ولا يمكن لاجتهاد فردي أن ينسخ إجماعاً.

¹ لا يراد بالإجماع عند الفقهاء أن يقرر أصحاب العلم والفقه حكماً شرعياً بالاتفاق في اجتماع كبير، ولم يحدث ذلك في الزمن الماضي ولم يكن ذلك ممكناً في تلك الفترة، بل يراد بذلك عدم وجود خلاف بين الأسلاف في قضية ما، وقد سعى بعض علماء الأصول مثل الأمدي هذا الإجماع بالإجماع السكوتي، وكتب أيضاً أنها حجة ظنية ويمكن مخالفته. (الأحكام، 254/1، 260، 261)

² يظن كثير من العلماء والفقهاء أن الإجماع دائمي، وهذا خطأ، فإن أي إجماع يظهر حسب الظروف الراهنة، والواضح أن التغير واجب في الإجماع عند تغير الظروف، فإن أنكر ذلك شخص فهذا يعني أنه ينكر التغير في أحوال وظروف الزمن، وهذا ينفي فهمه وعقله.

وضح مما سبق أن المصدر المستقل للقانون هو القرآن فقط، والمصادر الباقية أي السنة والقياس والاجتهاد هي فروع.

نوعية العلاقة بين مصادر الشريعة الأساسية والفرعية: يرجع إلى المصدر الأساسي أي القرآن في الحكم في أي قضية، كما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ" (سورة النساء: 105)

وفي موضع آخر: "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ" (سورة المائدة: 49) وهذه الآيات ترد قول من يقول بأن نبحت في السنة عن حل لقضية إن لم نجده في القرآن، وقد أمر فيها أن يحكم "بما أنزل الله"، ومعنى ذلك أن القرآن يحتوي على حل كامل لكل القضايا، ولكن من الضروري التدبر والتفكير العميق في نصوصه، وبعد التدبر والتفكير الجماعي وليس الفردي وحين يجد الحكم الكلي، ينظر بالترتيب هل يوجد تفصيل لهذا الحكم الكلي في السنة¹ والقياس والإجماع، فإن وجد ولم يخالف روح النص القرآني، وليست هناك ضرورة لتغيير صورته التطبيقية رغم تغير الظروف، عمل به.

وإن ثبت بعد التدبر والتفكير أن الحكم الجزئي المستخرج لا يطابق النص القرآني أو أن صورته التطبيقية قد تغيرت بسبب تغير الظروف وجب الاجتهاد، أي تحديد حكم جزئي عملي جديد بطريقة إجماعية.

هذه هي الطريقة الصحيحة لحل المعاملات والقضايا في ضوء النصوص القرآنية، وليست الطريقة التي يذكرها كثير من العلماء وقد ذكرناها سابقاً.

ولأن العلماء يذكرون في تأييد فكرتهم المزعومة بعض الروايات ويقولون إن الصحابة والخلفاء الراشدين كانوا يقومون بالحكم في القضايا بهذه الطريقة، من الضروري أن نلقي نظرة على هذه الدعوى، وتذكر الرواية التالية لسنن الدارمي كثيراً في هذا المجال:

"حدثنا ميمون بن مهران قال كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر سنة قضى به فإن أعياه خرج فسأل المسلمين فقال أتاني

¹ مع العلم أن هناك بعض الأحكام الجزئية أيضاً مذكورة في القرآن الكريم، ولا يجوز النظر إلى غيرها.

كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء فربما اجتمع إليه نفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به".

ووقع الغلط في فهم معنى "وإن لم يكن في كتاب الله"، فقد فهم من ذلك أن الخلفاء كانوا يتجهون إلى السنة إذا لم يجدوا حكمًا لقضية ما في القرآن، إن استنتج هذا المفهوم لهذه العبارة هو تصغير من شأن القرآن، إنما يعني ذلك أن الخليفة حينما لم يكن يجد حكمًا تفصيليًا لقضية ما في القرآن، كان يتجه إلى السنة لبحث عن الحل، فإن لم يجد، يتجه إلى مشورة أهل الرأي ويقترح الحل.

كانت هذه طريقة رائعة لحل القضايا، هل يطبق علماؤنا وفقهاؤنا هذه الطريقة؟ لا، أبدًا. إنهم لا يتجهون لحل القضايا إلى القرآن أو السنة، إنما يطلعون على "الشامي" و"الهداية" (إن كانوا من الأحناف)، وكأن الشامي والهداية يوجد فيهما أحكام لكل القضايا وهي قابلة للتطبيق في كل زمان، ولا حاجة للرجوع إلى القرآن والسنة وأهل العلم والتقوى. وكذلك الحال في علماء السلفية، فهم يبحثون حلاً لكل قضية في روايات الحديث ويعتقدون أن الحديث ذكرت فيه كل الأحكام، وهي دائمية وغير قابلة للتغيير. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

إقامة الشريعة (تنفيذ الشريعة): قد ترسخ في أذهان المسلمين ويشمل ذلك عدد كبير من أصحاب العلم وللأسف تصور محدود لإقامة الشريعة الإسلامية، أي تنفيذ القوانين العائلية والحدود والتعزيرات، فنرى أنه كلما ارتفعت الأصوات مطالبة بإقامة الشريعة الإسلامية نوقشت بشكل عام قضية إقامة المحاكم الشرعية وتعيين القضاة فيها. فإذا تم ذلك فكأن الشريعة قد نفذت. وقد ظهر ذلك واضحًا في الماضي حين قام الطالبان بتنفيذ الشريعة الإسلامية في أفغانستان. وفي الوقت الحاضر أقيمت المحاكم الشرعية وتم تعيين القضاة فيها، في المناطق القبلية

في باكستان بعد أن أقرت الحكومة تنفيذ الشريعة المحمدية، وتم التسليم بأن الشريعة المحمدية قد أقيمت.

هذا تصور ناقص للشريعة الإلهية والذي أدى إلى التنقيص من مكانتها. إننا عرفنا الشريعة الإسلامية في الصفحات السابقة وتم التوضيح أن الشريعة تشتمل على الكتاب والحكمة، والتوحيد هو جوهرها ولها. لذلك علينا أن نقدم هذا الجوهر واللب عند إقامة الشريعة في كل الأحوال، إضافة إلى ذلك علينا أن نتبع الترتيب المذكور في القرآن عند إقامة الشريعة والذي ذكر تفصيله أثناء توضيح الجزء الأول من الشريعة الإسلامية "الكتاب".

ونكتبه مرة أخرى بالاختصار للاستحضار. قبل كل شيء يجب ترسيخ المعنى الصحيح للتوحيد في الأذهان، وإقامة أساسين من أسس التوحيد وهي الصلاة والزكاة والتي تعتبر المنابع الرئيسية للحسنة ولها دور كبير في تشكيل مجتمع صالح، إقامتهما على المعايير المطلوبة. أي أن يبرز إلى حيز الوجود مجتمع يتميز بطاعة وعبادة الله وحده وحسن معاملته عبده، وبعبارة أخرى يكون النموذج العملي لـ"إنما المؤمنون إخوة". لا فرق فيه على أساس الأصل واللون، ولا يوجد فيه فقير أو جائع، ويكون الجميع ميسوري الأحوال رغم التفاوت في المستوى المعيشي، تكون فيه الأبواب مفتوحة لكل مؤمن لكسب المعاش والتطور دون إدى تفريق، إضافة إلى ذلك لا يظهر في المجتمع شرك جلي ولا خفي، ويكون المسلمون كلهم مثقفين على عبادة الله وحده وعلى تدبيره للأمور، كما قال: "رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا" (سورة المزمل: 9)

وبعد إقامة التوحيد ومقتضياته الأساسية يجب ترتيب الحياة العائلية حسب الشريعة الإلهية كما ذكر في سورة البقرة والسور الأخرى. ولكن لا يكتفي بتنفيذ الأحكام والقوانين العائلية. إنما ينظر إلى إصلاح النفس لأفراد المجتمع، فإن لم تتم تزكية النفس من الصعب إطاعة شريعة الله بقلب صادق، فإضافة إلى الصلاة والزكاة والتي تعتبر من الوسائل الرئيسية لتزكية النفس وتطهيرها، يجب التذكير بكثرة بتعاليم القرآن الأخلاقية وكذلك إشاعتها ونشرها.

وتنفذ الحدود والتعزيرات بعد تجاوز هاتين المرحلتين وبالتدريج، وتنفذ قوانين خفيفة في المرحلة العبودية، وكلما تطور المجتمع من الناحية الإيمانية والأخلاقية، أخذت القوانين الدائمة محل القوانين العبودية. لكن من الضروري أن لا يهمل جانب العفو والمداواة أثناء تنفيذ القوانين سواء كانت في المرحلة العبودية أو النهائية. أما الظالمون والطغاة فيعاملون معاملة قاسية حتى لا يختل الأمن والطمأنينة في المجتمع.

إزالة لسوء فهم: إن إقامة الشريعة يعني إقامة الشريعة المذكورة في كتاب الله، وليست الشريعة القائمة على المسالك المختلفة، يعني الفقه الحنفي والفقه الشافعي وغيرهما. ومن يتحدث اليوم عن إقامة الشريعة الإسلامية يكون في ذهنه مسلك معين من الشريعة، مثلاً إن كان من متبعي المسلك الحنفي فيكون المعنى تنفيذ المسلك الحنفي، لأنهم وللأسف ولقلة فهمهم يعتبرون أن الفقه الحنفي هو الشريعة الإسلامية بعينها. وقد تعرض لسوء الفهم هذا ليس فقط عامة المسلمين وإنما كثير من أهل العلم أيضاً. لنلاحظ عبارة المودودي التالية:

"إذا تم القرار على جعل الشريعة الإسلامية دستوراً للدولة (والذي لا يمكن لأي مسلم إنكاره) فيجب أن تنفذ الشريعة التي يستسلم بها غالبية المسلمين، كدستور وقانون، والظاهر أن الأكثرية من المسلمين في البلاد من الأحناف.... فمن اللازم أن يكون قانون البلاد مبني على التعبير الحنفي للشريعة".¹

وكانهم اعترفوا بأن الفقه الحنفي هو الاسم الثاني للقرآن والسنة، أليس هذا وليد الذهن المقيد بالمسلك، كان عليه أن يقول إن دستور وقانون البلاد يجب أن يكون حسب ما يوجد في كتاب الله. وتكون الشريعة المعتبرة هي الثابتة من نصوص القرآن وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، سواء كانت موافقة لأي مسلك أو مخالفة له.

¹ اسلام كا نظريه سياسي، (النظرية السياسية للإسلام)، لأبي الأعلى المودودي، ص 25

وأعتقد أن السيد المودودي يعرف أن الفقه إن كان حنفياً أو غيره يشتمل على الأحكام الجزئية، وهي تتغير بتغير الأحوال.¹ وكذلك فهو لا يجهل الحقيقة التاريخية أن الفقه الحنفي والمسالك الفقهية الأخرى دَوّنت قبل ألف عام وبشكل إنفرادي. وقد تغيرت قضايا الزمن كثيراً في هذه الفترة الطويلة، وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية لا يمكن للفقه الحنفي أو أي فقه آخر أن يكون قانوناً لدولة مسلمة. والشريعة التي تكون موافقة لنصوص القرآن والسنة وكذلك موافقة لمتطلبات العصر الحديث هي التي تكون معتبرة وقابلة للعمل والتطبيق.

ولكي يتم هذا العمل الشاق، نحتاج إلى إجتهد مطلق ومجتهدين أحياء، إن الظروف قد تغيرت كثيراً في العهد الحاضر، ولا يكفينا اليوم الاجتهاد الجزئي (الاجتهاد في الفتوى) أو اجتهادات المجتهدين المتوفين. وقد تحدثنا عن ذلك في الباب القادم.

¹ يقول القرضاوي: "إن أصحاب أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثلث المذهب لاختلاف عصرهم عن عصره، وقالوا: لو رأى صاحبنا ما رأينا لقال بمثل ما قلنا، أو أكثر. ولالإمام أحمد تروى عنه في المسألة الواحدة روايات قد تبلغ سبعة أو أكثر، وما ذلك إلا لاختلاف الأحوال والملايسات وتغير الظروف والأوضاع في غالب الأحيان.

حديث الولي بين مؤيديه ومعارضيه، دراسة حديثة موضوعية

د. ماجد محمد عبده الدالعه¹

ملخص

كثر الاختلاف حول الولاية في هذه الأيام خصوصًا أن البعض استغل هذا الحديث ليثبت أمورًا لم يأت بها الشارع وألزم الناس بها، وبالمقابل كان الاتجاه الآخر أكثر تشددًا في هذا الأمر حيث أنكروا الأمر جملة وتفصيلاً؛ حتى أدى بهم الأمر إلى إنكار الحديث الوارد في هذه المسألة، والانتقاص من مكانة وأحاديث الصحيحين، لذلك أردت أن أجلي هذه المسألة، مبينًا التعريفات والمقدمات لحديث الولي ومن ثم أناقش الحديث سندًا وامتدًا مستعينًا بالأدلة وأقوال الأئمة في هذه المسألة.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمين على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. وبعد:

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٨﴾ [يونس: 62-64]

¹ أستاذ مساعد، عمادة السنة التحضيرية، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الدمام، المملكة العربية السعودية، الدمام

وعن أبي الدرداء قال: أتاه رجلٌ فقال ما تقولُ في قول الله (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قال لقد سألت عن شيء ما سمعتُ أحدًا سأل عنه بعد رجلٍ سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال «بُشْرَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ وَبُشْرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ».¹

وقد ذكر الله تعالى أن هناك أولياء للرحمن وأولياء للشيطان، وأمرنا أن نكون من أولياء الرحمن، وقد ذكرت الولاية في القرآن والسنة، وورد فيها حديث صحيح مشهور أورده البخاري في صحيحه فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادِيَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ... الحديث».²

هذا وقد قام العلماء بشرح هذا الحديث، وهم كلٌّ شراح البخاري، وقام العلامة ابن رجب الحنبلي بشرحه في "جامع العلوم والحكم"، وشرحه شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"³، وأفرد الإمام الشوكاني بكتاب ضخيم سمّاه "القطر الجلي شرح حديث الولي".⁴

وقد رأيت أن أقوم بجمع خلاصة هذه الشروح والتوفيق بينها، وإضافة ما يلزم إضافته لها، أو التعقيب على بعضها، لاسيما وقد أصبح الاختلاف كبيراً بين المسلمين حول كثير من صفات الأولياء.

وقد قمت بجمع مفردات مواد هذا الموضوع من مصادرها الأساسية، وقد حكمت على الأحاديث بالصحة والضعف حسب قواعد الجرح والتعديل الموضوعة في هذا الفن. وقد قسمته إلى بابين وعدة مباحث:

¹ مسند أحمد، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، حديث: 28291، وهو صحيح لغيره.

² صحيح البخاري، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، حديث: 6502.

³ وقد حققه الشيخ علي الشحود ونشره على النت في صيد الفوائد ومشكاة وملتقى أهل الحديث.

⁴ وقد أخذت به رسالة دكتوراه من الأزهر قسم الفلسفة ونشر بكتاب ضخيم.

الباب الأول: مباحث هامة حول الموضوع

المبحث الأول: معنى الولاية لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: المبحث الثاني: الأنبياء والأولياء.

المبحث الثالث: عصمة الأولياء.

المبحث الرابع: هل ما كان معجزةً لنبي كان كرامةً لولي.

المبحث الخامس: التفاضل بين الأنبياء والأولياء.

الباب الثاني: حديث الولي

المبحث الأول: نص الحديث وشواهده

المبحث الثاني: حول صحة الحديث وما قيل فيه والجواب عنه وعن أحاديث الصحيحين

المبحث الثالث: الجواب عن الإشكالات السبعة في هذا الحديث

المبحث الرابع: مفهوم الولاية في القرآن الكريم

المبحث الخامس: معاداة أولياء الله تعالى مؤذنة بالحرب من الله

الباب الأول: مباحث هامة حول الموضوع

المبحث الأول: معنى الولاية لغة واصطلاحاً:

1. في اللغة "ولي) في أسماء الله تعالى: الولي هو الناصر وقيل: المتولي لأُمور العالم والخالق القائم بها ومن أسمائه عز وجل: الوالي وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها.

قال ابن الأثير: وكان الولاية تُشعر بالتدبير والقُدرة والفعل وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الوالي....

وقال ابن السكيت: الولاية بالكسر السلطان والولاية والولاية النُصرة. يقال: هم عليّ ولاية أي مجتمعون في النُصرة... وقال الزجاج: يقرأ ولايتهم وولاياتهم بفتح الواو وكسرهما فمن فتح جعلها من النُصرة والنسب قال: والولاية التي بمنزلة الإمارة

مكسورة ليفصل بين المعنيين وقد يجوز كسر الولاية لأن في تولي بعض القوم بعضًا جنسًا من الصنّاعة والعمل وكل ما كان من جنس الصنّاعة نحو القصارة والخياطة فهي مكسورة. قال: والولاية على الإيمان واجبة {المؤمنون بعضهم أولياء بعض} وليّ بين الولاية ووالٍ بين الولاية...

والوليّ: الصديق والنصير. قال ابن الأعرابي: الوليّ التابع المحب وقال أبو العباس في قوله: "من كنت مؤلاً فعليّ مؤلاً أي من أحبني وتولاني فليتولّه".

والمؤلاة: ضدّ المعادة والوليّ: ضدّ العدو ويقال منه تولاه. وقوله عزّ وجل: {فتكون للشيطان ولياً}. قال ثعلب: كلُّ من عبد شيئاً من دون الله فقد اتّخذهُ ولياً. وقوله عز وجل: {الله وليّ الذين آمنوا} قال أبو إسحاق: الله وليهم في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم لأنه يزيدهم بإيمانهم هدايةً كما قال عزّ وجل: {والذين اهتدوا زادهم هدى} ووليّهم أيضاً في نصرهم على عدوّهم وإظهار دينهم على دين مُخالفيهم وقيل: وليّهم أي يتولّى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم. والولاء: الملئ. والمولى: المالك والعبد والأنثى بالهاء. وفيه مؤلويةٌ إذا كان شبيهاً بالموالي. وهو يتمولى علينا أي يتشبه بالموالي وما كنت بمولىٍ وقد تمؤليت والاسم الولاء. والمولى: الصاحب والقريب كابن العم وشبهه. وقال ابن الأعرابي: المولى الجارّ والحليف والشريك وابن الأخت. والوليّ: المولى. وتولاه: اتّخذهُ ولياً وإنه لبيّن الولاة والولية والتوليّ والولاء والولاية والولاية. والوليّ: القرب والدُّنو...¹

2. الولاية اصطلاحاً: ولاية الله تعالى. مفهوم ولاية الله تعالى: ذكر ابن القيم أن ولاية الله تعالى نوعان: عامة، وخاصة.² فأما الولاية العامة فهي ولاية كل مؤمن، فمن كان مؤمناً، لله تقياً، كان الله له ولياً. وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه.³

¹ لسان العرب، 405/15، والنهاية في غريب الحديث والأثر، 510/5، وتاج العروس من جواهر القاموس، 8657/1.

² الموسوعة الفقهية الكويتية، 175/45.

³ بدائع الفوائد، 106/3، وانظر حاشية المدابغي على فتح المعين ص269، وشرح العقيدة الطحاوية، ص103.

يدل على هذا قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} (سورة آل عمران: 68)، وقوله سبحانه: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (سورة البقرة: 257).

وفي هذا النوع من الولاية قال ابن تيمية: "فالظالم لنفسه من أهل الإيمان معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد تجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الإسلام وأهل السنة".¹

وأما الولاية الخاصة: فهي القيام لله بجميع حقوقه، وإيثاره على كل ما سواه في جميع الأحوال، حتى تصير مرضي الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره، يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه وإن سخط الخلق".²

وفي هذا النوع من الولاية يقول الشوكاني: "الولي في اللغة: القريب. والمراد بأولياء الله: خالص المؤمنين، لأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته".³

وقد تنوعت تعريفات العلماء لهذه الولاية، فقال الغنيمي الميداني: "الأولياء جمع ولي، بوزن فاعل (بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول)، أو بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم. قال ابن عبد السلام: وكونه بمعنى فاعل أرجح، لأن الإنسان لا يمدح إلا على فعل نفسه، وقد مدحهم الله تعالى. فعلى الأول يكون الولي من تولى الله عز وجل رعايته وحفظه، فلا يكله إلى نفسه، كما قال سبحانه: {إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} (سورة الأعراف: 196).

¹ مختصر الفتاوى المصرية، ص 588، والتحفة العراقية في أعمال القلوب، ص 15 وما بعدها ومجموع فتاوى ابن تيمية، موقع الإسلام، <http://www.al-islam.com>، 345/2.

² بدائع الفوائد، 107/3.

³ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، 436/2.

وعلى الثاني يكون الولي من تولى عبادة الله وطاعته، فهو يأتي بها على التوالي، آناء الليل وأطراف النهار. ويجنح إلى هذا ما عرفه به السعد في "شرح العقائد" حيث قال: هو العارف بالله حسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهماك باللذات والشهوات".¹

وكذا تعريفُ الهَيْتِيِّ للأولياء بأَنْهُمْ: الْقَائِمُونَ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، بِجَمْعِهِمْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَسَلَامَتِهِمْ مِنَ الْهَفَوَاتِ وَالزَّلَلِ.² ولا يخفى أَنَّ سَلَامَتَهُمْ مِنَ الْهَفَوَاتِ وَالزَّلَلِ لَا تَعْنِي الْعَصْمَةَ، إِذْ لَا عَصْمَةَ إِلَّا لِلنَّبِيِّ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ ابْنُ عَابِدِينَ عَلَى مَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ الْوَلِيَّ مِنْ تَمَادِيهِ فِي الزَّلَلِ وَالْخَطَا إِنَّ وَقَعَ فِيهِمَا، بَأَنْ يُلْهِمَهُ التَّوْبَةُ فَيُتُوبَ مِنْهُمَا، وَإِلَّا فَهُمَا لَا يَقْدَحَانِ فِي وَلَايَتِهِ.³

المبحث الثاني: الأنبياء والأولياء:

1. الفرق بين الولي والنبي: ذكر العلماء أَنَّ هناك فرقاً بين الولي والنبي في⁴:

أ- الْعَصْمَةُ: فالأنبياءُ مَعْصُومُونَ وَجُوبًا، وَلَيْسَ الْأَوْلِيَاءُ كَذَلِكَ، فَيَجُوزُ عَلَيْهِمْ مَا يَجُوزُ عَلَى سَائِرِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اقْتِرَافِ الدُّنُوبِ. قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: "لَكِنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى رُتْبَةٍ رَفِيعَةٍ وَمَنْزِلَةٍ عَلِيَّةٍ، فَقَلَّ أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ مَا يُخَالِفُ الصَّوَابَ وَيُنَافِي الْحَقَّ، وَإِذَا وَقَعَ ذَلِكَ فَلَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ كَوْنِهِمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ".⁵

¹ شرح العقيدة الطحاوية، ص103، وانظر لوامع الأنوار الهية، 392/2، والمحلي على جمع الجوامع وحاشية العطار عليه، 481/2، وتعريفات الجرجاني، ص132، وكشاف اصطلاحات الفنون، 528/2، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، 342/11، وبستان العارفين، موقع الوراق، <http://www.alwarraq.com>، ص 171، ومجموعة رسائل ابن عابدين، 277/2، وحاشية المدابغي على فتح المعين، ص 269.

² الفتاوى الحديثة لابن حجر، ص 301.

³ مجموعة رسائل ابن عابدين، 277/2.

⁴ مجموع فتاوى ابن تيمية، 208/11، و221، و223، ولوامع الأنوار الهية وسواطع الأسرار الأثرية، 301/2، وقطر الولي، ص 248، وشرح العقيدة الطحاوية، ص139، وكشاف اصطلاحات الفنون، 1529/2.

⁵ القطر الجلي شرح حديث الولي، ص 248.

وقال النووي: "وأما أن يكون الولي محفوظاً، فلا يصح على الدُّنوب، وإن حصلت منه هفوات في أوقات أو زلات، فلا يمتنع ذلك في حقهم".¹

ب - الإيمان به ووجوب الاتباع: الأنبياء صلوات الله عليهم يجب لهم الإيمان بجميع ما يُخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرُونَ به، بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرُونَ ولا الإيمان بجميع ما يُخبرُونَ به. قال ابن تيمية: "بل يُعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً. ثم قال: ذلك أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة".²

ج - الوحي: الأنبياء مكرمون بتلقي الوحي ومشاهدة الملك، وليس الأولياء كذلك. فالولي لا يسعه إلا اتباع النبي، حتى إن الولي لو ادعى النبوة صار عدواً لله، لا ولياً له، وفي هذا رد على مدعي علم الغيب.

د - وجوب تبليغ الوحي: الأنبياء مأمورون بتبليغ الأحكام وسائر ما يوحى إليهم به من الله وإرشاد الأنام لدينه، وليس الأولياء كذلك، لأنهم لا يتلقون ذلك مباشرة بواسطة الوحي، وإنما يتبعون الأنبياء.

هـ - الأمن من سوء الخاتمة: فالأنبياء مأمونون عن خوف سوء الخاتمة، أما الولي فلا يعلم هو ولا غيره ما دام حياً هل سيختتم له بالموافاة على الإيمان، أم أنه سيلقى الله غير ذلك.

و - ختم النبوة: فالنبوة مختومة من حيث الإنباء والإخبار عن الله عز وجل بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لا نبي بعده، أما الولاية فهي دائمة إلى قيام الساعة.

¹ بستان العارفين، ص 173.

² مجموع فتاوى ابن تيمية، 209. 208/11.

ز- حُكِّمَ السَّبِّ: أجمع المسلمون على أنَّ من سبَّ نبياً فقد كفر، ومن سبَّ أحدًا من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء فإنه لا يكفر، إلا إذا كان سبُّه مخالفاً لأصل من أصول الإيمان، مثل أن يتخذ ذلك السبَّ ديناً، وقد علم أنه ليس بدين.¹

ح. اتفق سلف الأمة وخلفها من أهل السنة والجماعة على أنَّ الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، وأنه لا يجوز تفضيل أحد من الأولياء على أحد من الأنبياء. قال القسيري: "رتبة الأولياء لا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للإجماع المنعقد على ذلك".²

أما ما نقل عن بعض الكرامية وغلاة المتصوفة من جواز كون الولي أفضل من النبي فهو باطل. قال الغنيمي الميداني: "هو كُفْرٌ وضلال".³

وأما أفضل الأولياء والأنبياء، فقد قال ابن تيمية: "أفضل أولياء الله تعالى هم أنبيأؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون، وأفضل الرسل هم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وأفضل الرسل: نبينا محمد عليه الصلاة والسلام".⁴

2. كرامات الأولياء: الكرامات جمع كرامة، وهي في اللغة: الشرف. من الكرم: الذي يعني شرف الشيء في نفسه أو في خلق من الأخلاق. أو الإكرام: الذي هو إيصال نفع إلى الإنسان، لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئاً كريماً، أي شريفاً.⁵

أما في الاصطلاح الشرعي، فقد عرف ابن عابدين الكرامة بأنها: ظهور أمرٍ خارج للعادة، على يد عبدٍ ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبي من الأنبياء، مقترناً بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح غير مقارنٍ لدعوى النبوة.⁶

¹ مختصر الفتاوى المصرية، ص 560، ومغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، 4/135.

² بستان العارفين، ص 169.

³ شرح العقيدة الطحاوية، ص 139.

⁴ مجموع فتاوى ابن تيمية، 11/161، وانظر القطر الجلي شرح حديث الولي، ص 238.

⁵ معجم مقاييس اللغة، 5/172، ومفردات الراغب، ص 707.

⁶ مجموعة رسائل ابن عابدين، 2/278.

امتازت الكرامة بعدم الاقتران بدعوى النبوة عن المعجزة، وبكونها على يد ظاهر الصلاح وهو الولي عما يسمّونه معونة وهي الخارق الظاهر على أيدي عوام المؤمنين، تخلصاً لهم من المحن والمكاره، وبمقارنة صحيح الاعتقاد والعمل الصالح عن الاستدراج، وبمتابعة نبي قبله عن خوارق مدعي النبوة المؤكدة لكذبه المعروفة بالإهانة كبصق مسيلمة في بئر عذبة الماء ليزداد مأوها حلاوة، فصار ملجأً أجاجاً.¹

- وقد ذهب أهل السنة والجماعة من الفقهاء والأصوليين والمحدثين وغيرهم - خلافاً للمعتزلة ومن وافقهم - إلى أن ظهور الكرامة على الأولياء جائز عقلاً، لأنها من جملة الممكنات، وأنها واقعة نقلاً مفيداً لليقين من جهة مجيء القرآن بها، ووقوع التواتر عليها قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل. وبعد ثبوت الوقوع لا حاجة إلى إثبات الجواز.²

3. الفرق بين الكرامة والمعجزة: المعجزة اسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للمقدرة، لما فيها من إعجاز الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة.

وهي في الشرع: ما خرق العادة من قول أو فعل، إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها، على جهة التحدي ابتداءً، بحيث لا يقدر أحدٌ عليها ولا على مثلها ولا على ما يُقارن بها.³ وتسميئة دلائل النبوة وأعلامها "معجزات" إنما هو اصطلاح النظار، إذ لم ير هذا اللفظ في الكتاب ولا في السنة، والذي فيه لفظ الآية والبيّنة والبُرهان.⁴

¹ المحلي على جمع الجوامع مع حاشية العطار، 481/2، وشرح العقيدة الطحاوية، ص 139، وكشاف اصطلاحات الفنون، 975/2، ولوامع الأنوار الهمية، 392/2، ومجموعة رسائل ابن عابدين، 278/2، وتعريفات الجرجاني، ص 115.

² القطر الجلي شرح حديث الولي، للشوكاني، ص 257 وما بعدها، وبستان العارفين، ص 141. 155، والمعتمد، ص 161، والفتاوى الحديثية لابن حجر، ص 301، وشرح الطحاوية للغنيمي، ص 139، ولوامع الأنوار الهمية، 239/4، والمحلي على جمع الجوامع وحاشية العطار عليه، 481/2.

³ التوقيف على مهمات التعاريف، ص 665، والتعريفات للجرجاني، ص 115، وكشاف اصطلاحات الفنون، 975/2، ولوامع الأنوار الهمية، 290/2.

⁴ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 67/4.

أما وجوه التفرقة بين الكرامة والمعجزة فهي:

أولاً: أن المعجزة تقتزن بالتحدي، وهو طلب المعارضة والمقابلة يقال تحدّث فلاناً: إذا باربته في فعل ونازعته للغلبة أما الكرامة فلا تقتزن بذلك. ولا شك أن كل ما وقع منه صلى الله عليه وسلم بعد النبوة من المعجزات كنطق الحصى وحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم مقرون بالتحدي...¹

ثانياً: أن الأنبياء مأمورون بإظهار معجزاتهم، لحاجة الناس إلى معرفة صدقهم واتباعهم، ولا يُعرف النبي إلا بمُعْجَزٍ. أما الكرامة فلا يجب على الولي إظهارها، بل يستتر كرامته ويسرها ويجهده على إخفاء أمره.²

ثالثاً: أن دلالة المعجزة على النبوة قطعية، وأن النبي يعلم أنه نبي، بينما دلالة الكرامة على الولاية ظنيّة، ولا يعلم مظهرها أو من ظهرت على يديه أنه ولي، ولا غيره يعلم ذلك، لاحتمال أن يكون ممكوراً به.³

ويفترغ على ذلك أن المعجزة تدل على عصمة صاحبها وعلى وجوب اتباعه، أما الكرامة فلا تدل على عصمة من ظهرت عليه، ولا على وجوب اتباعه في كل ما يقول، ولا على ولايته، لجواز سلها أو أن تكون استدراجاً له.⁴

رابعاً: أن الكرامة لا يجوز بلوغها مبلغ المعجزة في جنسها وعظمتها، كإحياء الموتى وانفلاق البحر وقلب العصا حيّة وخروج الماء من بين الأصابع، وبذلك قال بعض الحنفيّة وبعض الشافعيّة.⁵

¹ الفتاوى الحديثية لابن حجر، ص 308.

² لوامع الأنوار الهمية، 396/2، وبستان العارفين، ص 161، و165.

³ الفتاوى الحديثية، ص 305، وبستان العارفين، ص 161.

⁴ مختصر الفتاوى المصرية، ص 600، ولوامع الأنوار الهمية، 393/2.

⁵ انظر قطر الولي، ص 258، ورد المختار، 308/3، ومجموعة رسائل ابن عابدين، 279/2، وبستان العارفين، ص 156، وص 162، والفتاوى الحديثية، ص 301-302، والمحلي على جمع الجوامع وحاشية العطار، 481/2، ولوامع الأنوار الهمية، 396/2.

4. الفرق بين الكرامات وخوارق الشيطان: ذكر العلماء أن الخارق غير المقترن بتحدي النبوة إذا ظهر على يد عبد صالح، وهو القائم بحقوق الله تعالى وحقوق خلقه فهو الكرامة. أما إذا ظهر على يد ظاهر الفسق مطابقاً لدعواه فهو "الاستدراج" وقد يسمى "سحراً وشعوذة" وإن ظهر على يد مُدَّعي النبوة من أهل الضلال فهو "الإهانة"، كنطق الجُماد بأنه مُفْتَرٍ كَذَّابٍ ونحو ذلك، لأنَّ خارق العادة في هذه الحالة لا يكون مُوافقاً للدَّعوى، بل مُثْبِتاً لكذبها.¹

وأساس ذلك أنَّ كرامات الأولياء لا يكون سببها إلا الإيمان والتَّقوى، أمَّا خوارقُ أعداء الله فسببها الكُفْرُ والفُسُوقُ والعُصْيَانُ.²

وفي ذلك يقول ابن تيمية: "إن خوارق العادات لا تدل على عصمة صاحبها، ولا على وجوب أتباعه في كل ما يقول، لأن بعضاً منها قد يصدر عن الكفار والسحرة بمؤاخذاتهم للشياطين، كما ثبت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أنه يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي فتنبت، وأنه يقتل واحداً ثم يحييه، وأنه يخرج خلفه كنوز الذهب والفضة."

ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء، لم تثبت له ولاية، بل ولا إسلام حتى ينظر وقوفه عند الأمر والنهي الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم.³

المبحث الثالث: عصمة الأولياء:

أجمع المسلمون أنَّ العصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام، وأما من دونهم كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فليسوا بمعصومين إجماعاً فضلاً عما دونهم، قال شيخ

¹ بستان العارفين، ص 157، ولوامع الأنوار، 2/290، وشرح العقيدة الطحاوية للميداني، ص 139، والفتاوى الحديثية، ص 304، وكشاف اصطلاحات الفنون، 2/975.

² مجموع فتاوى ابن تيمية، 11/302.

³ مختصر الفتاوى المصرية، ص 600، ومجموع فتاوى ابن تيمية، 2/488، ومجموع فتاوى ابن تيمية، 6/108 والفتاوى الكبرى، 1/206.

الإسلام ابن تيمية: "والأولياء وإن كان فيهم محدثون كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجالٌ يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمي منهم أحدٌ فعمر¹».

فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر؛ وأبو بكر أفضل منه إذ هو الصديق فالمحدث - وإن كان يلهم ويحدث من جهة الله تعالى - فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة، فإنه ليس بمعصوم كما قال أبو الحسن الشاذلي: "قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام". ولهذا كان عمر بن الخطاب وقافاً عند كتاب الله، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تخالف ما يقع له كما بين له يوم الحديبية ويوم موت النبي صلى الله عليه وسلم ويوم قتال مانعي الزكاة وغير ذلك، وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة؛ فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه، وربما قال القول: فترد عليه امرأة من المسلمين قوله وتبين له الحق فيرجع إليها ويدع قوله، كما قدر الصداق وربما يرى رأياً فيذكر له حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة، وكان يقول القول فيقال له: أصبت فيقول والله ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأه؟

فإذا كان هذا إمام المحدثين فكل ذي قلب يحدثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر، فليس فيهم معصوم بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، وإن كان طائفة تدعي أن الولي محفوظ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة والحكيم الترمذي قد أشار إلى هذا - فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع.

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس: يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم² وإن كانوا متفاضلين في الهدى والنور والإصابة؛ ولهذا كان الصديق

¹ مجموع الفتاوى، 226/2، والحديث في صحيح البخارى، حديث: 3689،

² انظر الأحكام للآمدي، 10/1، والأحكام لابن حزم، 857/6، وص 883، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، 52/4، وكتب وليد بن راشد السعيدان، 32/2، و72، و73 ومن أصول الفقه على منهج أهل الحديث، المكتبة الرقمية، 175/1، والخلاف بين العلماء، المكتبة الرقمية، 32/1، وشرح رسالة رفع الملام عن الأئمة الأعلام، 2/1.

أفضل من المحدث، لأن الصديق يأخذ من مشكاة النبوة فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً. وأما المحدث فيقع له صواب وخطأ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه؛ وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة لا بد لهم أن يزونا جميع أمورهم بآثار الرسول، فما وافق آثار الرسول فهو الحق وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ويغفر لهم خطأهم. ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية فهم أعظم إيماناً وتقوى¹.

وقال أيضاً: "وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور ممّا أمر الله به وممّا نهى الله عنه ويجوز أن يظنّ في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان²، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه³، قال تعالى: { لا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 285-286]، وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء⁴ وقال: قد فعلت، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (وإن تُبْدُوا ما في أنفسكم أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ به الله) قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». قال فالتقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: (لا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

¹ انظر مجموع الفتاوى، 403/15.

² انظر المرجع السابق، 114/35.

³ انظر المرجع السابق، 114/35.

⁴ صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، حديث: 344، وأخرجه البخاري، حديث: 4545، مختصراً عن ابن عمر.

وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قَالَ قَدْ
فَعَلْتُ (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) - قَالَ قَدْ فَعَلْتُ
(وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا) قَالَ قَدْ فَعَلْتُ.¹

وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة
بقوله عز وجل: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا} (المائدة: 3). وبموته صلى الله عليه وسلم انقطع عن الدنيا² وعن اتصاله
بالخلق، فمن ادعى أن له صلة به صلى الله عليه وسلم أو أنه يجالسه أو يأخذ عنه
العلم أو يتلقى منه الأوامر فقد افترى إثماً مبيناً وكذب على الله عز وجل وعلى رسوله
صلى الله عليه وسلم.

المبحث الرابع: هل ما كان معجزةً لنبيٍّ كان كرامةً لوليٍّ؟³

قال بعض أهل العلم: "إن كل معجزة وجدت لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي. وهذا
القول لا يصح بهذا الإطلاق، وإنما يتعين تقييده، فيستثنى ما وقع به التحدي
لبعض الأنبياء، فإن الأولياء لا يصلون إلى مثله، قال ابن حجر: "المشهور عن أهل
السنة إثبات الكرامات مطلقاً، لكن استثنى بعض المحققين منهم كأبي القاسم
القشيري ما وقع به التحدي لبعض الأنبياء فقال، ولا يصلون إلى مثل إيجاد ولد من

¹ صحيح مسلم، حديث: 345،

² قلت: ليس انقطاعاً تاماً، بل أعمالنا تعرض عليه صلى الله عليه وسلم وهناك حديث يدل على
ذلك فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي
السَّلَامَ قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيَّرْتُ لَكُمْ تَحْدِثُونَ وَتُحَدِّثُ لَكُمْ، وَوَقَاتِي
خَيْرٌ لَكُمْ تُغَرِّضُ عَلَيَّ أَعْمَالَكُمْ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْ خَيْرٍ خَمِدْتُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ شَرٍّ اسْتَعْفَرْتُ
اللَّهَ لَكُمْ". أخرجه البزار في مسنده، 458/2، برقم: 1925، والإتحاف: 176/9، 177، والمطالب،
موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>، 93/11، حديث: 3853، وإتحاف الخيرة
المهرة بزوائد المسانيد العشرة، 30/7، برقم: 6412، وهو حديث حسن.

³ انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة، 2082/7، رقم الفتوى: 49724 مقولة "ما صح لنبي صح
لولي" تاريخ الفتوى: 21 ربيع الثاني 1425هـ.

غير أب ونحو ذلك، وهذا أعدل المذاهب في ذلك، فإن إجابة الدعوة في الحال وتكثير الطعام والماء والمكاشفة بما يغيب عن العين والإخبار بما سيأتي ونحو ذلك قد كثر جداً حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى الصلاح كالعادة، فأنحصر الخارق الآن فيما قاله القشيري، وتعين تقييد قول من أطلق أنّ كل معجزة وجدت لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي.¹

وقال ابن حجر المكي: "وقول المعتزلة إحياء الميت، أمرٌ خارقٌ للعادة فلا يجوزُ إظهاره إلا معجزةً لنبيٍّ رده أهلُ السنّة بأنّه يجوزُ بأنّه خرّقا كرامةً لوليٍّ ولغير ذلك، وإنكارُ ذلك مُكابرةٌ للحسن وليس ذلك ببعيدٍ من عُقولهم الفاسدة الضالّة".²

وفي فتاوى الرملي: "سئل عمن قال من كرامات الولي أن يقول للشيء كن فيكون فنهي عن ذلك فقال: من أنكر ذلك فعقيدته فاسدة فهل ما ادعاه صحيح أو باطل؟ (فأجاب) بأن ما قاله صحيح إذ الكرامة الأمر الخارق للعادة يظهره الله تعالى على يد وليه وقد قال الأئمة ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي لا فارق بينهما إلا التحدي فمرجع الكرامة إلى قدرة الله تعالى نعم إن أراد استقلال الولي بذلك فهو كافر".³

وقال البراك: "معجزات الأنبياء وهي الآيات والبينات والبراهين على صدقهم، وكرامات الأولياء كلها من خوارق العادات، وكل الخوارق يرجع إلى نوع القدرة والتأثير، أو العلم، أو الغنى. فالخوارق تتنوع بحسب هذه المعاني، فمعجزات الأنبياء منها ما يكون علمياً، ومنها ما يكون من قبيل القدرة، ومنها ما يكون من قبيل الغنى، وهكذا كرامات الأولياء.

وقول القائل: (ما صح أن يكون معجزة لنبي صح أن يكون خارقاً لولي)، معناه: أن ما كان معجزة للنبي إن حصل مثله للولي فهو كرامة، وليس المقصود أن كل معجزة من معجزات الأنبياء يكون مثلها للأولياء، لكن إن حصل للولي من الخوارق ما يشبه بعض معجزات النبي فهو في حقه كرامة، وما كان كرامة لولي فإنه معجزة للنبي الذي يتبعه

¹ فتح الباري، 11/ 420.

² الزواجر عن اقتراف الكبائر، 3/ 177.

³ فتاوى الرملي، 6/ 180.

هذا الولي... وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية أن خوارق الأنبياء لا يقدر على مثلها أحد من البشر، فلا بد أن تتميز خوارق الأنبياء على كرامات الأولياء¹.

وقال ابن عثيمين: "ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء: أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون آية للنبي، فالقاعدة الآن: أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه..."².

وقال ابن أطفيش: "اختلفوا في كرامات الأولياء فنفتها المعتزلة وأثبتها الجمهور، والحجة على المعتزلة قول الله تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} قال يا مريم أتئ لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يزكك من يشاء بغير حساب { (سورة آل عمران: 37) فافهم ذلك ردًا عليهم، والكرامة: ظهور أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة على يد من عرفت ديانتها واشتهرت ولايته في اتباع نبيه في جميع ما جاء به، وإلا فهي استدراج أو سحر أو إذلال كما وقع لمسيلمة الكذاب - لعنه الله - أنه جاءه أعور يدعو له، فدعا فعميت الصحيحة أيضًا، وتسمى إهانة، وقد يظهر الخارق على يد عاص تخليصًا له من فتنة، وتسمى معونة... وقيل: منع وقوع التي من جنس معجزة نبي لئلا يلتبس الأمر، وردهما الفخر بأن المرضي وقوعها مع الانتفاء من النبوة، واشترط القشيري وجماعة أن لا تنتهي إلى إحياء ميت ولا وجود ولد من غير أب، ورد بذلك وبقولهم ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي لأنه لا يدعي النبوة، والكرامة من الجائز تظهر بأيدي أتباع الأنبياء إكرامًا للأنبياء كما وقع لمريم، وكولادة عيسى بلا أب، وكما وقع لأصحاب الكهف، ووزير سليمان في عرش بلقيس..."³

¹ فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، 162/4، بين كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء، المجيب عبد الرحمن بن ناصر البراك.

² لقاءات الباب المفتوح، 184/3، تفسير قوله تعالى: كذبت ثمود بالنذر....

³ شرح النيل وشفاء العليل، فقه إباضي، 206/34.

المبحث الخامس: التفاضل بين الأنبياء والأولياء:

اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء¹، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم "أربع مراتب" فقال تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً} (سورة النساء: 69).

وفي الحديث: "ما طلعت الشمس ولا غربت على أحدٍ بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكرٍ"²، وأفضل الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} (آل عمران: 110)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في المسند: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تبارك وتعالى»³.

وأفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرن الأول⁴. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه. وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدكم ولا نصيفه»⁵.

¹ وفي مجموع الفتاوى، 370/18: "إن الأنبياء أفضل من الأولياء وخيار الأولياء أتبعهم للأنبياء كما كان أبو بكرٍ أفضل من طلعت عليه الشمس بعد النبيين والمرسلين". وانظر الرسالة القشيرية، 159/1.

² حلية الأولياء، 325/3، وفضائل الصحابة، ص 135 و 137 و 662. حسن لغيره، وانظر مجموع الفتاوى، 444/11.

³ مسند أحمد، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، حديث: 20550، صحيح.

⁴ انظر بتوسع الموسوعة الفقهية الكويتية، 153/33.

⁵ صحيح البخاري، 3673، وصحيح مسلم، 6651،.

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة، قال تعالى: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم} (التوبة: 100)، والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح صلح الحديبية، فإنه كان أول فتح مكة وفيه أنزل الله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً* وينصرك الله نصراً عزيزاً*} [الفتح/1-4]، فقالوا يا رسول الله أوفتح هو قال: نعم.

وأفضل السابقين الأولين "الخلفاء الأربعة" وأفضلهم أبو بكر ثم عمر وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها وقد دللت على ذلك دلائل بسطناها في "مهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية".

وبالجُملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء، ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة، وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وأتباعاً له، كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه وأتباعه¹، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملاً به، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الأمم وأفضلها أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأفضلهم أبو بكر.

¹ والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والسنة والإجماع، والاعتبار ولهذا لا تجد أحداً من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه، وعلى أمثاله، وتجد من ينازع في ذلك كالرافضة من أجل الناس، ولهذا لا يوجد في أئمة الفقه الذين يرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في أئمة الجيوش المؤيدة المنصورة رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجهدوا عدوه من هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سيرة محمودة من هو رافضي. مختصر مهاج السنة النبوية، 41/1، ومختصر مهاج السنة النبوية، 103/1.

الباب الثاني: حديث الولي وإشكالاته

المبحث الأول: نص الحديث وشواهدة:

1. عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» رواه البخاري¹.

2. وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل من أذل لي ولياً فقد استحل محاربي وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء الفرائض وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه إن سألني أعطيتُهُ وإن دعاني أجبتُهُ ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته لأنه يكره الموت وأكره مساءته». أخرجه أحمد²

3. وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله عز وجل، يقول: "ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به،

¹ صحيح البخاري، حديث: 6502، وشرح السنة للبغوي، 4/121، وهق، 3/346 و10/219 حديث: 21508، والإتحاف، 10/403 والسلسلة الصحيحة، حديث: 1640، والسنة للبغوي، 5/19، وفتح الباري، 11/340، حديث: 341، وتلخيص، 3/117، وصحيح الجامع، حديث: 1782، والإحسان: حديث: 347، وابن ماجه حديث: 3989.

² مسند أحمد، حديث: 26947، والمعجم الأوسط للطبراني، حديث: 11408، والزهد الكبير للبيهقي، حديث: 707، وهو صحيح لغيره.

فإذا دعا أجبتُهُ، وإذا سألني أعطيتُهُ، وإذا استنصرني نصرته، وأحب ما تعبد لي عبدي به النصيح لي". أخرجه الطبراني¹

4. وعن الحسن قال: يقول الله ما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فأكون عينه اللتين يبصر بهما وأذنيه اللتين يسمع بهما ويديه اللتين يبطش بهما ورجليه اللتين يمشي بهما فإذا دعاني أجبته وإذا سألي أعطيته وإن استغفرني غفرت له²

5. وعن حسان بن عطية، قال: من عادى أولياء الله فقد آذن الله بالمحاربة، ومن حالت شفاعته دون حدّ من حدود الله فقد حادّ الله في أمره، ومن أعان على خصومة لا علم له بها كان في سخط الله حتى ينزع، ومن قفا مؤمناً بما لا علم له به وقفه الله في ردغة الخبال حتى يجيء منها بالمخرج، ومن خاصم لضعيف حتى يثبت له حقه، ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام، وقال الله: ما ترددت في شيء أريدُه، تردادي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه" أخرجه ابن أبي شيبة³.

6. وعن طاووس اليماني، قال: «إني لأجد في بعض الكتب الذي أنزل الله تعالى: لن ينجو مني عبد إلا بأداء ما افترضت عليه، وما اقترب إلي عبدي بأفضل من النصيحة، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا فعل ذلك، كنت قلبه الذي يعقل به، وبصره الذي يبصر به، إن سألي أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن استنصر بي نصرته». أخرجه أبو داود في الزهد⁴

¹ المعجم الكبير للطبراني، 230/7، حديث: 7739، و250/7، حديث: 7800، والإتحاف، 102/8 وص477، و440/9 والكامل لابن عدي، 1939/5، والسلسلة الصحيحة، حديث: 1640، والزهد الكبير، للبيهقي، حديث: 710، وهو حسن لغيره.

² مصنف عبد الرزاق، حديث: 20302، صحيح مرسل.

³ مصنف ابن أبي شيبة، 235/13، حديث: 36630، والزهد والرفائق، حديث: 1022، صحيح

مرسل

⁴ الزهد لأبي داود، حديث: 5، وفيه راو لم أعرفه.

7. وعن ابن عباسٍ، قال: قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلّم: يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ نَاصِبَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي عَنْ مَوْتِ الْمُؤْمَنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَرُبَّمَا سَأَلَنِي وَلِيِّ الْمُؤْمَنِ الْغَنَى، فَأَصْرَفُهُ مِنَ الْغَنَى إِلَى الْفَقْرِ، وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى الْغَنَى لَكَانَ شَرًّا لَهُ، وَرُبَّمَا سَأَلَنِي وَلِيِّ الْمُؤْمَنِ الْفَقْرَ، فَأَصْرَفُهُ إِلَى الْغَنَى، وَلَوْ صَرَفْتُهُ إِلَى الْفَقْرِ لَكَانَ شَرًّا لَهُ. إِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَعُلُوِّي وَهَيَايَ وَجَمَالِي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لَا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَايَ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ إِلَّا أَثْبَتُ أَجْلَهُ عِنْدَ بَصَرِهِ، وَضَمَنْتُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ رِزْقَهُ، وَكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَةِ كُلِّ تَاجِرٍ. أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ.¹

8. وعن أنسٍ، عن محمد صَلَّى الله عليه وسلّم، عن جبريل، عليه السلام، عن الله، تبارك وتعالى قال: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا رَدَدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ مَا رَدَدْتُ فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمَنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بَدْلَ لَهُ مِنْهُ» مسند الشهاب²

9. وعن أنسٍ، عن النبي صَلَّى الله عليه وسلّم، عن جبريل عليه السلام، عن ربه تعالى وتقدس قال: "يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَإِنِّي لِأَسْرِعُ شَيْءٍ إِلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِي إِنِّي لِأَغْضِبُ لَهُمْ كَمَا يَغْضِبُ اللَّيْثُ الْحَرْبُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤْمَنِ وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بَدْلَ لَهُ مِنْهُ، وَمَا تَعَبَّدَ لِي عَبْدِي الْمُؤْمِنُ بِمِثْلِ الرُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَلَا تَقَرَّبَ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمَوْئِلًا، إِنَّ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَإِنْ دَعَانِي أَسْتَجِيبُ لَهُ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لِمَنْ يَسْأَلُنِي الْبَابَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفُهُ عَنْهُ، وَلَوْ أَعْطَيْتُهُ إِيَّاهُ لِدَاخَلَهُ الْعُجْبُ وَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لِمَنْ لَا يَصِلُحُ لَهُ إِلَّا الْغَنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لِأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لِمَنْ لَا يَصِلُحُ لَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ

¹ المعجم الكبير، 291/10، حديث: 12551، وفيه ضعف.

² مسند الشهاب القضاي، حديث: 1334، وهو صحيح لغيره.

لأفسدهُ ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يُصلحهُ إلا الصحةُ ولو أسقمتهُ لأفسدهُ ذلك وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحُ له إلا السُّقْمُ ولو أصحَّتهُ لأفسدهُ ذلك، إني أدبُّ عبادي بعلي بقلوبهم، إني عليٌّ خيرٌ" أخرجه أبو نعيم في الحلية.¹

10. وعن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله عز وجل: من آذى لي ولياً فقد استحق محاربتي، وما تقرب إليَّ عبد بمثل أداء فرائضي، وإنه ليتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت رجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، إن سألني أعطيته وإن دعاني أجبتَه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددتي عن موته، وذلك أنه يكرهه وأنا أكره مساءته». أخرجه أبو يعلى.²

11. وعن عبدة بن أبي لبابة، حدثني زُرُّ بن حُبَيْش، سمعتُ حذيفة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله تعالى أوحى إليّ: يا أبا المرسلين، يا أبا المنذرين أنذر قومك أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد عندهم مظلمة، فإني ألعنه ما دام قائماً بين يديَّ يُصلِّي حتى يردَّ تلك الظُّلُمة إلى أهلها، فأكون سمعه الذي يسمع به، وأكون بصره الذي يبصر به، ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنة" أخرجه أبو نعيم في الحلية.³

¹ الإتحاف، 102/8، حديث: 477، والطبراني في الصغير، 264/8، ومجمع الزوائد، 248/2، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء، ص9، حديث:1، والحكيم، 232/2،، وأبو نعيم في الحلية، 318/8،، وابن عساكر، 95/7، وموسوعة السنة النبوية، للشيخ علي الشحود، 86/16، حديث:22852، وهو حسن لغيره.

² مسند أبي يعلى، حديث:6930، وسنده واه

³ أخرجه أبو نعيم في الحلية، 116/6، وحلية الأولياء 9/3، وقال:غريب من حديث الأوزاعي، عن عبدة. ورواه علي بن معبد، عن إسحاق بن أبي يحيى العكي، عن الأوزاعي مثله. وابن عساكر، 65/44، وهو حديث حسن غريب.

المبحث الثاني: حول صحّة الحديث وما قيل فيه والجواب عنه وعن أحاديث الصحيحين:

1. رأي الشيخ الألباني في حديث الولي: قال الشيخ ناصر الدين الألباني: "كنت برهة من الزمن متوقفاً في صحة هذا الحديث، ثم تتبعته طرقه، فتبين لي أنه صحيح بمجموعها، وقد صحّحه جمع".¹

قلت: كان ينبغي عليه عدم التسرع في تضعيف هذا الحديث الصحيح، لأنّه في صحيح الإمام البخاري وكفى.

وقال في صحيحه مبيّناً ذلك: "قلت: وهذا إسناد ضعيف، وهو من الأسانيد القليلة التي انتقدها العلماء على البخاري²، فقال الذهبي في ترجمة خالد بن مخلد هذا وهو القطواني بعد أن ذكر اختلاف العلماء في توثيقه وتضعيفه وساق له أحاديث تفرد بها هذا منها: "فهذا حديث غريب جداً، ولولا هيبة "الجامع الصحيح" لعدّدته في منكرات خالد بن مخلد، وذلك لغرابة لفظه، ولأنّه مما ينفرد به شريك، وليس بالحافظ، ولم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد. ولا أخرجه من عدا البخاري، لا أظنه في مسند أحمد وقد اختلف في عطاء، فقليل: هو ابن أبي رباح، والصحيح أنه عطاء بن يسار".³

قال الحافظ ابن حجر في بيان أمر هذا الحديث: "قلت: ليس هو في مسند أحمد جزم وإطلاق أنّه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود ومع ذلك فشريك شيخ شيخ خالد

¹ في هامش صحيح الجامع، حديث: 1782.

² قلت: انتقاد السند لا يعني بالضرورة انتقاد المتن، فكم من سند انتقد، والمتن صحيح.

³ السلسلة الصحيحة، 384/2، وانظر ميزان الاعتدال، 641/1، ترجمة: 2463، وهامش صحيح ابن حبان، 58/2، وفي سير أعلام النبلاء، 198/19، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ حَدِيثَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ أَدْبَنِي بِالْحَرْبِ، عَنْ ابْنِ كِرَامَةَ، عَنْ خَالِدٍ. وَهُوَ غَرِيبٌ جَدًّا، لَمْ يَرَوْهُ سِوَى ابْنِ كِرَامَةَ، عَنْهُ. وَفِيهَا أَيْضًا، 7/16: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ اللَّهُ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ غَرِيبٌ جَدًّا، مَدَارُهُ عَلَى ابْنِ كِرَامَةَ، قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ، وَيُرْوَى شَبْهُهُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْوَاحِدِ، عَنْ مَوْلَاةٍ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ.

فيه مقال أيضاً وهو راوي حديث المعراج الذي زاد فيه ونقص وقدم وأخر وتفرّد فيه بأشياء لم يتابع عليها كما يأتي القول فيه مستوعباً في مكانه، ولكن للحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً منها عن عائشة أخرجه أحمد في "الزهد" وابن أبي الدنيا وأبو نعيم في "الحلية" والبيهقي في "الزهد" من طريق عبد الواحد بن ميمون عن عروة عنها وذكر ابن حبان وابن عدي أنه تفرّد به وقد قال البخاري إنه منكر الحديث، لكن أخرجه الطبراني من طريق يعقوب بن مجاهد عن عروة وقال لم يروه عن عروة إلا يعقوب وعبد الواحد ومنها عن أبي أمامة أخرجه الطبراني والبيهقي في "الزهد" بسند ضعيف ومنها عن علي عند الإسماعيلي في مسند علي وعن ابن عباس أخرجه الطبراني وسندهما ضعيف وعن أنس أخرجه أبو يعلى والبخاري والطبراني وفي سنده ضعف أيضاً وعن حذيفة أخرجه الطبراني مختصراً وسنده حسن غريب وعن معاذ بن جبل أخرجه ابن ماجه وأبو نعيم في "الحلية" مختصراً وسنده ضعيف أيضاً، وعن وهب بن منبه مقطوعاً أخرجه أحمد في "الزهد" وأبو نعيم في "الحلية" وفيه تعقب على ابن حبان حيث قال بعد إخراج حديث أبي هريرة: لا يعرف لهذا الحديث إلا طريقان، يعني غير حديث الباب وهما هشام الكناني عن أنس وعبد الواحد بن ميمون عن عروة عن عائشة وكلاهما لا يصح وسأذكر ما في رواياتهم من فائدة زائدة.¹

ثم قال الشيخ ناصر معقباً على كلام ابن حجر: "هذا كله كلام الحافظ. وقد أطلال النفس فيه، وحق له ذلك، فإن حديثاً يخرج الإمام البخاري في "المسند الصحيح" ليس من السهل الطعن في صحته لمجرد ضعف في إسناده، لاحتمال أن يكون له شواهد تأخذ بعضده وتقويه... فهل هذا الحديث كذلك؟ لقد ساق الحافظ هذه الشواهد الثمان، وجزم بأنه يدل مجموعها على أن له أصلاً. ولما كان من شروط الشواهد أن لا يشتد ضعفها وإلا لم يتقو الحديث بها كما قرره العلماء في "علم مصطلح الحديث"، وكان من الواجب أيضاً أن تكون شهادتها كاملة، وإلا كانت

¹ فتح الباري، 342/18.

قاصرة، لذلك كله كان لا بد لي من إمعان النظر في هذه الشواهد أو ما أمكن منها من الناحيتين اللتين أشرت إليهما: قوة الشهادة وكمالها أو العكس، وتحرير القول في ذلك، فأقول: ثم ذكر أكثر طرق الحديث ...¹

ثم قال: وخلاصة القول: إن أكثر هذه الشواهد لا تصلح لتقوية الحديث بها، إما لشدة ضعف إسناده، وإما لاختصارها، اللهم إلا حديث عائشة، وحديث أنس بطريقه، فإنهما إذا ضما إلى إسناده حديث أبي هريرة اعتضد الحديث بمجموعها وارتقى إلى درجة الصحيح إن شاء الله تعالى، وقد صحّحه من سبق ذكره من العلماء.²

قلت: كان الشيخ ناصر يسلك مسلك المتشددين في الجرح والتعديل، كما فاته بعض الطريق التي لم يجدها كحديث البزار وغيره مما ذكرته من قبل. وأما قول الإمام الذهبي في الميزان والسير: فهو مردود على الذهبي رحمه الله، فليس هذا الحديث غريباً كما زعم! وخالد بن مخلد إذا كان له مناكير لا يعني أن يكون هذا الحديث منها أصلاً، لأن الإمام البخاري روى له ما لم ينكر عليه، وقد ذكر ابن عدي في ترجمته ما أنكر عليه، ولم يذكر هذا الحديث وقال: "قد اعتبرت حديثه ما روى عنه من الكوفيين محمد بن عثمان بن كرامة، ومن الغرباء أحمد بن سعيد الداري وعندي من حديثهما صدر صالح، ولم أجد في كتبه أنكر مما ذكرته، فلعله توهمها منه أو حملاً على الحفظ وهو عندي إن شاء الله لا بأس به".³

وقد حدّث عن خالد كبار أهل العلم منهم البخاري ومسلم وابن أبي شيبة وأبو داود في مسند مالك والترمذي والنسائي وابن ماجه.⁴

¹ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، 384/2، حديث: 1640. بتصرف.

² المرجع السابق، 385/2، حديث: 1640. بتصرف.

³ الكامل في ضعفاء الرجال، عبدالله بن عدي بن عبدالله، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م، 36/3.

⁴ راجع التهذيب، 116/3 ترجمة: 118.

فهو ثقة له أفراد، وقد اعتمد حديث الولي وقواه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"، بل وسائر كتبه وفتاواه¹. وذكره في الفتاوى الكبرى واحتج به في مواضع عديدة²، وفي الصارم المسلول³، وأفردته العلامة الشوكاني بكتاب ضخيم تخريجاً وشرحاً في كتابه النفيس "القطر الجلي شرح حديث الولي"⁴. بل هو مما تلقته الأمة بالقبول، واحتج به جميع الأئمة دون نكير، فيكون إجماعاً على صحته⁵.

2. الشك في أحاديث الصحيحين⁶: إن التعامل مع الصحيحين الذي ورد طرف منه في السؤال يجب التفريق فيه بين من له دراية بعلم الحديث وأهليته، وبين عامة الناس، بل ربما يقال حتى من طلبة العلم الذين ليس لديهم الأهلية في علم الحديث. فأما المشتغلون بعلم الحديث فهؤلاء لهم أن يناقشوا قبول أي حديث حتى وإن كان في الصحيحين، ولكن ليس ببدع من القول، وإنما على ضوء القواعد الحديثية

¹ انظر: مجموع الفتاوى: 2/225، و2/340، و2/341، و2/371، و2/390، و2/463، و3/416، و5/511، و6/483، و7/442، و8/143، و10/7، و10/305، و10/682، وغيرها من المواضع.

² انظرها الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، 1/207، و3/179، و7/396، و10/381.

³ انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول، 1/172، و1/388.

⁴ وهو مطبوع ومحقق وأخذت به رسالة دكتوراه من الأزهر.

⁵ انظر على سبيل المثال: الفتاوى الفقهية الكبرى، 9/158، والحاوي للفتاوى للسيوطي، 2/34، القول الجلي في حديث الولي ولقاءات الباب المفتوح، 59/12، ولقاءات الباب المفتوح، 66/19، ومجموع فتاوى ومقالات ابن باز، 8/252، و10/220، و14/149 وفتاوى الإسلام سؤال وجواب، 1908/1، سؤال رقم: 21170، و1/1973، سؤال رقم: 21371، و1/2974، سؤال رقم: 2723. وغيرها من المواضع الكثيرة. وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، 2/63 والدرر السنية في الأجوبة النجدية، الرقمية، 2/186 والموسوعة الفقهية الكويتية، 32/153 و33/104، و39/232، و41/101.

⁶ انظر: فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، 1/488، الشك في أحاديث الصحيحين، المجيب د. فهد بن عبدالرحمن البيحي

المعروفة، ومن خلال كلام من تقدم من أهل العلم، وقد أشار الحافظ ابن حجر - رحمه الله - إلى ذلك في "مقدمة فتح الباري" وذكر أمثلة من الأحاديث المنتقدة على الصحيح، والإجابة عنها.

ومن أوائل من انتقد بعض أحاديث الصحيحين الإمام الدارقطني في "الإلزامات والتتبع".

ومع هذا الذي ذكرت فإنني أنبه إلى أمور:

أ- أن طالب العلم لا ينبغي له التعجل في هذا الباب والاستقلال بالحكم، فإن للصحيحين من المنزلة وتلقي الأمة لهما بالقبول ما ليس لغيرهما، ولذا فإنك تجد من علماء الحديث من لم يسلّم بهذه الانتقادات كلها سوى مواضع يسيرة منها كابن الصلاح، والنووي، وابن حجر وآخرين.

ب- أن الانتقاد الوارد على الصحيحين إنما هو في أحاديث معدودة نسبتها ضئيلة إلى جانب مجموع ما فيهما، ومع ذلك فكثير منها قد أجيب عنه كما تقدم.

ج- أن ما يمكن انتقاده على الصحيحين يكاد أن يكون قد فرغ منه، فقد مضى على تأليف الصحيحين أكثر من ألف عام، وما من حديث قد يتطرق إليه الانتقاد إلا ذكر خلال هذه المدة، وستجد في المقابل من يجيب عن الانتقاد سواء كان ذلك من جهة السند أو المتن.

د- وهو أمر مهم- أن الغالب في الانتقادات الواردة كانتقادات الدارقطني -رحمه الله- إنما هو من جهة السند الذي ساقه صاحب الصحيح، مع أن متن الحديث ثابت من طرق أخرى، وكثير منها يسلّم به المنتقد كالدارقطني. فإذا لا يلزم من توجيه الانتقاد إلى حديث ما في أحد الصحيحين عدم ثبوته من وجه آخر.

هـ- أن النظر العقلي المحض وردّ الروايات الصحيحة بدعوى مخالفتها للعقل - فحسب- ليس من منهج أهل السنة، فإنهم وإن كانوا قد يناقشون المتن منفردًا عن السند- بيد أنهم لا يطلقون العنان للعقل المجرد كي يردّ ما شاء من صحيح المنقول، وإنما تردّ المناقشة عندهم في المتن -حين يقتضي الحال ذلك- على ضوء النصوص الأخرى والقواعد الحديثية والأصولية والفقهية.

ولئن كان هذا في شأن أهل العلم، فهو في حق العامة أولى، إذ ليس لهم أن يردوا الأحاديث بدعوى عدم موافقتها للعقل، وأي عقل هذا الذي يتحاكم إليه؟ فإن عقول الناس وفهومهم مختلفة متفاوتة! هذا ما يتعلق بالمتخصصين في هذا العلم.

أما غيرهم -لا سيما عامة الناس- فلا يجوز لهم الخوض في قضية القبول والرفض لما في الصحيحين، بل عليهم أن يأخذوا بالأصل، وهو: قبول ما في الصحيحين، لتلقي الأمة لهما بالقبول والتسليم بصحة ما فيهما في الجملة. والله -تعالى- أعلم.

3. هل في البخاري أحاديث ضعفها الألباني رحمه الله؟ قال الشيخ الألباني رحمه الله: "نعم... لقد ضعف الشيخ الألباني أحاديث قليلة جداً في صحيح البخاري، ولكن لا يلزم من تضعيف الشيخ لها أن تكون ضعيفة بالفعل، بل قد تكون صحيحة كما ذهب إلى ذلك البخاري من قبل، وقد تكون ضعيفة فعلاً. فتضعيف الشيخ الألباني -عليه رحمة الله- اجتهاد منه، قابل للقبول والرد.

لكن العلماء قد نصّوا أن أحاديث الصحيحين "صحيح البخاري وصحيح مسلم" كلها مقبولة، إلا أحاديث يسيرة انتقدها بعض النقاد الكبار، الذين بلغوا رتبة الاجتهاد المطلق في علم الحديث. وأن ما سوى تلك الأحاديث اليسيرة، فهي متلقاة بالقبول عند الأمة جميعها.

وبناء على ذلك: فإن الحديث الذي يضعفه الشيخ الألباني في صحيح البخاري له حالتان: الأولى: أن يكون ذلك الحديث الذي ضعفه الألباني قد سبقه إلى تضعيفه إمام مجتهد متقدم، فهذا قد يكون حكم الشيخ الألباني فيه صواباً، وقد يكون خطأ، وأن الصواب مع البخاري.

الثانية: أن يكون الحديث الذي ضعفه الألباني لم يسبق إلى تضعيفه، فهذا ما لا يقبل من الشيخ -رحمه الله-؛ لأنه عارض اتفاق الأمة على قبول ذلك الحديث (كما سبق). والله أعلم.¹

¹ انظر فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، 484/1، هل في البخاري أحاديث ضعيفة المجيب د. الشريف حاتم بن عارف العوني عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى، وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة، 2452/6، رقم الفتوى: 43428 المراد ليس الطعن في بعض أحاديث البخاري بل أمور أخطر بكثير.

قلت: هذا هو الصواب.

المبحث الثالث: الإشكالات السبعة في هذا الحديث والإجابة عنها:¹

بالإضافة إلى الإشكال السابق وهو التشكيك في صحة حديث الولي، وقد ثبت بالدليل أنه ليس ضعيفاً، بل هو حديث صحيح لا إشكال فيه، وردت بعض الإشكالات الأخرى في فهم هذا الحديث أوردها بإيجاز وأناقشها.

1. أن يقال كيف يعادي الإنسان الأولياء، والأولياء قد تركوا الدنيا وانفردوا عن الخلق، فإن جهل عليهم جاهل حلموا، والعداوة إنما تكون عن خصومة؟

2. قوله: "فقد أذنته بالحرب" وكيف يتصور الحرب بين الخالق والمخلوق والمحارب مناظر؟ وهذا المخلوق في أسر قبضة الخالق.

3. قوله: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه"، والعادة قد جرت بأن التقرب يكون بما لا يجب؛ كالهدايا إلى الملوك دون أداء الخراج، فإن مؤدي اللزوم لا يكاد يحمداً وإنما يشكر من فعل ما لا يجب.

4. أن يقال: إذا كانت الفرائض أفضل القربات فكيف أثمرت النوافل المحبة ولم تثمرها الفرائض؟ 5. قوله: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها" فما صورة هذا؟

6. قوله: "وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" وكم قد رأينا من عابدٍ وصالح يدعو ويبالغ ولا يرى إجابة؟

7. قوله: "وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن" والتردد إنما يقع إذا أشكلت المصلحة في العواقب وذلك ينشأ عن ضعف التدبير، والحق عز وجلّ منزّه عن ذلك؟

والجواب المختصر على هذه الإشكالات.

¹ كشف المشكل من حديث الصحيحين، 1/1007.

أما الإشكال الأول، فإن معاداة الأولياء يقع من أربعة أوجه:

أ. أن يعاديه الإنسان عصبيةً لغيرهم، كما يعادي الرافضي أبا بكرٍ وعمر.

ب. مخالفةً لمذهبهم، كما يعادي أهل البدع أحمد بن حنبل.

ج. واحتقاراً لهم، فيكون الفعل بهم فعل الأعداء، كما كان بعض الجهال يحصب أويساً القرني.

د. وأنه قد يكون بين الولي وبين الناس معاملات وخصومات، وليس كل الأولياء ينفردون في الزوايا قرب ولي في السوق.

وأما الإشكال الثاني فإن الإنسان إنما خوطب بما يعقل، ونهاية العداوة الحرب، ومحاربة الله عز وجل للإنسان أن يهلكه، وتقدير الكلام فقد تعرض لإهلاكي إياه.

وأما الإشكال الثالث: فإن في أداء الواجبات احتراماً للأمر وتعظيماً للأمر، وبذلك الانقياد تظهر عظمة الربوبية، ويبين ذل العبودية.

وأما الرابع، فإنه لما أدى المؤمن جميع الواجبات ثم زاد بالتنقل وقعت المحبة لقصد التقرب، لأن مؤدي الفرض ربما فعله خوفاً من العقاب، والمتقرب بالنفل لا يفعله إلا إثارة للخدمة والقرب، فيثمر له ذلك مقصوده.

وأما الخامس فإن قوله: "إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها" مثل وله أربعة أوجه:

1. كنت كسمعه وبصره في إثارة أمري، فهو يحب طاعتي، ويؤثر خدمتي، كما يحب هذه الجوارح.

2. أن كليته مشغولة، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني ولا يبصر إلا عن أمري.

3. أن المعنى أني أحصل له مقاصده كما يناله بسمعه وبصره.

4. كنت له في العون والنصرة كبصره ويده اللذين يعاونانه على عدوه.

وأما السادس: فإنه ما سئل ولي قط إلا وأجيب، إلا أنه قد تَوَخَّرَ الإجابة لمصلحة، وقد يسأل ما يظن فيه مصلحة، ولا يكون فيه مصلحة، فيعوض سواهُ.

وأما السابغ: فجوابه من وجهين:

1. أن يكون التردد للملائكة الذين يقبضون الأرواح، فأضافه الحق عز وجل إلى نفسه لأن ترددهم عن أمره كما قال تعالى: {وما ننزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً} (مريم: 64)، وتردد الملائكة إنما يكون لإظهار كرامة الآدمي كما تردد ملك الموت إلى آدم وإبراهيم وموسى ونبيينا صلى الله عليه وسلم.

فأما أن يكون التردد لله فمحال في حقه، وهذا مذهب الخطابي، فإن اعترض على هذا، فقول: متى أمر الملك بقبض الروح لم يجز له التردد، فكيف يتردد؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يكون إنما تردد فيما لم يجزم له فيه على وقت، كما روي أنه لما بعث ملك الموت إلى الخليل قيل له تطف بعدي¹.

والثاني: أن يكون تردد رقة ولطف بالمؤمن، لا أنه يؤخر القبض، فإنه إذا نظر إلى قدر المؤمن من احترامه فلم تنبسط يده لقبض روحه، وإذا ذكر أمر الإله لم يكن له بد في امتثاله.

2. أنه خطاب لنا بما نعقل وقد تنزه الرب عز وجل عن حقيقته كما قال: "وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هرولة"².

فكما أن أحدا يتردد في ضرب ولده فيأمره التأديب بضربه وتمنعه المحبة، فإذا أخبر بالتردد فهمنا قوة محبته له بخلاف عبده، فإنه لا يتردد في ضربه، فأريد تفهيمنا تحقيق المحبة للولي بذكر التردد، ومن الجائز أن يكون تركيب الولي يحتمل خمسين

¹ لم أجده

² عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً». انظر صحيح البخاري، حديث: 7405.

سنة، فيدعو عند المرض فيعافى ويقوى تركيبه فيعيش عشرين أخرى، فتغير التركيب والمكتوب من الأجل كالتردد، وذلك ثمرة المحبة".

المبحث الرابع: مفهوم الولاية في القرآن الكريم:

قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: 257]

أي: "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ، فَيُخْرِجُهُم مِّنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ. وَالْمُؤْمِنُ لَا وَلِيَ لَهُ، وَلَا سُلْطَانُ لِأَحَدٍ عَلَى اعْتِقَادِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَلِيُّهُمْ الشَّيْطَانُ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَيُخْرِجُهُم عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَنُورِهِ، إِلَى الْكُفْرِ وَظُلُمَاتِهِ، وَيُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ لِيَبْقُوا فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا. وَالنُّورُ هُوَ الْحَقُّ، وَالْحَقُّ وَاحِدٌ، أَمَّا الظُّلُمَاتُ وَهِيَ الْكُفْرُ فِيهِ أَجْناسٌ".¹

وقال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: 55-56]

وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: 71)

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيُسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَهُمْ دَائِمُونَ الرُّكُوعِ لِلَّهِ.

¹ أيسر التفاسير، أسعد حومد، موقع التفاسير، <http://www.altafsir.com> ، 264/1.

(نزلت هذه الآية في عبادة بن الصّامت حين برئ من مّوالة اليهود، ورضي بمّوالة الله ورّسوله). وكلُّ من رضي بمّوالة الله ورّسوله والمؤمنين هو مُفلح في الدّنيا والآخرة، وهو منصّور في الدّنيا والآخرة، لأنّه يكون في حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، ولا يغلب من يتوالاهم الله.¹

وقال تعالى: {ذلك بأنّ الله مؤلّى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مؤلّى لهم} (سورة محمد: 11) لقد دمر الله على الكافرين، ونجّى المؤمنين وأظهرهم على الكافرين، لأنّ الله مؤلّى الذين آمنوا وصدّقوا رّسوله وأطاعوه، وهو ناصرهم وحافظهم، ولأنّ الكافرين لا ناصر لهم فيدفع عنهم العقوبة والعذاب.²

وقال تعالى: {النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلّا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً} (سورة الأحزاب: 6)

جعل الله الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وولايته مقدّمة على ولايتهم على أنفسهم، لأنّه عليه السّلام لا يأمرهم إلّا بما فيه خيرهم وصلاحهم، أمّا النّفس فأمارّة بالسوء، وقد تجهل بعض المصالح. وجعل أزواج النبيّ في مقام الأمّهات للمؤمنين في الحرّمة والاحترام. وكان التّوارث في بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين، فكان المتأخيان يتوارثان (وإنّ كانا مختلفين نسباً) دون سائر الأقرباء، فأبطل الله تعالى هذا التّعامل في هذه الآية، وردّ الميراث إلى أقرباء النّسب، فجعل أولى الأرحام بحقّ القرابة، أولى بالميراث من المؤمنين بحقّ الدّين، والمهاجرين بحقّ الهجرة. واستثنى الله تعالى من هذا الحُكم الوصيّة (المعروف)، التي يريد أحدهم أن يوصي بها إلى أحد المهاجرين والمؤمنين (أوليائكم) فإنّه في هذه الحال يستحقّها دون ذوي الحُقوق في الميراث من أقرباء النّسب.³

¹ أيسر التفاسير، 726/1، والتفسير الميسر، 229/2، وتفسير السعدي، 236/1.

² المرجع السابق، 4435/1، والتفسير الميسر، 171/9، وتفسير السعدي، 785/1.

³ أيسر التفاسير، 3420/1، وتفسير السعدي، 659/1.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ جَعَلَ ذَوِي الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي الْمِيرَاثِ هُوَ حُكْمٌ قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَاثْبَتَهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ.

وَقَالَ تَعَالَى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ* لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: 62-63]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقُوا وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ، وَالتَّوَكَّلَ عَلَيْهِ، لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلَقُوهُ وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

وَيَقُولُ تَعَالَى مُعَرِّفًا (أَوْلِيَاءَ اللَّهِ): بِأَتَمِّهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتُهُ وَكُتُبُهُ وَرُسُلُهُ، وَكَانُوا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَيُرَاقِبُونَهُ فِي سِرِّهِمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ، فَلَا يَقُومُونَ إِلَّا بِمَا يُرْضِي اللَّهُ رَبَّهُمْ.¹

وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} (الأعراف: 196). إِنَّ اللَّهَ حَسْبِي، وَهُوَ مُتَوَلِّي أُمْرِي وَنَاصِرِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ يَتَوَلَّى نَصْرَ كُلِّ صَالِحٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ عَلَيَّ (الكتاب).

المبحث الخامس: معاداة أولياء الله تعالى مؤذنة بالحرب من الله:

قوله عز وجل: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ" يعني: فقد أعلمته بأنِّي محاربٌ له، حيث كان محاربًا لي بمعاداة أوليائي²، ولهذا جاء في حديث عائشة: "فقد استحل محاربي" وفي حديث أبي أمامة وغيره: "فقد بارزني بالمحاربة"، وعن معاذ بن جبل، سمع النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شَرُّهُ وَإِنَّ مَنْ عَادَى لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ

¹ المرجع السابق، 1428/1، وتفسير السعدي، 368/1.

² انظر فتح الباري، 416/11.

بارز الله بالمُحاربة إِنَّ الله يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْا وَلَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءٍ مُظْلَمَةٍ»¹.

¹ أخرجه ابن ماجة، في سننه، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، برقم: 3989 والطبراني في "المعجم الكبير" 321/20، والحاكم في المستدرک، 328/4، وحلية الأولياء، 15/5 و1، والإتحاف، 144/3 ومشكل الآثار، 317/2، وشعب الإيمان، حديث: 6812 وك 4/1 و328/4 وطص 45/2 وترغيب، 68/1 و444/3 و154/4 والزهد للبيهقي حديث: 195 والشهاب، 252/2 و148/2، والإتحاف، 236/8 و264، وصفة، ص500 وكر، 225/6، والخمول برقم: 8 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي والمنذري لكنه فيه إشكال فقد ورد من طريق الليث بن سعد عن عياش بن عباس القتباني عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر به وهذا إسناد صحيح.

ومن طريق نافع بن يزيد عن عباس بن عياش عن عيسى بن عبد الرحمن عن زيد بن أسلم عن أبيه به ومن طريق ابن لهيعة عن عيسى بن زيد بن أسلم به وعيسى بن عبد الرحمن هذا الزرق متروك التقريب ترجمة: 5306 من السابعة.

والليث بن سعد أحفظ من نافع بن يزيد ومن ابن لهيعة فلم يذكر فيه عبد الرحمن، وإنما يرويه عياش بن عباس عن زيد بن أسلم به

وقد روى عياش عن سالم أبي النضر وبكير الأشج وأبي عبد الرحمن الحبلي، وعيسى بن هلال وكليب بن صبيح وأبي الحصين الحميري وأبي الخير مرثد اليزني وجماعة وهو ثقة ولم يوصف بتدليس ومات سنة 133هـ. انظر: التهذيب، 197، 198/8، وسالم مدني وبكير الأشج مدني نزل بمصر، وزيد بن أسلم مات سنة 136 هـ أي بعده فهو معاصر له. وأقدم شيخ لعياش: الهيثم بن شفى أبو الحصين الحجري المصري ثقة من الثانية.

وأنا لا أستبعد أن يكون قد سمع من أبي زيد وهو أسلم وكل مشايخه ثقات، فلا يمكن أن يترك حديث زيد بن أسلم مباشرة ويسمعه بواسطة ذلك النكرة! فالحديث صحيح

وهناك ملحوظة أخرى وهي أن عيسى بن عبد الرحمن روى عن زيد بن أسلم، مات زيد سنة 136هـ وعن عيسى بن أبي موسى وعن الزهري ومات الزهري سنة 124هـ والذين روى عنه ابن لهيعة ومات 169هـ ومعن بن عيسى بن سبرة فإن كان صاحب مالك فقد مات سنة 198هـ وأبو داود الطيالسي المتوفى 204هـ ومحمد بن شعيب بن شابور المتوفى 200هـ فكيف يروى عنه عياش وعياش مات سنة 133هـ؟ والصحيح أن الذي روى عنه هو ابنه وليس هو فقد قال الحافظ في التهذيب، 218/8 وروى عنه: عبد الله ابن عيسى القتباني وهو عبد الله بن عياش بن عباس القتباني روى عن أبيه ويزيد بن أبي حبيب وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعبيد الله بن أبي جعفر والزهري وأبي عثانة المعافري وغيرهم. ومات سنة 170هـ انظر: التهذيب، 351/5.

وقال الشيخ ابن عثيمين: "المعاداة: هي المباعدة وهي ضد الموالاة والولي بينه الله عز وجل في قوله: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: 62-63]، هؤلاء هم أولياء الله {الذين آمنوا} أي: حققوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به {وكانوا يتقون} أي حققوا العمل الصالح بجوارحهم فاتقوا جميع المحارم من ترك الواجبات أو فعل المحرمات فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان وصلاح الظاهر بالتقوى هؤلاء هم أولياء الله، وليست ولاية الله سبحانه وتعالى تأتي بالدعوى كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء الله وهم أعداء الله. فالذي يعادي أولياء الله يقول الله عز وجل: فقد آذنته بالحرب يعني أعلنت عليه الحرب، فالذي يعادي أولياء الله محارب لله عز وجل، ومن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة".¹

فأولياء الله تجب موالائهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم، وتحرم موالائهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِئُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (سورة الممتحنة: 1) ²، وقال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: 55-57]، ووصف أقباء الذين يحبهم ويحبونه بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

¹ شرح رياض الصالحين لابن عثيمين، موقع جامع الحديث النبوي، <http://www.sonnhononline.com> 415/1.

² هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، وَكَانَ حَاطِبٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ... أَيْسَرَ التَّفَاسِيرِ لِأَسْعَدِ حَوْمَدٍ، 5029/1.

أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (سورة المائدة: 54).¹

وروى الإمام أحمد في كتاب "الزهد" بإسناده عن وهب ابن منبّه، قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى -عليه السلام- حين كلمه: اعلم أنّ من أهان لي وليّاً، أو أخافه، فقد بارزني بالمحاربة، وبإدائي، وعرض نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرعُ شيءٍ إلى نُصرة أوليائي، أفيظنُّ الذي يُحاربني أن يقوم لي؟ أو يظنُّ الذي يعازني أن يعجزني؟ أم يظنُّ الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتي؟ وكيف وأنا التّائرُ لهم في الدنيا والآخرة، فلا أكلُ نصرتهم إلى غيري.²

واعلم أنّ جميع المعاصي محاربة لله عز وجل، قال الحسن: ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإنّ من عصى الله، فقد حاربه.³

لكن كلّما كان الذّنْبُ أقبح كانت المحاربة لله أشدّ، ولهذا سمّى الله تعالى أكلة الرّبا، وقُطّاع الطّريق محاربين لله تعالى ورسوله؛ لعظيم ظلمهم لعباده، وسعيهم بالفساد في بلاده، وكذلك معاداة أوليائه، فإنّه تعالى يتولّى نُصرة أوليائه، ويُحييهم ويؤيّدُهم، فمن عاداهم، فقد عادى الله وحاربه، عن عبد الله بن مُغفلٍ قال قال رسولُ الله -صلّى الله عليه وسلّم-: «اللّهُ الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بغدي فمنّ

¹ كتاب حديث أبي الفضل الزهري، دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد بن علي شبالة البلوط، مكتبة أضواء السلف، بالرياض، سنة 1418 هـ. موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>، حديث: 598 مطوّلاً.

² المسند، أحمد بن حنبل، حديث: 342 عن وهب بن منبه، به، وهو جزء من حديث طويل، وإسناده حسن إلى وهب

³ كتاب حديث أبي الفضل الزهري، موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>، حديث: 598 مطوّلاً

أَحِبُّهُمْ فَبِحُبِّي أَحِبُّهُمْ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبِغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ» خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ¹.

"وقد أَسْتَشْكَلُ وَقُوعُ الْمُحَارِبَةِ وَهِيَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ فِي أَسْرِ الْخَالِقِ، وَالْجَوَابُ أَنَّهُ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ بِمَا يُفْهَمُ، فَإِنَّ الْحَرْبَ تَنْشَأُ عَنِ الْعِدَاوَةِ وَالْعِدَاوَةُ تَنْشَأُ عَنِ الْمُخَالَفَةِ وَغَايَةُ الْحَرْبِ الْهَلَاكُ وَاللَّهُ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى فَقَدْ تَعَرَّضَ لِإِهْلَاكِ إِيَّاهُ. فَأُطْلِقُ الْحَرْبَ وَأَرَادَ لَازِمَهُ أَيَّ أَعْمَلُ بِهِ مَا يَعْمَلُهُ الْعَدُوُّ الْمُحَارِبُ.

قال الفاكهاني: "في هذا تهديدٌ شديدٌ، لأنَّ مَنْ حَارِبَهُ اللَّهُ أَهْلَكَهُ، وَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ الْبَلِيغِ، لِأَنَّ مَنْ كَرِهَ مِنْ أَحَبَّ اللَّهُ خَالَفَ اللَّهَ وَمَنْ خَالَفَ اللَّهَ عَانَدَهُ وَمَنْ عَانَدَهُ أَهْلَكَهُ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فِي جَانِبِ الْمُعَادَاةِ ثَبَتَ فِي جَانِبِ الْمُوَالَاةِ، فَمَنْ وَالَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ أَكْرَمَهُ اللَّهُ". وقال الطُّوفِيُّ: "لَمَّا كَانَ وَلِيُّ اللَّهِ مِنْ تَوَلَّى اللَّهَ بِالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى تَوَلَّاهُ اللَّهُ بِالْحِفْظِ وَالتُّصَرَّةِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ بِأَنَّ عَدُوَّ الْعَدُوِّ صَدِيقٌ وَصَدِيقُ الْعَدُوِّ عَدُوٌّ، فَعَدُوُّ وَلِيِّ اللَّهِ عَدُوُّ اللَّهِ فَمَنْ عَادَاهُ كَانَ كَمَنْ حَارِبَهُ وَمَنْ حَارِبَهُ فَكَأَنَّمَا حَارِبَ اللَّهَ".²

"قال صاحب الإفصاح: في هذا الحديث من الفقه أن الله سبحانه وتعالى قدَّم الإِعْذَارَ إِلَى كُلِّ مَنْ عَادَى وَلِيًّا، أَنَّهُ قَدْ آذَنَهُ بِأَنَّهُ مُحَارِبُهُ بِنَفْسِ الْمُعَادَاةِ، وَوَلِيَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَّبِعُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَلْيَحْذَرِ الْإِنْسَانُ مِنْ إِيْذَاءِ قُلُوبِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَعْنَى الْمُعَادَاةِ أَنْ يَتَّخِذَهُ عَدُوًّا.

¹ انظر سنن الترمذي، حديث: 4236 وأحمد، 87/4، وأبو داود، 54/5 و55 و57 و74. وشعب الإيمان، حديث: 1511 والحلية، 287/8 والسنة، 70/14 وابن عدي، 1485/4، والخطيب، 123/9 وابن حبان، حديث: 2284 والفضائل لأحمد، حديث: 1 و2 و3 و4 والرويانى، حديث: 882 والبخاري في التاريخ، 131/5، وجامع الأصول، 553/8، وهو حديث حسن.

وفي سنده عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الطائفي قال: خ فيه نظر وقال ابن معين: صويلح وفي رواية ضعيف وفي رواية ليس به بأس يكتب حديثه وقال ن: ليس بالقوى ا ه ابن عدى، 167/4 و168 ووثقه ابن حبان وابن المديني والعجلي انظر التهذيب، 298/5، والجامع، حديث: 2218

² فتح الباري، 342/18، وشرح الأربعين النووية، لعطية سالم، 4/80.

ولا أرى المعنى إلا من عاداه لأجل ولاية الله، وأما إذا كانت الأحوال تقتضي نزاعاً بين وليين لله محاكمة أو خصومة راجعة إلى استخراج حق غامض، فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث، فإنه قد جرى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خصومة، وبين العباس وعلي رضي الله عنهما وبين كثير من الصحابة وكلهم كانوا أولياء الله عز وجل.¹

ومن هنا يقول العلماء: (من عادى لي ولياً)، ليس منه المطالبة بحق شرعي، ولنأت إلى سر الحديث وإلى البلاغة التي تُشتم ولا تُلمس في هذا اللفظ النبوي الكريم، (من عادى لي ولياً)، ولم يقل: من عادى ولياً لي، بل (من عادى لي ولياً)، فهل تجدون فيها فرقاً أم لا؟ الذوق البلاغي هنا: بتقديم (لي) على (ولياً)، فإن تقديم الجار والمجرور هنا، وإضافته إلى المولى سبحانه يُشعر بأن المحاربة تكون لمن عادى الولي لكونه ولياً لله، أما لو قال: (من عادى ولياً لي)، فقد يكون هذا الولي عنده ما يوجب المعاداة، لكن (من عادى لي)، يعني: من أجلي وبسبي وباسمي، فمن عاداه وهو ينتهي إليّ فقد آذنته بالحرب، والحديث في بلاغته يُشعر بأن العداوة المنهي عنها والمحذر منها هي أن يعاديه لكونه ولياً لله، ومن الذي يعادي ولي الله لولايته لله؟ نعلم جميعاً أن ولاية الله لا تحصل بالمعصية والفسوق والخروج على كتاب الله وسنة رسوله، ولا بمخالفة الإجماع وشق عصا المسلمين، فهذا الحديث -كما يتفق العلماء- يعتبر فاصلاً بين الحق والباطل.²

1. من صفات أولياء الرحمن: ³ من شهد له محمدٌ صلى الله عليه وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشيطان.

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقال تعالى: {ألا إنَّ

¹ شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، 34/1، وبنحوه في فيض القدير، شرح الجامع الصغير حيث: 1752

² الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، 34/1.

³ المرجع السابق، ص 138.

أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهمُ البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة لا تبدلُ لكلمات الله ذلك هو الفوزُ العظيمُ { يونس: 62-65}.

2. صفاتُ أولياء الشيطان: ¹ وذكر الله تعالى "أولياء الشيطان": {إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم* إته ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون* إنما سلطانهُ على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} {النحل: 98-101} ، وقال تعالى: {الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يُقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً} {النساء: 76}، وقال تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بدلاً} (سورة الكهف: 50)، وقال تعالى: {ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً* يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً* أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً} {النساء: 119-121} . وقال تعالى: {الذين قال لهمُ الناسُ إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل* فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيمٍ* إنما ذلكم الشيطان يُخوفُ أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: 173-175]

3. الموالاة والمعاداة قائمان على الحب والبغض: ² لا شك أن الولاء والبراء مبنيان على قاعدة: الحب والبغض، فينبغي للداعية أن يوضح للناس ويحضهم على الموالاة والمعاداة وتكون على ثلاثة أوجه:

أ- من يحب محبة كاملة: وهذه المحبة للمؤمنين المتقين: من الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين القائمين بجميع ما أمر الله به، المبتعدين عن جميع ما نهى الله عنه.

¹ المرجع السابق، ص 143، 139

² انظر فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، 3/ 33.

ب- من يحب من وجه ويكره من وجه؛ لأنّه قد يجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه آخر وهذا هو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيحب ويوالي على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعادي على قدر ما معه من الشر.

ج - من يبغض من كل وجه؛ وهو من كفر بالله عزّ وجلّ، فيجب بغضه بالقلب كاملاً لازماً لا نقص فيه، أما بالبدن والأعمال فعلى حسب القدرة ومتى كانت إرادة القلب وكرهته كاملة لا نقص فيها، وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفعل الكامل إن شاء الله تعالى.

الخاتمة:

1 - بيان فضل أولياء الله، وشدة خطر معاداتهم، أنّ ولاية الله عزّ وجلّ تحصل بأداء الفرائض وفعل النوافل.

2 - إثبات صفة المحبة لله عزّ وجلّ، وأنّ أداء الفرائض هو أحب الأعمال إلى الله تعالى، وذلك لما فيها من إظهار عظمة الربوبية، وذلّ العبودية.

3 - أنّ فعل النوافل بعد أداء الفرائض يجلب محبة الله عزّ وجلّ، أنّ محبة الله عزّ وجلّ تجلب للعبد إجابة دعائه وإعازته ممّا يخاف.

4 - أنّ ثواب الله عزّ وجلّ للعبد يكون بإجابة مطلوبة والسلامة من مرهوبة.

5 - أن الله سبحانه وتعالى قدّم الإعذار إلى كلّ من عادى ولياً أنه قد آذنه بأنه محاربة بنفس المعادة.

6 - أن أولياء الله تعالى هم الذين يتقربون إليه بما يقرّبهم منه من الإيمان والأعمال الصالحة، فظهر بذلك بطلان دعوى أن هناك طريقاً إلى الولاية غير التقرب إلى الله تعالى بطاعته التي شرعها.

7 - أنّ العبد ولو بلغ أعلى الدرجات - لا ينقطع عن الطلب من ربه لما في ذلك من الخضوع له، وإظهار العبودية له وأنه يجب علينا أن نحبّ الله، ونبغض لله، ونوالي في الله، ونعادي في الله

- 8 - أولياء الله تعالى ليسوا بمعصومين، فقد يقعون في المعصية.
- 9 - أنّ الأنبياء أفضل الأولياء، وأفضلهم أولو العزم من الرسل، وأفضلهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
- 10 - أولياء الله تعالى موجودون في كل زمان ومكان، ولا يوجد شيء يميزهم عن غيرهم سوى طاعتهم لله تعالى واتباعهم لمنهجه.
- 11 - ليس بشرط أن تجري على أيديهم كرامات، فخوارق العادات قد تكون كرامة من الله تعالى لعبد من عباده الصالحين، وقد تكون استدراجاً والعياذ بالله.
- 12 - لا يجوز الطعن بأحاديث الصحيحين، لأنها بلغت القنطرة، وهي أصح الأحاديث على الإطلاق.
- 13 - لا يجوز التسرع بالحكم على الأحاديث، أو ردّها لا سيما إذا كانت مما تلقته الأمة بالقبول. بل يجب اتباع الطريق الذي سار عليه أهل العلم في هذا من الاحتياط التام.
- 14 - أحاديث البخاري أصحّ الأحاديث في السنة النبوية.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن تيمية: مختصر الفتاوى المصرية، مطبعة أنصار السنة المحمدية،
3. ابن حجر الهيتمي: الفتاوى الحديثية، الطبعة الثانية، مصطفى الحلبي،
تفاصيل الطبع لا توجد
4. ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ
5. ابن شرف النووي: بستان العارفين، موقع
الوراق، <http://www.alwarraq.com>.
6. ابن عثيمين: شرح رياض الصالحين، موقع جامع الحديث النبوي،
<http://www.sonnhononline.com>
7. ابن ماجه: سنن ابن ماجه، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر،
www.islamiccouncil.org.
8. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر
(تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي)، المكتبة العلمية،
بيروت، 1979م.
9. أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين
(تحقيق: علي حسين البواب)، دار الوطن، الرياض، 1997م.
10. أحمد بن حنبل: مسند أحمد، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف،
مصر، www.islamiccouncil.org.
11. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
(تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد)
دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، 1414هـ.

12. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: الصارم المسلول على شاتم الرسول (تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري) دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ.
13. الإمام مسلم: صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، www.islamiccouncil.org.
14. البخاري: صحيح البخاري، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، www.islamiccouncil.org.
15. كتاب حديث أبي الفضل الزهري (دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد بن علي شبالة البلوط) مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1418هـ موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>.
16. كتاب حديث أبي الفضل الزهري (دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد بن علي شبالة البلوط) مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1418هـ، موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>.
17. مجموع فتاوى ابن تيمية، موقع الإسلام، <http://www.alislam.com>.
18. محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد (تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد الحج)، الطبعة الأولى، 1996م، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
19. محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، سنة الطبع لم تذكر.
20. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، 1404-1427هـ.

التراث الإسلامي في تصنيف العلوم، القلقشندي نموذجًا

- د. محمد فوزي مصري رحيل¹

ترك المسلمون في عصور نهضتهم ميراثًا ضخماً في كل ميادين العلوم والفنون بلا استثناء، ومن ثم قلما نجد علماً من علوم عصرنا ليس له أصل عربي مسلم، وفي ظل انشغالنا بمشاكل عصرنا المتقلب نسينا أو تناسينا ذلك، ومن ثم نظرنا لأنفسنا نظرة فيها كثير من الحط من الذات المفضي للجلد، ومن هنا تأتي وظيفة المؤرخ للكشف عن ماضٍ مجيد كنا فيه قادة وسادة، وهو ما يضع بين الأجيال الحالية القدوة والمثل لإمكانية النهوض من جديد والانطلاق نحو المستقبل بكل ثقة.

ومن بين الميادين التي أبدع المسلمون فيها، ميدان تصنيف العلوم² الذي جاء معبراً عن الانفجار المعرفي في ظل ازدهار الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري؛ وهو ما حدا بالمتخصصين للنظر في تصنيف هذه العلوم والمعارف؛ تيسيراً على أهل كل تخصص حتى يمكنهم التعرف على ما أنجز في تخصصهم، وهو ما يوفر لهم قاعدة معلومات للتعليم والإبداع. ومن هنا تراكم عبر الزمن ميراث طويل من تصنيف العلوم، تنوع وتفرع حسب ظروف كل عصر، وهو ما نبهت عنه في هذا الدراسة مع إلقاء أضواء كاشفة على أحد التصنيفات التي لم تنل الحظ الكافي من البحث والدرس وهو تصنيف القلقشندي.

وأنوه في البداية إلى أنني قسمت هذا البحث إلى نقاط رئيسة كالتالي:

- التصنيف ومدلولاته اللغوية والاصطلاحية.

¹ باحث أكاديمي من مصر

² علم تصنيف العلوم هو المقابل العربي لعلم المكتبات الحديث

- أسباب نشوء علم التصنيف عند المسلمين.
- تصنيف العلوم قبل الحضارة الإسلامية.
- أبرز تصانيف العلوم عند المسلمين قبل القلقشندي.
- دراسة تفصيلية لتصنيف القلقشندي.

التصنيف - مدلولاته اللغوية والاصطلاحية

المعنى اللغوي:

يعرف ابن منظور¹ التصنيف بأنه "تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وصنّف الشيء ميّز بعضها عن بعض، وتصنيف الشيء جعله أصنافاً". ويتفق معه الجوهري² حيث عرّف التصنيف بأنه "جعل الشيء أصنافاً وتمييز بعضها عن بعض".

المعنى الاصطلاحي:

عرّف طاش كبرى زاده³ علم التصنيف كالتالي: "هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات التي أحصاها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم". يرى نديم مرعشلي أن مصطلح التصنيف classification يقصد به تقسيم الأشياء أو المعاني وترتيبها في نظام خاص وعلى أساس معين بحيث تبدو صلة بعضها ببعض، ومنها تصنيف الكائنات وتصنيف العلوم. والتصنيف الحقيقي ما قام على أساس من المميزات الذاتية والثابتة، والتحكي ما بني على أمور اعتبارية وظاهرية".

أما عالم المكتبات Sayers فيرى أن التصنيف - بشكل عام - هو العملية الذهنية والتي من خلالها يتم ترتيب الأشياء وفقاً لدرجة التشابه ودرجة الاختلاف فيما بينها. ومن هنا نفهم أن التصنيف هو تقسيم المعرفة إلى أبواب وفصول وأجناس وأنواع وذلك

¹ لسان العرب، ص 198

² الصحاح، 4/1388

³ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ص 265

لبيان العلاقة التي تربط بين العلوم، مبيّنًا موضع كل علم من الآخر كلبنة في بناء المعرفة ككل¹.

ونخلص من هذه التعريفات إلى أن تصنيف العلوم اصطلاحًا هو عملية عقلية تسعى إلى جمع المتشابهات في موضوع واحد، وفصلها عن باقي الأنواع لتسهيل الاستفادة منها بالانتقال من العلوم الكلية إلى العلوم الجزئية المندرجة تحتها.

أسباب نشوء تصنيف العلوم عند المسلمين

شهد العصر العباسي الأول (132-232هـ) الانتقال من الشفاهية إلى الكتابية والقيّد في الدفاتر والتسجيل في الكتب، وقد تمت هذه العملية الواسعة بإشراف الدولة. ابتداءً من عهد أبي جعفر المنصور، والتي صبغت الحياة الفكرية والاجتماعية العربية الإسلامية بطابعها لفترة من الزمن امتدت نحو قرن من الزمان عرف بعصر تدوين العلوم². وإلى جانب تدوين العلوم الإسلامية شهدت هذه الفترة حركة واسعة للترجمة من لغات عديدة إلى اللغة العربية، شملت أعدادًا كبيرةً لمختلف الكتب التي كانت تتناول علومًا أجنبية، ويمكن اعتبار عهدي المنصور والمأمون أوج ما وصلت إليه تلك الحركة، وهو ما أدّى لكثرة العلوم التي تم تداولها في معاهد العلم الإسلامية سواء ما دَوّن أو ما ترجم ، ومن هنا ظهرت الحاجة لتصنيف هذه العلوم تيسيرًا على الطلاب والباحثين، ومن ثم نشأ علم جديد نما وتطوّر عبر الزمن، وهو علم تصنيف العلوم وتبويبها والتعريف بأهم ما أُلّف فيها وهو ما يقابل علم البيولوجرافيا الحديث³. ومن هنا يمكن اتخاذ ظهور علم تصنيف الكتب عند المسلمين مؤشرًا على ما بلغته الحضارة الإسلامية من نضج مؤدّنًا بقطف الثمار⁴.

¹ منهج ابن النديم في تصنيف العلوم، ص 6

² تدوين العلوم في العصر العباسي، رسالة ماجستير، آداب عين شمس، 2004م.

³ منهج ابن النديم في تصنيف العلوم

⁴ مقدمة إحصاء العلوم للفارابي، ص 5

تصنيف العلوم قبل الحضارة الإسلامية

يعدّ أفلاطون الفيلسوف اليوناني أقدم عالم وصلت إلينا جهوده في تصنيف العلوم، حيث قسم العلوم إلى مجموعتين: علوم تنتهي لعالم المحسوس أو الطبيعيات وهي: اثنا عشر علمًا منها الطب والنبات وغيرها. وعلوم تنتهي لعالم المعقول وتتكون من العلوم الرياضية والعلوم المرتبطة بالإلهيات. أما أرسطو ت 323 ق م فقد قسم العلوم في ثلاث مجموعات كبرى: إنتاجي- يقصد به العلوم الشعرية والأدبية - وعملي -يهتم بتدبير أفعال الإنسان- ونظري. يشمل النظري: الهندسة- الفلك - الموسيقى- الحساب- الميتافيزيقا- الطبيعيات. العلوم العملية: تشمل علوم الأخلاق والاقتصاد والسياسة. والعلوم الإنتاجية : الشعر والبلاغة والجدل¹.

كما كانت هناك جهود رومانية لتصنيف العلوم وأبرزها تصنيف ماركوس فاروس (ت 279 ق م) وأقسام العلوم عنده تشمل النحو وعلوم اللغة، الديالكتيك متضمنًا المنطق والفلسفة وفروعهما والبلاغة ومعها الخطابة والشعر ثم الهندسة والحساب وعلم الفلك والموسيقى والطب والعمارة. وأيضًا أديمانتوس أوريجانوس ت 253 م وهو نصراني مصري سكندري لاهوتي صنف المعارف كالتالي: الإنجيل وشروحه والهندسة والفيزياء والفلك والفلسفة والأخلاق والمخلوقات الروحانية².

تراث المسلمين في التصنيف

- تقسيم الكندي (ت 252هـ):

لعل الكندي أول مصنّف العلوم العرب الذين وصل إلينا إنتاجهم. هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، ولد بالكوفة وتوفي في بغداد، ولقب بفيلسوف العرب³. وقد جاء تصنيفه في رسالة سمّاها "كتاب ماهية العلم وأقسامه". وفيها

¹ تصنيف العلوم عند العرب، ص 16

² تصنيف والعلوم لفوزي الخطيب)، ص 41-42

³ المصدر نفسه، ص 90

قسم العلم إلى إلهي وإنساني، وقد تأثر إلى حد كبير بأرسطو في تصنيفه حيث قال: "إن علوم الفلسفة ثلاثة فأولها: العلم الرياضي في التعليم وهو أوسطها في الطبع، والثاني: علم الطبيعيات وهو أسفلها في الطبع، والثالث: علم الربوبية وهو أعلاها في الطبع"¹. ويرى الدكتور يوسف العش² أن مكتبة الكندي الخاصة كانت مقسمة على النحو التالي: "علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والشعر والنحو والتصريف وعلوم الأوائل، وقد اقتصرنا، كما هو واضح، على العلوم العامة: العلوم الدينية، الآداب، وعلوم الفلسفة". إذن أثر الفلسفة اليونانية واضح جلي في تصنيف الكندي.

- الفارابي (339هـ):

هو أبو نصر محمد بن طرخان، تبحر في الفلسفة، واللغة، والموسيقى، وكانت له معرفة حسنة بالطب. تأثر بأفلوطين، وتبني نظرية الواحد والكثرة. وقد ظهر تصنيف الفارابي للعلوم في كتابه "إحصاء العلوم". وفي مقدمة الكتاب يوضح سبب تأليفه قائلاً: "قصداً في الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً، ونعرف مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وإجزاء ما له أجزاء منها". والغرض من ذلك تبصرة من يريد أن يتعلم علماً من هذه العلوم فيجد هذا العلم وموضوعاته. والثانية إكسابه القدرة على المقارنة بين هذه العلوم ليعلم أيها أفضل وأنفع بجانب إكسابه القدرة على اختبار مدى إحاطة مدعي العلوم بها وتضلّعهم منها.³ وقد صنف الفارابي العلوم كالتالي:

1- علم اللسان وشمل علوم: قوانين الألفاظ مركبة وقوانين الألفاظ ومفردة وقوانين، تصحيح الكتابة والأشعار.

2- علم المنطق

¹ مقدمة سلجوقي زاده، ص 14-16

² دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ص 347

³ إحصاء العلوم، ص 8

3- علم التعاليم وتشمل علوم العدد والهندسة والمناظر والنجوم والموسيقى والأثقال والحيل.

4- العلم الطبيعي والعلم الإلهي

5- العلم المدني وعلم الفقه وعلم الكلام¹

- إخوان الصفا:

إخوان الصفا هم جماعة ذات طابع سياسي ديني وميل إسماعيلي ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري، وألّفوا مجموعة من الرسائل عرفت برسائل إخوان الصفا وخلان الوفا وعددها 52 رسالة². وقسمت هذه الرسائل في أربعة أقسام:

القسم الأول: الرسائل الرياضية وتضم أربع عشرة رسالة.

القسم الثاني: الرسائل الجسمانية أو الطبيعية، وتضم سبع عشرة رسالة.

القسم الثالث: الرسائل النفسانية العقلية، وتضم عشر رسائل

القسم الرابع: الرسائل الناموسية الإلهية، وتضم إحدى عشرة رسالة³

تأثرت هذه الرسائل بأفكار فيثاغورس في القسم الرياضي والقسم النفساني العقلي وبأرسطو في القسم الطبيعي، وفي القسم الرابع حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة⁴.

- الخوارزمي (ت 380هـ):

وهو عبد الله محمد بن أحمد بو يوسف كان أديبًا وباحثًا، نسب لمدينة بلخ والتحق بنيسابور حيث بلاط نوح الثاني الساماني وفي رحابه ألف كتاب مفاتيح العلوم وأهداه لأبي الحسن العتبي وزير نوح. قسم الخوارزمي كتابه قسمين القسم الأول لعلوم العرب: الفقه والكلام والنحو والكتاب والشعر والأخبار.

¹ الفارابي، إحصاء العلوم، بيروت، 1996م.

² خير الله سعيد، النظام الداخلي لجماعة أخوان الصفا، دار كنعان، دمشق، 2000م

³ رسائل اخوان الصفا، طبعة الهند، بدون تاريخ

⁴ تصنيف العلوم عند العرب، ص 99

والقسم الثاني لعلوم العجم: الفلسفة والمنطق وعلم العدد والهندسة والنجوم والموسيقى والحيل والكيمياء، وبالرغم من تصنيف العلوم للخوارزمي قد وضع نسقاً للعلوم إلا أنه لم يقصد به تصنيف العلوم لأن غرض الخوارزمي من كتابه أن يكون "جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من الموضوعات"¹. ويمتاز تصنيف الخوارزمي بأنه ابتعد في تصنيفه عن الفلاسفة وتحرّر من قيد الفلسفة الإغريقية، ومن الأفكار المجردة الميتافيزيقية.²

- النديم (ت 385هـ):

هو أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق المشهور بالنديم، والغريب أن كثيراً من المؤلفين المحدثين يلقبونه بابن نديم بينما كان هو النديم نفسه، رتب النديم كتابه الببلوجرافي ترتيباً تصنيفياً تحت رءوس الموضوعات عامة ثم عمد إلى تفريعها. وفي مقدمة كتابه يقول: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء اختراع كل علم إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة" ويمتاز تصنيف ابن النديم بأنه يقوم على السند الأدبي بينما تصانيف الفلاسفة قامت على السند النظري. وقد صنف العلوم في عشرة أقسام كما هي:

الأول: لغات الأمم والكتابة، وأسماء كتب الشرائع ولغة القرآن.

الثاني: النحويون اللغويون.

الثالث: الأخبار والسير والأنساب

الرابع: الشعر والشعراء.

الخامس: علم الكلام والمتكلمين

السادس: الفقه والفقهاء والمحدثين.

¹ مفاتيح العلوم، ص 13

² تصنيف العلوم، ص 100

السابع: الفلسفة والعلوم القديمة

الثامن: الأسمار والخرافات والسحر والشعبذة.

التاسع: المذاهب والاعتقادات غير الإسلامية

العاشر: أخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين¹.

وهذه الفروع العشرة تتضمن 43 علمًا، ويعدّ كتاب ابن النديم أقدم ببلوجرافيا تمثل الإنتاج الفكري العربي حتى منتصف القرن الرابع الهجري².

- ابن سينا (428هـ):

هو أبو الحسين بن عبد الله الملقب بالشيخ الرئيس، بسبب رئاسته للأطباء، تعلم الأدب وعلوم القرآن والفقه والمنطق والهندسة في سن مبكرة، ومارس الطب وترجم كتاب إقليدس في الهندسة واشتغل بالفلك وله بحوث في الحركة والطاقة والفراغ والضوء والحرارة، وسعى للتوفيق بين الدين والفلسفة. اهتم ابن سينا بتصنيف العلوم في بعض كتبه غير أنه لم يلتزم بتصنيف واحد، ففي كتاب عيون الحكم، تبّى تصنيف أرسطو المميز بين العلوم النظرية والعملية، ولما تقدّم به العمر ظهر له تصنيف جديد في كتاب منطق المشرقيين، حيث صنف العلوم بين علوم لا يصح أن تجري أحكامها الدهر كله وعلوم متساوية النسب إلى جميع أجزاء الزمان، وهناك تصنيف ثالث اقترب من تقسيم الفارابي ظهر في "أقسام العلوم العقلية" حيث جعلها ثلاث رتب: رتبة أعلى وهي العلم الإلهي، ورتبة وسطى وهي العلم الرياضي، وعلومًا أسفل وهي العلم الطبيعي³.

- الغزالي (ت 505هـ):

هو أبو حامد محمد الغزالي الطوسي اشتهر بأنه حكيم متكلم فقيه أصولي صوفي مشارك في العديد من العلوم⁴، يظهر تقسيم الغزالي للعلوم في كتابيه، "مقاصد الفلاسفة" و"تهافت الفلاسفة"، ويلخص تصنيفه كالتالي:

¹ النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1971م

² تصنيف العلوم، ص 103-104

³ تصنيف العلوم، ص 105-107

⁴ الأعلام، ص 21-23

- الرياضيات: أصلها الهندسة والحساب والهيئة، والفروع علم المناظر وعلم جر الأثقال والأكر المتحركة.
- والطبيعات: تتعلق بعالم السماوات، وكواكبها والأرض، وما بها من ماء وهواء ونار والأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن.
- والإلهيات موضوعها الوجود المطلق
- المنطقيات مهمتها النظر في الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية ترتيبها¹.

– النويري (ت 733هـ):

هو شهاب الدين بن عبد الوهاب النويري، كان فقيهاً شافعيًا، متبحرًا في عدد من العلوم والفنون، ألّف النويري كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" وهو موسوعة شاملة لكل العلوم المعروفة في عصره تدرج فيها من الموضوع الواسع إلى الموضوع الخاص الضيق. وقد قسمها في خمسة فنون عامة وكل قسم ينقسم في خمسة أقسام وكل قسم يجرأ إلى أبواب بينما كل باب مقسم إلى فصول ويتحرر في الفصول والأبواب من التقسيم الخماسي:

القسم الأول: في السماء والآثار العلوية، والأرض والأقسام السفلية وهو خمسة أقسام

القسم الثاني: في الإنسان وأصله وما يتعلق به وهو خمسة أقسام.

القسم الثالث: في الحيوان: خمسة أقسام

القسم الرابع: في النبات: خمسة أقسام

القسم الخامس: في التاريخ وهو خمسة أقسام.³

وربما تأثر النويري في تقسيمه هذا بطريقة إخوان الصفا الرباعية⁴

¹ مقدمة سلجوقي زاده، ص 32، وتصنيف العلوم عند العرب (لفوزي)، ص 110

² عنه انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، 11-7/1

³ نهاية الأرب، 16/1

⁴ تصنيف العلوم عند العرب (لفوزي الخوري)، ص 117

- ابن الأكفاني (749هـ):

هو شمس الدين بن ساعد الأكفاني السنجاري، تبحر في عدد من العلوم وقال عنه تلميذه الصلاح الصفدي: "فاضل جمع أشتات العلوم وبرع في علوم الحكمة خصوصًا الرياضي فإنه إمام الهيئة والحساب والهندسة .. كان يحل إقليدس بلا كلفة"¹. أشار ابن الأكفاني في "إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم" إلى أن العلم ضربان: مقصود لذاته وهو العلوم الحكيمة التي تساعد على استكمال النفس الناطقة في قوانينها النظرية والعملية بحسب الطاقة الإنسانية. والنوع الثاني غير مقصود لذاته حيث أنه آلة لغيره مثل المنطق وعلم الأدب. كما أوضح أن علوم الحكمة النظرية ثلاثة مراتب: أعلى وهو العلم الإلهي، وأوسط وهو العلم الرياضي، وأدنى وهو العلم الطبيعي. وعلوم الحكمة العملية هي السياسة والأخلاق وتدير المنزل. ثم صنف العلوم سبعة أصناف: أولها علم الأدب ويتفرع في خمسة عشر علمًا. ثانيا علم النواميس (العلوم الشرعية) ويشمل ثمانية علوم. ثالثها العلم الطبيعي ويضم أحد عشر علمًا. رابعها علم الهندسة ويشمل عشرة علوم. خامسها الهيئة وتتفرع في خمسة علوم. سادسها علوم العدد وهي ستة علوم. ثم علم الموسيقى وعلم السياسة وعلم الأخلاق وعلم تدبير المنزل².

- ابن خلدون (808هـ):

هو الإمام المؤرخ والفقيه المالكي عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي المشهور بابن خلدون، ظهر تصنيف ابن خلدون في الفصل السادس من مقدمته الشهيرة وقد صنف العلم صنفين:

صنف طبيعي يهتدى إليه الإنسان بفكره وهو الفلسفة

وصنف نقلي يأخذه الإنسان عن وضعه وهي العلوم الشرعية ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع بالأصول.

¹ إرشاد القاصد، ص 35

² المصدر نفسه، ص 91-226

ويري أن العلوم أصناف ثلاثة:

علوم شرعية وتشمل: القرآن، والحديث وعلومه والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والتصوف وتعبير الرؤيا.

علوم عقلية هي: علوم العدد والهندسة والهيئة والمنطق والطبيعات والطب والفلاحة. الإلهيات وتشمل: السحر والطلسمات وأسرار الحروف والطب الروحاني وعلم الكيمياء وأباطيل الفلسفة وفساد منتحلها¹. ويرى أحد الباحثين: أن هذه التقسيمات مأخوذة عن تصانيف الفارابي وابن سينا والغزالي وليس فيها إلا إعادة الصياغة².

دراسة تفصيلية لتصنيف القلقشندي (ت 821هـ)

القلقشندي وعصره:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندي الشافعي، ولد في قلقشندة جنوب طوخ بالقلوبية سنة 756هـ/1355م لأسرة عربية تنحدر من فزارة. تتلمذ القلقشندي على أعلام عصره كابن الشيخة وابن الملقن وبرع في العربية والأدب وشارك في الفقه والفرائض والأنساب والتاريخ. عمل في عدة وظائف منها: التوقيع في ديوان الانشاء بغير مرتب والمباشرة في ديوان الأحباس كما خدم نائب الإسكندرية الصلاح ابن عرام مدة وناب في الحكم عن قاضي القضاة الشافعي الجلال البلقيني وتوفي في القاهرة ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة سنة 821هـ/1418م على نحو خمسة وستين عامًا قال عنه المقرئ: "كان مكشراً مهذاراً"³.

¹ ابن خلدون، المقدمة

² تصنيف العلوم (لفوزي خليل)، ص 116

³ المقرئ (أحمد بن علي المقرئ، ت 845هـ/1442م)، درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة (تحقيق: د. محمود الجليلي)، 1/312-313؛ ابن تغري بردي (يوسف جمال الدين أبو المحاسن ت 874هـ/1470م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (تحقيق: الدكتور محمد أمين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م، 1/351-352؛ محمد كمال عز الدين، القلقشندي مؤرخاً، بيروت، 1990م، ص 24-26

مؤلفات القلقشندي:

ترك القلقشندي عددًا من الكتب منها:

- 1- حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم.
- 2- «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب.
- 3- «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر» ، مختصر كتاب «صبح الأعشى».
- 4- «الغيوث الهوامع، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع» في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي.
- 5- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب
- 6- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان
- 7- مآثر الإنافة في معالم الخلافة
- 8- كنه المراد في شرح بانث سعاد¹.

- أضواء على كتاب صبح الأعشى:

أراد القلقشندي من تأليف كتابه أن يوصل «كاتب الإنشاء» إلى غايته القصوى في امتلاك مواد الكتابة ومستلزمات وظيفته الديوانية الخطيرة. فالأعشى: من ساء بصره بالليل والنهار؛ والمعنى ينظر إلى الانصباب والصبوة؛ فكأن القلقشندي يعتبر كتابه صبحًا ينصب منه النور فيرى الأعشى سبيله. والحقيقة أن القلقشندي قد تبني رأي ابن الأكفاني في أن طرق نقل العلم اثنان "معلم راشد وكان أهم الوسائل حتى عصر ابن الأكفاني حتى أن العلماء لم يكونوا يعترفون بمن أخذ العلم من الكتب بلا معلم. والطريق الثاني الكتاب فقد رأى ابن الأكفاني أن الكتاب كمصدر مباشر للمعرفة صار في عصره من أهم وسائل الحصول على المعرفة ونقل الخبرة ومن ثم أفاض في المقدمة الثانية لكتابه أسنى المقاصد في الكتب وأنواعها وطرق الأخذ منها². ومن هنا تبني القلقشندي هذا

¹ القلقشندي مؤرخًا، ص 29-30

² إرشاد القاصد، ص 98-102

الاتجاه فقام بتأليف كتابه الصبح الموسوعي ليكون أهم وسيلة للحصول على المعرفة فيما يتعلق بالعمل في ديوان الإنشاء¹.

مصادر صبح الأعشى ومنهج القلقشندي:

اعتمد القلقشندي في جمع مادة موسوعته وتأليفها على ثلاثة أنواع من المصادر وهي كما يلي:

أولها محفوظات ديوان الإنشاء من الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية، والثاني أمهات الكتب والمصنفات في مختلف ميادين العلم والأدب التي طرق أبوابها في كتابه.

وأما الكتب والمصنفات التراثية التي أخذ منها والتي ذكرها في متن كتابه، فلا يمكننا الإحاطة بها جميعاً في هذا المقام لكثرتها وتنوع مجالاتها، نذكر منها كتابي «التعريف بالمصطلح الشريف» و«عرف التعريف» لابن فضل الله العمري و«التثقيف» لابن ناظر الجيش.

كما كان هنالك المشاهدة العيانية والمعايشة للأحداث؛ وقد قدّم لنا من مشاهداته ومعايشته للأحداث مادة هامة ضمنها كتابه في أماكن مبعثرة وفي خاطرات وآراء لها أهميتها الكبرى.

وإذا نظرنا إلى كتاب «صبح الأعشى» نظرة مدققة فاحصة، فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية، وعلى أسلوب التفرع داخل إطار محدد مرسوم، من ناحية أخرى. وهو في أثناء ذلك ناقل أمين، لا ينسب آراء غيره لنفسه، وهو ذو رأي سديد وفكرة صائبة دونما ادعاء. ولاستقراء منهجه هذا سوف نتفحص بعضاً من موضوعاته التي عالجه في كتابه.

رتّب القلقشندي مؤلفه الضخم على مقدمة وعشر مقالات:

¹ صبح الأعشى، 9-8/1

المقدمة: تناول فيها المسائل التمهيدية، كفضل الكتابة، وصفات الكتاب وأدائهم، وتاريخ الإنشاء، وتطور فنه عبر العصور، وفضل النثر على النظم، والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه،

المقالة الأولى: يتناول فيها دراسات الكاتب اللغوية والأدبية لكي يستطيع إتقان عمله في ديوان الإنشاء من وضع الكتب والرسائل وما شابه، كذلك معلومات مهمة عن أنواع الأوراق والأخبار، ونبذة عن الخط العربي.

المقالة الثانية: وهي فصل جغرافي عن المسالك والممالك وتنظيمها منذ ظهور الإسلام في ديار الإسلام، وفيه تفصيل خاص لشؤون الديار المصرية وما يتبعها.

المقالة الثالثة: وهي تفصيل وافٍ لترتيب المكاتب وأنواع الرسائل وأنواع المراسيم وأقلام الترجمة.

المقالة الرابعة: وهي أهم مقالات الكتاب، وفيها فهرسة مطولة للملوك والسلطين والأمرء والعلماء والمتصوفة والقضاة وأمرء الجيوش، وذكر لألقابهم وشروحها، واستعرض للعديد من رسائل ديوان الإنشاء المملوكي.

المقالة الخامسة: تتناول مسألة الولايات وتنظيمها وطبقاتها من الخلافة والسلطنة والإمارة وأنواع البيعات.

المقالة السادسة: يتحدث فيها عن الوصايا الدينية والمسامحات وتصاريح الخدمة السلطانية والمقابلات.

المقالة السابعة: عن الإقطاعات وأنواعها وأصلها ونشأتها.

المقالة الثامنة: عن الأيمان وأنواعها منذ الجاهلية، ثم الدولة الإسلامية.

المقالة التاسعة: يتحدث عن عهود الأمان وعقدها لأهل الكفر وما يتعلق منها بأهل الذمة، والهدن وأنواعها.

المقالة العاشرة: يعرض نماذج من الرسائل الملوكية في المديح والفخر والصيد وغيرها من أمور الملوك، ثم يتحدث عن تاريخ البريد في مصر والشام، وعن الحمام الزاجل واستخداماته وأبراجه ومطاراته.

هذا عرض موجز لصبح الأعشى الذي يشهد لمؤلفه برفيع المكانة بين طبقات المؤرخين والأدباء المسلمين في كل العصور.

أسباب تصنيف العلوم عند القلقشندي:

كان لدى القلقشندي وهو يؤلف كتابه خطة واضحة وهي تزويد كتاب الانشاء بكل ما يحتاج إليه من علوم ومهارات ومعارف تمكّنه من تنفيذ المهمة المنوطة به. وعليه فقد خصّص المقالة الأولى من كتابه لما يحتاج إليه كاتب الانشاء من مواد. ومن أهم هذه المواد معرفة خزائن الكتب وتصنيفها، وعن ذلك يقول "فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنّف فيها من الكتب، أمكنه التصرف فيها في كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف في ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره"¹.

أي أن غرض القلقشندي من وضع هذا التصنيف هو تثقيف الكاتب المتصدر للإنشاء بحيث يمكنه بسهولة معرفة أي نوع من الكتب يلجأ إليه ليقتبس منه ما يعينه على الرد بشكل ملائم والاستشهاد بأمثلة من مختلف المصنفات حسب الغرض باختلاف أنواع الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الانشاء.

مصادر القلقشندي في تصنيف العلوم:

لم يمكن القلقشندي أول من وضع تصنيفاً للعلوم ومن ثم كان من الطبيعي أن يتأثر بمن سبقه من مصنفي العلوم المسلمين، ومن سبقهم من علماء وفلاسفة اليونان مثل أرسطو طاليس الذي يبدو أنه كان على دراية واسعة بمؤلفاته وأنه قد طالع

¹ المصدر نفسه، 478/1

بعضها¹. وقد ذكر ابن الأكفاني صراحة عند ذكر علم الطلاسم². والحقيقة أن تأثيره بابن الأكفاني ظاهر للعيان وآية ذلك اتباعه طريقة تصنيف الكتب إلى بسيط ومتوسط ومبسط، وهذه الطريقة هي من إبداعات ابن الأكفاني التي لم يسبقه إليها أحد من مصنفي العلوم المسلمين³ كما أشار لاسم ابن ساعد مرتين صراحة قائلاً: "قال في إرشاد القاصد"⁴ ولم يذكره باسمه لذكره مؤلفه وهذا يشير أن ابن الأكفاني كان مشهوراً في زمان القلقشندي بدرجة لا حاجة إلى التعريف به.

وبالرغم من أن ابن خلدون كان أقرب للقلقشندي في الزمن إلا أن تأثيره به محدود وربما معدوم لكنه طبق قاعدة اقتراحها ابن خلدون ولم يطبقها وهي تقديم علوم اللغة على علوم الشريعة بحكم أن علوم اللغة هي أداة نقل علوم الشريعة وسلامة نقل العلوم الشرعية يترتب على إتقان العلوم اللغوية. ومن هنا جعل القلقشندي الأصل الأول هو علم الأدب تلاه بالأصل الثاني وهو العلوم الشرعية. بخلاف ابن خلدون الذي مال إلى وضع العلوم الشرعية أولاً لسموها في الرتبة. وربما يرجع الأمر لاختلاف الصنعة، فابن خلدون كان فقيهاً ومن ثم صدر تصنيف العلوم بالعلوم الشرعية، وابن ساعد الأكفاني كان كاتباً ومن ثم صدر العلوم بالعلوم الأدبية المعينة للكاتب في حرفته.

تصنيف القلقشندي:

قسم القلقشندي العلوم التي يحتاجها الكاتب بديوان الإنشاء لسبعة أصول تتفرع إلى أربعة وخمسين علماً:

الأصل الأول: علم الأدب

ويشتمل على عشرة علوم هي: اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي وقوانين الخط وقوانين القراءة.

¹ المصدر نفسه، 476/1

² المصدر نفسه، 475/1

³ إرشاد القاصد (المقدمة)، ص 10

⁴ المصدر نفسه، 468/1

الأصل الثاني: العلوم الشرعية

ويشتمل على تسعة علوم: النواميس والقراءات والتفسير وعلم رواية الحديث وعلم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلم الجدل وعلم الفقه.

الأصل الثالث: العلم الطبيعي

ويشتمل على اثني عشر علمًا: الطب والبيطرة والبزرة والفراسة وتعبير الرؤيا وعلم أحكام النجوم والسحر والطلسمات والسيما والكيما والفلاحة وضرب الرمل.

الأصل الرابع: علم الهندسة

ويشتمل على عشرة علوم: عقود الأبنية والمناظر والمرايا وأراكز الأثقال والمساحة وعلم أنباط المياه وعلم جرّ الأثقال والبنكومات وعلم الآلات الحربية وعلم الآلات الروحية.

الأصل الخامس: علم الهيئة

ويشتمل على خمسة علوم: علم الزيجات وعلم المواقيت وكيفية الأرصاد وعلم تسطيح الكرة وعلم الآلات الظلية.

الأصل السادس: علم العدد

ويشتمل على خمسة علوم: الحساب المفتوح والتخت والميل والجبر والمقابلة وحساب الخطأين وحساب الدور والوصايا.

الأصل السابع: العلوم العملية

ويشتمل على ثلاثة علوم: السياسة والأخلاق وعلم تدبير المنزل.

منهج القلقشندي:

قسم العلوم بين سبعة أصول، وزع بين هذه الأصول 54 علمًا، ومع كل علم أوصى بعدد من النماذج تكون خير معين لكاتب الإنشاء حال مراجعتها عند الحاجة إليها،

وكان يصنف هذه المراجع المعاونة لكل علم درجات ثلاث: المختصر والمتوسط والمبسوط أي المطول وهو بذلك متأثرٌ بطريقة ابن الأکفاني في إرشاد القاصد¹، غير أنه ابتعد كثيراً عن التفلسف في تصنيفه، فابن ساعد حين بدأ تصنيفه كتب مقدمة حول شرف العلم والتعليم والتعلم وشروطهما، كما تحدث في حصر العلم وتميز العلوم بين نظرية وعملية² كما اهتم عند ذكر كل علم بتعريف هذا العلم³، ومن هنا امتاز تصنيف القلقشندي بأنه دلف مباشرة للموضوع بلا مقدمات ولا تعريفات؛ وربما اعتمد ذلك لأن كاتب الإنشاء متعلم بطبعه، وهذه التعريفات بدهية بالنسبة له، وبالتالي اللجوء إليها ربما كان يبدو من قبيل الحشو فابتعد القلقشندي عن كل ذلك.

وقد استعاض القلقشندي عن مقدمات ابن الأکفاني الفلسفية بمقدمة تاريخية حول أشهر المكتبات في تاريخ الإسلام رتبها زمنياً وجغرافياً وحجمياً، وهي: خزنة الخلفاء العباسيين ببغداد، وخزنة الخلفاء الفاطميين في مصر، وخزنة خلفاء بني أمية بالأندلس⁴. أي أنه استعاض عن التعريفات بأوعية الكتب وهي الخزائن أو المكتبات، كما أشار إلى عدم وجود خزنة كبيرة في مصر في عصره بسبب كثرة المدارس وتوزع الكتب بينها، وهو ما يشي بلا مركزية العلم في مكان واحد. ومن هنا يوجه القلقشندي كتاب الإنشاء بشكل غير مباشر للتوجه لمكتبات المدارس للبحث عن الكتب التي يحتاجونها في عملهم حال عدم امتلاكهم إياها.

وهذا يكون القلقشندي خير مرشد لكتاب الإنشاء حال جمعهم للمعلومات عند كتابة رسائلهم فلو احتاج الكاتب لأمر ما في علم من العلوم بشكل سريع غير مبسوط أسرع إلى المختصرات فحصل منها على النموذج المطلوب، وإذا أراد شرحاً غير مفصل توجه إلى المتوسط من الكتب وإن أراد التفاصيل والشروح المطولة لسبب من الأسباب توجه لأحد الموسوعات الكبيرة الكثيرة الشرح والتحليل. كل ذلك كان ضرورة

¹ المصدر نفسه، ص 111 وما بعدها

² المصدر نفسه، ص 93-108

³ المصدر نفسه، 109

⁴ صبح الأعشى، 1/466-467

من الضرورات، وذلك لأن ديوان الإنشاء كما يقرّر القلقشندي: "جزء عظيم من أس الملك، وعماد الدولة، وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره، وإليه روجع تديره، واختيار رجاله"¹. وكأن القلقشندي يطبق نفس غرض الفارابي حين صنّف رسالة تصنيف العلوم حين قال في مقدمته: "قصّنا في الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علمًا علمًا، ونعرف مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها وإجزاء ما له أجزاء منها"² غير أن القلقشندي أضاف إلى ذلك أهم ما ألّف في كل فرع من هذه الفروع.

وبناء على المهمة الجسيمة التي كان يقوم بها ديوان الإنشاء (أس الملك) والتي توزع مهامه اليوم بين عدد من الوزارات هي الخارجية والإعلام وأجهزة المخابرات، كان لا بد لكتاب الإنشاء أن يكون ذا ثقافة واسعة في مختلف المجالات ومن هنا كان الدليل هو تحصيل العلم من خلال أصوله وأصنافه التي أوضحها صاحب "صبح الأعشى".

وحول سبب تصنيف العلوم لسبعة أصول فيمكن فهم سبب ذلك بمراجعة تعريف العلم عند الجليدي الذي قال: "كل علم حقيقي فلا بد له من موضوع، ومبادئ ومسائل وغاية. فالموضوع هو الشيء الذي يبحث في ذلك العلم عن أحواله التي تعرضت له، إما لذاته، أو لما يشتمل عليه، أو لما يساويه. ومتى كان الموضوع كليًا فالعلم الناظر فيه أصلي. ومتى كان جزئيًا فالعلم الناظر فيه فرعي كالطب بالنسبة إلى العلم الطبيعي، فإن موضوع الطب بدن الإنسان من جهة ما يُصح ويُمرض، وهو مندرج تحت موضوع العلم الطبيعي لأنه ينظر في الأجسام مطلقًا ولواحقها"³ وعلى هذا فقد قسم القلقشندي العلوم لسبعة أصول متأثر بالجليدي في تطبيقه لرأيه في تعريف العلم وبابن ساعد الأكفاني فيما صنّف من العلوم.

وبالرغم من تشابه نماذج الكتب التي ذكرها القلقشندي مع نماذج ابن ساعد وهذا طبيعي لكن لم ينقلها حرفيًا بل كان ينتقى من نماذج ابن ساعد ويضيف نماذج

¹ المصدر نفسه، 35/1

² تصنيف العلوم، ص 8

³ إرشاد القاصد، ص 108

أخرى مما يعلم من الكتب في العلم المذكور. ومن أمثلة ذلك "علم اللغة" فالقلقشندي يقول: "من الكتب المختصرة فيه المنتخب، والمجرد لكراع، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وفقه اللغة للثعالبي، والفصيح لثعلب، وكفاية المتحفظ لابن الأجدابي، والألفية لأبن إصبع. ومن المتوسطة فيه المجلد لابن فارس، وديوان الأدب للفارابي، وإصلاح المنطق لابن السكيت. ومن المبسوطات الجامع للأزهري والعباب الزاخر للصاغاني"، والصحاح للجوهري. قال في إرشاد القاصد: ولا أنفع ولا أجمع من المحكم لابن سيده".

ولو نظرنا لنفس العلم عند ابن ساعد نجده يقول: "ومن الكتب المختصرة فيه المنتخب والمجرد لكراع ومختصر كتاب العين. ومن المتوسطة المجلد لابن فارس وديوان الأدب للفارابي ومن المبسوطات الجامع للأزهري والعباب الزاخر للصاغاني والمشهور عند الجمهور الصحاح للجوهري وعليه نكت كثيرة لابن بري وعليه تكملة وحواشٍ للغانى ويجمع بينهما وبين الصحاح في مجمع البحرين ولا أجمع ولا أنفع من المحكم لابن سيده"¹.

ومن المثل يتضح أنه في المختصر من الكتب طابقه في كتاب المنتخب والمجرد لكراع وأضاف كتباً خمسة أخرى. وفي المتوسط طابقه في كتابين وأضاف ثالثاً من عنده، وفي المبسوط اتفق معه في كتابين وأضاف ثالثاً، لكنه في النهاية يتفق معه في فضل المحكم لابن سيده. أي أن القلقشندي في تأثره بابن ساعد قد نقل واختصر وأضاف واتفق في بعض وجهات النظر فأقرها صراحة وهذا يحسب له.

ونلاحظ التنبية على كتاب بعينه بأنه الأفضل في هذا العلم وهو ما ينم عن اطلاعه على الكتب التي يذكرها ومن ثم ينبّه كاتب الإنشاء على أفضليتها على ما عداها مثل: حديثه عن الكتب المطولة في علم الأدب حين قال "قال في إرشاد القاصد: ولا أنفع ولا أجمع من المحكم لابن سيده"²، وعند حديثه عن الكتب المتوسطة في علم التصريف

¹ المصدر نفسه، ص 111-112

² صبح الأعشى، 468/1

حين يقول: "تصريف ابن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها"¹. وفي علم النحو يوصي بشدة على تسهيل الفوائد لابن مالك بالرغم من وجود كتاب آخر له إذ يقول في الكتب المتوسطة "الكافية الشافية لابن مالك، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدة اختصاره"². وفي الكتب المطولة في النحو يقول "وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبي حيّان على التسهيل"³.

كما أشار بكلمة "منفرد به" لكتاب واحد في علم بعينه مثل مصنف تميم الحارسي في علم المعاني وكتابين في علم البيان مثل نهاية الإعجاز لفخر الدين الرازي والجامع الكبير لابن الأثير الجزري⁴. وبالرغم من تعدد الكتب في علم البديع إلا أنه أشار لكتاب زهر الربيع للمطرزي وأشار إليه بأنه مختصر منفرد⁵، وهذه الإشارات كانت واجبة لمن أراد أن يقرأ كتابًا منفردًا بعلم المعاني أو علم البديع ذلك أن ابن الأكفاني⁶ أشار على ربط اللغة والنحو والتصريف ببعضهم في جل المؤلفات فأشار القلقشندي لوجود كتاب منفرد في الموضوع لمن أراد أن يقرأ فيه مفردًا.

وحين يشترك كتاب أو عدة كتب في عدد من العلوم كان يكتب "تنبيه" ويورد بعده هذا الكتاب أو هذه الكتب مثل قوله (تنبيه) "ومن الكتب المشتملة على علوم المعاني والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك، والإيضاح لابن مالك، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضي القضاة جلال الدين القزويني، وعليه عدة شروح، منها شرح الخلخال، وشرح الشيخ أكمل الدين، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكي، وهو من أجل شروحه، والمعول عليه منها سعد الدين التفتازاني"⁷.

¹ المصدر نفسه، 468/1

² المصدر نفسه، 468/1

³ المصدر نفسه، 468/1

⁴ المصدر نفسه، 468/1

⁵ المصدر نفسه، 468/1

⁶ إرشاد القاصد، ص 115

⁷ صبح الأعشى، 469/1

كما وضع من خلال تصنيفه للعلوم أنه كان مطلعاً على المؤلفات المعاصرة له مدرّجاً لأهميتها، حين تحدث عن علم العروض في قسم الكتب المطولة في ختامها قال: "وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الأثاري محتسب مصر ألفية سمّاها "هداية الضليل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعى"¹.

الإشارة للاكتفاء بمؤلفه الصحيح والاستغناء عما عداه من الكتب وبخاصة في علم الخط إذ يقول: "وقد أودعت في هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك"².

أوصي بكتابين أحياناً لمؤلف واحد مثل الكافية الشافية وتسهيل الفوائد لابن مالك.³

الإشادة ببعض الكتب بحكم كونها تغني عن سواها وذلك لسبب انتشارها بين الناس مثل قوله: "من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبي عمرو الداني، ونظمه الشاطبي في قصيدته التي وسمها بحرز الأمان، فأغنت عما سواها من كتب القراءات واعتنى الناس بشرحها"⁴.

كما بين التمايز فيما بين كتب التفسير بحسب تخصصات مؤلفيها حين قال: "واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فنٌّ من الفنون يميل إليه في تفسيره، فالتيفاشي تغلب عليه القصص، وابن عطية تغلب عليه العربية، وابن عطية تغلب عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعاني وغير ذلك"⁵ وفي علم الفراسة أشار إلى عدد من الكتب وأشاد بأن أحدها اختص بفراسة النساء دون الرجال وذلك في قوله: "من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفراسة للإمام فخر الدين الرازي، ولفيلن فيه كتاب مختص بالتفرّس في النساء"⁶.

¹ المصدر نفسه، 469/1

² المصدر نفسه، 469/1

³ المصدر نفسه، 468/1

⁴ المصدر نفسه، 470/1

⁵ المصدر نفسه، 470/1

⁶ المصدر نفسه، 474/1

وكذلك في علم أحكام النجوم أشار للمختصين من العلماء في بعض الأمور الدقيقة حين قال: "ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبي معشر، والإرشاد لأبي الريحان البيروني، والمواليد للخصيبي، والتحاويل للسحرتي، والمسائل للقيصري، ودرج الفلك لسكلوشا. ومن المدخل إليه مدخل القبيصي، والتفهيم للبيروني مدخل إلى هذا الفن، وفيه ما يحتاج إليه من الرياضة أيضًا¹. ونلاحظ أنه لم يكثر في فرعيات العلوم سوى في أحكام النجوم والتفسير ربما ذلك تنبيه للكاتب الإنشاء بحاجته كثيرًا للبحث في دقائق هذين العلمين.

كما وضع التسلسل في الأهمية من الأعلى إلى الأقل أهمية بشكل مدرج كما في علم الحديث حين يقول: "أضبط الكتب المصنفة فيه وأصحها رواية صحيح البخاري، وصحيح مسلم رضي الله عنهما، وبعدهما بقية كتب السنن المشهورة: كسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والدارقطني. والمسندات المشهورة كمسند أحمد، وابن أبي شيبة، والبخاري ونحوهما"².

كما جعل علم الحديث والمغازي والسير توأمين ففي علم واحد حيث أوضح تدرج كتب الصحاح ثم المسانيد ثم ذكر مشاهير كتب السيرة كسيرة ابن هشام ونحوها ثم عاد للحديث بذكر الكتب التي ذكرت المتون دون المسانيد ثم الكتب التي جمعت الترغيب والترهيب³.

الإشارة لكثرة شروح بعض الكتب مثل شروح مختصر ابن الحاجب حين قال: "وشروح مختصر ابن الحاجب كشرح القطب الشيرازي، وشرحي المسيلي، وشرح الشيخ شمس الدين الأصفهاني، وأتقن شرح عليه للعضد، وكشرح منهاج البيضاء لابن المطهر، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوي، وغير ذلك؛ وكشرح التنقيح لمصنفه"⁴.

¹ المصدر نفسه، 474/1

² المصدر نفسه، 470/1

³ المصدر نفسه، 471/1

⁴ المصدر نفسه، 472/1

الأكثر من نماذج كتب الفقه الشافعي حيث عدد عشرة كتب مختصرة وستة متوسطة وخمس عشرة مبسطة وهذا انحياز واضح لمذهبه¹.

نبه على أهمية بعض الكتب بالرغم من نقصها مثل كتاب شرح المذهب للنووي في الفقه الشافعي قال عنه: "شرح المذهب للنووي انتهى فيه إلى أثناء الربا، ولو كمل لأغنى عن جلّ كتب المذهب" وقال في الفقه المالكي: "وشرح التلقين للمازري وليس بكامل"².

احتل الفقه قمة العلوم التي صنفها القلقشندي إذ بلغ عدد الأمثلة التي أوردها للكتب الفقهية 85 كتابًا موزعة على المذاهب الأربعة والخلاف بين المذاهب وكان أكثرها المذهب الشافعي بلغ 31 كتابًا كما ذكرنا بحكم الانتماء وأقلها مذاهب أهل السلف كتاب واحد فقط³.

دراية القلقشندي بعلم الطب وظهر ذلك من وجهة نظره فيما ألّف من كتب الطب المبسطة أي الموسوعية حيث أثنى على ابن سينا قائلاً: "والقانون للرئيس أبي عليّ بن سينا وهو الذي أخرج الطب من التلفيق إلى التهذيب والترتيب، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظاً وأحسنها تصنيفاً"⁴.

ومن الغريب اكتفاؤه بذكر كتاب واحد في علم البيطرة وهو كتاب حنين ابن إسحق⁵ بالرغم من ضخامة التراث المنتج في مجال علم البيطرة وربما يكون أشهرها في عصره كتاب كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة المشهور بالناصرى نسبة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون لمؤلفه أبي بكر ابن البيطار ت 741هـ/ 1340م⁶.

¹ المصدر نفسه، 471/1

² المصدر نفسه، 472/1

³ المصدر نفسه، 473/1

⁴ المصدر نفسه، 474/1

⁵ المصدر نفسه، 474/1

⁶ تحقيق: الدكتور عبد الرحمن إبريق، حلب، 1993م (المقدمة)

إدراك القلقشندي لدرجة توافر الكتب التي يذكرها ومن ثم ينبه على نقصها حال ذكرها ففي حديثه عن السحر وعلم الحروف والأوقاف يقول: "ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبوني، وشمس المعارف له، وهو عزيز الوجود"¹.

من قراءة تصنيف القلقشندي يمكننا تبين طابع الانتقاء في كتب التخصص الذي يذكره ويمكننا تبين ذلك من عدة مواضع مثل حديثه عن علم السحر يقول: "ومن كتب السحر المعتمدة في بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للإمام فخر الدين، وكتاب الجمهرة للخوارزمي، وكتاب طيمارس لأرسطاطاليس، وفي غاية الحكم للمجريطي فصول كافية في بعض طرقه أيضاً"².

إشارته للاستفادة من كتب التصنيف السابقة وقد رصدنا ذلك حين قال في علم الطلسمات: "في كتاب طبтана الذي نقله ابن وحشية عن النبط أنموذج لعمل الطلسمات ومدخل إلى علمها، وفي غاية الحكم للمجريطي قواعد هذا العلم قال في إرشاد القاصد إلا أنه ضنّ بالتعليم كل الضن"³.

كما بين تبحر أرسطوطاليس في عدد كل علوم الطبيعية وأن علماء المسلمين أدركوا ذلك فترجموا وشرحوا ونبين ذلك من تنبيه صاغه في نهاية العلوم الطبيعية قائلاً: "تنبيه- لأرسطاطاليس ثمانية كتب في الطبيعي يختص كل كتاب منها بجزء جردها ابن سينا في مختصر ترجمه بالمقتضبات، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصاً مفيداً، والمتأخرون جمعوا في غالب كتبهم بينه وبين الإلهي في التصنيف كما في الطوالع والمصباح للبيضاوي".

اقتصر في علم الآلات الحربية على ذكر كتاب بني موسى ابن شاعر بالرغم من تأليف عدد لا بأس به من الكتب في زمن قريب من القلقشندي وربما لم يطلع عليها بسبب أنها كتب عسكرية يختص بها المماليك دون غيرهم⁴.

¹ صبح الأعشى، 474/1

² المصدر نفسه، 474/1

³ المصدر نفسه، 475/1

⁴ المصدر نفسه، 476/1

كما أبدى رأياً علمياً في بعض المسائل العلمية الدقيقة مثل علم الزيجات وهي حركة الكواكب إذ يقول: "قال في إرشاد القاصد: أقرب الزيجات عهداً بالرصد الزيج العلائي. قال وأهل مصر في زماننا إنما يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدّة أزياج ولقبوه بالمصطلح؛ وأتم الزيجات في زماننا الذي نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد"¹. ومن هنا يتضح موافقته لرأي ابن ساعد الأكفاني ومن ثم لم ينكر عليه رأيه في نماذج الأزياج التي يأخذون بها، ومن هنا أثنى على زيج بن الشاطر² ويبدو أنه قد اطلع عليه وإلا لما وصفه بأنه الأكمل والعزیز أو ربما سأل أهل الخبرة عنه لكن أرجح اطلاعه في ظل الغرض الذي من أجله وضع التصنيف.

اهتم أحياناً بنسبة الكتب للزمن الذي ألفت فيه كما بدا في علم تسطيح الكرة إذ يقول: "من الكتب القديمة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس. ومن الكتب المحدثّة فيه الكامل للفرغاني، والاستيعاب للبيروني، وآلات التقويم للمراكشي"³ ومن هنا اعتبر ما انتهى للحضارة اليونانية قديم وكل ما ينتسب للإسلام محدث حتى لو ابتعد عن عصر المؤلف بقرون لكنه ينتهي للحضارة القائمة وهي الإسلام ومن ثم وصفه بالمحدث.

هناك علوم لم يذكر أسماء مصنفات لها ربما بسبب شهرتها وكثرتها كما في علم حساب التخت والميل حيث وصفها بالكتب المعدة⁴.

¹ المصدر نفسه، 476/1

² ابن الشاطر: هو علي بن إبراهيم بن محمد المطعم، كان موقتاً في الجامع الأموي حوالي سنة 777هـ وقد ألفت في الفلك والأسطرلاب والمثلثات، وله زيج معروف باسمه انظر: قدرّي حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م، ص 221.

³ صبح الأعشى، 477/1

⁴ المصدر نفسه، 477/1

كما لاحظنا أن القلقشندي لم يورد المنطق ضمن أصناف العلوم التي ذكرت بالرغم من ذكرها عند ابن الأكفاني وربما يرجع ذلك لاتفاق القلقشندي مع من رأوا أن المنطق ليس علمًا لكنه آلة لغيره من العلوم¹.

ونخلص إلى أن القلقشندي في تصنيفه للعلوم لم يكن مجرد معددًا لفروع العلم، وإنما كان شموليًا لجميعها، دقيقًا في وصفه لها، محددًا لأبرز معارفها، من خلال الشواهد الممثلة لكل علم على حده. وأنه بتصنيفه هذا بلغ درجة عالية من تصنيف العلوم استفاد فيه ممن سبقه ولم يخجل من ذكر من استفاد منهم، كما حقق غاية تصنيفه وهي إرشاد كتاب الإنشاء لطريقة الحصول بسرعة على الكتاب الذي يعينهم في عملهم في ديوان الإنشاء.

¹ إرشاد القاصد، ص 128

المصادر والمراجع

1. ابن الأكفاني: إرشاد القاصد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م
2. أبو المحاسن جمال الدين ابن تفرى الأتابكي الظاهري: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي (تحقيق: الدكتور محمد أمين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م
3. أبو بكر البيطار: كامل الصناعتين (تحقيق: دكتور عبد الرحمن إبريق)، حلب، 1993م
4. أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (تحقيق: د. مفيد قميحة)، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
5. أحمد محمود عبد الجليل: تدوين العلوم في العصر العباسي، رسالة ماجستير، آداب عين شمس، 2004م.
6. إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار)، القاهرة، 1402هـ
7. جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت
8. الخوارزمي: مفاتيح العلوم، بيروت، 1989م
9. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م
10. خير الله سعيد: النظام الداخلي لجماعة إخوان الصفا، دار كنعان، دمشق، 2000م.
11. دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، دار الفكر، بيروت، 1991م
12. الفارابي: إحصاء العلوم، بيروت، 1996م
13. فوزي خليل الخطيب: تصنيف العلوم، مؤسسة حمادة، إربد، 2003م
14. قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م

دورُ شرف "شمس العلماء" في نشر وتطوير اللغة العربية وأدائها

(العلامة محمد شبلي النعماني نموذجًا)

- د. أورك زيب الأعظمي¹

مدخل: الحكومات لعبت دورًا ملموسًا وراء كل نموّ أو تطوّر في كل عصر من عصور التاريخ البشري، ولو هي لم تقدّم خطواتها لخيف أن تواجه البشرية قدرًا كبيرًا من التخلّف في كل مجال من مجالاتها. هذا لا يعني أننا نقلّ أهمية دور الأشخاص المعدودين في هذا الشأن ولكن هذا من الواقع أنما قامت به الحكومات في أزمانها المختلفة من خدمات منظّمة تجاة تقدّم البشرية لم يقدّم بها الرجال الخواص بل لا نتجاوز لو قلنا أن دور هؤلاء الرجال ضيق إلى حدّ بعيد بالنسبة لدور الحكومات وسعة نطاقها ولنا دليل قوي على دعوانا هذه في الخلافة العباسية التي منّت على البشرية ما لن ننساها إلى أبد الآباد فدور الحكومات له قيمة وأهمية ليس بإمكاننا أن ننساها أو نغفل عنها في أي شعبة من شعب حياتنا الاجتماعية أو الفردية.

والحكومة البريطانية قد حكمت على العالم لمدة طويلة حتى اشتهر فيها أن شمسها لا تغرب في العالم وهذا يعني أن حكمها امتدّ نطاقه حتى أحاط بدول العالم كلها إلا أنها واجهت ما واجهها كل الحكومات من الزوال والانحطاط وهذا أصل من أصول التاريخ أن لكل جواد كبوة ولكل عروج زوالًا.

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلامية، نيو دلهي، الهند

إن بريطانيا سلبت الحكم على الهند من المسلمين الذين حكموها لحوالي ألف سنة فحكمت عليها لمدة مائة سنة وهذه المدة أقل من المدة التي حظيت بها حكومة المسلمين وذهب بحكمها تيار الاستقلال الوطني ولكنها في غضون هذه المدة القليلة أدت خدمات جليلة لم يكدها يؤدّيها المسلمون طوال حكمهم الممتد لألف سنة فخلفت ما خلفت ونستفيد من مآثرها اليوم فلها شكر منا معشر الهنود.

وخدماتها هذه تتنوع وتتعدد في كل مجال من مجالات الحياة إلا أننا اليوم نتحدث عن خدماتها في أدب من الآداب بل في فرع من فروع الأدب وهو خدمتها في نشر اللغة العربية وآدابها في الهند عن طريق تفضيل مواطنها بشرف "شمس العلماء" وهذا الشرف كان يعادل بالجائزة الوطنية الرئيسية في يومنا، وقد سُرّ بهذا الشرف من تفضّل به وافتخر به في كل مجلس من مجالس القوم:

وهذا تشرفنا فجئني بمثله إذا جمعتنا يا جريير المجمع

تشرف به العديد من المواطنين الهنود وكان هذا الشرف يحتوي على العباء والعمامة وشهادة الشرف، وفيما يلي أسماء بعض الفائزين بهذا الشرف:

| | |
|--------------------------------------|---|
| 1. المحدث ميان نذير حسين | 2. الشيخ عبد الحق الخيرابادي |
| 3. الشيخ أطفاف حسين حالي | 4. الدبقي نذير أحمد الدهلوي |
| 5. المعلم الكبير الميرزا قليتش بيغ | 6. اللغوي الكبير عمر بن محمد داؤد بوتنا |
| 7. الشيخ العلامة مير حسن | 8. محمد حسين آزاد |
| 9. الشيخ محمد نعيم الفرنغي محلي | 10. الشيخ إله داد البهاري |
| 11. الشيخ أمير أحمد النقوي السهسواني | 12. الشيخ ذو الفقار علي الكولكاتوي |
| 13. الشيخ عبد الحق الكانفوري | 14. العلامة شبلي النعماني الهندي |

ونودّ في هذه العجالة أن نتحدّث عن الفائز الأخير بهذا الشرف ألا وهو العلامة محمد شبلي النعماني الهندي ونري من خلال هذا الحديث درجته فيما بين معاصريه ونقوم بدراسة أعماله قبل فوزه بالشرف وبعد فوزه به ونكشف عن تقييم الحكومة أعمال شعبها الجليلة والدور الذي لعبه هذا الشرف في تشجيع الفائزين به على تقديم أفضل وأكثر مما قدّموه من قبل.

لمحة عن حياة العلامة محمد شبلي النعماني وخدماته: العلامة محمد شبلي النعماني الهندي (4/ يونيو 1857م-18/ نوفمبر 1914م) ينتهي إلى بُندُول (Bindawal) إحدى قرى محافظة أعظم كره، (ولاية أوترا براديش، الهند). بدأ دراسته في 1863م على الحكيم عبد الله (ت 1890م) والشيخ شكر الله (ت 1897م) وبعدما شدا من العلوم والفنون توجّه نحو غازيפור المحافظة المجاورة لمحافظة أعظم كره في 1873م ليستفيد من أستاذ الأساتذة العلامة محمد فاروق التشرياكوتي (ت 28/ أكتوبر 1909م). وكذلك استفاد محمد شبلي من الشيخ فيض الله المئوي (ت 20/ يوليو 1898م) كما نزل لأيام معدودة في مدرسة جونفور ليستفيد من أساتذتها. وفي 1874م سافر إلى رامفور وتلقّى الفقه وأصوله على الشيخ إرشاد حسين الرامفوري (ت 10/ نوفمبر 1993م) ومن هنا ارتحل إلى لاهور حيث استفاد من علامة الهند فيض الحسن السهارنفوري الأديب (ت 1887م) وفي غضون هذه المدة أقام بدار العلوم في ديوبند لشهر واستفاد من مكتبتها، ثم ذهب إلى سهارنفور في 1876م حيث تعلّم الحديث النبوي على المحدث أحمد علي السهارنفوري (ت 11/ أبريل 1879م). وبعدما أنهى دراساته الدينية العليا حجّ بيت الله الحرام وهو ولدلم يتجاوز عمره 19 سنة. وبجانب حجته لبيت الله الحرام استفاد من مكتبة المدينة المنورة الثرية.

وبعدما رجع من الحج شرع يدرّس في محافظته فتخرّج على يديه الإمام عبد الحميد الفراهي (11/ نومبر 1930م) والشيخ محمد سميع (ت 1916م) والشيخ محمد عمر (لم نعثر على سنة وفاته)، وفي 1880م أدّى امتحان المحاماة فنجح فيه وفي نفس السنة ألّف كتابه "إسكات المعتدي على إنصتات المعتدي" الذي أطار صيته في الأفاق. ومنذ 1881م جعل يشتغل بخدمة المحاماة كما أصدر كتابه "ظل الغمام في مسئلة القراءة

خلف الإمام". وفي نفس السنة لقي السير سيد أحمد خان (ت 1898م) ومدحه في قصيدة عربية نشرت في مجلة كليته الشرقية. وفي يناير 1883م انتسب بهذه الكلية كبروفيسور للفارسية وأستاذ مساعد للعربية. وفي 20/ يونيو أسس مدرسة وطنية في أعظم كره، ترقّت وأصبحت كلية عالية حكومية وتعتني باللغة العربية وأدائها عناية بالغة. وفي 1884م بدأ كتابة "تاريخ بني العباس" الذي لم يوفق له التمام.

وفي 1887م ألقى مقالته الرائعة عن ثقافة المسلمين الزاهرة في مؤتمر إسلامي للتعليم في لکناؤ كما أنهى كتابه الشهير "المأمون" ومقالته الرائعة عن مساهمة المسلمين في نقل علوم الأجانب، وفي نفس السنة بدأ يدرّس القرآن الكريم في كليته، وفي 1889م كتب رسالته القيّمة "الجزية" التي قال عنها السير سيد أحمد خان: لو عرض العلامة شبلي رسالته هذه للمسلمين ثم تحدّى "فأتوا بسورة من مثله" لما بالغ". وكذا أنهى الجزء الأول لكتابه "سيرة النعمان" في هذه السنة، وفي 1891م رتب كتابه "تاريخ بدء الإسلام" بالعربية. وفي سنة 1892م أنهى الجزء الثاني لكتابه "سيرة النعمان" كما كتب مقالته الشهيرة "مكتبة الإسكندرية" وفي 26/ أبريل في هذه السنة بدأ رحلته الطويلة للبلاد العربية حيث لقي كبار علمائها وأدبائها ومفكرها وزار مكتباتها الشهيرة. رجع من هذه الرحلة في شهر نوفمبر وكتب مقالته الشهيرتين "حقوق الذميين" و"المكتبات الإسلامية". وفي 17/ فبراير 1894م فضّلته الحكومة البريطانية بشرف "شمس العلماء" فكتب مقالته الشهيرة "رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي"، وحضر ندوة اتحاد العلماء في الهند في كانفور كما قام بوضع المنهاج الدراسي للفارسية في جامعة الله آباد ثم اشتغل بأمور ندوة العلماء ودارها للعلوم بلکناؤ. في 1898م عيّن عضواً لهيئة مراقبة المعارف في حكومة بوفال الإسلامية ثم أصابه المرض فاستقال عن كلية علي كره الإسلامية ورجع إلى داره في أعظم كره وجعل يؤلف ويربّي تلامذته فأهى كتابه الشهير "الفاروق"، وفي 1899م قدّم العلامة رشيد اسمه لإصلاح خطة التدريس في الجامع الأزهر بمصر كما وضع العلامة شبلي اللغة الإنجليزية في المنهاج الدراسي لندوة العلماء ثم صدرت له كتب ورسائل تترى بما فيها "الغزالي" و"علم الكلام" و"الكلام" كما عيّن مدير

تحرير لمجلة "الندوة" الشهرية. في 17/ مايو 1907م ذهبت إحدى رجليه ضحية رصاص أطلق خطأ من بندوقيته. في سنة 1908م تم تأسيس مدرسة الإصلاح بسراري مير (أعظم كره) فأعان في قيامها ووضع منهاجها الدراسي. وفي نفس السنة صدر الجزء الأول لكتابه الشهير "شعر العجم" كما صدر ديوان شعره الفارسي الأول وهكذا عرّف العلامة بقسم اللغة الهندية والسكسكريتية في ندوة العلماء. وفي 1909م صدر له "مجموعة مقالاته عن عالمغير" و"جزآن لكتابه "شعر العجم" وديوان شعره الفارسي الثاني. في 1911م ألّف نقده الشهير على كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان والذي قد أضّر بإحدى عينيه، وفي 1912م بدأ تأليف "سيرة النبي" الكتاب الذي تم في سبعة مجلدات والذي قال فيه العلامة يوسف القرضاوي في خطاب تلفزيوني: لما يصدر كتاب يماثله في العالم كله".

وفي 1913م قدّم اسمه للتدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وفي سنة 1914م استقال عن ندوة العلماء إثر خلاف وقع بينه وبين مسؤولي الندوة. وفي 18/ نوفمبر لنفس السنة غربت هذه الشمس عن آفاق الدنيا تاركاً وراءه تلامذة بارعين ومدارس وكليات كبيرة ومؤلفات قيّمة لا يوجد لها نظير في العالم كله¹.

مساهمة العلامة محمد شبلي النعماني في نشر اللغة العربية وآدابها: بدا من هذه اللحظة أن العلامة محمد شبلي النعماني ساهم كثيراً في نشر اللغة العربية وآدابها مما قد خلّد ذكره على صفحات التاريخ العلمي في الهند وخارجها وفيما يلي بعض الأضواء على مساهماته الجليلة في خدمة اللغة العربية وآدابها ونشرها وتطويرها على المستوى الوطني والدولي كذلك.

ولمزيد التسهيل نقسم هذه المساهمات إلى خمسة مباحث نرى من خلالها مدى سعة نطاق مساهمات العلامة محمد شبلي النعماني في نشر اللغة العربية وآدابها وتطويرها على كلا المستويين؛ الوطني والدولي:

¹ أخذنا هذه المعلومات كلها من ترجمته التي كتبها تلميذه العلامة سيد سليمان الندوي في 642 صفحة وهي أجمع ترجمة وأوثقها للعلامة شبلي النعماني

المبحث الأول: جهوده في إعداد المناهج الدراسية وإعادة النظر فيها

ولقد أسدى العلامة محمد شبلي النعماني خدماته الجليلة لإعداد المناهج الدراسية والإصلاح فيها لمختلف الكليات والجامعات والهيئات التعليمية، وهذه المناهج الدراسية تتعلق بنشر اللغة العربية وآدابها مباشرة أو بدون مباشرة. وهي كما يلي:

1. أول محاولة للعلامة شبلي نجدها في هذا المجال هي بالنسبة لكلية علي كره الشرقية التي أصبحت اليوم جامعة إسلامية تدرّس اللغة العربية وآدابها بصورة منتظمة ومستقلة. قام العلامة شبلي بإعداد منهاجها الدراسي¹ فأدخل فيه كتابه العربي "تاريخ بدء الإسلام"² كما ألزم على طلابها الكتابة والخطابة باللغة العربية وجعل يدرّس القرآن الكريم لطلابها³، الأمر الذي خلق فيهم ذوق تدبر القرآن والتفكير فيه وفوق ذلك قام بتدريس اللغة العربية لأستاذها المستشرق أرنولد⁴.
2. والمحاولة الثانية لهذا المجال نجدها حين إقامته مدرسة وطنية أصبحت اليوم كلية عالية وطنية وحكومية ولها قسم خاص باللغة العربية وآدابها⁵.
3. والمحاولة الثالثة هي المدرسة الدينية التي بناها في قريته والمشهور المعترف عن المدارس الإسلامية بالهند أن كلاً منها تدرّس اللغة العربية وآدابها بصورة منتظمة فلا بد للعلامة شبلي من أن يضع منهاجها الدراسي ويضمّ إلى موادها اللغة العربية وآدابها⁶.
4. والمحاولة الرابعة نجدها حين حضوره في المؤتمر التعليمي الإسلامي وتقديمه مقالته القيّمة عن ثقافة المسلمين القديمة الزاهرة والتي كانت مبنية على أن ما قدّم المسلمون من خدمات تعليمية لا تنكر ولا تنزع عن المناهج الدراسية الراهنة⁷.

¹ حیات شبلي، ص 142

² المصدر نفسه، ص 142

³ المصدر نفسه، ص 143

⁴ المصدر نفسه، ص 136

⁵ المصدر نفسه، ص 132

⁶ المصدر نفسه، ص 133

⁷ مقالات شبلي، 41-4/4

5. والمحاولة الخامسة هي خطابه القيم في تعضيد التعليم القديم في 1892م بعلي كره¹.
6. زار البلاد الإسلامية ونظر في مناهجها الدراسية فاستفاد منها وطبقها في مناهج الهند الدراسية².
7. عين مسؤولاً عن الأمور التعليمية لندوة العلماء ووضع مناهجها الدراسي وأكد فيه على تعليم اللغة العربية الجديدة³ فكتب، على تشجيع منه، تلميذه السيد سليمان الندوي كتاباً مدرسياً جديداً للغة العربية كما وضع معجماً للغة العربية الجديدة⁴.
8. نصب اسمه من قبل العلامة رشيد رضا لإصلاح المنهاج الدراسي للجامع الأزهر⁵.
9. في 2/ مارس سنة 1898م حضر كعضو لهيئة مراقبة المعارف لحكومة بوفال الإسلامية جلسة الإصلاح في مناهجها الدراسي وإصدار الإرشادات للأساتذة⁶.
10. وعمل كمشرف على هيئة التعليم لحكومة حيدرآباد الإسلامية⁷.
11. أقام مدرسة الإصلاح فوضع مناهجها الدراسي وهذه المدرسة نجحت في خلق كبار أساتذة اللغة العربية⁸ ومنهم الأستاذ محمد أسلم الإصلاحي عميد كلية اللغات لجامعة جواهر لعل نهرو (نيو دلهي)⁹.
12. وأعدّ المنهاج الدراسي للجامعة العثمانية التي كان فيها 12 قسمًا للدراسات العربية والإسلامية¹⁰.

¹ آثار شبلي، ص 30

² المصدر نفسه، ص 30-31

³ المصدر نفسه، ص 37

⁴ حياة سليمان، 33

⁵ آثار شبلي، ص 35

⁶ المصدر نفسه، ص 34

⁷ المصدر نفسه، ص 36

⁸ ذكر فراهي، ص 372

⁹ فهرست المتخرجين في مدرسة الإصلاح المنصوب على جدار مكتبها

¹⁰ آثار شبلي، ص 40

13. وجعل عضواً لإصلاح المدارس لبنغال الشرقية وآسام¹.
14. وحضر المؤتمر التعليمي الإسلامي في دلهي وهنأ إقبال على تعيينه ترجماناً للمؤتمر وبشره بنبوغه غالباً² آخر في الهند³.
15. نودي بقيام جامعة ناغفور وسئل العلامة شبلي لتقديم معاونته العلمية⁴.

المبحث الثاني: إقامة النوادي والمدارس وإصدار المجلات لترويج اللغة العربية وآدابها وتطويرها

ولقد قام العلامة شبلي النعماني بتأسيس النوادي والمدارس والمجمّعات التي نشرت اللغة العربية وآدابها كما أصدر مجلات أو أدار تحريرها والتي قامت بدورها بنشر اللغة العربية وآدابها ومنها ما يلي:

1. المدرسة الوطنية بأعظم كره: في 20/ يونيو 1883م أسّس مدرسة وطنية بمحافظته أعظم كره والتي أصبحت فيما بعد كلية وطنية عالية وحكومية وهي تدرّس اللغة العربية وآدابها حتى البكالوريوس⁵ كما هي عقدت ندوات دولية حضرها علماء العرب⁶.
2. المدرسة الإسلامية في بتدول: وفي نفس السنة أقام مدرسة إسلامية في قريته "بتدول" ولننعم أن المدارس الإسلامية في الهند مثل كليات وجامعات عربية وإسلامية وهي تعتني بالدراسات العربية والإسلامية وتخرّج منها علماء كبار⁷.

¹ المصدر نفسه، ص 42

² أسد الله خان غالب شاعر هندي للأردوية

³ آثار شبلي، ص 42

⁴ المصدر نفسه، ص 47

⁵ حيات شبلي، ص 132

⁶ راجع لتقرير الندوة الدولية المنعقدة فيها: مجلة الهند، 715-735/4-1/3

⁷ حيات شبلي، ص 133

3. لجنة الأدب: أقامها فور وصوله إلى علي كره وهي كانت تعتني بتدريب الطلبة على الكتابة والخطابة بالعربية¹.

4. إخوان الصفاء: أسسها كذلك في رحاب كلية علي كره وهي كذلك اعتنت بالكتابة والخطابة بالعربية² وهاتان اللجنتان قد قرضتا عدة قصائد عربية بمناسبة تشرف العلامة شبلي النعماني بـ "شمس العلماء"³ ومنها ما يلي:

| | |
|-------------------------------|---------------------------------------|
| يا خير من يسمو إلى العلياء | كالشمس بازغة بوسط سماء |
| قد كنت قدمًا للمعالي ساميًا | أورثته عن شيمــــــــــــــــة الآباء |
| فلئن سموت إلى المكارم والعلى | فلقد نشأت بعززة قعساء |
| لا غرو نصل السيف إن يك صارمًا | أو يستهل البرق بالالآاء |
| فلأنت بالعزمات سيف صارم | ولأنت برق لامع بذكاء |
| لأذت بجانبك العلوم فإنها | لو لم تصنها أذنت بفناء |
| قد أمحلت أرض العلوم وأصبحت | عرصاتها كسمائق البيداء |
| لعبت بها هوج الرياح تنوبها | من كل عاصفة من النكباء ⁴ |

5. ندوة العلماء: قام بوضع خطتها⁵ وهي الآن مثل "الجامع الأزهر" في الهند تعتني باللغة العربية الجديدة ومن المتخرجين فيها العلامة أبو الحسن علي الندوي.

¹ ذكر فراهي، ص 122

² المصدر نفسه

³ راجع لهذه القصائد: مجلة الهند (العدد الخاص بحياة العلامة شبلي وخدماته)، 713/4-1/3

⁴ حیات شبلي، ص 256

⁵ المصدر نفسه، ص 350

6. الندوة: أصدر مجلة "الندوة" الشهرية التي كانت تنشر مقالات قيّمة عن العرب ولغتهم والدراسات الإسلامية¹ ودرب من خلالها المولانا أبا الكلام آزاد². كان العلامة شبلي يدير تحريرها³.

7. في 1908م أعان في إقامة مدرسة الإصلاح في سرائ مير (أعظم كره) والتي خدمت اللغة العربية كثيرًا وجعلت القرآن مركزًا لكافة العلوم والآداب والفنون⁴ فتخرج منها علماء وأساتذة كبار خدموا في المراكز العلمية والجامعات ومنهم المحقق الكبير الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي⁵.

8. مجلس تأليف سيرة النبي: لتأليف موسوعة عن سيرة النبي ﷺ أقام مجلسًا باسم "مجلس تأليف سيرة النبي" في 1912م⁶ والذي قد أتم ما بدأ به من تأليف "سيرة النبي" أحد أعضائه العلامة سيد سليمان الندوي⁷.

9. دار المصنفين: في شهر مارس سنة 1914م قدّم خطة إقامة "دار المصنفين" لكي يخدم تحت رصيفها العلماء والباحثون العلوم والفنون⁸ والآن هي قائمة على ساقها ونشطة وعقدت مؤخرًا ندوة دولية حضرها علماء العرب⁹. وهي أول وآخر

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

⁴ المصدر نفسه، ص 523-525

⁵ قام الدكتور محمد أجمل بتحقيق العديد من كتب الإمام عبد الحميد الفراهي كما قام بتحقيق كتب الإمام ابن تيمية وجمع مقالات العلامة أبو محفوظ الكريم معصومي. له نقد قيّم لإصلاح ما غلط به النميري

⁶ آثار شبلي، ص 43

⁷ العلامة سيد سليمان الندوي كان تلميذًا للعلامة شبلي النعماني فألف كتبًا قيمة مثل "سيرة عائشة" و"العلاقات العربية-الهندي" وأكمل موسوعة "سيرة النبي".

⁸ آثار شبلي، ص 47

⁹ مجلة الهند (العدد الخاص بحياة وخدمات العلامة شبلي النعماني)، 1/3 715-735

مجمع هندي غير رسمي يخدم الدراسات العربية والإسلامية ومنها نشرت "أبو العلاء ماله وما عليه" و"جمهرة البلاغة" وأعمال أخرى قيّمة¹.

10. مجلة "معارف" الشهرية: وفي النهاية رسم خطة مجلة علمية باسم "معارف"² وهي مجلة أفحمت اعتراضات المستشرقين على الإسلام ورسوله وكتابه العزيز.

المبحث الثالث: تعليم وتربية العلماء والأساتذة البارعين للغة العربية وآدابها

وبجانب جهوده في إعداد المناهج الدراسية وإعادة النظر فيها وإقامة النوادي والمدارس لنشر اللغة العربية وآدابها وترويجها وتطويرها فقد قام العلامة محمد شبلي النعماني بتعليم وتربية نخبة من العلماء والأساتذة للغة العربية وآدابها والذين قد برزوا ونالوا شهرة دولية ومنهم من يلي:

أولاً: من علمهم ودرّجهم قبل حظوته من شرف "شمس العلماء": ممن علمهم ودرّجهم من العلماء والأساتذة قبل حظوته من شرف "شمس العلماء" نذكرهم بإيجاز مشيراً إلى خدماتهم لنشر اللغة العربية وآدابها وتطويرها:

| | |
|------------------------------|--|
| 1. الإمام عبد الحميد الفراهي | 2. الشيخ محمد سميع |
| 3. الشيخ محمد عمر | 4. البروفيسور آرنولد |
| 5. الشيخ شوكت علي | 6. الشيخ محمد علي جوهر |
| 7. الشيخ ظفر علي خان | 8. السيد سجاد حيدر يلدرم |
| 9. الشيخ محمد عبد الله | 10. وغيرهم ممن تلمذ له في كلية علي كره الشرقية |

والحديث عن خدمات هؤلاء الطلاب كلهم يقتضي صفحات طويلاً فنقصر

¹ لمزيد التفصيل راجع فهرست إصداراته

² آثار شبلي، ص 47

كلامنا على الإمام عبد الحميد الفراهي فالإمام الفراهي يعتبر واضع مدرسة خاصة في تفسير القرآن وكافة أعماله بالعربية وهي أكثر من 70 كتابًا. كان العلامة الفراهي شاعرًا للغات الثلاث؛ العربية والفارسية والأردوية. له ديوان عربي وفارسي. وهو أول شاعر عربي في الهند قرض قصائد سياسية وإليكم بعض نماذجها:

قال في اعتداء القوات الإيطالية على طرابلس:

| | |
|----------------------|---------------------------------|
| كيف القرارُ وقد نكسُ | أعلامنا بطرابطس |
| كيف القرارُ وحولنا | الأعداء ترتقب الخلس |
| نبكي على إخواننا | بين القتيلِ ومن حبس |
| نبكي لربات الخدو | رشرقن بالماء السلس |
| هم أهلنا وعشيرنا | أفيالمون ولا نحس |
| هل ترتضون بذل دين | كم وليس بملتبس |
| والله لا نرضى به | ما دام فينا من نفس ¹ |

وقال أيضًا:

| | |
|-------------------------|------------------------|
| يا عينُ بكئي بالهوامغ | لا ترقأن لك المدامغ |
| قتلى طرابلس الذ | ين تطحطحت بهم القوارغ |
| نبكي على إخواننا | أهل المكارم والدسائغ |
| دهمهم الرومُ الفوا | تك بالمراكب والمدافع |
| قتلوا المراضع في المضاع | جع والضوارع في الشوارع |

¹ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 17

لا دينَ عندهم ولا حلمَ عن العدوانِ وزغ
يبدونَ نصرانيَّةً زوراً وقد رفضوا الشـوارغ
بل يشمئز الكفرُ مما يركبونَ من الشـنائع¹

وثانياً: من علمهم ودرّجهم بعد حظوته من شرف "شمس العلماء": وكذا علم العلامة شبلي النعماني ودرّج العديد من العلماء والأساتذة بعد حظوته من شرف "شمس العلماء" وهم كما يلي:

| | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| 1. السيد سليمان الندوي | 2. المولانا أبو الكلام آزاد |
| 3. المولانا عبد الماجد الدرابادي | 4. العلامة محمد إقبال خان |
| 5. العلامة عبد السلام الندوي | 6. الشيخ مسعود عالم الندوي |
| 7. الشيخ سعيد الأنصاري | 8. الشيخ عبد الباري الندوي |

والحديث عن كافة التلامذة أمر صعب للغاية فأقصر كلامي على العلامة سيد سليمان الندوي فهو من ولاية بهار، وتنتهي شجرة نسبه إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، نال العلوم الابتدائية ثم التحق بندوة العلماء في 1901م فتلقى العلوم النهائية على الشيخ عبد اللطيف السنهلي والسيد علي الزيني والشيخ حفيظ الله الأعظمي والشيخ محمد فاروق التشريياكوتي ثم تلمذ للعلامة شبلي النعماني الذي درّبه خير تدريب. ثم عمل في مختلف الهيئات والكليات مثل "الندوة" و"الهلال" و"كلية بهوفال". زار العالم الإسلامي غير مرة. أمدّ في تأسيس دار المصنفين في 1915م وأتمّ ما بقي من مشاريع أستاذه العلامة النعماني ثم هاجر إلى باكستان في 1950م حيث توفي. كان عالماً كبيراً للقرآن الكريم والسنة والتاريخ الإسلامي بجانب براعته في العربية والإنجليزية والفارسية والأردوية وقرض الشعر بها. من مؤلفاته "سيرة عائشة" و"خيّام" و"أرض القرآن" و"العلاقات الهندية-العربية" و"بحارة العرب".

¹ المصدر نفسه، ص 17

المبحث الرابع: كتابة المقالات والبحوث الرائعة المتعلقة باللغة العربية
وأدائها

ولو أنما كتبه العلامة محمد شبلي النعماني من المقالات العلمية والأدبية والفنية لا يحصى عددها وقد جمعها تلامذته في ثمانية مجلدات فنفضّل أن نذكر بعضاً منها كما يلي:

أولاً: المقالات والبحوث التي كتبت قبل حظوته من شرف "شمس العلماء"
الألف: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدائها مباشرة:

| عنوان المقالة | الموضوع | عدد الصفحات |
|--------------------------|--|-------------|
| 1. تعليم المسلمين الماضي | رغبة العرب المسلمين في العلوم لاسيما الترجمة من وإلى العربية | 41-4/3 |
| 2. تراجع | تاريخ حركة الترجمة العربية عبر العصور الإسلامية | 90-1/6 |

الباء: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدائها غير مباشرة:

| عنوان المقالة | الموضوع | عدد الصفحات |
|-----------------------|------------------------|-------------|
| 1. المكتبات الإسلامية | ذكر المكتبات الإسلامية | 141-122/6 |

وثنائياً: المقالات والبحوث التي كتبت بعد حظوته من شرف "شمس العلماء"

الألف: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدائها مباشرة:

| عنوان المقالة | الموضوع | عدد الصفحات |
|------------------|---------------------|-------------|
| 1. اللغة العربية | تاريخ اللغة العربية | 3-1/2 |
| 2. فن البلاغة | البلاغة | 12-4/2 |

| | | |
|-----------|---|--|
| 27-13 | بلاغة القرآن | 3. جمهرة البلاغة |
| 46-28/2 | تاريخ الشعر العربي وأعلامه | 4. شعر العرب |
| 52-47/2 | المقارنة بين الشعر العربي والفارسي | 5. المقارنة بين الشعر العربي والفارسي |
| 97-87/2 | بحث عن صنائع الهند وبدائعها بالعربية | 6. تحفة الهند |
| 136-130/3 | المقررات الدراسية في اللغة العربية | 7. الندوة والمقررات الدراسية |
| 140-137/3 | البحث عن محاسن ومناقص كتب النحو العربي | 8. كتب النحو المتداولة |
| 176-164/3 | البحث عن إحياء العلوم العربية | 9. إحياء العلوم العربية |
| 15-13/4 | ذكر بلاغة النساء العربيات | 10. بلاغات النساء |
| 126-115/4 | دراسة تحليلية للكتاب المذكور آنفاً | 11. النظر في السفر إلى المؤتمر |
| 177-133/4 | دراسة نقدية للكتاب المذكور آنفاً | 12. كشف الستار عن تاريخ التمدد الإسلامي |
| 4-2/5 | ذكر أسماء رضي الله عنها | 13. أسماء |
| 74-63/5 | الشاعر المتنبي | 14. المتنبي |
| 102-90/5 | ذكر هذا العلامة الهندي | 15. غلام علي آزاد البلغرامي |
| 46-45/8 | ذكر أستاذه العلامة محمد | 16. غربت شمس أخرى |

| | | |
|-----------|--------------------------------|-------------------------------|
| | فاروق التشريياكوتي | |
| 55-53/8 | الموضوع نفسه | 17. نشر الكتب العربية القديمة |
| 108-107/8 | ذكره ومقرراته الدراسية العربية | 18. جامع الأزهر |

البناء: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدائها غير مباشرة:

| عدد الصفحات | الموضوع | عنوان المقالة |
|-------------|------------------------------------|----------------------------|
| 2-1؟1 | ذكر الكلمات المتعلقة بكتابة القرآن | 1. تاريخ ترتيب القرآن |
| 27-12/1 | ذكر بعض القرآت واختلافها | 2. اختلاف المصاحف والقراءة |
| 41-38/1 | ذكر وجوه الإعجاز في القرآن | 3. إعجاز القرآن |
| 49-42/1 | الأساليب العربية والقرآنية للإقسام | 4. إقسام القرآن |
| 75-73/1 | ذكر تدوين الكلام العربي | 5. كيفية تدوين القرآن |
| 78-76/1 | ذكر الكتابة بالعربية | 6. الكتابة |
| 124-108/1 | إثبات أن الحجاب كان عامًا في العرب | 7. الحجاب في الإسلام |
| 231-221/1 | تحقيق كلمة الجزية | 8. الجزية |
| 163-153/3 | إعادة النظر في المقررات | 9. الجامعة الشرقية لرياسة |

| | | |
|---------------------------------------|----------------------|-----------|
| حيدرآباد | الدراسية العربية | |
| 10. البيمارستانات والحكومات الإسلامية | ذكر الترجمات العربية | 155-142/6 |
| 11. جلسة ندوة العلماء السنوية | ذكر البلاغة العربية | 92-80/7 |
| 12. جلسة ندوة العلماء | ذكر مؤلفات البلاغة | 72-68/8 |

المبحث الخامس: تأليف الكتب المتعلقة باللغة العربية وآدابها

أولاً: الكتب التي ألّفت قبل حظوته من شرف "شمس العلماء"

| عنوان الكتاب | اللغة التي كتب فيها | موضوع الكتاب |
|--|---------------------|---|
| 1. إسكات المعتدي على إنصتات المعتدي | العربية | هذه الرسالة باللغة العربية وهي أول إنتاج علي للعلامة شبلي النعماني، موضوعها وجوب إنصتات المقتدي لدى قراءة الإمام في الصلوات الخمس. طار صيت هذه الرسالة في الآفاق حتى قد وجدها العلامة شبلي حينما زار تركيا وهي التي أعانته خلال القيام بها. نشرت فيها أبياتها العربية الأولى. |
| 2. ظل الغمام في مسألة القراءة خلف الإمام | الأردوية | هذه الرسالة باللغة الأردوية وهي تنطق عما نطقت عنه الرسالة الأولى، لغتها سهلة وهي الآن نادر وجودها. ناقش فيها العلامة عن |

| | | |
|---|----------|-------------------------|
| الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وروايات الصحابة، وهي خير شاهد على براعة العلامة شبلي النعماني في اللغة العربية وتفقهه في علوم الدين. | | |
| هذا كتاب قيّم للعلامة شبلي النعماني في سيرة الخليفة العباسي مأمون الرشيد. جزؤه الثاني الذي يتحدث عن قدر المأمون الثقافي وخدماته العلمية والأدبية قيّم إلى حد بعيد. لو أجد كتاباً يضاهيه في الموضوع. قمت بترجمته العربية. | الأردنية | 3. المأمون (جزءان) |
| هذه الرسالة باللغة العربية وهي تناقش كلمة "الجزية" المستخدمة في اللغة العربية ومن ثم تردّ على اعتراضات المستشرقين بأن المسلمين هم الذين أجبروا شعهم غير المسلم على أداء الجزية لكي يدخلوهم عنوة في الإسلام. تمت ترجمتها إلى الإنجليزية. | العربية | 4. الجزية |
| هذا الكتاب القيّم يتحدث عن سيرة النعمان وتفقهه. جزؤه الثاني الذي يتحدث عن عربية النعمان وتفقهه قيّم وفاقد النظير. | الأردنية | 5. سيرة النعمان (جزءان) |
| هذه الرسالة باللغة العربية وتبيّن | العربية | 6. تاريخ بدء |

| | |
|---------|--|
| الإسلام | تاريخ الإسلام في بداية عهده. أعدّها العلامة شبلي في ضوء المصادر الأولى وزاد قيمتها بنقل الأبيات العربية والرسائل النبوية والاتفاقيات المعقودة في أوقات مختلفة. |
|---------|--|

وثانيًا: الكتب التي ألّفت بعد حظوته من شرف "شمس العلماء"

| عنوان الكتاب | اللغة التي كتب فيها | موضوع الكتاب |
|--------------------------|---------------------|--|
| 1. سفرنامه روم ومصر وشام | الأردوية | هذه قصة رحلته الطويلة للبلاد العربية وتحتوي على معلومات قيّمة عن العرب ولغتهم وثقافتهم ولاسيما تقدمهم العلمي أو تخلفهم في مجال التعليم. إنها كذلك تخبر عن وجود مخطوطات قيّمة في مكتباتهم الرسمية وغير الرسمية. |
| 2. الفاروق (جزءان) | الأردوية | هذه موسوعة الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه. لم يؤلّف كتاب مثله. ترجم إلى الإنجليزية والعربية. |
| 3. رسائل شبلي | الأردوية | هذه مجموعة بعض مقالاته المنشورة في الدراسات العربية والإسلامية. |
| 4. شعر العجم (5) | الأردوية | هذا كتاب أردوي يتحدث عن تاريخ |

| | | |
|---------------------|----------|---|
| أجزاء) | | الشعر الفارسي وأعلامه الإيرانيين والهنود. بحث فيه العلامة عن تأثير الشعر العربي على الشعر الفارسي وترجيحه عليه. مبحثه "الموازنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي" قيّم للغاية. |
| 5. الغزالي | الأردوية | هذه كمثّل موسوعة للإمام الغزالي. |
| 6. علم الكلام | الأردوية | هذا يتحدث عن تاريخ علم الكلام ومساهمة المسلمين العرب والعجم فيه. |
| 7. الكلام | الأردوية | هذه إعادة النظر في فن علم الكلام وتوسيعه إلى الاحتجاج بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم. |
| 8. سوانح مولانا روم | الأردوية | هذه دراسة بديعة لفلسفة المولانا الرومي. |
| 9. مضامين عالمغير | الأردوية | في هذا الكتاب أثبت العلامة شبلي ثقافة السلطان عالمغير كما ردّ على كافة الاعتراضات التي أوردها عليه المستشرقون والعلماء الهندوس. |
| 10. وقف على الأولاد | الأردوية | هذا إثبات أن الوقف على الأولاد مشروع في الإسلام ولا معنى لإلغاء الحكومة البريطانية له. |

| | | |
|---------------------------------------|----------|--|
| 11. موازنة أنيس ودبير | الأردنية | هذه دراسة مقارنة للشاعرين الكبارين للأردنية في الرثاء. |
| 12. الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلام | العربية | هذه دراسة نقدية فاقدة النظير لكتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان. نشرت أولاً في الهند ثم في مجلة "المنار" في صورة حلقات. أثنى عليها العلامة رشيد رضا المصري. |
| 13. سيرة النبي (7 أجزاء) | الأردنية | هذه موسوعة عن سيرة النبي لم يوجد لها نظير حتى الآن في كافة أنحاء العالم. كتب العلامة شبلي النعماني جزئيه ثم وافته المنية قبل إتمامه إلا أنه قد رسم خطته فأتمها تلميذه العلامة سيد سليمان الندوي كاتب "ترجمة شبلي". |
| 14. خطبات شبلي | الأردنية | هذه مجموعة خطبه التي ألقاها بمختلف المناسبات. |
| 15. مكاتيب شبلي (جزءان) | الأردنية | هذه مجموعة رسائله وهي في الواقع موسوعة علمية لأنها تحتوي على معلومات جمة عن اللغات والآداب لاسيما العربية وأدائها. |

ملخص المقالة: بدا من هذه الدراسة العاجلة أن العلامة محمد شبلي النعماني الهندي تعلّم على كبار أساتذة عصره ثم خدم الكليات والمعاهد والهيئات العلمية المختلفة كما أنشأ العديد منها ودعّمها ولم يأل أي جهد في تطويرها والعناية بها وكذا ألف كتبًا ورسائل قيّمة لم يصدر مثلها في العالم كله وهي بالفعل ترجمت إلى اللغات المحلية والعالمية بما فيها اللغة الهندية والإنجليزية والعربية، وأما مقالاته وبحوثه فهي أيضًا قيّمة وبعضها تعادل الرسالة العلمية من مثل "تراجم" في مائة صفحة و"مكتبة الإسكندرية" في ثمانين صفحة. إنها أيضًا ترجمت إلى اللغات المحلية والعالمية من مثل الهندية والإنجليزية والعربية. وقد حاول جهده لكي يدفع عن الإسلام وأتباعه ويردّ على الاعتراضات والحملات الواردة على الدول العربية والإسلامية. ردوده المفحمة على اعتراضات المستشرقين تفقد نظيرها في العلم والاستدلال ولاسيما كتابه بالعربية "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان وهذا كتاب لم يقدم عديله حتى الآن لا في الهند ولا في البلاد العربية والإسلامية. وفوق تلك أن كتاباته تتنوع علمًا وفنًا فقد كتب عن الأدب العربي والأدب الفارسي والأدب الأردوي كما ألف عن القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه الإسلامي والكلام وتاريخه والمنطق والفلسفة والعلوم الجديدة، وكل كتاباته تتحلّى باللغة الفصحى وهو يعتبر ركنًا من أركان الأدب الأردوي، وبالجملة فقد كان العلامة شبلي عالما كبيرًا وأديبًا بارعًا وناقداً شهيرًا ومفكرًا معروفًا وماهرًا في التعليم وفوق تلك أنه كان يحبّ العرب الذين كانوا حاملِي الإسلام إلى البلاد الأخرى الدانية والنائية وهكذا إنه لم يؤخّر أي خطوة للدفاع عن مصدر الإسلام وأتباعه ومن تعلق به.

المصادر والمراجع

1. الدكتور شرف الدين الإصلاحي: ذكر فراهي (ترجمة الإمام الفراهي)، الدائرة الحميدية، سرائير، أعظم كره، 2001م
2. الدكتور محمد إلياس الأعظمي: آثار شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2013م
3. السيد سليمان الندوي: حيات شبلي (ترجمة العلامة محمد شبلي النعماني)، دار المصنفين، أعظم كره، 2008م
4. الشاه معين الدين الندوي: حيات سليمان (ترجمة العلامة السيد سليمان الندوي)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1973م
5. الشيخ رحمان علي: تذكره علماء هند (ترجمة أردوية: محمد أيوب القادري)، مؤسسة باكستان التاريخية، كراتشي، باكستان، 1961م
6. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الأول)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2010م
7. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الثاني)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2012م
8. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الثالث)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2009م
9. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الرابع)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1956م
10. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الخامس)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2007م
11. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد السادس)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2009م

12. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد السابع)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2007م
13. العلامة محمد شبلي النعماني: مقالات شبلي (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوي، المجلد الثامن)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2010م
14. فهرست المتخرجين من مدرسة الإصلاح (مخطوط)
15. مجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن المجلس القومي للعلاقات الثقافية، نيو دلهي، الهند
16. مجلة الهند الفصلية الصادرة عن مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست، بنغال الغربية، الهند

إسهام ملفوظات الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح الفكر الإسلامي للإدارة المغولية، "المكتوبات الربانية" نموذجاً

- د. صاحب عالم الأعظمي الندوي¹

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين،
المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واتبع هداه بإحسان إلى
يوم الدين.

أما بعد:

فمن المعلوم تاريخياً أن للنصيحة والإرشاد والإصلاح شأنًا عظيمًا في حياة الملوك
والسلاطين في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ وذلك منذ العهد النبوي، ووردت
في ذلك أحاديث جامعة تبين مفهوم الإصلاح والنصيحة الشرعية وحدودها، رواها
الصحابة والتابعون ثم العلماء والصوفية في العصور التاريخية الإسلامية. وكانت
الغاية المرجوة من نشر ثقافة الإصلاح والنصيحة والإرشاد تقويم الملوك والسلطين
دينياً وفكرياً وخلقياً واجتماعياً مع بذل ما استطاع في إرشادهم للقيام بواجبهم وما
ينفعهم وينفع الناس، معتبرين الإصلاح والنصيحة والإرشاد عماد الدين، وقد حذت
الشعوب حذو الملوك والأمراء في ذلك، ومن المعلوم أن الشعوب على دين ملوكها.

وقد دخلت ثقافة عملية الإصلاح والنصيحة والإرشاد مع الثقافة الإسلامية الأخرى
إلى كل البلدان التي دخلها المسلمون عبر قنوات الصوفية والتجارة الدولية أو من

¹ باحث أكاديمي من الهند

خلال الفتوحات الإسلامية، ومن هذه البلدان الإسلامية شبه القارة الهندية التي حكم المسلمون فيها ثمانية قرون متتالية، ومنحت الثقافة الإسلامية للهند والهندود من خلال الدول الإسلامية والإمارات الإسلامية المستقلة طيلة هذه الفترة المذكورة أعلاه؛ أحسن ما عندها من الدين والعقيدة والأخلاق الحسنة كما طوّرت العلوم الهندية ونشرتها بين عامة الناس والتي كانت حكرًا للملوك ورجال الدين.

والصوفية الذين أسهموا في مجال الإصلاح والنصيحة والإرشاد من خلال ملفوظاتهم ومكتوباتهم في العصور الإسلامية لا سيما في عصري سلطنة دهلي والدولة المغولية؛ كثيرون معظمهم قاموا بذلك مع الإخلاص الكامل متجردين عن الهوى والأغراض الشخصية والنوايا السيئة التي قد تحبط الأعمال، مع استخدام طرق الرفق والحكمة والبصيرة مع اختيار أسلوب النصيح المتزن البعيد عن الانفعالات وانتقاء الكلم الطيب والوجه البشوش والصدر الرحب، واختيار الزمان والمكان المناسب لنجاح عملية الإصلاح والنصيحة والإرشاد.

ويعتبر الشيخ الصوفي أحمد السرهندي رحمه الله المتوفى 1033هـ/1624م من الشخصيات المعروفة بين الشخصيات الصوفية الهندية الذين كان لديهم رؤية واضحة حيال الدين الإسلامي، وبذلوا مجهودًا طيبًا في نشر الفكر الإسلامي الصوفي وترويجه في ربوع الهند، بجانب بذل السعي الحثيث لتقويم الوزراء والأمراء والملوك دينيًا وفكريًا وثقافيًا من خلال تقوية العلاقات عبر السماح لهم بالحضور في الجلسات العلمية والدينية الخاصة والعامة، وإرسال الرسائل إليهم لإصلاح أحوالهم الدينية والفكرية. وعلى الرغم من أن تقوية العلاقات مع الأمراء والسلطات الحكومية كان أمرًا مثيرًا للجدل بين الطرق الصوفية لا سيما الطريقة الجشتية، ولكن الطريقة النقشبندية - منذ نشأتها وقبل وصولها إلى الهند - قامت بتوطيد العلاقات مع الأمراء والوزراء والملوك، وأدّت دورًا كبيرًا في مجال السياسة.¹ ومن هنا لم يجد الشيخ السرهندي نفسه معزولًا عن الشؤون السياسية. فقد أدّى دورًا مهمًا في السياسة

¹ State and Culture in Medieval India، ص 158-176

المغولية. وكان يعتبر السياسة جزءًا مهمًا من الدين الإسلامي مثل أسلافه من الطريقة النقشبندية لا سيما خواجه عبيد الله الأحرار المتوفى 895هـ/1490م.¹ وقد عبّر الشيخ أحمد السرهندي عن ذلك في إحدى رسالاته قائلاً: "اعلم أن السلطان في الدنيا، كالقلب في البدن، فإذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد القلب فسد الجسد، كذلك صلاح السلطان صلاح الدنيا وفساده فساد الدنيا...."² ومن أهم أعمال الشيخ السياسية أنه اختار منهجًا خاصًا لإقناع العلماء، والصوفية³، والأمراء، حتى السلطان جهانگیر المتوفى 1036هـ/1627م نفسه وكان معاصرًا له؛ بإصلاح أحوالهم الدينية والفكرية والسياسية، وذلك عبر ملفوظاته التي سطرها في الرسائل وكان يبعث بها إلى هؤلاء النخبة. وقد توجه إليهم بجدية تامة مع بذل المجهودات كافة عبر القنوات العديدة لتحسين الأوضاع الدينية والفكرية في الهند.

وهكذا مجموعة ملفوظاته المنشورة في المکتوبات الربانية مليئة بأمثال النصائح والإرشادات والإصلاح الصادرة عنه حيال الأمراء والوزراء والسلطان نفسه. وتعتبر هذه الملفوظات وثيقة تاريخية لدراسة الحياة السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية في ذلك الوقت. وسأبحث من خلال تلك الملفوظات عن دور الشيخ أحمد السرهندي في تقويم النخبة السياسية والإدارية للدولة المغولية لنشر الفكر الإسلامي الصحيح وإخراج الإدارة المغولية وسلطانها وأمراءها والشعب المسلم الهندي نفسه من البدع والخرافات واللادينية إلى الإسلام السليم والقيوم. ويعد الشيخ أحمد السرهندي من أكبر المصلحين في ذلك الوقت بل يعتبره كثير من الباحثين من مجدد الإسلام بسبب دوره الكبير في تجديد الدين الإسلامي وإحياء السنة النبوية وإصلاح المجتمع الهندي وتقويم الإدارة المغولية دينيًا وفكريًا وسياسيًا واجتماعيًا.

¹ A History of Sufism in India 177-174/2

² راجع: مکتوبات الإمام الرباني، المجلد الأول، رقم المکتوب: 47. 16.

³ عن قيامه بتقويم الصوفية وإصلاح الفكر الصوفي راجع الكتاب التالي:

Muhammad Abdul Haq Ansari: Sufism and Shari'ah: A Study of Shaykh Ahmad (Islamic Foundation U.K. 1986).، Sirhindi's Effort to Reform Sufism

هذا وسيتضمن البحث النقاط التالية:

1. أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ.
2. تعريف موجز بالطريقة النقشبندية وأعلامها.
3. ترجمة وجيزة للشيخ أحمد السرهندي.
4. الوضع الديني في عهد الشيخ أحمد السرهندي ومنهجه في عملية الإصلاح والإرشاد.
5. جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح السلطان وأركان الدولة، الأمراء والوزراء وغيرهم.
6. الخاتمة والنتائج.
7. قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول: أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ والحضارة الإسلامية

تعريف لغوي لكلمة "ملفوظ": جاءت كلمة "ملفوظ" من كلمة عربية "لفظ" بمعنى "نطق به"، ومنها كلمة "لفظ" ما يلفظ به من الكلمات جمعها ألفاظ. ويقال لفظ الشيخ بالكلام أي نطق به وتكلم. والآية القرآنية تقول: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} ق18. ومنها كلمة "ملفوظ" يعني ما يلفظ به من الكلام. ويقال أيضاً "حرف ملفوظ" أي منطوق أي ينطق به. ولكلمة "ملفوظ" معنى آخر في اللغة العربية ألا وهو "مطرود".¹

هذا، وقد صارت كلمة "ملفوظ" أو "ملفوظات" من مصطلحات الآداب الصوفية. وهو شامل لكل ما يعني من النصائح والإرشاد والإصلاح التي قام بها الصوفية في تاريخهم الطويل من خلال مجالسهم الخاصة والعامة، وإلقاء الكلمة على السلاطين والإداريين والعلماء والصوفية شفوياً أو مكتوبةً من خلال إرسال المكتوبات الدعوية. ومعظم الصوفية في الهند خلال عصر سلاطين دهلي اختاروا منهجاً شفوياً لإلقاء

¹ راجع كلمة "لفظ" في المعجم الوجيز، ص 560

كلمتهم الدعوية على الخاصة والعامة وعلى تلاميذهم للتربية والتعليم، ولكن ما كانوا يمنعون تلاميذهم ومريديهم من تسجيل ما كانوا ينطقون به.¹ ثم تطور هذا المنهج في عصر الدولة المغولية لدى بعض الصوفية الذين فضّلوا الملفوظات المكتوبة في صورة الرسائل والمكتوبات على الملفوظات الشفوية. ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، والشيخ أحمد السرهندي وغيرهم.

وقد يعترض البعض على أن المكتوبات ليس لها علاقة بالملفوظات فهما مصطلحان مختلفان من ناحية البنية اللغوية. والجواب على ذلك أنه علينا أن ننظر فيهما من ناحية المقاصد. وطبعاً لا يعنينا هنا كباحثين في التاريخ والحضارة التفاصيل في توضيح هذه المصطلحات لأن لها فرسانها من اللسانيين ونقاد الأدب وأهل الدراسات اللغوية. وهناك كثير من الباحثين عالّجوا هذا المصطلح للتفريق بين اللسانيات التلفظية واللسانيات الخطابية. ووصلوا إلى النتيجة أنهما واحد في المعنى والانسجام.² وعلى كل لو أنعمنا النظر في مقاصد الملفوظات لوجدناها أنها كانت تهدف إلى التربية والتعليم بالدرجة الأولى عند الصوفية شفوية كانت أم مكتوبة في صورة الرسائل. ومن هنا نستطيع أن نقول إن الملفوظات تضارع تمامًا المكتوبات والرسائل والخطابات والحكم كتبها الشيخ بنفسه أو سجّلها أحد تلاميذه مثلاً.

أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ: والسؤال الذي يطرح الآن هو عن أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ؟ أي هل هناك فعلاً أهمية خاصة للملفوظات لدراسة تاريخ دولة ما ووضعها السياسي والديني والثقافي والاجتماعي؟ وإلى أي مدى توفّر لنا

¹ ومن أهم كتب الملفوظات الموثقة للمشايخ الجشتية "خير المجالس"، و"فوائد الفوائد"، و"سرور الصدور"، و"أحسن الأقوال"، و"نفائس الأنفاس"، و"جوامع الكلم"، و"أنوار العيون"، و"لطائف قدوسي"، وفخر الطالبين و"نافع السالكين" وغيرها. عن الآداب الجشتية الصوفية راجع: تاريخ مشايخ جشت، ص 444-447

² راجع مقالة علمية لعز الدين الناجح: مقارنة تداولية لحكمة عطائية، في دورية "الخطاب" المحكمة الصادرة عن جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر. العدد الثالث مايو عام 2008م، ص 26-27

الملفوظات المواد العلمية لعملية الدراسة والوصول إلى النتائج المرجوة؟ ولا شك أنها مادة غنية وثرية للغاية لمعالجة الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية للدول الإسلامية لا سيما شبه القارة الهندية. ويستطيع الباحث معالجة هذه الجوانب المذكورة والوصول إلى كثير من الحقائق الصحيحة معتمداً على الآداب الصوفية لكونها دوّنت وسجّلت بعيداً عن الهوى الخاص وعن المقاصد السياسية وتحت ضغوط أو عواطف سياسية.

ومن هنا يتمكن الباحث من الدراسة الوافية للتطورات الدينية والسياسية معتمداً على المملفوظات التي توفّر للباحث مادة دسمة لدراسة هذه الجوانب المذكورة أعلاه، لأن أكبر عائق أمام الباحثين والدارسين باللغة العربية وحتى باللغات الهندية المحلية عن المظاهر الحضارية الهندية بما فيها الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية لا سيما طبيعة العلاقات بين الصوفية والعلماء والسلطين هي الكتب المعاصرة التي دوّنت معظمها تحت رعاية وإشراف الدولة أو قام بذلك بعض الإداريين المنتمين إلى النزعات الدينية والسياسية الخاصة، والمؤرخين الرسميين الذين لا تشفي كتبهم التاريخية الغليل خصوصاً حول الحقائق عن العلاقات بين الشعوب والأعراق وبين السلطين والشرائح الأخرى. لأنها هي قائمة في الجملة على تاريخ ملوكها وحكامها، أما الشعب فليس له حساب عند أكثر هؤلاء المؤرخين الرسميين.

ومن المعلوم تاريخياً أن الباحث الذي يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهم تاريخ الدول بما فيها الهند بطبيعتها على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل ما مرّ بأهلها من حركات دينية وحضارية. ومن هنا إلى جانب المصادر الرسمية التاريخية هناك مصادر معاصرة أخرى تعطي معلومات قيمة حول تاريخ الهند وحضارتها وثقافتها ألا وهي كتب المملفوظات والمكتوبات أي الرسائل وكتب الحوار وكتب التراجم وغيرها، والتي دوّنها تلامذة الصوفية ومريدها.

وهناك عشرات من المؤلفات في هذا المجال والتي تعالج الجوانب الدينية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً تتعلق بعضها بعصر سلطنة دهلي وبعضها تتعلق بالدولة

المغولية. وهي تعتبر من أهم الكتب التي يمكن للباحث والدارس أن يعتمد عليها لدراسة الحياة الاجتماعية والدينية بل والسياسية ومواقف الصوفية من السلاطين والعكس، لأنها تعطي المعلومات القيمة للوصول إلى النتائج العلمية الصحيحة، وإلى جانب ذلك تعدّ أوثق مصدر لإلقاء الضوء على النشاطات الصوفية.

المبحث الثاني: تعريف موجز للطريقة النقشبندية وأعلامها

طريقة خواجگان: تنتمي الطريقة النقشبندية إلى طريقة خواجگان التي أسسها خواجه أي الشيخ أبو يعقوب يوسف الهمداني المتوفى عام 535هـ/1140م. وقد تلقى الخواجه تعليمه في بغداد، ثم استقر في مرو وهرات، وتوفي في مرو.¹ وكان له أربعة خلفاء قاموا بتطوير هذه الطريقة ونشرها وترويجها.² ومنهم الخواجه أحمد عطاء اليسوي المتوفى عام 561هـ/1166م،³ الذي يعدّه بعض الباحثين من المؤسسين الحقيقيين لهذه الطريقة الصوفية.⁴ وقد أطلق عليه الصوفي الخواجه فريد الدين عطار لقب "پير تركستان".⁵ وعلى كل كان ملوك دول آسيا الوسطى يحبّونه ويقدرّونه جداً. وتقديراً له قام ملك تيمور ببناء ضريحه في كازاخستان وسجّل ذلك في وقائعه.⁶ وينسبون طريقة خواجگان إلى أربع شخصيات تاريخية، أولها حضرة الخضر عليه السلام، وثانها الشيخ جنيد البغدادي، وثالثها حضرة بايزيد البسطامي الذي وصلت

¹ لترجمته راجع نور الدين محمد عبد الرحمن جامي: نفحات الأنس (ترجمة أردية)، ص 406-408

² A History of Sufism in India، 95/1

³ وهؤلاء الخلفاء هم الخواجه عبد الله برقي، والخواجه حسن اندتي، والخواجه أحمد اليسوي، والخواجه عبد الخالق الغجدواني. وقد غادر الخواجه أحمد اليسوي لتركستان مشيراً على مريديه لتفعيل نشاطاتهم الصوفية تحت رعاية الشيخ الخواجه عبد الخالق الغجدواني وإشرافه. راجع جامي: نفحات الأنس، ص 408

⁴ State and Culture in Medieval India، ص 159

⁵ راجع: منطق الطير، ص 182-183

⁶ ويقول ملك تيمور: "حضرت صاحب قران به قريه يسى بزيارت شيخ احمد يسوى توجه فرمود...وبه تعمير آن مزار مبارك اشارت على ارزاني داشت وعمارته معتبر اساس اند اختند." راجع: ظفرنامه يزدي، ص 9-10

إليه النسبة من طرف حضرة علي كرم الله وجهه، ورابعها حضرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن هنا يطلق عليه "نمك مشايخ" أي ملح المشايخ.¹

هذا، وقد قام بعد موت المؤسس الحقيقي لهذه الطريقة خواجه عبد الخالق بن عبد الجميل الغجدواني المتوفى 574هـ/1179م، بترسيخ دعائم هذه الطريقة إلى أن جاء خواجه بهاء الدين النقشبندي المتوفى 791هـ/1389م،² وبذل مجهودًا كبيرًا في نشر وترويج أفكار هذه الطريقة وبسبب تأثيره البالغ تغير اسم هذه الطريقة الخواجكانية إلى الطريقة النقشبندية التي انتشرت فيما وراء النهر وآسيا الوسطى والهند من خلال تلامذة الشيخ المذكور، وتركت أثرًا محمودًا في الأسرة التيمورية التي حكمت الهند بعد سقوط سلطنة دهلي.³

¹ راجع: مشايخ نقشبندية مجددية، ص 108

² محمد بن محمد بهاء الدين البخاري ولد في عام 717هـ/1317م، بقرية على بعد فرسخ من بخارى، يطلق عليه "كشك هندوان" والذي عرف فيما بعد باسم "كشك عارفان". وأخذ العلم والتصوف من كل من علاء الدولة عبد الخالق الغجدواني، ومحمد بابا السماسي، وبعد وفاة الأخير عين تلامذته النقشبند خليفة للسماس. وكان له جولات وصالات في هذه المنطقة وكان على صلة وثيقة بملوك وسلاطين هذه المنطقة. وكلمة نقشبند فارسية الأصل، وهي تعني حرفيًا أثر النقش، ومجازًا علامة سلوك الطريق. ويفسر المؤرخون اسمه "نقشبند" بـ "نقاش" على أن معناه على حسب بعض المؤرخين "رسم صور منقطعة النظير لعلم الله". لترجمته راجع: الموسوعة الإسلامية الميسرة، 2/1222-1233، ويقول بعض الباحثين إنه لُقّب بهذا اللقب لأنه أمر شيوخ هذه الطريقة بالذكر سرًا في الانفراد والجمع على السواء، حيث كان شيوخ هذه الطريقة حتى زمانه يذكرون الله خيفة في الانفراد وجهرًا في الجمع... فكان لذكرهم السري هذا، أثره البالغ في قلوب المريدين، فقليل لذلك الأثر: نقش، أما كلمة "بند" فتعني الربط، فصار المعنى: ربط النقش، والنقش يعني بلوغ الكمال الإنساني، فيسوي الكامل "نقشبند" أي لازم النقش أو مربوط النقش، راجع: التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر النابلسي، ص 233 وما بعدها، وللشيخ نقشبند مؤلفات عديدة في التصوف ومنها "الأوراد الهائية"، و"سلك الأنوار" في التصوف، و"هدية السالكين وتحفة الطالبين" في التصوف راجع ترجمته في جامي: نفحات الأنس، ص 415-419

³ ترك الخواجه الغجدواني أربعة خلفاء ومنهم عارف ريوكري المتوفى عام 657هـ/1259م الذي يعتبر أول شيخ لخواجه بهاء الدين نقشبند والذي يربط الأخير إلى الطريقة الخواجكانية. وتأتي أسماء

تأسيس الطريقة النقشبندية في الهند: يعدّ الشيخ الصوفي الخواجه نصير الدين عبيد الله الأحرار المتوفى عام 895هـ/1490م من الصوفية النقشبندية، وهو من أهم تلامذة الشيخ يعقوب الجرکهي التلميذ المباشر للشيخ بهاء الدين نقشبند،¹ الذي بذل المجهودات كافة في نشر وترويج الفكر الصوفي النقشبندي في بلاد ما وراء النهر لا سيما في تاشقند التي أنشأ فيها المدارس والخانقاهات النقشبندية، وتمكّن من تكوين الكوادر الصوفية الذين قاموا بتفعيل النشاطات الصوفية النقشبندية في هذه المناطق التي كانت تابعة آنذاك للأسرة المغولية التيمورية. وأثروا من خلال نشاطاتهم الدينية والفكرية في سياسة الدولة المغولية الفتية. وساعد الشيخ ملوك هذه الأسرة على تقوية دولتهم سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا. وكان له تأثير قوي للغاية في اتخاذ القرارات السياسية حيال مستقبل هذه الدولة.²

وقد ترك الشيخ خلفه كثيرًا من تلامذته من العلماء والصوفية والسلاطين الذين روجوا الفكر الصوفي النقشبندي وكانت لهم علاقة وطيدة مع أسرة شيخه وشيوخ الصوفية النقشبندية الآخرين. ومن السلطين التيموريين السلطان عمر الشيخ ميرزا المتوفى 897هـ/1492م، وولده الأكبر السلطان ظهير الدين بابر المتوفى عام 937هـ/1531م. وعلى الرغم من أن الأخير لم يقابل الشيخ عبيد الله أحرار، ولكن كان مرتبطًا جدًا بأحد تلاميذ الشيخ عبيد الله أحرار وهو محمد القاضي.³ ولما تمكّن السلطان بابر من فتح الهند وتأسيس الدولة المغولية في عام 932هـ/1526م، مما وفر الفرصة الرائعة للشيخ

هؤلاء الخلفاء الأربعة كالآتي: 1. الخواجه عارف ريوكري المتوفى عام 670هـ/1271م، 2. عزيز علي الراميتني المتوفى عام 705هـ/1306م، 3. محمد باب السماسي المتوفى عام 740هـ/1340م، 4. السيد أمير كلال البخاري المتوفى عام 772هـ/1371م. ثم يأتي الشيخ الصوفي خواجه بهاء الدين نقشبند. للتفصيل راجع ترجمتهم في جامي: نفحات الأنس، ص 410-412

Rizvi: A history of Sufism in India، 1/96-97

¹ لترجمة الشيخ جرکهي راجع جامي: نفحات الأنس، ص 427-428

² عن حياته الدينية والفكرية والسياسية راجع عارف نوشاهي: خواجه أحرار، ص 81-109-115

³ State and culture in Medieval India، ص 161

النقشبندية لتفعيل النشاطات الصوفية النقشبندية في رعاية الدولة التيمورية الفتية في الهند.¹ وقد استقر كثير من الأسر الصوفية النقشبندية التي وصلت إلى الهند إثر فتوحات ظهير الدين بابر والتي كان يحترمها السلطان بابر احترامًا بالغًا.²

وكتب السلطان بابر في سيرته الذاتية حول وليمة نظمها في آگرا في تقدير واحترام المشايخ النقشبندية فيقول: "جلسنا معًا في الجانب الشمالي من جناح حديثي البناء ذي ثماني زوايا وأضلاع. وجلس على جانبي الأيمن الخواجه عبد الشاهد والخواجه كلان، وهما من أحفاد الشيخ عبيد الله أحرار... جنبًا إلى جنب مع الشيوخ والعلماء النقشبندية...³ وكان بابر يرجع إلى الشيوخ النقشبندية في الشؤون السياسية والدينية، حتى وفي بعض الحالات الحرجة من الأمراض والأزمات الأسرية. ونذكر هنا مثالًا واحدًا، حيث تفيد المصادر المعاصرة أنه بعد سنوات من تأسيس الدولة التيمورية في الهند حدث أن الأمير همايون أصيب بمرض خطير في مدينة سنهبل، وكان السلطان بابر في حالة السخط والحرج الشديد من مرضه الذي ربما طال لبعض الوقت. ورجع السلطان إلى الصوفية النقشبندية الذين أوصوه بممارسة بعض الأعمال ومنها الطواف بسيرير همايون المريض ثلاث مرات، وقام بها بابر وشفى ابنه على الفور.⁴

¹ يؤكد بعض الباحثين معتمدًا على المصادر النقشبندية على أن أول صوفي نقشبندي وصل إلى الهند هو الشيخ بابا ولي الذي استقر في كشمير. راجع: كلمات طبيبات، ملفوظات الشيخ باقي بالله، ص 4-5 وكذا راجع: (State and culture...P.159)، بينما كتب بعض الباحثين أن كثيرًا من تلامذة الشيخ أحرار رحلوا إلى مشارق الأرض ومغاربها لنشر الفكر الصوفي النقشبندي، ومنهم الشيخ الصوفي فياضي البخاري الذي مكث لبعض الوقت في الصين التي قضى في جبالها وصحرائها لممارسة الرياضات الصوفية وقبل الحملات العسكرية التيمورية في زعامة بابر وصل إلى راجستھان وتوفي هناك. راجع: Rizvi: A history of Sufism in India، vol. 2، P.180.

² تفيد المصادر أنه اصطحب السلطان بابر أحفاد الشيخ أحرار معه إلى كابل وآگرا والذين استقروا في الهند مع أسرهم. وبسبب تأثيره بالفكر الصوفي النقشبندي قام بابر بنقل كتاب الشيخ "رسالة والدية" إلى اللغة التركية. عن علاقته مع أسرة الشيخ راجع عارف شاهي: خواجه أحرار، ص 115.

³ راجع: بابر نامه، ص 631.

⁴ "بخلوت خاص در آمدہ شغل کہ در سلسلہ قدسیہ خواجہائے نقشبند رضوان اللہ علیہم اجمعین مقرر است بجا آورده سه بار بر گرد فرزند سعادت پیوند گردیدند" راجع: إقبال نامه،

20/1 نقلًا عن: P162، Khaliq Ahmed: State and culture...

وورث أحفاد بابر تقاليد آبائهم وأجدادهم في توفير الشيوخ النقشبندية واحترامهم وتقديرهم وإعطائهم الأراضي والعقارات لممارسة النشاطات الصوفية النقشبندية.¹ وفي عهد السلطان همايون وصل الخواجه خوند محمود، وهو من سلالة الخواجه عبيد الله أحرار، إلى الهند، استقبله السلطان المذكور بترحيب بالغ.² وكذلك صار كامران أخو السلطان همايون تلميذًا للشيخ عبد الحق صنو الشيخ خوند محمود المذكور.³ وقد زاد تأثير المشايخ النقشبندية في الإدارة المغولية في بداية عهد السلطان أكبر، وتفيد المصادر بوصول واستقرار كثير من الأسر النقشبندية من وطنهم الأصلي إلى آگرا وفي المناطق الهندية الأخرى.⁴ وكثير من هؤلاء الصوفية النقشبندية حصلوا على الوظائف الإدارية والعسكرية.⁵ ويبدو من خلال الأحداث التاريخية أنه قد تم

¹ ناقش بعض الباحثين الوضع الصوفي في المجتمع في العصور الإسلامية ودورهم في تأسيس الدول والإمارات المحلية. وأتى بذكر كثير من الإمارات الإسلامية التي قامت في الهند إثر سقوط سلطنة دهللي، والتي ساعد فيها الصوفية الأسر الحاكمة مساعدة معنوية ومن أهمها الإمارات التي قامت في الدكن، وكجرات، ومالوه، وبنغال، وجونپور وغيرها، والتي منحت لشيخو الطرق الصوفية أموالًا طائلة لتفعيل وتنشيط ممارساتهم الدينية والفكرية من خلال الخانقاهات والزوايا التي حظيت طيلة تاريخ الهند الإسلامي برعاية الحكام المسلمين في الهند، إذ كانوا يتقربون إلى الناس بالإحسان إلى أولئك الصوفية وبرعاية الخانقاهات التي يعيش فيها المتصوفة. وسوف نذكر لهذا أمثلة عديدة في الصفحات الآتية، للتفصيل راجع:

Khaliq Ahmed: Nizami: Akbar and Religion (Idarah –i-Adabiyat-i-Delhi 1989)، P.92

² State and culture in Medeval India، ص 162

³ أكبر نامہ (ترجمة إنجليزية)، 195/2.

⁴ ومنهم على سبيل المثال خواجه عبد الشهيد من أحفاد الشيخ عبيد الله أحرار، عاش في الهند لثمانية عشر عامًا في نشر الفكر الصوفي النقشبندي، وتوفي عام 982هـ/1574م، راجع: منتخب التواريخ، 3/395-396 ولما قدم الشيخ يحيى، وهو أيضًا من سلالة الشيخ عبيد الله الأحرار، إلى الهند، استقبله السلطان أكبر بحفاوة بالغة، ورفع قدره، ومنحه أرضًا لنفقاته، وبعثه أميرًا على قافلة الحج إلى مكة المكرمة، ولما عاد من سفر الحج، جهز له الإقامة الدائمة في مدينة آگرا.

راجع: منتخب التواريخ، 3/447-448

⁵ A history of Sufism in India، 181/2

التقسيم في صفوف المشايخ النقشبندية حيال القرارات السياسية والدينية التي أخذها السلطان أكبر بعد عام 1579م. حيث تفيد المصادر أن الصوفية النقشبندية الذين كانوا يعملون في الإدارة والجيش عبروا عن ولائهم للسلطان وكذلك دعموا السياسات العامة الشاملة التي اتخذها السلطان لتطوير الأجهزة الإدارية والسياسية والدينية وتنظيمها.¹ أما الصوفية النقشبندية الذين جاؤوا من كابل وقضوا بعض السنوات في رعاية وإشراف الأمير ميرزا عزيز كوكا، هو أخ من الرضاة للسلطان أكبر، كانوا موالين للأمير المذكور، والذين عارضوا بشدة هذه السياسات الدينية والإدارية التي اتخذها السلطان أكبر. ومنهم على سبيل المثال الشيخ الداعية "الخواجه عبيد الله الكابلي" تلميذ الشيخ لطيف الله النقشبندي، والذي انخرط في البلاط الأكبر، وذلك بعد قضاء بعض السنوات في عملية الدعوة والإرشاد في كابل تحت رعاية الأمير ميرزا كوكا. وتدخل في بعض المجادلات الدينية التي كانت تحصل آنذاك في البلاط السلطاني بين العلماء والصوفية، ولما لم يعجب السلطان كلامه ونقاشه أبعدته إلى المناطق الهندية الأخرى.²

إلى جانب هؤلاء المشايخ النقشبندية الذين أثروا في السلاطين المغوليين، هناك بعض المشايخ الذين استقروا في بعض المناطق الهندية الأخرى بعيداً عن العاصمة آگرا. وكانوا بصلة وثيقة بالإدارة المغولية التي تعتقد فيهم وترجع إليهم في الشؤون السياسية والدينية. ومنهم على سبيل المثال الخواجه خاوند محمود البخاري المعروف بحضرت ايشان قدس المتوفى عام 1052هـ/1642م، الذي عاصر كلاً من السلطان أكبر وجهانگیر وشاهجهان، وكان له علاقات جيدة مع هؤلاء السلاطين والإداريين. وهو الذي فتح الطريق أمام الصوفية النقشبندية في منطقة كشمير لتفعيل نشاطاتهم الفكرية. وتمكن خلال وجوده في كشمير من فتح الخانقاهات والمدارس النقشبندية في رعاية الإدارة المغولية التي وفّرت له كل التعاون المادي والمعنوي. وكان

¹ Muslim Revivalist Movements in Northern India in the Sixteenth and Seventeenth Centuries 82-81 ص ،

² A History of Sufism in India 181/2 ،

يعتقد فيه كثير من الوزراء والأمراء إلى جانب بعض الأميرات مثل السلطانة سليمة بيگم، وكلرخ بيگم. وبجانب منطقة كشمير كان يتردد إلى لاهور ودهلي وأكرا العاصمة، وكان السلاطين والأمراء يكرمونه غاية الإكرام، وبايعه ألوف من الناس.¹ وهناك شخصيات صوفية نقشبندية أخرى كثيرة ولها إسهامات جلية في ترويج الفكر الصوفي النقشبندي في ربوع الهند.² وخوفاً من الإطالة نكتفي بهذا القدر مع ذكر ترجمة وجيزة للشيخ عبد الباقي النقشبندي المعروف بـ"الباقي بالله" وهو شيخ المشايخ لأحمد السرهندي الذي سنذكر عنه في الصفحات التالية.³

ويعدّ الشيخ الخواجه عبد الباقي المتوفى عام 971هـ/1563م من كبار الشيوخ النقشبندية الهندية، الذي تطورت الطريقة النقشبندية في عهده؛ وذلك بعد وصوله إلى دهلي من كابل.⁴ وتفيد المصادر النقشبندية الموثقة أنه لم يعيش إلا أربع سنوات بعد قدومه إلى دهلي، وفي تلك المدة الوجيزة وفق الشيخ باقي بالله بترسيخ دعائم

¹ عن ترجمته راجع: خزينة الأصفياء، 174/3-175، وكذا راجع: الإعلام، 526/2 عن علاقاته مع الأمراء والأميرات راجع: Rizvi: A history of Sufism in India، 2/183.

² لتراجم أعلام الصوفية النقشبندية راجع: خزينة الأصفياء، 305-167/3.

³ جاءت ترجمته في الإعلام بشيء من التفصيل، وأذكر هنا بعض المقتطفات بتصرف. الشيخ عبد الباقي النقشبندي المعروف بخواجه باقي بالله، كان من العلم والمعرفة آية من آيات الله تعالى... ولد في حدود عام واحد أو اثنين وسبعين وتسعمئة بكابل، وأخذ العلوم النقلية عن الشيخ محمد صادق الحلواني، وسار معه إلى ما وراء النهر ولازمه مدة، ثم بدا له الدخول في طريق الصوفية فترك تحصیل العلوم وطاف حول مجالس كثير من كبار مشايخ نقشبندية في بلاد ما وراء النهر وكابل ولاهور إلى أن وصل إلى دهلي، واختار للإقامة القلعة الفيروزية التي كانت مطلّة على نهر جمنا وبها مسجد عظيم، فأقام هناك إلى أن توفي عام 1012هـ/1603م. وكان صاحب الأذواق... كثير التواضع... وكان يعتمد في ستر أحواله وسيرته عن أنظار الآخرين، ولا يرى نفسه أهلاً لمقام النصيح والإرشاد... وكان كثير الصمت وذا خلق حسن لا يتميز عن الناس بشيء، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه وأن لا يعاملوه إلا كما يعامل بعضهم بعضاً... ومن مصنفاته الرسائل البديعة، والمكاتيب العلية، والأشعار الرائقة، منها سلسلة الأحرار، شرح فيه رباعياته في الحقائق والمعارف باللغة الفارسية. راجع: الإعلام، 353-351/2.

⁴ لسيرته راجع: خواجه باقي بالله

الطريقة النقشبندية، وبلغ أصحابه إلى أعلى مدارج الكمال حتى أنهم فاقوا أسلافهم من الشيوخ النقشبندية الهندية من خلال تفعيل النشاطات النقشبندية وفكرها في ربوع الهند، ولم يكتب لهم النجاح مثلما حصل الشيخ عليه خلال وجوده في دهلي، ومن هنا غلبت الطريقة النقشبندية على الطرق الصوفية الأخرى.¹

وعلى حسب المصادر المعاصرة واللاحقة كان الشيخ كثير التواضع والانكسار، وما كان يحب الشهرة. ولكن لدى وصوله إلى دهلي دخل عدد كبير من الأمراء والوزراء في زمرة مريديه، وكان ذلك بسبب اعتقاد الإدارة المغولية في المشايخ النقشبندية. ومن كبار الوزراء الذين رحبوا به الشيخ فريد بخاري، وعبد الرحيم خان خانان، وغيرهما. وكان الشيخ يرأسهم ويشير عليهم في الشؤون الإدارية والسياسية.²

وعلى الرغم من أن الشيخ فريد قام بإنشاء الخانقاه النقشبندية للشيخ الباقي بالله على حسابه الخاص.³ ويؤكد على ذلك كلام الشيخ أحمد السرهندي الذي أشار في إحدى رسائله على رعاية خاصة للشيخ فريد على الشيوخ النقشبندية مع توفير كل الدعم المادي والمعنوي لهم.⁴ ولكن الصوفية النقشبندية المتأخرين ينكرون ذلك، وتفيد بعض المصادر النقشبندية أنه ما كان يقبل الأموال من الإدارة المغولية والأمراء والوزراء. ومنهم الوزير الكبير عبد الرحيم خان خانان الذي أرسل مئة ألف روبية كنفقة السفر لأداء الحج لدى المعرفة عن عزم الشيخ على ذلك، فرفض الشيخ

¹ راجع: زبدة المقامات، ص 58

² A History of Sufism in India، 192/2

³ State and Culture in Medieval India، ص 163

⁴ راجع المکتوب الرابع والخمسين المرسل إلى الشيخ فريد، يقول الشيخ أحمد السرهندي فيه: "... قد ورد أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فشكر إحساناتكم لازم لنا فإنكم كنتم أولاً سبباً لجمعية حضرة شيخنا، فطلبنا الحق سبحانه وتعالى ببركتكم في تلك الجمعية ونلنا حظاً وافراً من تلك الأمنية، ولما بلغت النوبة هذه الطبقة بحكم: كبرت بموت الكبراء كنتم مرة ثانية واسطة اجتماع الفقراء وباعثاً على انتظام نظام الطالبين الغرباء فجزاكم الله سبحانه عنا خير الجزاء..." المکتوبات، 97/1

مساعدته المالية وأعادها إليه مع التوبيخ.¹ وكلامهم يتناقض مما كتبه الشيخ أحمد السرهندي عن المساعدة المادية والمعنوية التي قدّمها الشيخ فريد للشيخ باقي بالله لإنشاء الخانقاه النقشبندية ولإدارة شؤونها المالية.

وفي الواقع معظم الصوفية من السلاسل الصوفية ينكرون أن المؤسسات الصوفية وأعلامها كانوا يقبلون العطايا والأموال المتقدمة من جانب الدولة وعناصرها من الأمراء والوزراء، ولكن هذا غير صحيح؛ لأن الخانقاهات كانت تتطلب الاهتمام الكبير مادياً لإدارة نشاطاتها المتنوعة بما فيها تنظيم المطابخ العمومية لتوفير الطعام والشراب للمريدين والفقراء والمساكين والمحتاجين الزائرين. ومن هنا كانت هذه المؤسسات الصوفية بحاجة إلى الوسائل المادية القوية لتوفير الأموال بالاستمرار لسدّ الاحتياجات اليومية، وكان من الصعب أن توقّر كل هذه الأموال دون مساعدة الدولة وتعاونها مباشرة أو بصورة غير مباشرة بواسطة الأمراء والوزراء وأعيان الدولة والأثرياء.

هذا، وقد ترك الشيخ الباقي بالله كثيراً من تلامذته ومريديه، والأخص منهم الشيخ تاج الدين بن سلطان العثماني السنبهلي، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البدخشي، والشيخ إله داد الدهلوي والشيخ أحمد السرهندي الذي سنذكر ترجمته الوجيزة في الصفحات الآتية.²

المبحث الثالث: ترجمة وجيزة للشيخ أحمد السرهندي

تنتمي أسرة الشيخ أحمد السرهندي إلى الشيخ شهاب الدين علي فرخ شاه الكابلي جده الخامس عشر، وهو مؤسس هذه الأسرة في كابل وفي الهند. وكان يعدّ من الفضلاء النوابغ والمصلحين والدعاة. وعلى حسب بعض المصادر النقشبندية يتصل نسبه بسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه باثنتين وثلاثين واسطة.³

¹ زبدة المقامات، ص 52

² المصدر نفسه، ص 111

³ يعتبر كتاب "الجنات الثماني" من أقدم الكتب النقشبندية المجددية سطره الشيخ عبد الأحد وحدت المتوفى عام 1126هـ، وهو حفيد الشيخ أحمد السرهندي. وله مخطوط وحيد في مكتبة آزاد

ويعتبر السلطان فرخ شاه الكابلي أول من انحدر إلى الهند مع الأسرة وأسهم في النشاطات الدعوية. واستقرت هذه الأسرة العلمية إلى سرهند، ومعناها رأس الهند، بعد تأسيس القلعة والمسكن في داخلها بيد الشيخ رفيع الدين أحد أجداد الشيخ أحمد السرهندي. فهو مؤسس هذه المدينة، ولم تزل هذه الأسرة منذ ذلك الوقت ساكنة في هذه المدينة،¹ وعلى حسب بعض الباحثين إن تأسيس القلعة وبداية عمران هذه المدينة في سرهند كانا في عام 760هـ/1358م.²

من الولادة إلى الإجازة: ولد الشيخ الإمام أحمد السرهندي ليلة الجمعة 14 شوال عام 971هـ/الموافق 1563م بمدينة سرهند، في الأسرة المتدينة. فكان أبوه الشيخ عبد الأحد المتوفى عام 1007هـ/1598م يعدّ من العلماء الربانيين والمخلصين والمتواضعين والمهتمين بالسنن النبوية والمحبين لأهل بيت رسول الله وأصحابه رضوان الله أجمعين

عليكـه تحت رقم "عبد الأحد مجموعة رسائل الشيخ، شيفة عربية رقم 72/65، وعلى حسب هذا المخطوط جاء نسبه كالآتي: الشيخ أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين بن عبد الحي بن محمد بن حبيب الله بن الإمام رفيع الدين بن نور بن نصير الدين بن سليمان بن يوسف بن إسحاق، عبد الله بن شعيب بن أحمد بن يوسف بن السلطان فرخ شاه الكابلي بن نصير الدين بن محمود بن سليمان بن مسعود بن عبد الله الواعظ الأصغر بن عبد الله الواعظ الأكبر بن أبي الفتح بن إسحاق بن إبراهيم بن ناصر بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه". في المخطوط المذكور بعض الأسماء من رقم 27 إلى 32 متروك فيها. راجع: الجنات الثماني، ورقة 31-32. وأيضًا: زبدة المقامات، ص 137

¹ راجع: الجنات الثماني، ورقة 32

² الإمام السرهندي حياته وأعماله، ص 116-117، وقد استوطنت في هذه المدينة أسر علمية كريمة، وأنجبت هذه المدينة عددًا من نوابغ الرجال وكبار العلماء والمصلحين وبلغت ذروة التقدم والعمران وتوطدت صلتهما بالثقافة الإسلامية في بداية القرن العاشر. وأسهمت الأسر العلمية والدينية في عملية التدريس والإفادة والتربية والإرشاد والإصلاح، وقد بلغت هذه المدينة في الرخاء والهاء أوجها في العهد المغولي حتى كان فيها 360 مسجدًا ورباطًا وغيرها من المنشآت المدنية. راجع: المصدر نفسه، ص 117

على حد قول بعض المصنفين النقشبنديين.¹ بدأ تعليمه بحفظ القرآن تحت رعاية وإشراف والده، وحفظ القرآن الكريم الكامل في صغره، وأخذ عنه مبادئ الكتب المتداولة وعن شيوخ مدينته. ثم رحل إلى سيالكوت وقرأ العلوم الإسلامية على الشيوخ والعلماء النوابغ ومنهم الشيخ كمال الدين الكشميري، وأخذ الحديث عن الشيخ يعقوب الصرفي الكشميري الذي أخذه بدوره عن محدث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي.² وفرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية ولم يبلغ عمره أكثر من سبعة عشر عامًا، وعاد إلى بلده وجلس على كرسي التدريس والإفادة. وشدّ كثير من طلاب العلم رجالهم من داخل الهند وخارجها للاستفادة العلمية من الشيخ الذي كان يعقد حلقاته العلمية في التفسير والحديث والعلوم الإسلامية الأخرى.³

من التدريس إلى البيعة للخواجة عبد الباقي: وفي أثناء عملية التدريس والإفادة فكر الشيخ في الحصول على مزيد من العلم والمعرفة لا سيما وأنه سمع عن تجمع العلماء في العاصمة آگرا، وعلى كل شدّ رحاله واكتسب شهرة كبيرة خلال مدة وجيزة بين العلماء لما له من اليد الطولى والرسوخ في العلوم العقلية والنقلية. وكانت له جلسات علمية أيضًا مع علماء بلاط السلطان أكبر المتوفى عام 1014هـ/1605م، وأخص منهم أبا الفضل المتوفى عام 1011هـ/1602م، وصنوه فيضي المتوفى عام 1004هـ/1595م. وتفيد بعض المصادر أنه ساعد أيضًا في تفسير معاني بعض الآيات القرآنية في تفسير

¹ راجع: زبدة المقامات، ص 141-184، وتقول المصادر إن ميزة الشيخ عبد الأحد تتجلى في المواقف مع الحق والباطل والدليل الشرعي، والخضوع له، والإنصاف من نفسه، وتعظيم الشريعة الإسلامية والسنة النبوية وإجلالها، والسعي لاتباعهما، والعناية بتطبيقهما، والحمية الدينية وعلو الهمة والطموح في ارتقاء درجات الإحسان، والتقدم في مراتب الإيمان، وقد ورثت منه هذه الخصائص والميزة الباهرة ابنه الشيخ أحمد السرهندي. راجع: زبدة المقامات، ص 182

² ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري عام 980هـ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم، وأخذ الطريقة الكبروية من الشيخ حسين الخوارزمي وصحبه مدة طويلة، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين ودرس على علمائهما الحديث وحمل من هناك كتبًا قيمة في الفقه والحديث والتفسير، وتوفي عام 1003هـ، راجع لترجمته: الإعلام، 2/665.

³ لمزيد من المعلومات عن تعليم الشيخ أحمد وتربيته راجع: زبدة المقامات، ص 189 وما بعدها.

فيضي غير المنقوط "سواطع الإلهام"، مما جعل الأخير المعترف بغزارة علمه، وسيلان طبعه، ورسوخه في العلم¹. وعلى رغم ذلك إنه من الصعب للتصديق على أنه اكتسب شهرة واسعة في سن السابعة عشر وخلال هذه الفترة الوجيزة أن يدع من جانب البلاط الملكي أن يساعد الوزيرين أبا الفضل والفيضي على إنجاز الأعمال الأدبية والدينية. ومن هنا رفض بعض الباحثين المحدثين هذه الواقعة مؤكّداً على أن الواقع لا يؤيد ذلك، إنما هي مذكورة فقط في المصادر النقشبندية وغير ثابت تاريخياً بسبب انطوائه على مفارقة تاريخية².

وعلى كل حال بسبب الاختلاف الفكري والعقائدي لم ينسجم طبعه معهما، لا سيما بعد أن دخل معهما إلى الحوارات الدينية الطويلة عبراً خلالها السخرية والاستهزاء والتحكم في الشريعة الإسلامية والنبوة المحمدية³. وفي تلك الفترة قامت القنوات

¹ راجع: حضرات القدس، 11-10/2

² Shaykh Ahmed Sirhindi، ص 13

³ كان الوزير أبو الفضل يعتقد في الله سبحانه وتعالى ولكنه كان ينكر الشريعة الإسلامية والعبادات، والأديان جلها كانت غير صحيحة في نظره لأنه كان يثق بالعقل فقط ومن خلاله يحكم على الأفكار الدينية. ويبدو من خلال كتاب الشيخ إثبات النبوة أنه رد عليه فيما يتعلق بتقييم الدين بالعقل، حيث ينتقد فيه الشيخ فيقول: "قالوا أي أصحاب العقول اتبعنا الشرائع فوجدنا مشتملة وعلى ما لا يوافق العقل والحكمة فعلمنا أنها ليست من عند الله كإباحة ذبح الحيوان وإيلامه لمنفعة الأكل وغيره... راجع: إثبات النبوة، ص 29 ولترجمة أبي الفضل وأفكاره الدينية والفكرية راجع :

Rizvi: Religious and Intellectual History of the Muslims in Akbar's Reign (Munshi Manoharlal publication، Delhi)، P.339-73

ولم تكن تلك الأفكار الهدامة متوقفة عند الأخوين بل يحمل معظم الإداريين وفي البلاط السلطاني مثل هذه الأفكار الدينية المنحرفة. وقد عبّر عن ذلك الشيخ أحمد في كتابه "إثبات النبوة" والذي أعدّ للرد على منكري النبوة والشريعة الإسلامية قائلاً: "...إني لما رأيت فتور اعتقاد الناس في هذا الزمان في أصل النبوة ثم في ثبوتها وتحقيقها لشخص معين، ثم في العمل بما شرعته النبوة وتحقيق شيوخ ذلك في الخلق حتى إن بعض متغلبة زماننا عذب كثيراً من العلماء بتشديدات وتعذيبات لا يناسب ذكرها لرسوخهم في متابعة الشرائع وإذعان الرسل وبلغ الأمر إلى أن يهجر التصريح باسم خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام في مجلسه ومن كان مسعياً باسمه الشريف غير

الشيوعية من الدولة الصفوية الشيعية إلى الهند بترويج المذهب الشيعي ونشره عبر القنوات العديدة بما فيها إجبار السنين على اعتناق المذهب الشيعي. فكتب الشيخ أحمد السرهندي كتابين للرد على نشاطاتهم الشيعية ضد السنة. أولهما "الرسالة التهليلية"¹ ووثانها "رسالة رد روافض" وذلك في عام 1002هـ تقريباً،² وتمكن قبل ذلك بكتابة "إثبات النبوة" في عام 994هـ/1585م.³ وقد مكث الشيخ لبعض السنوات في آغرا ثم غادرها بمعية والده إلى بلده سرهند. وفي الطرق مرّ بمدينة تهانيسر، استقبلهما الشيخ سلطان- الذي كان من رؤساء هذه المدينة وأعيانها، وكان والياً على منطقة تهانيسر- بحفاوة بالغة، وأكرمهما غاية الإكرام، وأنزلهما عنده ضيفين مبجلين، وأبدى رغبته في تزويج ابنته من الإمام السرهندي، فقبل والده هذه المصاهرة، وخطب خطبة النكاح، وتم الزواج، وسارت الزوجة مع القافلة إلى سرهند.⁴ وقبل أن يقابل الشيخ محمد عبد الباقي أخذ عن والده الطريقة القادرية والجشتية للتربية والسلوك وأعطاه والده خرقة في هذه الطرق وجعله خليفة له.⁵

اسمه إلى اسم غيره ومنع ذبح البقرة وهو من أجل شعائر الإسلام في الهند وخرب المساجد ومقابر أهل الإسلام وعظم معابد الكفار وأيام رسوماتهم وعباداتهم وفي الجملة أبطل شعائر الإسلام وأعلامه وروج رسوم الكفار وأديانهم الباطلة حتى أظهر أحكام كفر الهند فنقلها من لغتهم إلى اللغة الفارسية ليمحو آثار الإسلام وكلها...." راجع: إثبات النبوة، ص 11-12

¹ سطرها باللغة العربية وتناول فيها قضية التوحيد وشهادة لله، ومعجزات القرآن، ومعجزات النبي بالإضافة إلى دلائل النبوة وفضائلها. وتقع هذه الرسالة نحو عشرين صفحة. راجع: رسالة تهليلية

² ألفها باللغة الفارسية، راجع: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 306.

³ ألفها أيضاً باللغة العربية وعالج فيها قضايا عديدة متعلقة بأصل النبوة وإثباتها وتحقيقها تحت عناوين عديدة ومنها: البحث الأول في تحقيق معنى النبوة، والبحث في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وحقيقة النبوة ومقاصدها وكيفية إثباتها، بالإضافة إلى ذكر الطرق للرد على المنكرين بمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم، ومقاصد البعثة النبوية إلخ وتقع هذه الرسالة نحو واحدة وأربعين صفحة. راجع: إثبات النبوة

⁴ راجع: روضة القيومية، ص 67-68؛ وأيضاً: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 88

⁵ راجع: حضرات القدس، 7/2-11 وقد كتب الشيخ السرهندي في أحد مکتوباته عن انتمائه إلى هذه الطرق، فيقول: "... وإرادتي متصلة بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بوسائط كثيرة فيبيني وبينه

وقد ذكر بعض الباحثين أن الشيخ أحمد حج بيت الله الحرام عام 1008هـ/1599م،¹ ولكن المصادر النقشبندية لا تفيد بذلك إطلاقاً،² إنما تفيد أنه خرج من بلده عازماً على أداء مناسك الحج وذلك بعد وفاة أبيه عام 1007هـ/1598م إلا أنه قابل صديقه القديم الشيخ حسن الكشميري الذي أوصله في خدمة الشيخ عبد الباقي بالله الذي كان قد اكتسب الشهرة بسبب علو مكانته وجلالة شأنه، وقوة باطنه، وقد سمع الشيخ أحمد عن الطريقة النقشبندية، ويبيد شوقه إليها، فذهب مع صديقه إلى الشيخ عبد الباقي ورغبت نفسه في مقابلة الشيخ، ورأى أن هذه الملاقاة ستوفر له زاد الطريق إلى الحجاز. ولدى المقابلة قال له الشيخ عبد الباقي: "أنت ذاهب إلى زيارة بيت الله، ولكن لو مكثت هنا لبعض الأيام لكان ممكناً أن تحصل على بغيتك مما ستطلبه في الحرمين الشريفين... وقال له عليك أن تمكث فقط لثلاثة أيام ولو ارتحت نفسياً فتكمل وإلا فستغادر للحرمين الشريفين..."³

وقد لبث الشيخ أحمد السرهندي بالفعل عند الشيخ عبد الباقي بالله لبعض الأشهر لكسب المعرفة والتربية الروحية التي كان يريدتها من هذا السفر. وعبر الشيخ في بعض مكتوباته عما وصل إلى مدارج الرقي والكمال، وما ظهرت فيه من آثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنة خلال فترة وجوده في خدمة الشيخ.⁴

في الطريقة النقشبندية واحدة وعشرون واسطة، وفي الطريقة القادرية خمس وعشرون واسطة، وفي الطريقة الجشتية سبع وعشرون واسطة...راجع: المكتوبات، 2/356، رقم المکتوب: 87

¹ راجع: الإمام السرهندي، ص 125

² لا سيما الجنات الثماني، وحضرات القدس، وزبدة المقامات، وروضة القيومية وهي أوثق المصادر المعاصرة للمعرفة عن حياة الشيخ ونشاطاته الدينية والإصلاحية.

³ عن وفاة والده ورحلته إلى دهلي ومقابلته مع الشيخ عبد الباقي راجع: حضرات القدس، 2/11-12

⁴ راجع المکتوب التسعين والمئتين إلى الملا محمد هاشم في بيان الطريق الذي خصّه الله سبحانه به في أوائل حال الشيخ أحمد السرهندي وتوفيقه لتسليك الطالبين إليه وبيان الطريقة النقشبندية مع ذكر نبذة من كمالات الشيخ عبد الباقي وكيفية وصوله إلى معدن الإرشاد ومنبع المعارف من خلال شيخه المذكور. المكتوبات الربانية 1/423-435

وقد زار الشيخ أحمد السرهندي شيخه مرتين بعد هذه الزيارة، حصل خلالهما على الإجازة والخرقة من شيخه لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين وتربية المريدين.¹ وهكذا التحق الشيخ بالطريقة النقشبندية وحمل أعباءها بعد وفاة شيخه عبد الباقي بالله. واستقر الشيخ في بلده سرهند لتخطيط وتنفيذ المشاريع الإصلاحية والتربوية التي كان يريدتها في داخل الهند وخارجها. ويبدو من بعض رسائل الشيخ عبد الباقي أن أسرة الشيخ أحمد السرهندي كانت تعاني من الفقر الشديد في ذلك الوقت. ولم تعط رسالة معلومة عما إذا طلب الشيخ أحمد السرهندي منه كتابة التزكية إلى صدر الصدور للموافقة على منحة سنوية للصرف على أسرته، أم كشف وضعه الصعب على شيخه فحرر التزكية باسم صدر الصدور مير صدر جهان بهاني الذي كان يعتقد في الشيخ عبد الباقي بالله وينتهي إلى الطريقة النقشبندية.² كتب الشيخ في التزكية فقال: "الشيخ أحمد السرهندي؛ عالم كبير ورجل صالح وتقي من سكان سرهند، صحبه العبد الفقير مدة يسيرة فشاهد عجائب أحواله، وعظيم صفاته. وأرجو أن يوفقه الله تعالى ليكون سراجاً يضيء العالم. وإنني على ثقة ويقين من أحواله كاملة، وأحوال أهله وأسرته وأقاربه من الطيبين والصالحين، ممن يعرف الفقير إلى الله البعض منهم، ويشهد بأنهم موهوبون وعلماء ربانيون. أما أبناء الشيخ فهم أيضاً يتحلون بالفضائل العلمية والمحاسن العملية وبلوغ المدايح الروحية العالية... وباختصار، تعاني هذه الأسرة الكريمة الكبيرة بسبب فقرها المحقق ودخلها المحدود من حالة مادية ومعيشية سيئة ومؤلمة. فالمرجو من سيادتكم التكرم بالموافقة على صرف منحة مالية سنوية لهذه الأسرة، فلو تمت الموافقة على ذلك لكان في ذلك خير كثير وأمر جدير بالثناء والتقدير، فالفقراء والمساكين هم بوابة الوصول إلى الله."³

¹ عن رحلاته إلى دهلي للحصول على التربية والسلوك من شيخه باقي بالله راجع: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 103-115.

² عن ترجمته: منتخب التواريخ، 3/478-479.

³ راجع: مکتوبات الباقي بالله، رقم المکتوب: 16، نقلاً عن السيد محمد عابد ميان: أنوار العارفين، ص 606-607، وأيضاً راجع في: Rizvi: A History of Sufism in India، 192-193/2.

وفاته: لقد اشتد المرض على الشيخ في آخر عمره وعلى حسب المصادر النقشبندية كتب إلى أبنائه طالبًا منهم الحضور إلى خدمته والذين حضروا إليه. وفي حضرتهم توفي الشيخ يوم الثلاثاء 28 من صفر عام 1034هـ/الموافق 10 ديسمبر عام 1624م. وصلى عليه ابنه الكبير الشيخ محمد سعيد وحمل النعش إلى قبره الذي جهزه في حياته.¹

أولاده: رزق الشيخ أحمد السرهندي بسبعة أبناء وثلاث بنات. وأسماء الأبناء كالآتي:

1. خواجه محمد صادق المتوفى 1025هـ/1616م؛ 2. خواجه محمد سعيد المتوفى عام 1070هـ/1650م؛ 3. خواجه محمد معصوم المتوفى عام 1079هـ/1659م؛ 4. خواجه محمد فرخ المتوفى عام 1025هـ/1616م؛ 5. خواجه محمد عيسى المتوفى عام 1025هـ/1616م؛ 6. خواجه محمد أشرف؛ 7. خواجه محمد يحيى المتوفى عام 1096هـ/1684م.²

وأسماء البنات كالآتي: 1. بي بي رقية بانو، 2. وبى بي خديجة بانو، 3. وبى بي أم كلثوم بانو.³

مؤلفاته: تعدّ مجموعات رسائله "المكتوبات" من أهم أعماله التي قام من خلالها بتنشيط عملية الإصلاح والتبليغ والدعوة والقضاء على الفتن والبدع والخرافات. وتعالج هذه المكتوبات أيضًا المسائل السياسية والعقائدية والأخلاق والمعرفة والتزكية والسلوك والعمران. وهذا لا يعني أنها خالية من الزلات، فهناك كثير من المسائل الشرعية وعلم الأسرار والأحكام فسّرها الشيخ معتمدًا على الأحاديث الموضوعية، والنكات الفلسفية التي تناولها الشيخ في إطار الفلسفة المعقدة وهي بعيدة كل البعد من التصوف الإسلامي الصحيح والواضح. وهذه الموضوعات خارجة

¹ وقد كتب تلميذه ومريده هاشم كشي بشيء من التفصيل والتوضيح عن وفاته راجع: زبدة المقامات، ص 379-404. وعن برامج اليومية وعاداته وشمائله راجع: المصدر نفسه، ص 274 وما بعدها.

² زبدة المقامات، ص 405-427؛ وسيرة مجدد ألف ثاني، ص 273

³ سيرة مجدد ألف ثاني، ص 373

عن النقاش في هذا البحث لأنها بحاجة إلى بحث مستقل للمناقشة. وتشتمل مكتوباته على ثلاثة مجلدات:¹

1. يحمل المجلد الأول ثلاث مئة وثلاث عشرة رسالة، جمعها خليفته يار محمد البدخشي الطالقاني في عام 1025هـ/1616م تحت اسم "در المعرفة".

2. يحمل المجلد الثاني تسعاً وتسعين رسالة جمعها ورتبها الشيخ عبد الحي الحصارى في عام 1028هـ/1618م تحت اسم "نور الخلائق".

3. ويحوي المجلد الثالث اثنتين وعشرين ومئة من الرسائل رتبها الشيخ محمد هاشم الكشي في عام 1031هـ/1621م تحت اسم "معرفة الخلائق". وقد ترجمت هذه المكتوبات إلى اللغات الأردية والتركية والعربية.²

وإلى جانب مكتوباته ألف الشيخ بعض الرسائل الوجيزة المهمة لتفنيد بعض الدعاوى الكاذبة حول النبوة والعقيدة الإسلامية ومنها:

1 الرسالة في إثبات النبوة: وسبق أن تناولت في الصفحات السابقة الأسباب التي دفعته إلى إعداد هذه الرسالة؛ 2. تعليقات لعوارف؛ 3. الحاشية على شرح العقائد الجلالى؛ 4. المقدمة السنية في انتصار الفرقة السنية؛ 5. مبدأ ومعاد؛ 6. مكاشفات غيبية؛ 7. معارف لدنية؛ 8. رد الروافض أو رد شيعة؛ 9. شرح رباعيات خواجه بيرنگ؛ 10. رسالة مقصود الصالحين؛ 11. رسالة تعيين ولا تعيين؛ 12.

¹ هناك مبحث خاص لذكر مؤلفات الشيخ أحمد السرهندي في المخطوط "الجنات الثماني" تحت عنوان: "الجنة الخامسة في ذكر مصنفاته العلية"، راجع ورقة 34، وقد بالغ مؤلف هذا الكتاب في وصف هذا الكتاب كأنه نزل من السماء كوحى، نعوذ بالله، على الشيخ أحمد السرهندي. وكتب أنه رأى الأمير محمد نعمان (في منامه) رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله قال شيخي (أحمد السرهندي) كذا وكذا، قال عليه السلام ما قال الشيخ أحمد فهو مطابق للواقع... ووقع في خاطري تردد في صحة معارف هذه المكاتيب هل مرضية له (الله) سبحانه وتعالى أو لا فألهمني الله تعالى أن ذلك كله صحيح ومرضٍ عندي ونشأ من كلامه". راجع الورقة نفسه.

² للتفاصيل عن ترجمتها وشرحها ومخطوطاتها راجع: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 296-303

رسالة در بيان مسألة وحدة الوجود؛ 13. آداب المريدين؛ 14. رسالة جذب وملوك؛ 15. رسالة علم حديث؛ 16. رسالة حالات خواجگان نقشبند؛ 17. مجموعة تصوف؛ 18. رسالة تهليلية؛ 19. كنوز الحقائق؛ 20. رسالة معرفة النفس ومعرفة الرب.¹

لا يعطي مخطوط "الجنات الثماني" كل هذه التفاصيل عن مؤلفات الشيخ وعن هذه الرسائل التي جمع معظمها تلاميذه بعد وفاته. ويبدو أن كثيرًا من هذه الرسائل أخذت من المباحث المذكورة في مكتباته ونشرت على حدة مما جعل فهرس مؤلفاته كثيرة، إنما الحقيقة أنه لم يسطر غير مكتباته ورسالة في علم الحقائق والسلوك وهو المبدأ والمعاد، والمعارف الدنية، والمكاشفة الغيبية، وإثبات النبوة، وشرح رباعيات شيخه عبد الباقي في علم التصوف، والرسالة التهليلية.²

خلفاؤه: على حسب المصادر النقشبندية أرسل الشيخ أحمد السرهندي عددًا كبيرًا من خلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد، فبعث بسبعين شخصًا تحت قيادة الشيخ محمد قاسم إلى تركستان، وأربعين شخصًا في إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز واليمن والروم والشام، وعشرة أشخاص من كبار المسؤولين تحت قيادة الشيخ محمد صادق الكابلي إلى كاشغر، وثلاثين خليفة من خلفائه بزعامة الشيخ أحمد البركي إلى توران وبدخشان وخراسان بجانب إرسال بعض خلفائه إلى المناطق الهندية.³ ومن العجيب أن عدد خلفائه المرسلين إلى الخارج يتفوق على المرسلين في داخل الهند برغم أن المجتمع الإسلامي الهندي كان بحاجة شديدة إلى أكبر قدر من الكوادر لإصلاحه دينيًا وثقافيًا، فهل كان هدف الشيخ الأول هو نشر

¹ للتفصيل عن بيانات هذه الرسائل راجع: سيرة مجدد، ص 304-308

² راجع: الجنات الثماني، ورقة 34-35

³ الروضة القيومية، 166/1-167؛ وعلى حسب المصادر النقشبندية لا سيما زبدة المقامات وحضرات القدس وصل عدد خلفائه الكبار إلى ثلاثة وخمسين خليفة. راجع: زبدة المقامات، ص 111-121؛ حضرات القدس، 2/266-382

الأفكار النقشبندية وتوسيع نطاقها في جميع أرجاء العالم وترويجها أم هو جزء من النشاطات الدينية الأخرى الآتية؟

المبحث الرابع: الوضع الديني في عهد الشيخ أحمد السرهندي ومنهجه في

عملية الإصلاح والإرشاد

الوضع الديني في عهد الشيخ أحمد السرهندي: لقد كانت هناك أسباب عديدة منها داخلية ومنها خارجية والتي دفعت المجتمع الإسلامي الهندي إلى الوقوع في خندق الانحرافات الدينية والعقائدية والخلقية وسيطرة الفكر الهندوسي على الفكر الإسلامي. ولم يتمكن المسلمون من إخراج أنفسهم من تأثيرات العادات الهندوسية وثقافتها طيلة فترة التاريخ الإسلامي الهندي. ومن أهم الأسباب الداخلية هي التخلف الثقافي الذي زاد بعد قيام الدول الإسلامية بيد الملوك والفاثحين من الترك والأفغان والمغول. ومن هنا بدلاً من أن يؤثر المسلمون في الفكر الهندوسي أثر الأخير تأثيراً بالغاً في الفكر الإسلامي عبر العصور الإسلامية كلها. ثم أهملت الحكومات الإسلامية تثقيف المسلمين الذين أسلموا من سكان البلاد، ودخلوا في دين الله من تلقاء أنفسهم أو بجهود الوعاظ والدعاة، فكانت النتيجة أن الجمهرة الكثيرة من أولئك الذين أسلموا ما انفكوا عاكفين على شعائرهم الدينية متسكعين في ظلام الشرك والوثنية. ثم كان هناك قصور كبير في تطوير المناهج التعليمية التي جرت عملية التعليم والتدريس في عصر الحكومات المسلمة الهندية والذي ترك أثراً كبيراً في بقاء الآلاف المؤلفة من المسلمين الجدد على عقائدهم الباطلة، وعاداتهم وتقاليدهم الزائفة الممتزجة بخرافات الوثنية الهندوسية. فإنهم لم يعطوا التعليم والتثقيف حقهما من العناية، ولم يهتموا أصلاً بتثقيف الناشئة المسلمة تثقيفاً صحيحاً. فكان هناك عدم الاعتناء بالكتاب والسنة الشريفة، وانحصار الدين في كتب الفقه وشرحها التي ألّفها المتأخرون من الفقهاء في الهند وفي إيران وما يجاورهما، وانكباب الدارسين على التقليد الجامد، وتهافتهم على دراسة خرافات الفلسفات اليونانية والهندية، وانحرافهم عن اللغة العربية وآدابها وبذل كل المجهودات في ترويج اللغة الفارسية وآدابها والثقافة الإيرانية أدّى كل ذلك في نهاية المطاف إلى امتزاج دين

التوحيد الخاص والنقي بالعقائد الوثنية والمجوسية وأوهام المتصوفة الهندوسية التي أثرت تأثيرًا بالغًا في تكوين الشخصيات الصوفية الإسلامية في الهند والذين أخذوا عن الفلسفات الهندوسية معظم التعاليم لممارسة الشعائر الصوفية من الرياضات والأوراد والأعمال التي يشتغل بها العباد الهندوس والجوكية من خلال نقل أعمالهم إلى اللغة الفارسية. ووجدت الطرق الصوفية الإسلامية ذات الخلفية الإيرانية بغيتها في الهند ووجدوا أرضًا خصبة للزواج والانتشار في الهند. وقامت الطرق الصوفية في ربوع الهند بتأسيس مراكز تربوية روحية لنشر أفكارهم الصوفية وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم وينتمون إليهم وإلى خانقاهاتهم، ويتمسكون بطريقتهم، ويوقرون لهم كل ما يحتاجون من الدعم المادي والمعنوي لترسيخ دعائمهم في الهند. وقد بلغت هذه الأوضاع الدينية المتردية منذ بداية القرن العاشر الهجري. كل ذلك أدى إلى القلق والفوضى في الأفكار، ودفع الناس إلى اعتناق دعوات وحركات خارجية أو داخلية والتي كانت تروي ظمأهم وكانوا يجدون فيها سلوهم، ونهجت لهم مسالك جديدة -خاطئة أو صحيحة- وخرجت بهم عن الدائرة المحدودة. كما أن من البواعث الأساسية، والدوافع القوية، لهذا الاضطراب الفكري، وغفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة، وقلة العلم بالحديث الذي يساعد على تكوين تصور سليم وفهم صحيح للدين الإسلامي.¹

ومن هنا، كانت الهند في القرن العاشر الهجري أرضًا خصبة لوصول واستقرار كثير من الفرق الدينية الباطلة التي نشأت وترعرعت في إيران وفي البلدان المجاورة لها بسبب وضعها الديني المتردي للغاية. ومن المعلوم تاريخيًا أن معظم الدعاة الملاحدة الذين خرجوا عن الإسلام وحاربوه باسمه، ينتمون إلى الأصول الفارسية. ومن أهم هذه الفرق الباطلة الخطيرة الفرقة النقطوية التي نشأت في إيران على يد "محمود

¹ مستفاد من الباب الأول لكتاب الإمام السرهندي حياته وأعماله، للشيخ أبي الحسن الندوي، ص 17-60

البيسخواني المتوفى عام 832هـ/1428م،¹ وظلت تنمو وتقوى إلى أن بلغ عدد أتباعه في القرن العاشر الآلاف المؤلفة في الهند وإيران. ووصلت إلى الهند بيد دعائها وأخص منهم شريف آملي الذي كان قد أصبح من أقرب مقربي السلطان أكبر، وساعده كثيرًا في وضع وترويج الدين الإلهي وكان السلطان أسند إليه قيادة الجيش، وعيّنه حاكمًا في كابل في عام 990هـ/1581م، كما عيّنه حاكمًا في إقليم بنگال في عام 990هـ/1581م، وكان من أخص أصحاب السلطان أكبر وأصدقائه، كان ينوب عن السلطان في مخاطبة أتباع الدين الإلهي والمعتقدين فيه.²

ومن الفرق الدينية الهدامة المستوردة إلى الهند "حركة ذكرى" التي كانت مؤسسة هي الأخرى على عقيدة انتهاء نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عند انتهاء الألف الأول من الهجرة، وبداية نبوة جديدة، ودعوة جديدة لبداية الألف الثاني، نشأت هذه الحركة

¹ حسب المصادر المعاصرة "نقطة" عبارة عن الإلحاد والزندقة والإباحية، واستحلال كل شيء، والاعتقاد بقدوم العالم وإنكار الحشر والنشور، ومن أشهر عقائدها الهدامة هي التناسخ بالأرواح والإيمان بالعقيدة الألفية، أي وضع دين جديد بعد كل ألف سنة. ولما مضى على الإسلام ألف سنة وظهر محمود البسيخواني فقد انتهى دور العرب على حسب عقيدتهم، وابتدأ دور العجم، وبهذا انتهت صلاحية الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم لأن مدتها ألف عام. للتفصيل راجع: فرقة نقطوية بر ايك نظر (نظرة عابرة على الفرقة النقطوية)، مجلة فكر ونظر، عدد يوليو عام 1960م

² اعتبره المؤرخ عبد القادر من أكبر شياطين ودجالي البلاط السلطاني، راجع: منتخب التواريخ، 192-194 عن هجرة جماعية للنقطويين إلى الهند إثر قيام الإدارة الصفوية بالقضاء عليهم، حيث وجدوا في ظل الدولة المغولية الفتية وفي بلاط السلطان أكبر أحسن وأمن ملجأ، الذي توثقت صلات بعض وزرائها مثل أبي الفضل مع زعماء هذه الفرقة في إيران مما مهّد لهم الطريق إلى الهجرة إلى الهند، وولّاهم السلطان المناصب العالية في الإدارة، كما منحهم كثيرًا من المزايا والتسهيلات وهباً لهم الفرص الرائعة لتنفيذ خطتهم لبثّ الروح في قضية الألفية وتأسيس الدين الجديد من خلال المهدي المنتظر راجع: الإسماعيليون في العصر الوسيط: تاريخهم وفكرهم، راجع القسم الثاني: الطور النزاري: حركة محمود بسيخاني النقطوية ودوره المادي-الصوفي العجبي، ص 289-306

في بلوجستان، ونمت وقويت، على يد ملا محمد الذي يعتبره أتباع هذه الحركة أفضل الرسل وخاتم النبيين، ويقصدونه، ونشروا هذه الأفكار من خلال كتبهم والتي تتجلى فيها نماذج غريبة للكذب والافتراء والتدليس، والتلبيس الباطل والجرأة الوقحة على الله ورسوله.¹

ومن هذه الفرق الإمامية والإسماعيلية النزارية من الشيعة المتطرفة المهاجمة التي نشأت وترعرعت بتأثير الإيرانيين في جنوب الهند، وفي كشمير وفي آكرا، أما الجنوب فكان قد اعتنق برهان نظام شاه-أمير ولاية أحمد نگر- في أواسط القرن العاشر، المذهب الشيعي، وغلا في مذهبه الجديد، وتطرف، حتى أمر الناس بسب الخلفاء الراشدين الثلاثة في المساجد والرباطات وعلى الشوارع وفي الأسواق، وعين رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه الخدمة، وقتل كثيرًا من أهل السنة والجماعة، وأسر كثيرًا منهم. أما الكشميريون فانتشر فيهم المذهب الشيعي بجهود الشيخ مير شمس الدين العراقي الذي بذل مجهودات كبيرة في نشر هذا المذهب، وتحمس للدعوة إليه. أما البلاط السلطاني فكان يقود القاضي نور الله شوشتری الجماعة الشيعية لتنشيط وترويج أفكار الشيعة في داخل البلاط وخارجه.²

وهذه الفرق الباطلة المستوردة من إيران مهّدت الطريق لبعض الشخصيات الدينية وشجعت كثيرًا من الشيوخ والصوفية المنحرفين على تأسيس الفرق الدينية وتكوين الجبهات مستهدفًا تحقيق أهدافهم السياسية والدينية. ومن هذه الحركة الهدامة "الروشنائية" فهي الأخرى من الفرق النشطة التي نشأت في القرن العاشر الهجري في الأطراف الشمالية للقارة الهندية، وبلاد الأفغان. أسسها بايزيد بن عبد الله بن محمد الأنصاري.³ ودعا الشيخ بايزيد إلى عقائد كثيرة زعم أنها من صميم الإسلام، ومن أهمها العقيدة في وحدة الوجود الذي يعتبره بايزيد أنه هو التوحيد الحقيقي الذي

¹ راجع ذكرى مذهب كا تفصيلي جائزه، للدكتور ضياء الحق الصديقي، وذكرى مذهب اور إسلام،

² راجع: سرماية عمر، ص 114 ما بعدها.

³ لترجمته راجع: إعجاز الحق قدوسي، ص 83-84

جاء به الإسلام، ويدلّ عليه القرآن الكريم. ومن عقائدها الخطيرة هو الاعتقاد أن الشيخ با يزيد ملهم من الله ويسمع نداء الغيب. والشيخ نفسه رَوّج هذه الأفكار بين تلامذته ومريديه من خلال تأليف الكتب في هذا المجال. وفي الجملة دعوته مؤسسة على ثمانية أصول مهمة وهي أهم ما يميز هذه الفرقة عن مثيلاتها التي نشأت في القرن العاشر الهجري، وهي: 1. الشريعة؛ 2. الطريقة؛ 3. الحقيقة؛ 4. المعرفة؛ 5. القربة؛ 6. الوصلة؛ 7. الوحدة؛ 8. السكونة¹. وتمكن الشيخ من استقطاب دعاة كثيرين إلى صفوف حركته، الذين اعتنقوا مبادئ الفرقة الروشنائية، وقاموا بدور مهم في نشر مبادئ هذه الفرقة وترويجها ودخلوا مع الإدارة المغولية في صراع سياسي طويل امتد إلى عهد السلطان شاهجهان².

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها في ذلك العصر، حركة المهدوية، التي هزّت المجتمع الإسلامي كله في شبه القارة الهندية، وما يجاورها من البلاد³. أسسها محمد بن يوسف الجونبوري المتوفى عام 910هـ/1504م، وكانت دعوته مؤسسة على سبعة أصول: 1. الانصراف عن الدنيا، 2. العزلة عن الخلق، 3. الهجرة عن الوطن، 4. صحبة الصديقين، 5. دوام الذكر على طريقة حفظ الأنفاس، 6. مشاهدة الرب سواء كانت بالعين أو بالقلب، في اليقظة أو في المنام، شرط لازم لتحقيق الإيمان والإسلام. 7. التوكل على الله. وقد ادّعى مؤسسها بأنه المهدي المنتظر. وقد بالغ تلاميذه في تعظيمه وتقديسه حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين، بل فضّلوه عليهم أحياناً. وانتشرت

¹ حالنامه، من ورقة 272 ألف-278 نقلاً عن:

Tariq Ahmed: Religio-Political Ferment in the North West Frontier during the Mughal Period. (Idarah-I Adabiyat-I Delli, Delhi 1982), P.60

² راجع للتفصيل ولترجمة الشيخ: حالنامه، وله مؤلفات عديدة في العربية والفارسية والبشتوية، ومن أهمها "خير البيان" الذي ألفه الشيخ نفسه في أربع لغات، وهو الكتاب يعدّه تلامذته كلام الله المباشر إليه والصحيفة السماوية المنزلّة عليه. والكتاب "خير البيان" منشور من جامعة كابل عام 1975م.

³ راجع: الإمام السرهندي، ص 45-50

هذه الفرقة في گجرات وأحمد نگر انتشارًا واسعًا، خصوصًا بعد دخول كثير من الأمراء والأعيان إلى هذه الفرقة الباطلة.¹

هذه نبذة بسيطة لبعض الفرق الباطلة نشأت في خارج الهند وداخلها وكان لها حضور قوي خلال فترة البحث في انحراف المجتمع الإسلامي في الهند والإدارة المغولية لا سيما السلطان أكبر نفسه الذي صار ضحية لهذه الفرق لا سيما النقطوية والشيعية والفرق الدينية الهندوسية التي وجدت ضالتها في شخصية السلطان أكبر لتأسيس دين جديد وفتح عهد جديد في شبه القارة الهندية تحت الرعاية السلطانية. وبجانب هذه الأسباب كانت هناك عوامل أخرى خطيرة شجعت السلطان الأمي على تأسيس الدين الإلهي ومن أهمها قيامه بإنشاء "عبادت خانه" لتجمع العلماء من كل فرقة وطائفة من السنة والشيعة والبراهمة والفرق الباطلة المذكورة أعلاه، واليهود والنصارى، والمجوس، وجعل يناقشهم في مسائل الدين مع وضع المجالس الخاصة للمناظرة الدينية بين هذه الطوائف الدينية والفرق الباطلة، فبدأ يقتنع أن الأديان كلها على حق، ولا مزية للإسلام بينها، ولا فضل له على غيره، وكانت هذه النزعة الجديدة توطئة لدعوة التقارب بين الأديان، وتأسيس المذهب الجديد؛ ذلك بعدما ورد كل مورد، وشرب من كل منهل، وطاف على كل دين ومذهب، واقتبس منه ما أراد، وأعلن عن مذهبه الجديد.² وقد صوّر بعض مؤرخي البلاط وضع البلاط السلطاني وعبادت خانه،³ فيقول منتقدًا علماء السوء: "بسبب الخلاف القائم بين العلماء حول المسائل الدينية وتنافسهم الشديد حيال الدنيا والمادة، ظهر أهل البدع والأهواء بأرائهم الخاطئة، وشبهاتهم الباطلة من مكائدهم، وبدؤوا يعرضون الباطل في صورة الحق، والخطأ في شكل الصواب ورسخوا الشك والارتياب في نفس السلطان الذي كان

¹ عن ترجمة الشيخ ونشاطاته الدينية والصراع الذي قام في حياة الشيخ وبعد وفاته راجع: الإعلام، 420-418/1

² عن هذه التجمعات في عبادت خانه وفي البلاط السلطاني راجع: منتخب التواريخ، 202/2

³ عن نشاطات عبادت خانه راجع: منتخب التواريخ، 201-200-152-151/2

يملك الذكاء والفتنة، وابتغي الحق، إلا أنه كان أميًا محضًا، يأنس إلى الكفار من الهندوس واليهود والنصارى، الذين زادوا في حيرته واضطرابه، وضاع الهدف الحقيقي، وانحل رباط الشريعة، ولم يبق بعد خمسة أعوام عين ولا أثر للإسلام، وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب".¹

وكتب المؤرخ نفسه في موضع آخر فيقول: "بدووا يثيرون الشكوك والشبهات، ويضحكون ويستهزئون بكل فريضة من فرائض الإسلام وكل عقيدة من عقائد الدين، سواء كانت تتعلق بالأصول أو الفروع، كعقيدة النبوة والرسالة، ومسألة كلام الله ورؤيته، وتكليف الإنسان، وتكوين العالم، والحشر والنشر، وغير ذلك من المسائل العقدية".² وعلى كل ساعد كل من العلماء السوء،³ والإدارة المغولية المنحرفة هي الأخرى،⁴ والهيمنة الشيعية والنصرانية والمجوسية في البلاط السلطاني،⁵ والتأثيرات الهندوسية من خلال المصاهرات وعبر تقوية العلاقات السياسية والاجتماعية مع رجال الدين من الجوكيين وغيرهم،⁶ والعقيدة الأليفة التي اتخذها السلطان من الفرقة النقطوية والذكرية كما تناولت في الصفحات السابقة، على خلق جو مناسب للسلطان أن يقتنع -على حسب مؤرخ البلاط- أن مدة ألف سنة بعد البعثة النبوية -وهي العمر الطبيعي لهذا الدين- قد انقضت فلم يبق هناك ما يحول دون إبداء تلك الرغبات الكامنة في الصدر".⁷ وبعد ترسيخ هذه العقيدة في مخ السلطان، شرع الأخير في اتخاذ ما يلزم لنشر هذه العقيدة أي الدين الإلهي بين الجماهير وترسيخها في أذهانهم في عام 990هـ/1581م. ولإعطاء الدين الإلهي المشروعية الكاملة الحقنة اتخذ السلطان قبل

¹ المصدر نفسه، 201/2

² المصدر نفسه، 257-258

³ المصدر نفسه، 200-201

⁴ المصدر نفسه، 201-202-234

⁵ المصدر نفسه، 206-207-208

⁶ المصدر نفسه، 274/2

⁷ المصدر نفسه، 250/2

ذلك بعض الإجراءات الصارمة ومن أهمها إعداد الوثيقة التي وقّع عليها كبار علماء الدولة، ومنح السلطان أكبر بموجبها المرجعية النهائية في الشؤون الدينية.¹

وكان الهدف الأساسي في المذهب الإلهي هو محاولة إزالة الخلاف بين المسلمين والهندوس بصفة خاصة، وبين الإسلام والديانات الأخرى عامة، وصولاً إلى ما كان يهدف إليه من وحدة الأديان في المذهب الجديد، وكان السلطان يرى أن نشر العقيدة الألفية يساعد على ترسيخ هذا الاتجاه، وتم الاختيار على بعض العقائد الأساسية التي عليها مدار الدين الإلهي وهي عقيدة وحدة الوجود، ووحدة الأديان، ومن هنا اختارت اللجنة المعنية لترويج الدين الإلهي مجموعة من العقائد والأعمال، والتي كانوا يرون فيها أنها توحد صفوف جميع أهل الأديان، ويرفع من بينهم العدواة والبغضاء، ومن أبرز هذه العقائد هي تحريف كلمة التوحيد "لا إله إلا الله..." وسجدة التحية، وعبادة الشمس والنار، وإسقاط فرائض الإسلام، واستبدال تحية السلام، وتقدير وتقديس الخنازير والأبقار والحيوانات الأخرى، واعتناق التقاليد الهندوسية وغيرها من المعتقدات الفتاكة التي أدت إلى الانحرافات الكاملة وخلق جوٍّ من البدع والمنكرات في المجتمع الهندي الإسلامي ومن أهمها: الدعوة إلى عبادة النار والشمس وتقديس مياه الأنهار المقدسة عند الهندوس،² وإعطاء الحرية الكاملة للمسلمين الجدد أن يرتدوا عن دين الإسلام، ويرجعوا إلى أديانهم الأولى، والسماح الكامل لكافة الأديان والطوائف الدينية بإنشاء معابدهم.³ وتحليل الخمر والميسر على مرأى من الناس ومسمع تحت رعاية وإشراف الإدارة المغولية،⁴ ومنع المسلمين من تزوج بنات

¹ المصدر نفسه، 218-217/2 أعدت هذه الوثيقة في عام 987هـ، وتم تنفيذها في المملكة، ووقّع عليها جميع العلماء بإشارة من السلطان، ومن ثم أصبح الملك إماماً مجتهداً، ومستوجب الطاعة والانقياد، وخليفة الله في الأرض وظله، وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التي انتهت لا إلى الزيغ والانحراف عن الإسلام فحسب؛ بل إلى المعارضة والعناد والمكابرة". راجع: الإمام السرهندي، ص

² المصدر نفسه، 209-208-207/2

³ المصدر نفسه، 335/2

⁴ المصدر نفسه، 251-250/2

العم والعمة وكذلك منع أولادهم من الختان، تقليدًا للعادات والتقاليد الهندوسية.¹ وترخيص نشاطات البغايا والعواهر أن يتعاطين أشغالهن تحت رقابة الإدارة المغولية.² وإسقاط الاغتسال من الجنابة، وكان السلطان يرى هو وندماؤه أن الاستحمام قبل الجماع أنسب وأوفق للطبائع البشرية.³ والدعوة والتشجيع إلى السفور والخلاعة والقضاء على الحجاب والنقاب، وإصدار الفتاوى بجواز نكاح المتعة على حسب شريعة الشيعة.⁴ وإصدار الأوامر الإدارية بمنع اللغة العربية وتدريس الدراسات الإسلامية، وتطوير اللغات الهندية والفارسية من الكلمات والمفردات العربية وتحريفها.⁵ وإصدار الأمر بتعطيل أعياد المسلمين واستبدالها بالأعياد والمهرجات غير الإسلامية مثل النوروز وغيرها.⁶ وإباحة أكل لحوم الحيوانات الضارية والخنزير.⁷ وإصدار الأوامر لحلق اللحية والاستهزاء بها.⁸ وإصدار الفرمان لمنع الزكاة وإسقاط الجزية عن المشركين.⁹ وإصدار الفرمان العام لمنع ذبح البقرة لتعظيم الوثنيين إياها وعبادتهم لها.¹⁰ والازدراء بالدين الإسلامي وإهانته،¹¹ وإنكار

¹ المصدر نفسه، 255/2

² المصدر نفسه، 252-251/2

³ المصدر نفسه، 255/2

⁴ المصدر نفسه، 160-158/2

⁵ منع السلطان أكبر تداول اللغة العربية وأدائها والعلوم الإسلامية حتى قامت اللجنة العلمية بإخراج بعض الحروف العربية المهمة مثل "ث، ح، ع، ص، ض، ط، ظ" فبدلوا يكتبون عبد الله "أبد الله" و"رمضان" رمزان و"أحد" اهد وغيرها، وكذلك أصدر الفرمان لترك العلوم الإسلامية واستبدالها بالعلوم العقلية من الفلك، والحساب والطب والفلسفة وغيرها، وكانت هذه الضربة قاسية للغاية وبالتالي لم يخرج الهنود من قضية النطق الصحيح لكثير من الكلمات العربية خصوصًا وفيها الكلمات المذكورة أعلاه. راجع: منتخب التواريخ، 308-257/2

⁶ المصدر نفسه، 259-258/2

⁷ المصدر نفسه، 255/2

⁸ المصدر نفسه، 253/2

⁹ المصدر نفسه، 223/2

¹⁰ المصدر نفسه، 252/2

¹¹ المصدر نفسه، 256/2

المعجزات،¹ والسخرية من الإسراء والمعراج،² وإهانة مكانة النبوة،³ والنفور من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم والكراهية لها،⁴ والاستهزاء بأركان الإسلام وفرائضه،⁵ إلغاء التقويم الإسلامي الهجري، واتخاذ التقويم الإلهي الذي بدأ من اعتلائه لسدة الحكم عام 963هـ، وسمّاه التاريخ الألفي.⁶

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإدارة المغولية وضعت هذه الخطة الشاملة المذكورة أعلاه من ضمن بنود قوانين الدولة المغولية في كتاب "آئين أكبري" أي قوانين أكبري، والتي تم تنفيذها على أرض الواقع لتطبيق الدين الإلهي وعقائده، وتتجلى منها التصورات الحقيقية لتلك الكراهية، والعناد والبغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء عليه الصلاة والسلام، والتي كانت نتيجة انحراف السلطان والإدارة المغولية عن دين الإسلام.⁷ وما جاء في هذه القوانين يدلّ على صدق صاحب منتخب التواريخ وحياديته وإنصافه، وقلقه الشديد على الأوضاع الدينية، وجراءته، وصراحته بكلمة الحق. ولا شك أنه من المؤرخين المنصفين الذين لم يبالوا بما يحدث معه إنما كان شغلهم الشاغل هو تسجيل الأخطاء والزلات دون مبالاة وفي غاية الوضوح.

وعلى حسب المصادر المعاصرة لقد أثار الدين الإلهي وعقائده الهدامة ببلبة شديدة في المجتمع الإسلامي الهندي آنذاك، وسنحت فرصة ذهبية للعناصر غير الإسلامية

¹ المصدر نفسه، 257/2

² المصدر نفسه، 266/2

³ المصدر نفسه، 257-256/2

⁴ حسب المصدر المعاصر غير السلطان أسماء بعض الإداريين من محمد وأحمد ومصطفى إلى يار خان، رحمت خان وغيرهم، المصدر نفسه، 264/2

⁵ المصدر نفسه، 264/2

⁶ المصدر نفسه، 256/2

⁷ آئين أكبري، 350/2 بند رقم 53، 354/2 بند رقم 85، 356/2 بند رقم 103، 356/2 بند رقم 106، 356/2 بند رقم 107، 357/2 بند رقم 111، 359/2 بند رقم 132، 360/2 بند رقم 134، 361/2 بند رقم 142، 361/2 بند رقم 143، 361/2 بند رقم 144، 362/2 بند رقم 150، 363/2 بند رقم 158، 365/2 بند رقم 172، 366/2 بند رقم 183، 366/2 بند رقم 184، 370/2 بند رقم 204.

لتطالهم ضدّ الإسلام والشريعة الإسلامية وبدؤوا يسخرون من العقيدة الإسلامية والسنة النبوية، وجعلت هذه الخطوات الإسلام غريباً في وطنه وبلده، ولم تعد له قوة ولا سلطة كما كان، وذهبت هيئته من قلوب المسلمين وغير المسلمين.¹ وكانت لها تأثيرات سلبية للغاية في الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية كذلك.

منهج الشيخ أحمد السرهندي في عملية الإصلاح والإرشاد: لدى الاطلاع على أعمال الشيخ أحمد السرهندي، لا سيما مكتوباته المرسلة والموجهة إلى الجهات المختلفة، نستطيع أن نحدد أنه قبل أن يبدأ أعماله الإصلاحية، في عهد السلطان جهانگیر؛ وذلك لما بلغ أشده وتكاملت معارفه، وشاهد بأمّ عينيه ما آلت إليه أحوال المسلمين في الهند آنذاك، فندب نفسه للرد على الفتن لا سيما الدين الإلهي، ولكن أمعن النظر في دوافع المذاهب المنحرفة، وبحث أولاً عن رأس الفتنة، فوجد أن هناك ثلاثة روافد تندفق منها روح الفتن والاضطرابات الدينية، أولها: الإدارة ورجالها وأركانها الذين ما كانوا يحملون عقيدة صحيحة راسخة محكمة في الدين والدولة والشريعة، ومن هنا وقعوا بمنتهى السهولة في الاضطرابات الدينية والفكرية، وصاروا هدفاً خاصاً للحركات الإلحادية الهدامة المذكورة في الصفحات السابقة، واهتموا بالمصالح الخاصة على حساب مصالح الدولة، وتنافسوا في تحقيق أهدافهم السياسية والمالية مما جعلهم غير قادرين على تنظيم الدولة وإدارتها والجمع بين سمو الأخلاق والاستقامة الدينية والتقنين بالشريعة.

أما ثانياً: العلماء لا سيما علماء البلاط الذين لم يقوموا بدور أساسي فعال في ملازمة السلطان وصيانته من الزيف والانحرافات الدينية، وحمایته من التطرف وفقدان الاتزان، لأنهم ما كانوا يمتازون بالتفقه والبصيرة في الدين وما كانوا يتحلون بالحكمة والفهم الصحيح الشامل، وكانوا يتعمقون في الجزئيات أكثر من كليات الدين، ولم يكن لديهم قدرة كافية في فهم مقاصد الشريعة وغاياتها، وفي نفس الوقت ما كانوا متصفين بسمو الأخلاق، وموسومين بالإخلاص والإيثار، فكانوا يهتمون بحب الجاه

¹ راجع: منتخب التواريخ، 2/216

والمال، وما كانوا يعرفون أهمية الدولة الإسلامية الناهضة ودقة موقفها. ومن خلال متابعة الأحداث التاريخية نستطيع أن نقول إن الفريقين لم يكونا على المستوى اللائق فحسب؛ بل من المؤسف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها، ونفروا السلطان من الدين بدل أن يشرحوا صدره له ويحبوه إليه.¹

أما ثالثها: فكانت تتمثل في محاربة الطرق الصوفية المنحرفة، الذين تركوا الشريعة وبحثوا الحقيقة في الطريقة والنشاطات غير الدينية وفي الفلسفات الهندوسية، وأسّسوا مراكزهم الروحية التربوية لممارسة الرياضات والأعمال الشاقة للوصول إلى الحقيقة بعيداً عن السير على السنة النبوية والإسهام في نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية وترويجها في الهند التي كانت تعيش فيها الأكثرية من غير المسلمين. وكانت انحرافات الصوفية من الروافد المهمة التي استقى منها "الدين الإلهي" مبادئ الفكر الصوفي، لا سيما عقيدة وحدة الوجود ووحدة الأديان.² فركز الشيخ أحمد السرهندي كل مجهوداته الحثيثة على تقويم هذه الشرائع المهمة من الدولة والإدارة والمجتمع. وبدأ الشيخ نشاطاته الإصلاحية على ثلاث جهات مختلفة، أولها: تحرير المكتوبات وإرسالها إلى أركان الدولة، وثانيها: قيامه بتصنيف وتأليف للرد المناسب على الكذب والافتراء على الشريعة والسنة النبوية، وثالثها: تنشيط الحلقات الدينية والتعليمية والتربوية.

¹ لقد وضع الشيخ أحمد السرهندي في أحد مكتوباته مشيراً إلى وضع العلماء والصوفية في عهد السلطان أكبر، فيقول: "...إن علماء الدنيا الذين همتهم التهافت على متاع الدنيا وجمع حطامها صحتهم سمّ قاتل وفسادهم فساد متعد... وكل بلاء ظهر في القرن الماضي أي في عهد السلطان أكبر، إنما ظهر بسبب شؤم هؤلاء الجماعة فإنهم هم الذين أخرجوا السلطان من الطريق الحق، بل ليست فرقة من اثنتين وسبعين فرقة إلا ومقتداهم في اختيار طريق الضلالة هم علماء السوء وقلّ من تتعدى ضلالته إلى الغير اختار لضلالة غير علماء السوء، وأكثر الجهلاء المتشبهين بالصوفية في هذا الزمان لهم حكم علماء السوء أيضاً، فإن فسادهم فساد متعد ... راجع: المكتوبات، 91/1، رقم المكتوب: 47

² مستفاد من كل من أبي الحسن الندوي: الإمام السرهندي، ص 76-78 ومحمد منظور نعماني: تذكرة مجدد ألف ثاني، ص 136-138

ونحن هنا بصدد الشريحة الأولى التي دعاها الشيخ السرهندي إلى حفظ الدين وصيانتة والقضاء على البدع والخرافات ونشاطات الفرق الباطلة وإعادة المياه إلى مجاريها مرة أخرى، لأنه كان يرى أن السلطان بالنسبة إلى العالم بمثابة القلب بالنسبة إلى البدن من بني آدم، فكما أن القلب إذا كان صالحًا يكون البدن صالحًا وإذا كان فاسدًا يكون البدن فاسدًا، كذلك صلاح السلطان وصلاح العالم وفساده فسادته¹. وقام الشيخ من خلال إرسال المکتوبات التي سنعتمد عليها للمعرفة عن علاقة الشيخ مع أركان الدولة وموقف بعضهم بعضًا، ولكن علينا أن نبدأ أولاً علاقته مع السلطان جهانگیر الذي جلس على كرسي الحكم بعد وفاة والده السلطان أكبر، ودوره في تقويم الأخير دينيًا وثقافيًا.

المبحث الخامس: جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح السلطان وأركان الدولة²

جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح السلطان: بدأ الشيخ أحمد السرهندي نشاطاته الدعوية والإصلاحية لأركان الدولة في عهد السلطان أكبر من خلال إرسال المکتوبات التي سنذكرها فيما بعد، وإنما سنحت له المواقع للاحتكاك مع السلطان جهانگیر وإصلاحه بعد وصول الأخير إلى سدة الحكم. وعلى كل علينا أن نقسم علاقتهما إلى ثلاث مراحل مع ذكر جهود الشيخ في إصلاح السلطان:

المرحلة الأولى: ظهرت علاقات الشيخ أحمد السرهندي مع السلطان جهانگیر لدى جلوس الأخير على عرش الهند. يؤكد بعض الباحثين على أن الشيخ أحمد السرهندي والآخرين الموالين إلى الفكر الإسلامي، أدوا دورًا في وصوله إلى سدة الحكم³. وفي الواقع

¹ المکتوبات، 90/1، رقم المکتوب: 47

² من باب الأمانة العلمية أنه لا بد من الذكر أن الباحث استفاد كثيرًا من المبحث الخاص بعنوان: "شيخ أحمد سرهندي اور اهل حكومت مين شريعت كي ترويج" لصاحبه البروفيسور ظفر الإسلام إصلاحي في كتابه "عهد إسلامي كي هندوستان مين معاشرت، معيشت اور حكومت كي مسائل"، ص 150-183

³ State and Culture in Medieval Indian، ص 168

دعم الشيخ بعض الشخصيات الإدارية لتغيير السياسة في البلاط السلطاني ومساندة الأمير جهانگیر للجلوس على عرش الهند، ومن أهم هذه الشخصيات الشيخ فريد البخاري الذي أرسل إليه الشيخ أحمد عددًا كبيرًا من المکتوبات،¹ تفيد واحدة منها بأن الشيخ كان يرى أن الشيخ فريد من المتحمسين لحفظ الدين الإسلامي وشريعته.² وعلى كل يقال إنه لما جاء الأمير سليم نهائيًا إلى دهلي رافقه الشيخ فريد في الموكب السلطاني. ولما تم الانقسام بين الوزراء حول قضية الجلوس على العرش إثر وفاة السلطان أكبر، قام الشيخ فريد الذي استجمع قوات فرقة السيديين من "بارهه" للدعم السياسي والعسكري الكامل للسلطان جهانگیر. وفي هذا الصدد ينبغي أن يوضع في الاعتبار أنه قد سئل الأمير سليم من جانب الكوادر الإسلامية التي كان يقودها الشيخ فريد، التعهد بحفظ الإسلام وصيانته وحمايته وإلغاء كل القوانين المضادة للإسلام والتي شرعت في عهد أكبر بعد جلوسه على كرسي الحكم، ووعد الأمير سليم بذلك.³ ومع ذلك هناك بعض الباحثين المنتقدين للشيخ أحمد السرهندي لا يرون دور الشيخ أحمد في هذه العملية السياسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويرون أن هذا الرأي يبدو أنه روي

¹ اسمه الكامل مرتضى بن أحمد البخاري، كان سياسيًا كبيرًا وسخيًا وكريمًا وكان يقرّ أهل العلم والفضائل، أدرك السلطان أكبر شاه في صغر سنه فتقرب إليه، وتدرج إلى الإمارة حتى نال منصب "مير بخشكيري"، ثم لما جلس السلطان جهانگیر على كرسي الحكم أضاف في منصبه ولقبه بصاحب السيف والقلم، وكان له إسهامات جلية في إنشاء المنشآت الدينية والمدنية خلال فترة ولايته في گجرات ولاهور وغيرهما من المدن الهندية، بالإضافة إلى ذلك كان رجلًا سخيًا وكريمًا وكان يأكل في مائدته ألف وخمسمائة نفر كل يوم. للمزيد راجع: الإعلام، 648-647/2

² راجع رسالته المرسلة إلى الشيخ فريد في المکتوبات، 84-86/1، رقم المکتوب: 44

³ معظم المؤرخين والباحثين المحدثين يؤكدون على أن الشيخ فريد ومعاونيه ساعدوا الأمير سليم للوصول إلى سدة الحكم وهو الذي وعد بحماية الشريعة الإسلامية. راجع :

R.P. Tripathi: Rise and Fall of the Mughal Empire. Allahbad, India 1985, P.340; Beni Prasad: History of Jahangir , Allahbad, India 1962, P.66-67

من جانب اليسوعيين النصارى الذين رَوّجوا مثل هذه الأفكار أن الإسلاميين ساعدوا الأمير سليم على وصوله إلى كرسي الحكم.¹

ولكن خلافاً لرأي هذا الناقد للشيخ أحمد السرهندي، يتبين من مكتوبات الشيخ أحمد أنه كان يستشير الشيخ فريد من الشيخ أحمد وكان هناك صداقة قوية وتفاهم متبادل بين الشيخين وكان الشيخ فريد بدوره يشير على الأمير سليم قبل وبعد جلوسه على العرش. ثم لم يكن يكتب الشيخ أحمد مكتوباته موجّهاً إلى أعيان الحكومة بهذه الطريقة الصريحة والواضحة دون أن يجد أفكاره مقبولة ومسموعة لديهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ أحمد شخصياً ذكر الأمير سليم، في إحدى رسالاته المرسلة إلى الشيخ فريد شاكياً من ضعف أهل الإسلام وغلبة الكفار سائلاً الشيخ فريد لترغيب السلطان الجديد في ترويج الدين والشريعة الإسلامية وتقوية المسلمين، أنه سلطان المسلمين، ولا بد من تقديم كل المساعدة المعنوية والمادية له لترويج الشريعة الإسلامية، معبراً عما حدث مع الإسلام والمسلمين في عهد السلطان أكبر، فيقول: "... وأما في القرن الماضي فقد أجرى الكفار أحكامهم في دار الإسلام على الملاً بطريقة الغلبة والاستيلاء (على السلطان والإدارة المغولية) حتى عجز المسلمون عن إظهار أحكام الإسلام بحيث من أظهره قتلوه، ويا ويلاه ويا مصيبتاه ويا حسرتاه ويا حزنه كيف صار مصدقو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محبوب رب العالمين أذلاء حقيرين عديهي المقدار، ومنكروه في غاية العز والاعتبار، والمسلمون في تعزية الإسلام مع قلوب مجروحة، والمعاندون يرشون الملح على جراحتهم بالسخرية والاستهزاء، وشمس الهداية مستورة تحت أفق الضلالة.... وقد وصل الآن زوال مانع ظهور الإسلام وبشارة جلوس سلطان المسلمين على سرير السلطنة إلى مسامع الخاص والعام فينبغي لأهل الإسلام أن يعدوا معاونة السلطان وإمداده لازمة لدمتهم، وأن يدلوه على ترويج الشريعة وتقوية الملة... وأفضل الإمداد هو تبين المسائل الشرعية وإظهار العقائد الكلامية على حسب الكتاب والسنة وإجماع الأمة

¹ Muslim Revivalist Moment in Northern India، ص 219-222

النبوية لئلا يظهر في البين ضال ومبتدع فيسد الطريق...¹ وهذه الرسالة تكشف بوضوح تام أنه كانت هناك بعض التوقعات لدى الشيخ أحمد السرهندي وبعض المخلصين الإداريين من أن السلطان الجديد سيطبق الشريعة الإسلامية. وتكشف هذه الرسالة أيضًا أنه قد وعد السلطان قبل جلوسه الشيخ فريد أنه سيحيي الإسلام ويناصر المسلمين عند وصوله إلى سدة الحكم. ويتضح أيضًا من هذه الرسالة أن الشيخ فريد كان يخبر الشيخ أحمد المستجدات في البلاط السلطاني وفي الساحة السياسية، ومن هنا لم يكن بد من أنه قد أرسل الخبر حول النجاح في وصول جهانگیر إلى سدة الحكم موضحًا وعد الأخير بحماية الإسلام والمسلمين والذي يظهر من مدح الشيخ السرهندي للسلطان لدى جلوسه على كرسي الحكم، ولولا ذلك لما ذكره الشيخ كسلطان المسلمين وعبر عن ابتهاجه وهتافه لانتصاره ووصوله إلى سدة الحكم.² وتبين من الرسالة أنه على إمام تام بما يجري في الساحة السياسية برغم أنه يسكن في سرهند بعيدًا عن العاصمة. وعلاوة على ذلك قد قدم الشيخ أحمد السرهندي في هذه الرسالة خدماته واستعداده لتقديم كافة المساعدات المعنوية والدينية في سبيل ترويج الإسلام والشريعة عبر القنوات الرسمية فيقول: "وبناء على هذا يريد هذا الفقير أن يلقي نفسه إلى ميدان ممدّ دولة الإسلام ويجتهد فيه بقدر الإمكان فبحكم (مَن كَثُرَ سوادُ قومٍ فهوَ منهم)³ يحتمل أن يكون هذا العاجز عديم الاستطاعة داخلًا في زمرة هؤلاء الجماعة... والمرجو أن أتشرف بالحضور عن قريب إن شاء الله تعالى.... والمتوقع من جناب شرفكم حيث يسّر الله سبحانه وتعالى لك

¹ راجع: المکتوبات، 91-90/1، رقم المکتوب: 47

² وقد مدحه الشيخ السرهندي في أحد مکتوباته فيقول: "وقد اندرجت في المکتوب الشريف شيمة من طلب سلطان الوقت لله - هذه الجملة غير مفهومة- تعالى من حسن النشأة ووقع رمز إلى العدالة والتزام الأحكام الشرعية فأورثت مطالعة ذلك فرحًا وافرًا وذوقًا كما أن الحق سبحانه وتعالى نور العالم بنور عدل سلطان الوقت وعدالته، نصر الشريعة المحمدية وأعز الملة المصطفوية أيضًا بحسن اهتمامه... راجع: المکتوبات، 199-196/2، رقم المکتوب: 92

³ الراوي: عبدالله بن مسعود المحدث: ابن حجر العسقلاني المصدر: فتح الباري لابن حجر - الصفحة أو الرقم: 41/13 خلاصة حكم المحدث: له شاهد

الاستطاعة وقرب السلطان على الوجه الأتم أن تجتهد في ترويج الشريعة المحمدية على صاحبها وعلى آله الصلاة والتحية، وإخراج المسلمين من الكربة، والإسلام من الغربية في خلوة وجلوة...¹ وهذه كلها تدل على أن الشيخ فريد قد أخذ الوعد من السلطان قبل جلوسه على العرش بحماية الإسلام والمسلمين وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وفيما سطر بعض الباحثين عن عدم رغبة السلطان في الدين الإسلامي وميله إلى العقيدة الإسلامية، وكلامه مردود لأن هناك شواهد عديدة موجودة في سيرته الذاتية تؤكد على ميوله الدينية واعتقاده في العقيدة السنية، واحترامه وتقديره الشديد نحو الإسلام.² وتظهر عقيدته الثابتة والقوية فيما كتبه فيقول: "أرجو أن تمر كل المراحل من حياتي ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، ولا تمر لحظة من حياتي دون ذكر الله سبحانه وتعالى".³ وبجانب ذلك كلما يأتي الخبر إليه حول نجاح جيشه في العمليات العسكرية يشكر الله ويسجد له سجدة الشكر في ساعته.⁴ وكان يدخل في جدل ديني مع العلماء الهندوس لإقناعهم بالإسلام وشريعته.⁵ وسمح بإقامة الصلوات في البلاط الملكي بالجماعة والتي كانت محظورة في عهد والده السلطان أكبر.⁶ وهناك أمثلة عديدة أخرى تلقي الضوء على نزعته الدينية وتعظيم الشعائر الإسلامية، وإعلاء كلمة الله واحترام الدين.⁷ وقد أعفى السلطان كلاً من "مير عدل" و"القضاة" من

¹ راجع: المکتوبات، 91/1، رقم المکتوب: 47

² راجع: علماء هند كا شاندار ماضي، 19/1

³ توزك جهانگيري، ص 225

⁴ المصدر نفسه، ص 105

⁵ في بداية عهد حكمه عقد السلطان المجلس الديني للمناقشة مع علماء الهندوس وخرج سالماً وغانماً مع إعطاء الدروس القاسية لهؤلاء العلماء حول الشرك بالله من خلال الأصنام والتمائيل الذين يعتبرهم الهندوس واسطة لازمة بين الله وخلقه. راجع: توزك جهانگيري، ص 15

⁶ المصدر نفسه، ص 100، وأيضاً: علماء هند كا شاندار ماضي، ص 125

⁷ كتب جهانگير في مذكراته فيقول: "خرجنا غرة ربيع الأول عام 1031 هـ، للتفرج والنزهة في قلعة كانگڑا، فأمرنا أن يرافقنا القاضي ومير عدل وغيرهما من العلماء، ليظهروا في هذه القلعة شعائر الدين الإسلامي، وأحكام الشريعة المحمدية...وصلنا بعد سير فرسخ واحد إلى ذروة القلعة، فأمرت-بتوفيق الله تعالى-بالأذان، فأذن، ثم ألقى خطبة، وأمرت بذبح البقرة-ولم يتفق ذلك قط منذ بناء هذه القلعة-خررت لله ساجداً على أن وفقني إلى ما لم يوفق إليه أي سلطان قبل، وأمرت ببناء مسجد واسع عال في داخل القلعة..." توزك جهانگيري، ص 340

ممارسة سجود التحية أمامه¹ وعلاوة على ذلك وعلى حسب إحدى مكتوبات الشيخ أحمد السرهندي أمر السلطان جهانگیر الشيخ فريد لتعيين أربعة علماء في البلاط السلطاني للاستشارة في الشؤون الدينية. يقول الشيخ أحمد السرهندي: "قد سمعت أن سلطان الإسلام والمسلمين أمر جنابكم من حسن نشأته الإسلامية التي أودعت في جبلته أن تنتخب أربعة أنفار من العلماء المتدينين ليلازموه ويبينوا له المسائل الشرعية حتى لا يصدر حكمًا من الأحكام خلاف الشريعة الإسلامية. الحمد لله سبحانه على ذلك، وماذا يكون للمسلمين أحسن بشارة من ذلك وأي شيء يكون لأهل المأتم أشد تسليّة مما هناك". ولو لم يكن لدى السلطان رغبة وميول دينية صحيحة لما طلب من الشيخ فريد تعيين أربعة علماء لإدارة الشؤون الدينية. وعلي أن أنقل نص المکتوب الباقي حول ذلك، لمعرفة موقف الشيخ السرهندي من ذلك. حيث يبدو من نص مکتوبه أنه أشار على الشيخ فريد أن يقنع السلطان بتعيين عالم جليل رباني ومخلص واحد بدلًا من الأربعة؛ ذلك للتعجب من الخلافات والمشاحنات الدينية التي جرت في عهد السلطان أكبر، يقول الشيخ السرهندي: "... ولكن الفقير حيث كنت متوجهًا نحو جنابكم العالي لهذا الغرض كما أظهرت ذلك مكرّرًا لا أسامح نفسي وأرخص لها في السكوت والقعود عن الكتابة في هذا الباب بالضرورة، فالمرجو مسامحتكم إياي فإن صاحب الغرض مجنون، فالذي أريد أن أقوله، هو أن مثل هؤلاء العلماء المتدينين الذين يتسامون بأنفسهم عن حب الجاه والسلطان، ولا هم لهم إلا تأييد الإسلام ونصرة الدين، ونشر الشريعة الحنيفية... فإن كان واحد من هؤلاء العلماء يميل إلى الجاه، ويتظاهر بفضله وتفوقه وبراعته، ويثير مسائل خلافية، ويحاول عن طريق ذلك، الوصول للمكانة والزلفى لدى السلطان، والحفاوة والإكرام، فإن ذلك يسيء إلى الدين ويعرضه للخطر، فقد كانت هذه الاختلافات الجزئية بين العلماء في العهد الماضي، هي التي سببت الكارثة، وأصابنا الدنيا بمصيبة وبليّة، ويعود ذاك الخطر، الذي يكون سببًا لتلف الدين وضياعه بدلًا عن تمكين الدين وتأييده- والعياذ بالله سبحانه- من ذلك، ومن فتنة علماء السوء؛ ومن هنا لو اختير- بدل العلماء الأربعة- عالم واحد مخلص، لكان أصلح وأحسن؛ لأنه إن كان من علماء الآخرة فما أحسن ذلك، ومجالسته كالكبريت الأحمر، وإن لم يكن من

¹ المصدر نفسه، ص 100

علماء الآخرة؛ فينبغي أن يختار من طبقة العلماء من هو أحسنهم حالًا وعلمًا وإخلاصًا وأفضلهم شأنًا فما لا يدرك كله لا يترك كله... والغرض من كل ذلك، أن لا تتخذوا أي إجراء في هذا الصدد إلا بعد تروّ كثير وتفكير عميق، لأنه إذا انقضى الأمر فلا تدارك ولا علاج...¹ يستطيع أي أحد أن يصل بسهولة إلى النتيجة من هذه العبارات أن السلطان قد تأثر ولو عن طريق غير مباشر من خلال وزرائه وأمرائه المريدين للشيخ، من فكر الشيخ السرهندي الإسلامي والسياسي. وقد أصاب بعض الباحثين بقولهم حول مدى تأثير الشيخ السرهندي في السلطان جهانگیر مشيرًا إلى نقطة خلافية حول ذلك، وقالوا إن عدم قيام السلطان جهانگیر باتخاذ سياسات والده في تجريب المسائل الدينية يؤكد على اجتنابهم القضايا الدينية والخوض فيها.²

المرحلة الثانية: تبدأ هذه المرحلة من العلاقات بين السلطان جهانگیر والشيخ السرهندي من خلال قيام الأخير بتعيين خليفته الشيخ بديع الدين كمنسوب له في الجيش المغولي في العاصمة آگرا عام 1024هـ/1616م،³ وكان الغرض وراء هذا التعيين تبليغ رسالة السرهندي وترويجها في المعسكر المغولي.⁴ ويبدو من الأحاديث أن وجود الشيخ بديع في العاصمة أتى ببعض النتائج الإيجابية المرجوة في المهمة الدينية للشيخ. واكتسب الشيخ بديع الشهرة في المعسكر وبين عامة الناس، وأنهم رحّبوا به بحماسة تامة ودخل كثير منهم إلى زمرة تلاميذه. وخلال تلك الفترة حدثت بعض التطورات السياسية مما دفعت السلطان جهانگیر لاعتقال الشيخ السرهندي ومنها أن خليفته بديع الدين حصلت له شهرة كبيرة والنفوذ والقبول في المعسكر السلطاني على حساب الشيخ السرهندي، لا سيما أنه تحدث أمام الناس عن وقائع الشيخ الغربية وعن كشوفه ومعارفه، فتكلم الناس في شأنه، وكثر تردده إلى أعيان الدولة،

¹ راجع: المکتوبات 96/1، رقم المکتوب: 53، وعالج الموضوع نفسه في مکتوب آخر، راجع:

المکتوبات، 225/1، رقم المکتوب: 194

² State and Culture in Medieval India، ص 171

³ راجع: زبدة المقامات، ص 476-481

⁴ وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ قد أرسله إلى آگره بعد إدراك تام لميول السلطان جهانگیر الدينية والعقائدية، ولولا ذلك لم يأخذ هذه المخاطرة.

فتحدث الناس في ذلك وبالغوا فيه، وتوجسوا منه الخطر، وذكروا للسلطان أن الشيخ السرهندي يريد عن طريق خليفته الشيخ بديع الدين توثيق الصلات مع الجيش والمؤامرة معهم ضد السلطان، وإعداد خطة للثورة والخروج على الدولة.¹

ولدى التمعن في الأحداث يبدو جلياً أن ذلك كان مؤامرة من جانب العناصر العدائية التي كانت تبحث عن مثل هذه الفرص المواتية لنشر الدعاية ضد الشيخ السرهندي في البلاط السلطاني لتوسيع الفجوة بين السلطان والشيخ السرهندي. ولو كان الهدف وراء تعيين مندوبه في العسكر وضع الخطة الشاملة للمؤامرة والخروج على الدولة المغولية في عهد السلطان أكبر وفي عهد جهانگیر، لاستغل الشيخ تلك الفرص وتحالف مع الثوار في بنگال وبهار وكابل. وفي الواقع كل ما كان يريده الشيخ السرهندي هو جمع المسلمين كلهم على كلمة واحدة وعلى تعاليم القرآن والسنة النبوية بالحسنى وليس من خلال اندلاع الثورات والخروج على السلطان.

وإن النشاطات المعادية من جانب الأعداء لم تقف إلى هذا الحد، بل أفسدوا ذهن السلطان ضد الشيخ وأقنعوه أن الشيخ قد حصل له الشهرة الواسعة والقبول العام، وهناك غلو في الناس في اعتقادهم وحبهم وإجلالهم في الشيخ، والتفافهم حوله، وتهافتهم عليه تهافت الفراش على النور، مما سيترب عليه الخطر المحدق على السلطة والدولة المغولية، وأنه سيستغل هذه الشهرة والقبول لدى المعارضة والاستيلاء على الحكم في أي وقت.² كل هذه الاتهامات المعادية والكاذبة شنتها العناصر الشيعية التي كان الشيخ يقاومها من خلال تأليف الكتب وإرسال المکتوبات إلى الشخصيات والجهات المعنية للقضاء على تأثير التشيع في الأعمال والمعتقدات الذي كاد يستولي على المجتمع الإسلامي كله بعد دخول العناصر الإيرانية الشيعية في البلاط السلطاني، والتي نجحت في عهد السلطان أكبر في السيطرة الكاملة على البلاط. وعلى الرغم من أن هيمنتهم بدأت تتقلص في عهد السلطان جهانگیر إلا أنهم وجدوا فرصة مرة أخرى لازدياد الجاه والنفوذ السياسي في البلاط السلطاني بعد وفاة

¹ راجع: زبدة المقامات، ص 477-478

² Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir in Contribution of Shaikh Ahmed Sirhindi to Islamic Thought، ص 31-27

الشيخ فريد البخاري وزواج السلطان جهانگیر بالملكة نور جهان الشيعية وازدياد هيمنة أهلها على البلاط.¹ وقد حانت لهم الفرصة فسعوا إلى تعكير المياه للاصطياد فيها. فبجانب المؤمرات المذكورة أعلاه بحثوا عن بعض المكتوبات التي كتبها الشيخ السرهندي لشيخه عبد الباقي بالله منذ ثمانية عشر عامًا، والتي تناول الشيخ السرهندي محتويات المكاشفات والمشاهدات الغيبية، والطريقة والسلوك العميق، وحث من الشأن لبعض الأئمة الشيعة،² ورفع مقامه من مقام الخلفاء الراشدين،³

¹ يقول بعض الباحثين إن أصف جاه أخا الملكة نور جهان ورئيس الوزراء للسلطان جهانگیر، أشار على السلطان بأخذ الاهتمام بقضية الشيخ أحمد الذي، على حسب قوله، توسع نطاق شهرته وتأثيره في الهند وخارجها في إيران، وتوران، وبدخشان. وكذلك أشار على السلطان بمنع رجال الجيش بمقابلة تلاميذ ومريدي الشيخ أحمد والحضور في جلساتهم العلمية والدينية. راجع P.24-25، Lahore 1940، Burhan Ahmad Faruqi: The Mujaddid's concept of Tawhid

² كتب الشيخ في مكتوبه: "أن المقام الذي كنت رأيته فيه سابقًا وقع النظر على عبور الخلفاء الثلاثة منه بعد الملاحظة حسب الأمر الشريف، ولما لم يكن لي فيه مقام واستقرار لم أرهم فيه أول وهلة كما أنه لا استقرار فيه ولا ثبات لأحد من أئمة أهل البيت غير الإمامين أي الإمام الحسن والحسين و الإمام زين العابدين رضي الله عنهم أجمعين.... راجع: المكتوبات، 27/1، رقم المكتوب: 11

³ كتب الشيخ: "...وكذلك المقامان اللذان يذكران بعد. ثم وقع النظر على مقام فوقه ولما وصلت إليه تبين لي أنه مقام الفاروق رضي الله عنه، وللخلفاء الباقيين عبور من ذلك المقام. ثم ظهر فوقه مقام الصديق الأكبر رضي الله عنه ووصلت إليه أيضًا ووجدت الخواجه بهاء الدين النقشبندي قدس سره رفيقًا لي من بين المشايخ في جميع المقامات ولسائر الخلفاء عبور من هذا المقام. لا تفاوت إلا العبور والمقام والمرور والثبات. ولا يرى فوقه مقام أصلاً إلا مقام خاتم النبيين والمرسلين عليه من الصلوات أكملها ومن التحيات أتمها وظهر في محاذاة مقام الصديق الأكبر رضي الله عنه مقام آخر نوراني عال جدًا لم أر مثله قط، وكان له ارتفاع يسير من ذلك المقام كما إذا رفعوا اللوح من الأرض وتبين لي أنه مقام المحبوبة وكان ذلك المقام مزينًا ومنقشًا فوجدت نفسي أيضًا مزينًا ومنقشًا من انعكاسه ثم وجدت نفسي بعد ذلك لطيفًا في تلك الكيفية ورأيته منتشرًا في الأفاق مثل الهواء وقطعة السحاب حتى استوعبت بعض الأطراف، وحضرة الخواجه النقشبندي في مقام الصديق وأجدني في المقام المجازي له بكيفية معروضة". راجع: المكتوبات، 27/1-29، رقم المكتوب: 11، وللعلم أن الشيخ الخواجه بهاء الدين نقشبند أيضًا رأى نفسه في هذه المقامات، وتفيد بعض المصادر نقلًا عنه: "لقد وصلت إلى مقام كل من الشيخ شبلي، والشيخ منصور الحلاج، وبا يزيد البسطامي، ووصلت إلى المقام وصلوا هم أيضًا، حتى وصلت إلى المقام الأعلى وعرفت أنه مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفت أيضًا أنه قد وصل الشيخ با يزيد البسطامي

فبحث الشيعة هذه الزلات من مكتوبات الشيخ وانتهزوا الفرصة للإيقاع بالشيخ مع ربط القضايا السياسية الأخرى مع هذه القضية الدينية.

ولا ريب أنه ما كتبه الشيخ في مكتوبه حول مقامه الرفيع بالنسبة للصحابة بل وتدرج إلى مقام النبوة كما يفيد المكتوب، فهو من شطحاته التي نجدها في كثير من المكتوبات التي هي بحاجة شديدة إلى فحصها ونقدها نقدًا شاملاً لأن مثل هذه الأقوال مخالفة للشرع وأوجببت على الناس الاختلاف. ومن الغريب أن بعض العلماء الكبار مثل الشيخ أبي الحسن الندوي أثنى على ما كتبه الشيخ السرهندي، وهي عنده محتويات المكاشفات والمشاهدات، والطريقة والسلوكيات العميقة التي تدل على عظمة الشيخ السرهندي وجلالة شأنه، وتفوقه على كثير من رباني هذه الأمة ومشايخها المصلحين.¹

وطبعًا ليس هذا هو السبب في اعتقاله لأن هذا المكتوب كتبه الشيخ عام 1012هـ/1603م، في عهد السلطان أكبر، ثم ظهر هذا المكتوب في عام 1025هـ/1616م، ولكن السلطان جهانگیر لم يأخذ أي موقف ضد الشيخ خلال كل هذه الفترة من حكمه. والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم يلاحظ السلطان هذا المكتوب ونشاطات الشيخ الدينية قبل 1028هـ/1619م؟ وبعد تحليل القضية وفهم التطورات السياسية

إلى هذا المقام وكان يريد أن يتجول فيه ولكنه لم يتمكن بسبب سوء الأدب وقلة الاحترام فمنع من ذلك، أما أنا فبسبب الأدب والتعظيم تمكنت من ذلك". راجع: مشايخ نقشبندية مجددية، ص110، ولم يكتف الشيخ بذلك بل أكد في بعض بياناته أنه ما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم بالإرادة الإلهية حدث معه أيضًا، ثم يذكر الشيخ مثال على ذلك قائلاً: "حدث مرة أن النبي صلى الله عليه وسلم صنع رغيف الخبز مع أصحابه أجمعين في التنور، فاستوت أرغفة أصحابه ولم يحدث ذلك مع أرغفته، وحدث معي أي الشيخ، أني حاولت صنع رغيف الخبز مع أصدقائه واستوت أرغفة أصحابي ولم يحدث مع أرغفتي، والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ومن هنا بسبب مس يده صلى الله عليه وسلم بتلك الأرغفة لم تؤثر النار فيها، أما أنا بما أني اتبع النبي صلى الله عليه وسلم اتباعًا كاملاً فحدث معي ذلك أيضًا ببركة الاتباع الكامل. راجع: مشايخ نقشبندية مجددية، ص112-113، والسؤال الذي يطرح هنا على نفسه هو من أين جاء الشيخ بهذا الكلام؟ هل هو حديث مروي من أصحابه؟ وهل هو مذكور في كتب الأحاديث النبوية؟ لا نعرف ذلك على وجه التحقيق.

¹ راجع: الإمام السرهندي، ص142-143

في البلاط السلطاني نجد أنه كان هناك صراع شديد بين السنة والشيعة في البلاط السلطاني، وكان للشيعة نفوذ وغلبة على السنة بسبب الملكة نورجهان وأهلها الذين أرغموا السلطان بأي صورة على إصدار فرمان ضد الشيخ واعتقاله¹ وبحثوا عن الذرائع لتحقيق غاياتهم؛ لأنه كان من الصعب أن السلطان يتخذ مثل هذه الإجراءات بسبب هذا المكتوب لأنه ببساطة لم يكن في يوم من الأيام صاحب هذه النفسية الدينية ولم يكن من ذكاء الحس، ودقة الشعور في مثل هذه المسائل الدينية التي لا تتعلق بأمور دولته وسلطته وسياسته في البلاد².

والسؤال هنا أيضًا يطرح نفسه كيف كان للسلطان ألا يعرف مكانة الشيخ الدينية وشهرته خلال كل هذه السنوات الطويلة أي أربعة عشر عامًا؟ على الرغم أن معظم الوزراء الكبار كانوا من مريدي الشيخ أحمد وكانت لهم صلات قوية بالآخر، والذين سيأتي ذكرهم في هذا البحث. فهل كان السلطان لا يعرف عن الزعيم الديني لوزرائه وأمرائه الكبار؟ وكان الشيخ فريد، وهو من كبار وزراء السلطان، عاش لأحد عشر عامًا بعد جلوس السلطان على كرسي الحكم، أمكنه ألا يخبر السلطان عن عظمة الشيخ الدينية والروحية؟ كيف يمكن ذلك؟ حتى لو كان قد مات الشيخ فريد، فأين كان الوزراء الآخرون لدى هذه المؤامرات ضد شيخهم؟ لماذا سكتوا عما حدث للشيخ؟ أم مات ضميرهم وصاروا جبناء أمام الأوامر السلطانية وبسبب المصالح الشخصية؟ أم كان عليهم الضغط السياسي القوي من جانب الهيمنة الشيعية في البلاط السلطاني؟ أكد بعض الباحثين أن السلطان قرّر اتخاذ المواقف الصارمة ضد الشيخ بعدما قام بإبعاد الوزراء والأمراء المريدين للشيخ إلى المناطق البعيدة، فمثلاً أرسل خان خانان إلى الدكن، وصدر جهان إلى المناطق الشرقية، وخان جهان إلى مالوه، وخان أعظم إلى گجرات، ومهابت خان إلى كابل. ولما علم الأخير بسجن الشيخ انزعج كثيرًا وأخذ بعض النشاطات المعادية ضد السلطان مع حذف اسم السلطان من خطبة الجمعة ومن النقود المضروبة في كابل، كما خرج مع جيشه لمحاربة الجيش

¹ State and Culture in Medieval India، ص 169

² راجع: الإمام السرهندي، ص 143

السلطاني. وتمكن من إلقاء القبض عليه وربما يكون قد ذهب أبعد من ذلك إلا أن الشيخ منعه وأرسل إليه رسالة تحمل تعليماته لطاعة السلطان وعدم التسبب في أي اضطراب في المملكة. ومن هنا قرّر مهابت خان بإطلاق سراح السلطان.¹ وفي الحقيقة لم يذكر الباحث المصادر التي اعتمد عليها لذكر هذه التفاصيل.

ولكي نحسم هذه القضية علينا أن نرجع إلى الأمير دارا شكوه الذي كان يسكن مع جده السلطان في القصر وكان له حضور مستمر في البلاط السلطاني، وكان مطلعاً على الظروف السياسية التي أدت بالشيخ إلى السجن. فهو يؤكد على معرفته عن تلك الأسباب السياسية قائلاً في كتابه "سفينة الأولياء": "كل ما جرى وحدث ضد الشيخ السرهندي كان ذلك بسبب الكذب والافتراء الذي قام به أعداؤه في البلاط السلطاني".² وأكبر أعداء الشيخ في البلاط كانوا من الشيعة. ومن الجدير بالذكر أن السلطان ترك تسجيل يومياته منذ العام السابع عشر من الجلوس إلى العام التاسع عشر، وقام بكتابة بعض الأحداث نديمه الخاص محمد شريف الشيعي الذي لقبه السلطان معتمد خان.³ وقام بتكملة توزك جهانگیری أحد مؤرخي البلاط مرزا محمد هادي الشيعي، الذي كتب ديباجة أيضاً في بداية الكتاب. ومن المحتمل جداً أن قام أحدهما بزيادة بعض العبارات الكاذبة في الكتاب ونسبها إلى السلطان.⁴ لأن من المستحيل أن السلطان المثقف والمتمكن من العلوم الشرعية والأدبية يختار مثل هذه الكلمات الجارحة ضد الشيخ. وتفيد المصادر أن المؤرخ محمد شريف على الرغم من كونه معروفاً بكتابة التاريخ والأدب، ولكنه لم يكن دقيقاً وشاملاً، ومع ذلك تم تعيينه

¹ The Mujaddid's Concept of Tawhid، ص 25-26

² راجع: سفينة الأولياء، ص 197-198/ وكان الأمير دارا شكوه في عمر الخامسة والعشرين لما كتب هذا الكتاب، ويتوقع من الشخص من هذه الفئة العمرية أنه جمع مواد لكتابه بعد البحث والتدقيق الشامل فيها.

³ راجع: مآثر الأمراء، 3/269-270

⁴ مذهبي رواداري، 2/112-113

كمؤرخ في البلاط السلطاني، وقد قام بهذيب كثير من الوقائع التاريخية المهمة ولم يذكر بعض الجزئيات المهمة في عملية الكتابة.¹

وعلى كل طلب السلطان من الشيخ السرهندي الحضور إلى البلاط السلطاني، ولدى وصوله تمت التحريات والاستجوابات عما اتهم به، وقد أنكر الشيخ أمام السلطان كل التهم الملتصقة بشخصيته.² ولما دخل على السلطان في البلاط لم يأت من الآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان، فلفت بعض الأعداء، نظر السلطان إلى أن الشيخ لم يراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للسلطين، فسأله السلطان عن السبب، فقال: إنني لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أعرف غير هذه الآداب، فغضب السلطان، وقال اسجد لي، فقال الإمام: ما سجدت لغير الله

¹ مآثر الأمراء، 270/3

² لقد استخدم السلطان ألفاظاً قوية وجارحة جداً فيما كتبه عن الشيخ، فيكتب في تاريخ أربع عشرة من جلوسه فيقول: "وصلني الخبر عن رجل مخادع اسمه أحمد الذي قام بتوسيع نطاق مصيدة الغش والمخاتلة في سرهند وانخدع كثير من الناس البسطاء والسذج به. وتمكن من فتح المراكز لنشر دعوته في جميع المناطق الهندية من خلال تعيين تلاميذه ومريديه المتمرسين في عملية الغش والخداع. وقد كتب هذا الرجل لهم وللمعتقدين كثيراً من الخرافات وجمعها في كتاب سماه "المكتوبات"، وتناول فيه كثيراً من الموضوعات غير الدينية يصل بعضها إلى حد الكفر، فقد كتب في أحد مكتوباته أنه مر في طريق السلوك من مقام جميع الصحابة والتابعين والصالحين حتى وصل إلى مقام المحبوبة والمشاهدة وكان يعكس عليه الأنوار الإلهية يعني أنه تقدم مقامات جميع الصحابة ووصل إلى أعلى مرتبة من المقام عند الله... وكتب مثل هذه الكلمات في الأماكن الأخرى في كتابه والتي لا يتسع المكان هنا لذكرها. ومن هنا أمرت بإحضاره إلى البلاط الملكي. ولدى حضوره أمامي طرحته عليه أسئلة عديدة لم يستطع الرد المقنع. ووجدته شخصاً متدمراً بالرياء والمكر والتكبر والغطرسة. ومن هنا فكرت في تأديبه وإصلاح أحواله من خلال القبض عليه وإيقاعه في السجن لكبح جماحه وطيشه وتهوره وللقضاء على الفتن والاضطرابات الدينية التي أثارها هذا الرجل من خلال النشاطات غير المرجوة، وأمرت المسئول أني رأي سنكه بسجنه في قلعة گواليار". راجع: توزك جهانگیری، ص 272-273

قط، ولن أسجد لغيره أبداً فتغيظ السلطان وزاد غضبه، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار.¹ وعلى كل فقد أرسل الشيخ إلى القلعة المذكورة في شهر ربيع الآخر عام 1028هـ/الموافق مارس عام 1619م.² وعلى حسب مكتوب الشيخ يبدو أنه قد صودرت، بعد اعتقاله، كتبه وبستانه، وبئره، ورباطه، ومنزله، ونقل أهله إلى مكان آخر.³ وقد بقي الشيخ عامًا كاملاً في قلعة كواليار، ثم تم الإفراج عنه في عام 1029هـ/1620م على حسب المصادر المعاصرة والحديثة.⁴

¹ لمزيد من التفاصيل راجع: حضرات القدس، 115/2-117، وتجدر الإشارة هنا إلى المكتوب الذي يؤكد على موقف الشيخ من سجدة التحية للسلطان وما يناسب ذلك، فيقول: "إن السجدة التي هي عبارة عن وضع الجبين على الأرض متضمنة لنهاية التذلل والانكسار ومشتملة على كمال التواضع والافتقار ولهذا جعلوا هذا القسم من التواضع مخصوصاً بعبادة واجب الوجود جل سلطانه ولم يجزوه لغيره تعالى... وبعض الفقهاء وإن جوزوا سجدة التحية للسلطان ولكن اللائق بحال السلطان العظام أن يتواضعوا في هذا الأمر لحضرة الحق سبحانه وتعالى وأن لا يجوزوا نهاية التذلل والانكسار هذه لغيره تعالى. وقد سخر لهم الله سبحانه وتعالى العالم وأحوجهم إليهم فينبغي أداء شكر هذه النعمة العظيمة وأن يخصصوا مثل هذا التواضع المنئي عن كمال العجز والانكسار بجناب قدسه تعالى وأن لا يجوزوا الشركة معه تعالى في هذا الأمر وإن جوز جمع هذا المعنى ولكن ينبغي لحسن تواضعهم أن لا يجزوه هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وحيث إن سلطان الوقت نزل إلى دار الخلافة راجعاً من أقصى ممالكه يتحمل أن يوصل هذا الفقير نفسه عن قريب إلى دار الخلافة بمشيئة الله تعالى... راجع المكتوبات، 200-196/2، رقم المكتوب: 92

² توزك جهانگیری، ص 272-273

³ كتب الشيخ رسالة شاملة إلى أهله للصبر والسلوان، فيقول: "الحمد لله رب العالمين في السراء والضراء وفي اليسر والعسر وفي النعمة والنقمة وفي الرحمة والزحمة وفي الشدة والرخاء والعطية والبلاء... أيها الأولاد الكرام إن وقت الابتلاء وإن كان مرًا كربه الطعم ولكن الفرصة مغتمة... وينبغي ألا يكون في جانب الإثبات من الكلمة الطيبة شيء غير غيب الهوية الذي هو وراء المعلومات والمتخيلات وهم الدار والقصر والبئر والبستان والكتب وأشياء أخرى سهل ينبغي ألا يكون شيء مزاحمًا لوقتكم ولا يكون شيء غير مرضٍ للحق جل وعلا. (هذا الكلام غير واضح تماماً). فإننا لو ذهبنا ذهب هذه الأشياء كلها فلتذهب في حياتنا... راجع: المكتوبات، 229-228/2، رقم المكتوب: 2

⁴ Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir ص 37

ولا يوجد بيدينا ما يؤكد الأسباب التي دفعت السلطان للإفراج عنه، هل تم ذلك بسبب مجهودات أبنائه أو تلامذته؟ المصادر المعاصرة لا تفيد بذلك. وعلى كل لدى خروج الشيخ من القلعة في عز وإجلال واحترام، وقد منحه السلطان الخلعة وألف روبية كجائزة مالية، وعلى حسب بعض المصادر أعطى الشيخ السرهندي الاختيار في البقاء في المعسكر أو مغادرته لبلده ومنزله، وقرّر الشيخ أن يبقى مع السلطان جهانگیر بدلاً من عودته إلى سرهند.¹ وبقاؤه في المعسكر يفتح صفحة جديدة حول العلاقة بين الشيخ والسلطان.

المرحلة الثالثة: تفيد المصادر المعاصرة والحديثة أن الشيخ بقي في المعسكر لأربع سنوات مرافقاً السلطان أينما توجه في المناطق الشمالية الهندية. ويبدو من مکتوباته

¹ "وقد تم إطلاق سراح الشيخ أحمد بحكمه، وأعطيته الخلعة وألف روبية لنفقاته وخيرته بين أن يذهب إلى بلده أو يبقى معنا، فاختار مرافقتنا والبقاء معنا بعد ما وصل إلى الهداية بسبب التأديب والتنبيه"، توزك جهانگیری، ص 300. هذا ما كتبه السلطان جهانگیر وهو غير صحيح، لم يعطه الخيار في البقاء والمغادرة؛ بل أمره بمرافقته في عسكره لثلاث أو أربع سنوات متتالية، وتؤكد على ذلك بعض مکتوبات الشيخ بعث بها إلى أبنائه وتلامذته، ففي أحد مکتوباته يخاطب ولدي الشيخ محمد سعيد والشيخ معصوم فيقول: "ليكن أولادي الكرام على جمعية إن الناس ينظرون إلى محنتنا في جميع الأوقات ويطلبون مخلصاً من هذا المضيق ولا يدرون أن في عدم حصول المراد وعدم الاختيار وعدم نيل المقصود والمرام بلائاً حسناً... وأي نعمة تساوي لإخراج الإنسان من اختياره بلا اختياره وإعطاء المعيشة له بلا اختيار وجعل أموره الاختيارية تابعة لعدم اختياره... راجع: المکتوبات، 353-352/2، رقم المکتوب: 83. وقد فسّر بعض الباحثين ذلك بتوجس السلطان وخيفته من اعتقاد الناس في الشيخ، وشهرته وقبوليته في المجتمع، ولأجل ذلك بعد رفع الإقامة الجبرية في القلعة، أمره بمرافقته في عسكره لثلاث سنين، في الظعن والإقامة، حتى يتعرف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان الدولة، ويطمئن إلى أنه لا خطر منه على السلطة والدولة، وأنه لا يستغله أي عنصر معارض للدولة، أو مغامر طامع للاستيلاء، فلما اطمأن خاطره بما رأى من سيرة الشيخ وسلوكه، وشاهد إخلاصه، وإيثاره، وبعده عن الطمع، وسموه في مكانته، ورأى بأمر عينه أن الشيخ لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أي وزن، ولا يلتفت إليها إطلاقاً، أذن له بالإقامة في سرهند كما يشاء، راجع: الإمام السرهندي، ص 144-145

أنه لم يترك فرصة واحدة لإقناع السلطان بالدين الإسلامي وتعليماته والشريعة الإسلامية وأهميتها. وقد كتب في إحدى رسالاته المرسلة إلى ولدي محمد سعيد ومحمد معصوم، مشيرًا إلى جلساته العلمية والدينية مع السلطان جهانگیر فيقول: "إن أحوال هذه الحدود وأوضاعها مستوجبة للحمد. قد تمر صحبات عجيبية وغريبة وبعناية الله سبحانه وتعالى لا يتطرق مقدار شعرة من المساهلة والمداهنة في هذا القيل والقال إلى الأمور الدينية والأصول الإسلامية ويقع البيان في هذه المعارك بعين العبارات التي كانت تصدر في الخلوات والمجالس الخاصة بتوفيق الله سبحانه فإن كتبنا ما جرى في مجلس واحد يستدعي أن يكون مجلدًا خاصًا في البارحة التي هي الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان وقد ذكرت أشياء كثيرة من فائدة بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعدم استقلال العقل والإيمان بالآخرة وعذابها وثوابها ومن إثبات الرؤية وخاتمية خاتم الرسل... وسنية التراويح وبطلان التناسخ ومن أحوال الجن ومن عذابهم وثوابهم وأمثال ذلك وصارت مسموعة بحسن الاستماع وذكر ضمن ذلك أيضًا أشياء أخرى... وأوصلت ختم القرآن إلى سورة العنكبوت وكل ليلة أنصرف من ذاك المجلس وأجيء إلى محلي أشتغل بالتراويح وفائدة الحفظ التي هي دولة عظيمة قد حصلت في هذه الفترة التي هي عين الجمعية والحمد لله أولاً وآخرًا".¹

ويظهر من هذه الرسالة بوضوح تام موقف الشيخ من السلطان وكيفية تعامله معه ومنهجه في شرح الفكر الإسلامي بين الجمهور من أعيان وأركان الدولة. ويجب أن يوضع بعين الاعتبار أن كل هذه المسائل الدينية والعقلانية التي شرحها الشيخ السرهندي في حضور السلطان جهانگیر كانت هي نفس المسائل والقضايا التي تم تفسيرها وتوضيحها بشكل خاطئ تمامًا في عهد السلطان أكبر.²

وتؤكد بعض المکتوبات المرسلة إلى السلطان جهانگیر على حضور الشيخ السرهندي لدى بعض المعارك الحاسمة ونجاح العسكر في الاستيلاء على بعض القلاع المتينة ومنها قلعة

¹ راجع: المکتوبات الربانية، 294/3، رقم المکتوب: 43، وهناك رسائل أخرى تؤكد على مجالسه العلمية والفكرية مع السلطان راجع: المکتوبات، 410/3، رقم المکتوب: 106

² Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir، ص 39

كانكزا التي تمت السيطرة عليها بعد الحصار حولها امتدت أكثر من أربعة عشر شهراً، وذلك أن نص الرسالة لا يشير إلى اسم القلعة ودعاء الشيخ لفتحها ونجاح العسكر في الفتوحات. يقول الشيخ: "إن أقل الداعين أحمد يظهر الانكسار والتواضع لخدام ذلك الجناب المعلى ويؤدي شكر نعمة الأمن والأمان التي هي شاملة لحال الخواص والعوام، ويطلب الفتح والنصرة للعساكر الإسلامية في أوقات مظنة إجابة الدعاء وزمان اجتماع الفقراء فإن كل أحد مخلوق لأمر وكل ميسر لما خلق له فإن العبث في أفعال الله تعالى ممتنع والأمر الذي جعل مربوطاً بالعساكر الغزاة المجاهدين هو تقوية قوائم الدولة القاهرة وتأييد أركان السلطنة الباهرة التي تعمل على ترويج الشريعة الغراء منوط بها لما قيل من أن الشرع تحت السيف وهذا الأمر جليل القدر أيضاً مربوط بعسكر دعاء الذين هم الفقراء وأصحاب البلاء، فإن الفتح والنصرة على قسمين، الأول: جعل مربوطاً بالأسباب وهو صورة الفتح والنصرة المتعلقة بعسكر الغزاة. والثاني: حقيقة الفتح والنصرة الكائنة من عند مسبب الأسباب وقوله تعالى "وما النصر إلا من عند الله"، إشارة إلى ذلك وهي متعلقة بعسكر الدعاء فعسكر الدعاء سبق بذله وانكساره عسكر الغزاة وترقى من السبب إلى الأسباب... وهذا الفقير وإن لم يكن لائقاً بأن يجعل نفسه في عداد جنود الدعاء ولكن بمجرد اسم الفقر والاحتتمال إجابة الدعاء لا يجعل نفسه فارغاً من دعاء الدولة القاهرة ويكون رطب اللسان بالدعاء والفاتحة بلسان الحال والقال..."¹

في ضوء ما ذكرت في الصفحات السابقة، يمكن استخراج النتائج الإيجابية؛ فعلى الرغم من اعتقال الشيخ من جانب السلطان جهانگیر استمرت العلاقات بين الطرفين في ود واحترام وتقدير وتأثير وتأثر. وقد انتهز الشيخ كل الفرص لنشر الفكر الإسلامي في العكسر وترويجه بين النخبة والجماهير. وكذلك كان مرافقته السلطان أثر عميق في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة، وما ظهر من السلطان عام 1031هـ بمناسبة فتح قلعة كانكزا من عواطف الإسلامية، وإظهار شعائر الإسلام

¹ راجع: المکتوبات، 300-299/3، رقم المکتوب: 47

فيما، يدل على حدوث التحول، والتقدم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مرافقة الشيخ أحمد السرهندي.

جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح أركان الدولة: يتبين من مکتوبات الشيخ السرهندي والتي أرسلها إلى أركان الدولة لا سيما الوزراء الكبار، أنه اهتم بإصلاح هذه الشريعة اهتماماً بالغاً. وقد ذكر الشيخ في بعض المکتوبات الأسباب التي جعلته أن يسعى إلى إصلاح أركان الدولة بالدرجة الأولى؛ حيث وعلى حسب قوله إنهم يعتبرون عصب المجتمع مثل القلب والروح في جسم الإنسان والذين تعتمد عليهما صحة الإنسان وفساده. يشرح الشيخ في أحد مکتوباته الموجهة إلى خانجهان وزير السلطان جهانگیر، فيقول بعدما شرح له ووضع العقيدة الإسلامية والعبادات ومقاصد الشريعة وترويجها في المجتمع الهندي ودعوته للسلطان وأمرائه وأعوانه إلى نشر وترويج الإسلام والشريعة الإسلامية: "معلوم أن السلطان كالروح وسائر الناس كالجسد؛ فإن كانت الروح صالحة فالبدن صالح وإن كانت الروح فاسدة فالبدن فاسد؛ ومن هنا فبذل الجهود والسعي إلى إصلاح السلطان وأعوانه بيت القصيد والسعي الحقيقي إلى إصلاح المجتمع بأكمله. ولن يتحقق الإصلاح الحقيقي إلا من خلال إظهار كلمة الإسلام بأي طريقة كانت... ولو نجحت الدولة في تحقيق هذه الغاية المرجوة لحصلت على الوراثة العظمى من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وهذه الدولة قد حصلت لكم مجاناً؛ فينبغي أن يعرف قدرها ومنزلتها..."¹

ويوجه برسالة أخرى لمزيد من توضيح وتبين هذه القضية، إلى صدر الصدور الشيخ ميران صدر جهان فيقول: "إن إحسان السلاطين حاصلة لكافة الخلق فبحكم "جبلت القلوب على حب من أحسن إليهم" قلوب الخلائق مائلة إلى جانب المحسنين بالضرورة فلا جرم كانت أخلاق السلاطين وأوضاعهم سارية إلى جميع الخلائق بواسطة هذا الارتباط القلبي على تفاوت درجات الإحسان وكأنه لذلك قيل؛ الناس على دين ملوكهم؛ وأحوال القرن السابق مصداق هذا الكلام..."²

¹ راجع: المکتوبات، 169-159/2، رقم المکتوب: 67

² راجع: المکتوبات، 226-225/1، رقم المکتوب: 195

وانطلاقاً من هذه الرؤية الواضحة تجشم الشيخ السرهندي عناءً طويلاً لإصلاح السلطان وأعوانه وتقويمهم. ووضع خطة جيدة لاستخدام الكوادر السياسية المهمة والمقربة إلى السلطان نفسه في ترويج الشريعة الإسلامية. وكان من حسن الحظ أن معظم هؤلاء الوزراء والأمراء كانوا يعتقدون في الطريقة الصوفية النقشبندية وكانوا من مريديه. ويرى بعض الباحثين أن الشيخ السرهندي بادر إلى تقوية العلاقات معهم، ولما تقربوا هم إليه تأثروا بشخصيته جداً ورسخ محبة وعظمة الشيخ في قلوبهم، مما جذبهم إليه وهنا انتهز الشيخ فرصة لتربيتهم وإرشادهم؛ فجعلهم لائقاً لتفعيل نشاطات الإصلاح والإرشاد في الإدارة المغولية¹.

ولتحقيق الغايات المرجوة اختار الشيخ منهجاً خاصاً ألا وهو كتابة المكتوبات والرسائل الموجهة إلى العلماء والوزراء والأمراء والصوفية المريدين وغيرهم، وكان ذلك من الوسائل الناجحة والمؤثرة آنذاك للتواصل العلمي والبحثي والديني، مما أضاف في الأدب الصوفي نوعاً من أنواع المواد التاريخية التي من الممكن أن يتم استخراج المعلومات القيمة المتعلقة بالحياة السياسية، والدينية والاجتماعية والثقافية وغيرها من المعلومات المهمة. ومعظم العلماء والفضلاء اختاروا هذه الوسيلة للتواصل العلمي والبحثي مع بعضهم بعضاً².

وقد وضع الشيخ بعض الأشياء بعين الاعتبار لدى إرسال المكتوبات إلى الأمراء والوزراء، ومنها عدم استخدام المصطلحات الفلسفية والصوفية وتعبير الموضوعات باللغة السهلة والبسيطة؛ ذلك لأن الهدف كان يتعلق بتفهم الأمراء والوزراء العقائد الدينية

¹ تذكرة إمام رباني، ص 144

² ومن معاصري الشيخ أحمد السرهندي الشيخ عبد الحق الذي خاطب الإدارة المغولية أيضاً من خلال إرسال المكتوبات لتقويم الأمراء والوزراء دينياً وثقافياً، إلى جانب إرسال المكتوبات إلى الصوفية والعلماء لتصحيح كثير من العقائد الدينية مع النقد فيما كتبوا حول الدين والشريعة وفي التصوف والفكر الإسلامي. راجع المكتوبة المرسلة إلى الوزير الشيخ فريد بمناسبة وفاة السلطان أكبر، والذي يحمل المواد المتعلقة عن التوحيد، وتعريف الرسائل السماوية، وواجبات الأنبياء وخصائصهم في العملية الدعوية. والرسائل الأخرى المرسلة إلى العلماء والصوفية. راجع: تصوف اور اهل تصوف، ص 127-159

وأحكام ومقاصد الشريعة الإسلامية وتعريفها لكي تتمكن هذه الكوادر من ترويج الشريعة الإسلامية في البلاط السلطاني وتنفيذها وخلق الجو الديني المناسب في الإدارة المغولية مما كان قد وفر الفرصة لهم أن يعرفوا السلطان بمسائل الدين والشريعة الإسلامية. وكانوا يبغون من خلال هذه المراسلات أيضًا الحصول على المعلومات المتعلقة بأحوال السلطان وموقفه من الدين والعلماء والشريعة وأحوال البلاط السلطاني. وكانوا يعرفون حق المعرفة أن هذه الشريعة من الإدارة المغولية تستطيع أن تؤدي دورًا مهمًا في تحقيق الغايات المرجوة، ومن هنا اختاروا في هذه الرسائل الطرق العديدة لخلق الرغبة لدى الوزراء والأمراء في قبول الدعوة. وكان منها أنه في كثير من الأحيان يذكر في مكتوباته أنهم يثنون عليهم ويشجعون على تمكثهم من تحقيق الأهداف الدينية في البلاط السلطاني مع ذكر تأثيرهم القوي في سياسة السلطان وقراراته الإدارية والسياسية. كتب في أحد مكتوباته الموجهة إلى الوزير الشيخ فريد في الترغيب بترويج الشريعة الغراء فيقول: "نسأل الله سبحانه تقوية أركان الشريعة الغراء ورواج أحكام الملة السمحة... والنجاة لغرباء أهل الإسلام في مثل هذه الأيام من لجة بحر الضلالة... وينبغي صرف الهمة العليا في تحصيل هذه السعادة العظمى. وقد تيسر لكم بعناية الله سبحانه وتعالى الجاه والكرم والعظمة والشوكة كلها، فإن انضمت هذه الأوصاف إلى تلك الأعمال الحسنة مع وجود الشرف والعزة؛ فقد أحرزتم قصب السباق في ميدان السعادة على جميع الأقران، وهذا الفقير متوجه نحوكم بإرادة إظهار أمثال هذه الكلمات في تأييد الشريعة الحقنة وترويجها".¹

وذكر ذلك بشكل واضح وصرح في أحد مكتوباته المرسلة إلى وزير السلطان جهانگیر فيقول: "... والدولة التي جعلك الله سبحانه ممتازًا بها وأكثر الناس غافلون عنها؛ بل تكاد لا تدركها أنت أيضًا... ولما كان مثل هذا السلطان عظيم الشأن مصغيًا إلى قولكم بحسن الاستماع ومتلقيًا إياه بالقبول، كان اللازم أن يعد ذلك فرصة عظيمة وأن يبلغ الكلمة الحقنة أي كلمة الإسلام الموافقة لمعتقدات أهل السنة صراحة أو إشارة إلى سمع السلطان وأن يعرض إليه كلام أهل الحق بقدر الإمكان؛

¹ راجع: المكتوبات، 94-93/1، رقم المكتوب: 51

بل ينبغي أن يترصدوا الفرص ويلتمسوا دائماً مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق، والكفر باطل وشنيع..."¹

ويخاطب الشيخ السرهندي الوزير الخان الأعظم ميرزا عزيز كوكا بشكل واضح فيقول: "... فلا جرم فاختيار صحبة السلاطين وجعلهم منقادين إليه بتصرفه وترويج الشريعة بواسطتهم، وقد جعل الله سبحانه كلامكم مؤثراً وأودع فيه تأثيراً ببركة محبتكم لأكابر هذه الطائفة وأسرارهم وظهرت عظمة إسلاميتكم في نظر الأقران، فالملتزم سعيكم في هذا الباب ولو لهدم أكبر أحكام الكفر الذي له شيوع تام بين أهل الإسلام حتى يكون أهل الإسلام محفوظين من تلك المنكرات، فجزاكم الله عنا وعن سائر المسلمين خير الجزاء"²

وتفيد بعض المکتوبات أنه كان يدعو الكوادر السياسية من هؤلاء الوزراء والأمراء إلى ترويج الشريعة الإسلامية في البلاط السلطاني وإلى تقويم السلطان وإصلاحه وإرشاده. يكتب في أحد مکتوباته داعياً الوزير جهانگیر قلي خان الملقب "لاله بيگ" فيقول: "... قد بلغت غربة الإسلام منذ قرن واحد مبلغاً، وغاية لا يرضى أهل الكفر بمجرد إجراء أحكام الكفر في بلاد الإسلام، بل هم يريدون إزالة أحكام الإسلام ورفعها بالكلية، ويجتهدون في إعداد أثر الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمر حدّاً لو أظهر مسلم شيئاً من شعائر الإسلام يذيقونه القتل. وذبح البقر من أعظم شعائر الإسلام في بلاد الهند، ولعل الكفار يرضون بأداء الجزية ولا يرضون بذبح البقر أصلاً. وها نحن في بداية حكم السلطان جهانگیر. فإن حصل الرواج والقوة للإسلام والاعتبار للمسلمين في بداية سلطنته فيها ونعمت، وإلا فالأمر سيكون صعباً للغاية في حق المسلمين. الغياث ثم الغياث والغياث..."³

¹ راجع: المکتوبات، 166/2-167، رقم المکتوب: 67

² راجع: المکتوبات، 111/1-112، رقم المکتوب: 65

³ راجع: المکتوبات، 133/1، رقم المکتوب: 81

ويقول في رسالة أخرى موجّهًا كلامه إلى صدر الصدور ميران "ولما تغيرت الأوضاع السياسية الآن في البلد وانكسر سور عناد أهل الملل لزم أئمة أهل الإسلام من الصدور العظام والعلماء الكرام صرف جميع الهمة في ترويج الشريعة الغراء وتقويم أركان الإسلام المنهدمة وأحكامها في بداية الأمر، فإن التأخير ليس فيه خير وقلوب الغرباء في غاية الاضطراب من هذا التأخير في هذا الباب وشدائد القرن السابق متمكنة في قلوب المسلمين؛ فهم خائفون من فوت تلافي ذلك فتنجر غربة الإسلام إلى الطول، فإذا لم يكن في السلاطين شوق ترويج السنة السنية يتساهل مقربوهم في هذا الباب أيضًا ويعدّون حياة أيام معدودة غنيمة يكون الأمر ضيقًا على فقراء أهل الإسلام ومظلمًا جدًّا...."¹

والجوانب المضئئة المهمة من مكاتيبه المرسلّة إلى أركان الدولة والتي تؤكد على إرسال دعوته من خلالها، أنه بذل المجهودات الحثيثة في توضيح الفكر الإسلامي وتبين المسائل والقضايا الإسلامية. وفي كثير من الأحيان قام ذلك مع ذكر الأحاديث والآيات القرآنية لمزيد من التأكيد والتوضيح، مع اختيار الكلمات والعبارات المناسبة المليئة بنصح وإرشاد، وفي بعض الأحيان يستغيث بهم على السير على السنة والشريعة الإسلامية الغراء. ونذكر هنا رسالته الطويلة التي أرسلها إلى الخان الأعظم ميرزا كوكا، موضحًا أحوال الإسلام والمسلمين السيئة وغربة الإسلام في الدولة الإسلامية والعراقيل في تطبيق الشريعة الإسلامية، فيقول: "أيّدكم الله سبحانه ونصركم على أعداء الإسلام في إعلاء الأحكام، قال المخبر الصادق الأمين عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها: "إنَّ الإسلامَ بدأ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء"². وقد بلغت غربة الإسلام حدًّا يطعن الكفار في الإسلام بين ملء ويزدemon المسلمون ويجرون أحكام الكفر بلا تحاش ويمدحون أهله في الأزقة والأسواق والمسلمون عاجزون ممنوعون من إجراء أحكام الإسلام ومطعون فيهم في إتيان أحكام الشرائع عند هؤلاء الكفرة اللئام.... وقد قيل: الشرع

¹ راجع: المکتوبات، 226/1، رقم المکتوب: 195

² صحيح مسلم، رقم الحديث: 145

تحت السيف وجعل رونق الشرع الشريف مربوطاً بالملوك والسلاطين، والآن قد انعكست القضية وانقلبت المعاملة في هذا الزمان وا حسرتاه... ونحن اليوم نعدّ وجودكم الشريف مغتنماً ولا ندري من المبارز في هذه المعركة الضعيفة المنكسرة غيركم، والله سبحانه يكون مؤيدكم وناصركم بحرمة النبي وآله الأمجاد عليه وعلمهم الصلوات والتسليمات والتحيات والبركات".¹

ووضع الشيخ السرهندي القضية نفسها والأزمات التي يمرّ بها المسلمون آنذاك في رسالة أخرى، فيقول: "بحكم" الشريعة تحت السيف" رواج الشريعة الغراء مربوط بحسن اهتمام السلاطين العظام. وهذا المعنى قد طرأ عليه الضعف منذ أوقات فصار الإسلام ضعيفاً بالضرورة وطفق كفار الهند يهدمون المساجد بلا خوف وخطر ويعمرون في مواضعها معابدهم، فكان هناك مسجد في تهايسر هدموه وبنوا موضعه معبدًا هندوسيًا كبيرًا. وأيضًا يقوم الكفار بمراسم الكفر والإلحاد على الملأ كما شاؤوا والمسلمون عاجزون عن إجراء أحكام الإسلام وفي أيام صيام الديانة الهندوسية يهتمون في ألا يطبخ ولا يبيع أحد من المسلمين خبزًا في أسواق بلاد المسلمين وفي شهر رمضان المبارك يطبخون الخبز والطعام على الملأ ويبيعون ولا يقدر أحد من ضعف الإسلام على منعه...".²

وتمدّنّا مكتوبات الشيخ بمواد مهمة فيما يتعلق بتبني الوسائل العديدة لترويج الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي بين الكوادر الحكومية المهمة. وفي معظم هذه الرسائل المرسلة إلى أركان الدولة عبر الشيخ عن قلقه الشديد بغربة الإسلام، ومهانتة، وقلة حيلته، وانتهاك حرّات الشعائر الإسلامية، والأحكام الدينية، وهوان المسلمين وإلجام ألسنتهم أن تنطق بالحق. ووجههم - باستخدام مناصبهم الكبيرة، ومكانتهم الخطيرة، وخدماتهم العظيمة للدولة - إلى أن يلفتوا نظر السلطان إلى الأوضاع المتردية، وما يعاني الإسلام فيه من غربة، وأن يثيروا فيه عرقه الإسلامي الذي ورثه عن آبائه، ويوقظوا

¹ راجع: المكتوبات، 110-111/1، رقم المکتوب: 65

² راجع: المكتوبات، 196-199/2، رقم المکتوب: 92

الحمية الدينية من سباتها، فهذا كل ما نراه في الرسائل المرسلة إلى هذه الشريحة المهمة من المجتمع الهندي. وللعلم فإن هؤلاء الأمراء وأركان الدولة الذين اختارهم الشيخ السرهندي بين الآخرين يعتقدون في الشيخ أيضًا وكانوا متأثرين بفكره ومنهجه. وخوفًا من الإطالة نحن نختار هنا فقط بعض الوزراء والأمراء الكبار الذين أرسل إليهم الشيخ السرهندي مكتوبات عديدة ومهمة لتفعيل النشاطات الدينية وتوسيع نطاق سيادة الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية. ومنهم النواب فريد مرتضي خان البخاري المتوفى عام 1025هـ/1615م¹ وعبد الرحيم خانخانان أي أمير الأمراء المتوفى عام 1036هـ/1626م²، ومرزا عزيز كوكا خان أعظم المتوفى 1033هـ/1623م¹ وميران صدر

¹ الأمير الكبير مرتضي بن أحمد بن أبي بكر بن جلال بن إله ديا بن لطف الله بن بهاء الدين بن أبي الغيث بن محمد غوث بن جلال الدين حسين بن علي الحسيني البخاري، نواب فريد الدين مرتضي خان كان يعتبر أحد أجواد الدنيا، ولم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير والسخاء والكرم والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور. وكان المير بخشي في عهد السلطان أكبر، ولما جلس السلطان جهانگیر بن أكبر على كرسي الحكم أضاف في منصبه ولقبه بصاحب القلم والسيف، ثم لقبه بمرتضي خان وولاه على گجرات، فاستقل بها أربعين عامًا، ثم ولي على البنجاب فأقام بها مدة حياته. وكان رجلًا سخيًا ومحبًا للعلم والعلماء والفقراء والمساكين واليتامى. وكان يكفل اليتامى ويربهم كترية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس، ويجهز لهن، وكان يأكل على مائدته قرابة ألف وخمسمئة نفر كل يوم، لمزيد من التفصيل حول حياته وأعماله الخيرية، راجع: مآثر الأمراء، 418-423، وأيضًا: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، 647/2-648

² الأمير الكبير مبارز الدين عبد الرحيم بن بيرم خان الدهلوي الملقب بخانخانان. وكان مربيًا للعلماء والفضلاء مما أدى إلى جمع من رجال العلم والمعرفة ما لم يجتمع عند غيره من الملوك والأمراء. وكان من أهل التفنن في الفضائل والعلوم وماهرًا في اللغات العديدة ومنها العربية والفارسية والتركية والهندوستانية وغيرها، مقدمًا في المعارف متكلمًا في أنواعها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب من الخطأ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة والحلم والتواضع والشجاعة والكرم. جعله السلطان أكبر معلمًا لولده جهانگیر، وبسبب أعماله العسكرية الناجحة لقبه بخانخانان أي أمير الأمراء. وكان يؤلف ويترجم الأعمال التاريخية والأدبية من وإلى اللغة التركية والفارسية. ومن مؤلفاته القيمة "توزك بابري" نقله من التركية إلى الفارسية. راجع ترجمته في مآثر الأمراء، 479-492؛ وكذا راجع: الإعلام، 560/2-561

جهان الحسيني البهانوي المتوفى 1020هـ/1611م،² محمد قليج خان الأندجاني الأكبر المتوفى عام 1023هـ/1614م،³ مرزا داراب خان ابن عبد الرحيم خانخانان المتوفى عام 1034هـ/1624م،⁴ خواجه دوست محمد كابللي (خواجه جهان)،⁵ لاله بيگ،⁶ وغيرهم من الوزراء الكبار والصغار. وإن عددًا كبيرًا من هذه المكتوبات بعث بها الشيخ السرهندي إلى الأمير السيد فريد البخاري وعبد الرحيم خانخانان والتي لها أهمية بالغة لما تشمله من الموضوعات الدينية والفكرية التي تناولها الشيخ فيها. وهناك مكتوب خاص يقع في إحدى عشرة صفحة من القطع الكبير والذي أرسله الشيخ

¹ الأمير الكبير الفاضل عزيز الدين بن شمس الدين محمد الغزنوي ثم الدهلوي، أحد الرجال المشهورين في الهند، كان معاصرًا للسلطان أكبر وأخاه في الرضاة، وكان السلطان أكبر يحبه حبًا مفرطًا ويقدمه في كل باب، وكان متسامحًا مع إلى أقصى درجة. تولى على الولايات العديدة وبسبب أعماله العسكرية والإدارية لقبه السلطان أكبر بالخان الأعظم. سافر مع أهله إلى الحرمين الشريفين في عام 1002هـ، لأداء مناسك الحج والعمرة، فحج وزار وبذل أموالًا طائلة على الفقراء والمساكين في الحرمين الشريفين ووظف للناس من مجاوري الروضة المنورة، واشترى عروضًا وعقارًا في المدينة المنورة ووقفها. بعد عودته من الحج عام 1003م جعله السلطان وكيلًا مطلقًا له في مهمات الأمور. وكان حسن المحاضرة جيد القول، راعي العلماء والفضلاء، وكان ينتقد السلطان انتقادًا شديدًا فيما قام به الأخير من تأسيس الدين الجديد ونشر الأفكار الجديدة. لمزيد من المعلومات عنه راجع: مآثر الأمراء، 478-467/1؛ وأيضًا: الإعلام، 586-587/2

² الشيخ العالم الفقيه المفتي صدر جهان بن عبد المقتدر بن شاهين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سراج الدين بن تاج الدين بن سليم الدين بن كمال الدين الحسيني الترمذي. كان من العلماء البارزين في العلوم الإسلامية والعربية. تقلد المناصب العديدة في عهد السلطان أكبر الذي جعله معلمًا لابنه جهانگیر الذي حفظ عنه أربعين حديثًا. وفي عهد الأخير نال المناصب الأخرى إلى جانب الصدارة. وعاش مائة وعشرين عامًا مع صحة حواسه وسلامة أفعاله. راجع: منتخب التواريخ، 478/3؛ وأيضًا: الإعلام، 543-542/2

³ راجع ترجمته في مآثر الأمراء، 53-49/3

⁴ راجع ترجمته في مآثر الأمراء، 14/2

⁵ راجع ترجمته في مآثر الأمراء، 466-465/1

⁶ راجع ترجمته في مآثر الأمراء، 356-355/1

السرهندي إلى خان جهان وضع فيه العقيدة الإسلامية الصحيحة، والعبادات والأحكام الشرعية، ومقاصد الشريعة وكيفية ترويجها في الإدارة والمجتمع، مع دعوته إلى إلقاء كلمة الحق على سمع السلطان.¹

وكان الشيخ يرى أن عملية تفعيل النشاطات الدينية وتطبيق الشريعة الإسلامية ورواجها مربوط بالإدارة وأعيان الدولة وحسن اهتمامهم نحوها، ومع أن العلماء والدعاة يقومون بترويج الدين والشريعة الإسلامية، إلا أن الإدارة الإسلامية والسلطين وأركان الدولة يقدّمون لهم كل الدعم المادي والمعنوي لتحقيق هذه البغية النبيلة.² وقد قام الشيخ أولاً بتوضيح أهمية الدعوة الإسلامية وضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية لدى هذه الشريحة الإدارية، مؤكداً عليهم أن العمل الدعوي إلى الشريعة الإسلامية عمل الأنبياء والرسل على أساس أن النجاة فيها ومنها، مبيناً أن المقصد في إرسال الأنبياء والرسل هو التبليغ والدعوة الإسلامية، ومن هنا يجب أن يكون المقصد الأول والأخير هو السعي الحثيث إلى ترويج الإسلام والشريعة وإحيائها لا سيما في هذا الزمن العصيب. يقول: "الملة المصطفوية قائمة بالشريعة، والناس إنما يسألون يوم القيامة عن الشريعة دون التصوف... والأنبياء والرسل الذين هم أفضل الكائنات إنما دعوا الخلق إلى الشرائع وجعلوا مدار النجاة عليها. والمقصود من بعثة هؤلاء الأكابر هو تبليغ الشرائع. فأعظم الخيرات إذاً هو السعي في ترويج الشريعة وإحياء حكم من أحكامها لا سيما في الزمن الصعب الذي انهدمت فيه شعائر الإسلام."³

ولترسيخ مبدأ تطبيق الشريعة وأهميتها في قلوبهم وتحريضهم على المبادرة إليها قال الشيخ في المکتوب نفسه: "لو أنفق ألوفاً في سبيل الله لا يساوي ذلك ترويج مسألة من المسائل الشرعية فإن في هذا الفعل اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم أعظم المخلوقات ومشاركة معهم في عملية التبليغ، ومن المقرر أن أكمل الحسنات مسلّم لهم وإنفاق الألوفاً ليسر لغير هؤلاء الأكابر أيضاً... نعم إن كان الإنفاق لتأييد

¹ راجع: المکتوبات، 169-159/2، رقم المکتوب: 67

² راجع: المکتوبات، 199-198/2، رقم المکتوب: 92

³ راجع: المکتوبات، 93-92/1، رقم المکتوب: 49

الشريعة وترويج الملة فله درجة عليا وإنفاق فلس بهذه النية يساوي إنفاق ألوف في سائر الأمنية...¹ وقد عبّر الشيخ السرهندي عن أسفه الشديد في المكتوب التالي عما جرى في عهد السلطان أكبر مع الدين الإسلامي الذي صار غريبًا، فشكا ذلك الشيخ في أحد مکتوباته الموجهة إلى الشيخ النواب فريد للحث على تصحيح العقائد والإغراء على ترويج الشريعة والثقافة الإسلامية، فيقول: "سيدي الشريف! إن الإسلام غريب في هذا الزمان جدًّا؛ فصرف فلس واحد في تقوية الإسلام في هذا الزمان يساوي الملايين، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجريء الذي ينعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة، إن العمل الذي يقوم به الإنسان لنشر الدين وتأييد الملة - في أي عصر من العصور - جميل ومحبوب ولكن في هذا الوقت العصيب، حيث صار الإسلام غريبًا، أجمل وأحب، فجدير بكم - أنتم الأشراف - إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم، وهو لكم مباشرة، ولغيركم بواسطة، وإن وراثتكم لجدكم الكريم لها أهميتها الكبيرة في نيل هذه السعادة، فإن هذه الساعة هي التي ورد عنها ذلك الحديث: "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عَشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ أَهْلَكُمْ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَشْرٍ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا"، فإن هذه الجماعة من الناس، هي تلك الجماعة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون".²

ثم يرجع فيدعو إلى التشمير عن ساعدهم ومواجهة الصعوبات التي ستأتي في سبيل تحقيق هذه الغايات النبيلة المرجوة فيقول: "... فإن حصلت الأذية والمشاكل في سبيل التبليغ والدعوة فينبغي أن يعدّها سعادة عظيمة ألا ترى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ماذا رأوا من الإيذاء والصعوبات وكم تحملوا من المحن حتى قال أفضلهم عليه الصلاة والسلام ما أؤذي نبي قط مثل ما أؤذيت".³

¹ راجع: المکتوبات، 92/1، رقم المکتوب: 49

² راجع: المکتوبات، 224-223/1، رقم المکتوب: 193. والحديث المذكور ضعيف، راجع: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، رقم الحديث 2038

³ راجع: المکتوبات، 225/1، رقم المکتوب: 193 "ما أؤذي أحدًا ما أؤذيت"، تذكرة الحفاظ، رقم الحديث: 274

ونرى في كافة مکتوباته أنه اهتم بالشريعة الإسلامية في مهمته لإصلاح الفكر الإسلامي لدى الإدارة المغولية. ومن هنا نجد أنه قام في معظم هذه المکتوبات بشرح وتوضيح النکات المهمة المتعلقة بالشريعة الإسلامية لتفهيم الناس المعنية، ولا ريب أن كل مسلم يحتاج إلى فهم المسائل الدينية المهمة لممارستها بأحسن وأدق صورة. وقد قسم الشيخ السرهندي الشريعة إلى ثلاثة أقسام: الأول: العلم، والثاني: العمل، والثالث: الإخلاص. ولن يتحقق المقصود دون أن تتعلق هذه الأمور الثلاثة بالشريعة، ثم ولا بد للإنسان منها كلها حتى تتيسر النجاة الأبدية.¹ وكان يلح على الوزراء والأمراء والإداريين أن يتعلموا ويلموا بالمسائل الشرعية الضرورية وتصحيح العقائد وإتيان الأعمال الصالحة وترويجها بين الآخرين. وقد كتب مکتوبًا إلى أحد الإداريين فيقول: "إنه لا بد من تعلم أحكام الفرائض والسنن والواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمشتبهات، ويتم الأعمال كلها بموجب هذه الأحكام المذكورة."² وكان يتوقع من الأمراء والوزراء المقربين إلى السلطان أن يخبروه عن الأحكام الشرعية كلما سئلت لهم الفرص. وكان يعتقد أنه كثير من التأثيرات الهندوسية رسوم الكفر والشرك جارية وسارية في البلاط الملكي وفي الإدارة؛ وذلك بسبب عدم معرفة السلطان وفهمه لما يجري في البلاط، ومن هنا يجب على العلماء والأمراء أن يخبروه عن ذلك. وفي هذا الصدد يكتب في إحدى رسالاته الموجهة إلى الشيخ النواب فريد فيقول: "... بقايا رسوم الكفر التي ظهرت في القرن السابق تثقل على قلوب المسلمين جدًا ولم يبق لسلطان الوقت توجه إلى أهل الكفر في هذا الوقت، ومن هنا فإنه من اللازم لمن يقدر من المسلمين إعلام السلطان بقبح رسوم الهندوسية وبذل كل الجهود في إزالتها فإن بقاءها يحتمل أن يكون مبنياً على عدم معرفة السلطان وعلمه بقبحها...."³

ولم يكتف الشيخ السرهندي بدعوة الأمراء والوزراء إلى تعليم أحكام الشريعة فحسب؛ بل أشار عليهم أيضاً باختيار الكوادر من العلماء الفضلاء المتقنين المؤهلين

¹ راجع: المکتوبات، 104-102/1، رقم المکتوب: 59

² راجع: المکتوبات، 140/1، رقم المکتوب: 94

³ راجع: المکتوبات، 224/1، رقم المکتوب: 193

المخلصين للدين والدولة وتعيينهم في البلاط الملكي. ووضح موقفه من علماء السوء مشيرًا على الإداريين بعدم الالتفات إلى علماء الدنيا المستغلين علمهم ودينهم لكسب المال والشهرة والمستخدمين علمهم ومنصبهم لتحقيق مصالحهم الخاصة على حساب الدين، مؤكدًا على أنهم هم الذين يسببون للمسلمين والإسلام بمحن وويلات وكوارث وإساءات كبيرة. يقول في مكتوبه ناصحًا أحد الإداريين: وينبغي الاستفسار عن الأحكام الشرعية والاستفتاء فيها من علماء الآخرة؛ فإن لكلامهم تأثيرًا فعسي أن يحصل التوفيق للعمل بها ببركة أنفاسهم. وينبغي الاجتناب لعلماء الدنيا الذين جعلوا العلم وسيلة للجاه والمناصب. وفي حالة عدم وجود مثل هؤلاء العلماء الربانيين المتقين فمن الممكن الرجوع إلى علماء الدنيا ولكن ينبغي أن يكون ذلك في إطار معين وعند الضرورة فقط. وللعلم أن الحاج ميان محمد الأترة من العلماء المتدينين في منطقة لاهور وهو مما تعرفونه جيدًا وهناك الشيخ على الأترة وهو من أحبابكم وكل من هذين الشخصين مغتنم في تلك المنطقة والرجوع إليهما في تحقيق المسائل الشرعية أنسب...¹

وهذا التوضيح من جانب الشيخ يدل على أنه كان يرى أن العلماء الصالحين هم الملجأ والمأوى لتحقيق الغايات الشرعية ويجب أن يتم الاستلزام منهم في هذا الباب، ويدل أيضًا على أنه كان بمعرفة جيدة بالعلماء الصالحين والطلّاحين في المناطق الهندية.

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ السرهندي لم يدع إلى الحصول على أحكام الشريعة وتنفيذها وتطبيقها وترويجها على أرض الواقع مع توضيح كيفية تنفيذها فحسب؛ بل كان يصر على أنها يتم تطبيقها وممارستها في الحياة اليومية الرتيبة. وهذه هي النقطة المهمة التي يركز عليها ويهتم بها يضع جلّ اهتمامه في معظم المکتوبات تحدث فيها عن الشريعة الإسلامية وأحكامها. وهذه هي النقطة المحورية التي ناقشها كثيرًا في المکتوبات المرسلة إلى الأمراء والعلماء والصوفية وهي مشتركة بينهم. فكما أنه نصح العلماء باتباع الشريعة وتحمل المسؤولية بنشرها وترويجها في المجتمع الهندي من

¹ راجع: المکتوبات، 122/1، رقم المکتوب: 73

ناحية، انتقد الحكماء والفلاسفة بعدم تبعية الشريعة الغراء من ناحية أخرى، مع التأكيد على الصوفية بأن الطريقة والحقيقة خادمتان للشريعة وليس العكس بالعكس. ويوضح ذلك في إحدى رسالاته المرسلة إلى بعض الصوفية فيقول: "اعلم: أن للشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص. وإذا لم يتحقق كل من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقق الشريعة، ومتى تحققت الشريعة فقد تحقق رضا الحق سبحانه وتعالى الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية ورضوان من الله أكبر. فكانت الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، ولم يبق مطلب يقع فيه الاحتياج إلى ما وراء الشريعة. أما الطريقة والحقيقة اللتان امتازت بهما الصوفية فهما خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث وهو الإخلاص، فالمقصود من تحصيل كل منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء الشريعة".¹

وتجدر الإشارة هنا إلى النقطة المهمة وهي أن الرسائل التي أرسلت إلى الأمراء والوزراء الذين كان معظمهم ينتمون إلى الطريقة النقشبندية، فكان الشيخ يروج الأفكار الصوفية بينهم وينصحهم بإصلاح الباطن مؤكداً على أنه يمر بطريقة الشريعة المطهرة ودون السير عليها من المستحيل أن يصل أحد إلى المنزل المقصود. يوضح ذلك في أحد مکتوباته المرسلة إلى بعض الإداريين: "ينبغي أن يكون المرء متوجهاً إلى الباطن بعد أن جعل الظاهر محلياً بإتيان الأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطاً بالغفلة. والتحلي بالأحكام الشرعية بدون إمداد الباطن متعذر ووظيفة العلماء الإفتاء وشغل أهل الله العمل والاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد... وعلامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية... والله سبحانه الموفق".²

وينصح بعض الإداريين حول ذلك فيقول: "أيها الولد: إن الذي ينفع الإنسان غداً هو متابعة صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام والتحية، فإن اجتمعت الأحوال

¹ راجع: المکتوبات، 73-72/1، رقم المکتوب: 36

² راجع: المکتوبات، 194-193/2، رقم المکتوب: 87

والمواجيد والعلوم والمعارف والإشارات والرموز مع تلك المتابعة فيها ونعمت وإلا فلا شيء سوى الخذلان والاستدراج...¹ ثم يوضح هذه النقطة أكثر في الرسالة الأخرى المرسلة إلى النواب الشيخ فريد فيقول: "... والناس إنما يسألون يوم القيامة عن الشريعة دون التصوف، وكل من دخول الجنة وتجنب النار مربوط بإتيان الشريعة...".²

إلى جانب قيام الشيخ السرهندي بتلقين أركان الدولة تطبيق الشريعة وتنفيذها والسير عليها، يوجههم إلى أداء الفرائض والسنن. وكل ما قدّمه في هذا الباب مهم للغاية. وقد حث في رسائل عديدة على اتباع الأنبياء والرسول مع توضيح التكليف الشرعية من الفرائض أي الأركان الأربعة والأحكام العادية المتعلقة بالمعيشة، مؤكداً على أنها وضعت من جانب الله تعالى الذي يراعي في كل كبيرة وصغيرة ضعف الإنسان واحتياجاتهم البشرية الطبيعية، ومن هنا فالدين والفرائض والأحكام الضرورية وضعت لليسر وليس للعسر، لأن اليسر مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، جعله الله تعالى أساساً لكل ما أمر به ونهى عنه في كتابه وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وأمرنا أن نلتزمه في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه؛ فقال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (البقرة: 185). ويوضح الشيخ السرهندي ذلك في أحد مکتوباته التي أرسلها إلى الوزير خانخانان فيقول: "... ومن كمال عناية الحق سبحانه وتعالى رعاية نهاية اليسر وغاية السهولة في جميع التكليف الشرعية والأحكام الدينية؛ حيث إنه أمر مثلاً بسبع عشرة ركعة من الصلاة في الليل والنهار لا يبلغ مجموع أوقاتها ساعة واحدة ومع ذلك اكتفى في قراءتها بما تيسر، وجوّز القعود عند تعذر القيام والاضطجاع عند تعذر القعود، وأمر بالإيماء عند تعذر الركوع والسجود، وجعل التيمم خلقاً للوضوء وقت العجز عن استعمال المياه، وعيّن للفقراء والمساكين حصة واحدة من أربعين حصة في زكاة الأموال وقيد افتراضها أيضاً بكون الأموال نامية والأنعام سائمة، وفرض في جميع العمر حجاً واحداً ومع ذلك جعله مشروطاً بالقدرة على الزاد والرحلة وأمن الطريق، ووسّع دائرة المباح حيث أباح

¹ راجع: المکتوبات، 216/1، رقم المکتوب: 185

² راجع: المکتوبات، 92/1، رقم المکتوب: 48

نكاح أربع من النساء ومقدار ما يملكه ويقدر عليه من السراري، وجعل الطلاق وسيلة لتبديل النساء، وجعل أكثر الأطعمة والأشربة والأقمشة مباحًا وجعل المحرم منها قليلًا وتحريمه أيضًا بواسطة مصالح العباد...¹

ووضح الشيخ أنّ هناك أقسامًا مختلفة للشريعة الإسلامية توجد فيها أنواع مختلفة من العبادات وركز على هذه النقطة المحورية مع توضيح أهمية وفضل كل من الفرائض والنوافل في الشريعة الإسلامية، مؤكدًا على أن لكل واحد مقامًا ومرتبة ولم ولن تأتي النوافل في مرتبة الفرائض، ويوضح ذلك في أحد مكتوباته، فيقول: "..... واعلم أن مقربات الأعمال إما فرائض وإما نوافل فالنوافل لا اعتبار لها في جنب الفرائض أصلًا، فإن أداء فرض من الفرائض في وقت من الأوقات أفضل من أداء النوافل ألف سنة وإن أديت بنية خالصة أي نفل كان من الصلاة والصوم والذكر والفكر وأمثال ذلك..." وللتأكيد على ذلك ينقل الشيخ كلام سيدنا عمر رضي الله عنه حول ذلك حيث نقل أنه رضي الله عنه صلى يومًا صلاة الصبح بجماعة ثم نظر إلى القوم وتفقدتهم فلم ير فيهم شخصًا من أصحابه، فقال: ألم يحضر فلان الجماعة؟ فقليل: إنه يسهر أكثر الليل فيحتمل أن يكون قد غلبه النوم في هذا الوقت. فقال: لو نام تمام الليل وصلى صلاة الصبح مع الجماعة لكان أولى وأفضل. ومن هنا فرعاية الأولى واجتناب المكروه وإن كان تنزيهًا أولى من الذكر والفكر والمراقبة والتوجه بمراتب كثيرة... فكما أن التصديق بدائق مثلاً في حساب الزكاة أفضل بمراتب من التصديق بمقدار جبال عظام من ذهب بطريق النفل...²

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ السرهندي في كثير من مكتوباته يشير على كل من العلماء والأمرء بالمعرفة عن أهمية الفرائض وتنفيذها بصورة كاملة وصحيحة، ولكنه يهتم بها أكثر في الرسائل المرسلة إلى الصوفية، مما يدل على أن النوافل كانت

¹ راجع: المكتوبات، 221/1، رقم المکتوب: 191

² راجع: المكتوبات، 54/1، رقم المکتوب: 29

لها أهمية خاصة في ذلك الوقت لدى الصوفية وكانوا يحرصون على الاهتمام بها دون إعطاء الاهتمام الكبير واللائق بالفرائض، وكانوا ينصحون تلامذتهم ومريديهم بذلك، ويبدو أنه في تلك البيئة الدينية ما كانت الفرائض تجد مقامها المستحق، وقد شعر الشيخ باختلال التوازن في باب العبادات فتوجه إلى هذه الشرائع بها. والفرائض التي يؤكد عليها الشيخ أكثر في الرسائل المرسلة إلى الأمراء والوزراء هي الصلاة والزكاة. ويعبر عن موقفه منهما في إحدى رسالاته قائلاً: "...واعلم: أن الإنسان أنه لا بد له من تصحيح الاعتقادات، كذلك لا بد له من إتيان الأعمال الصالحات. وأجمع العبادات وأقرب الطاعات هو أداء الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام: "الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين"¹. ومن وفق للمواظبة على أداء الصلاة فقد امتنع عن الفحشاء والمنكر وقوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} العنكبوت: 45، مؤيد لهذا الكلام، والصلاة التي ليست بهذه المثابة يعني لم تمنع صاحبها عن الفحشاء والمنكر فهي صورة الصلاة لا حقيقة لها ولكن ينبغي أن لا تترك الصورة إلى أن تحصل الحقيقة؛ فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ولا يستبعد اعتبار أكرم الأكرمين الصورة وأن يقبلها مكان الحقيقة. فعليكم بالمواظبة على أداء الصلاة مع الجماعة ومع الخشوع والخضوع فإنها سبب النجاة والفلاح، قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} المؤمنون: 1-2² وتدل هذه

¹ لم أفق عليه هذه العبارة الكاملة، ولكني وقفت على أوله "الصلاة عماد الدين". ويؤدى معناه ما أخرجه الترمذي (2616) وابن ماجه (3973)، وأحمد (231/5 ، 237) من حديث معاذ بن جبل الطويل وفيه: (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده ، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد (...)).

قال الترمذي: (حديث حسن صحيح)

² راجع: المكتوبات، 1/135-136، رقم المكتوب: 85

العبارة أيضًا على أن الشيخ ما كان يصبر على أداء الصلوات فحسب؛ بل كان ينبغي أن تؤدي كافة الصلوات الخمس بالجماعة، ووضح ذلك في رسائل عديدة.¹

وكذلك اهتم الشيخ السرهندي بتوضيح أهمية بالغة لشهر رمضان الكريم لدى الإدارة المغولية وأركان الدولة. وفي إحدى رسالاته المرسلة ردًا على رسالة الوزير النواب فريد البخاري، يذكر فضائل شهر رمضان ويحث على فعل الخير والأعمال الصالحة فيقول: "ولما ورد مكتوبكم الشريف في شهر رمضان المبارك خطر في خاطر الفاتر أن أكتب نبذة حول فضائل هذا الشهر العظيم القدر. ينبغي أن يعلم أن شهر رمضان شهر عظيم. وكل عبادة نافلة من الصلاة والذكر والصدقة وأمثالها في هذا الشهر تساوي أداء فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، ومن فطر فيه صائمًا كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء، ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار.... ومن وفق للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر كان التوفيق رفيقه في تمام هذا العام، وإذا مرّ هذا الشهر على تفرقة يكون في جميع العام على تفرقة. ومن هنا ينبغي فيه أن يجتهد في تحصيل الجمعية مهما أمكن مغتنمًا لهذا الشهر...."²

¹ يقول في إحدى رسائله: "ينبغي أن تصرف الأوقات إلى ذكر الله تعالى بعد أداء الصلوات الخمس مع الجماعة وأداء السنن الرواتب، وأن لا يشتغل بغيره سواء كان وقت الأكل أو النوم أو المشي. وقد بين لكم طريق الذكر، فينبغي الاشتغال به بهذا الطريق المعهود...." راجع: المكتوبات، 140/1، رقم المكتوب: 93. أيضًا يوضح الشيخ السرهندي ذلك في مكتوب آخر فيقول: "وينبغي لك أن تكون مولعًا وحريصًا بتكرار ذكر القلوب معتقدًا أنه من أجل نعم الله جل شأنه وأن تصلي الصلوات الخمس مع الجماعة من غير تكاسل وفتور وأن تؤدي زكاة الأموال إلى الفقراء والمساكين بنشاط القلب وأن تجتنب المحرمات والمشتبهات وأن تكون مشفقًا على الخلق وهذا هو طريق النجاة والخلاص." راجع: المكتوبات، 219/1، رقم المكتوب: 189

² راجع: المكتوبات، 88-87/1، رقم المكتوب: 45

ولما كانت الزكاة إحساناً إلى الخلق، وهي مُطَهِّرةٌ للمال من الدنس، وحصانة له من الآفات، وعبودية، وتطهير للنفوس من الشح والبخل، وامتحان للأثرياء والأغنياء حيث يستطيعون أن يتقربوا إلى الله بإخراج شيء معين من مالهم المحبوب إليهم. تفيد كثير من مكتوباته أنه اهتم أكثر بتوضيح وتأكيد أهمية الزكاة لدى أركان الدولة والأغنياء والأثرياء. وفي هذا الصدد حاول الشيخ ترسيخ الفكر الإسلامي حول اجتناب المظاهر في توزيع الأموال والأرزاق على الفقراء والمساكين لنيل الاستحسان والشهرة بين أقرانهم، داعياً لهم إلى أداء الزكاة بصورة صحيحة وصرفها على المحتاجين لابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى كما جاء في الشريعة الإسلامية. ويبدو من بعض مكتوباته أن التقاليد في توزيع الأموال على الناس والفقراء والمساكين بمناسبات مهمة كانت راسخة في الآداب السلطانية المغولية وصارت ظاهرة لدى أركان الدولة فكانوا يقومون بذلك لكسب الشهرة وفي نفس الوقت كانوا مقصرين في أداء واجبهم على النحو المطلوب في أداء الزكاة وصرف أموالها بأحسن صورة. وتعكس هذه الصورة في أحد مكتوباته نصح الشيخ فيه أركان الدولة والأغنياء والأثرياء حول أداء الزكاة فيقول: ".... وينبغي الاهتمام التام في أداء الفرائض والاحتياط في الحل والحرمة والعبادات النافلة في جنب الفرائض كالمطروح في الطريق وساقطة عن الاعتبار وأكثر الناس في هذا الوقت في ترويج النوافل وتخريب الفرائض يهتمون بإتيان النوافل العبادات ويعدون الفرائض حقيرة وعديمة الاعتبار. ويعطون مبلغاً كبيراً للمستحق وغير المستحق في المناسبات وفي غير المناسبات ولكن إعطاء فلس في أداء الزكاة للمصرف متعسر عليهم ولا يدرون أن إعطاء فلس من الزكاة للمصرف خير لهم من إعطاء ألوف صدقة نافلة فإن في إعطاء الزكاة مجرد امتثال أمر المولى جلّ سلطانه وفي الصدقة النافلة كثيراً ما يكون المنشأ الهوى النفسي ولهذا لا مساع للرياء في الفرض. وأما النفل ففيه مجال للرياء ومن ههنا كان الأولى في أداء الزكاة الإظهار لنفي التهمة وفي الصدقة النافلة الإخفاء لكونه أليق بالقبول. وبالجمله لابد من التزام الأحكام الشرعية حتى يتصور الخلاص من مضرة الدنيا، فإن لم تتيسر حقيقة ترك الدنيا

ينبغي أن لا يقصر في الترك الحكي وهو التزام الشريعة في الأقوال والأفعال والله سبحانه الموفق....¹

ومن هنا نرى أن الشيخ حاول بشق طرق أن يلتزم أركان الدولة والأغنياء بأداء الفرائض ومنها الزكاة، وبين لهم الطرق السهلة لأداء الزكاة والفرائض الأخرى. وفي إحدى رسالاته الموجهة إلى بعض الأمراء أكد الشيخ فيها على أهمية الصلاة والزكاة مع وضع الخطة الشاملة لأداء الزكاة بطريقة سهلة وميسرة. فيقول: "عليكم أن تؤدوا الصلوات الخمس مع الجماعة فإن تيسر قيام الليل وصلاة التهجد فنعمت السعادة، وأداء زكاة الأموال أيضًا من أركان الإسلام فلا بد من أدائها البتة. وأسهل طرق أدائها أن يعزل حق الفقراء من المال في كل سنة بنية الزكاة فيحفظه عنده ويصرفه في مصارف الزكاة في تمام السنة، فعلى هذا التقدير لا يلزم تجديد نية أداء الزكاة في كل مرة بل تكفي النية وقت العزل مرة واحدة. ومن المعلوم أنه كم يصرف إلى الفقراء والمستحقين في طول العام ولكن لما لم يكن بنية أداء الزكاة لم يكن محسوبًا منها، وفي الصورة المذكورة تسقط الزكاة من الذمة ويحصل التخلص أيضًا من الخرج من غير مضايقة، فإن لم يصرف للفقراء في تمام السنة مقدار الزكاة بل بقيت منها بقية ينبغي أن يحفظها كذلك معزولة عن سائر الأموال، فإن مثل هذا العمل يحتاج إليه في كل عام، ومتى كان مال الفقراء ممتازًا ومعزولًا فعسى أن يحصل التوفيق لإنفاقه غدًا وإن لم يحصل اليوم..."² ويوضح من ذلك أن الشيخ لم يوصهم بأداء الزكاة فحسب؛ بل بين لهم الطرق السهلة لتحقيق هذه الغاية المرجوة مع قيامهم بتوزيع الأموال على الفقراء والمساكين. وتفيد كثير من مکتوباته بوجود التساهل الكبير لدى أركان الدولة في باب أداء الزكاة ويؤكد قلق الشيخ الذي عبر عنه في هذه المکتوبات المرسله إلى كبار أركان الدولة ومنهم الوزير عبد الرحيم خانخانان والشيخ النواب فريد البخاري وغيرهم. نصح الشيخ في إحدى رسالاته فيقول: "...ينبغي أداء الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقها وأن يجعل ذلك وسيلة

¹ راجع: المکتوبات، 2/190-191، رقم المکتوب: 82

² راجع: المکتوبات، 1/121-122، رقم المکتوب: 73

لقطع التعلق عن الأموال والأنعام، وينبغي ألا يكون حظ النفس ملحوظاً ومنظوراً إليه في أكل الأطعمة اللذيذة ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائق في استعمال الأطعمة والأشربة أن لا ينوي شيئاً غير حصول القوة لأداء الطاعات..."¹

ويوجه دعوته إلى الأمراء الصوفية، مؤكداً على أن أداء الزكاة بموجب الشريعة الإسلامية أفيد لتزكية النفس وإزالة الهوى النفساني، فيقول في إحدى رسالاته: "...وكلما عمل شيئاً بمقتضى الشريعة يزول من الهوى النفساني بقدره ولهذا كان فعل شيء من الأحكام الشرعية أفضل في إزالة الهوى النفساني من رياضات ألف سنة ومجاهداتها التي كانت من قبل النفس، بل هذه الرياضات والمجاهدات التي لم تقع على مقتضى الشريعة الغراء مؤيدة ومقوية للهوى النفساني. ولم تقصر البراهمة والجوكية في الرياضات والمجاهدات شيئاً، ولكنها لما لم تكن على وفق الشريعة لم ينتفعوا بها أصلاً ولم يحصل لهم غير تقوية النفس وتربيتها. فمن صرف مثلاً دانقاً بنية أداء الزكاة التي أمر بها الشرع فهو أنفع في تدريب النفس من صرف ألف دينار من قبل نفسه، وأداء ركعتي الفجر مع الجماعة التي هي فرض من الفرائض أفضل من قيام تمام الليلة بالنافلة مع ترك الجماعة في الفجر..."²

وكان قد ذكر كثيراً الجوانب السهلة لأداء الزكاة لترغيب أركان الدولة في ذلك. وكان يقول إنه ليس من المشكل أن يخرج المرء ربع العشر من أموالهم النامية والأنعام السائمة. وقد ركز في أحد مکتوباته على هذه النقطة فيقول: "... وينبغي أن يتم أداء الزكاة على تقدير وجود النصاب من ضروريات الإسلام أيضاً، فينبغي إذا أداؤها بكمال الرغبة بل بقبول المنة. وقد عيّن الحق سبحانه وتعالى بكمال كرمه للعبادة في اليوم واللييلة خمسة أوقات، وعيّن من الأموال النامية والأنعام السائمة ربع العشر تحقيقاً وتقريباً لأجل الفقراء، ووسّع ميدان تصرف المباحات، والتكاسل في صرف ساعة واحدة مع أربع وعشرين ساعة في طاعة الحق سبحانه وتعالى، والبخل بأداء

¹ راجع: المکتوبات، 115-116/1، رقم المکتوب: 70

² راجع: المکتوبات، 94-95/1، رقم المکتوب: 52

سهم واحد من أربعين سهمًا إلى الفقراء ووضع القدم في خارج دائرة المباح الوسيعة الفضاء البعيدة الأرجاء والوقوع في المحرمات والمشتبهات من غاية عدم الإنصاف...¹ وفي بعض الرسائل المرسلة إلى الأمراء ناقش الشيخ أهمية الحج ومكانته كأركان الإسلام، وجلب انتباههم إلى ذلك، على الرغم أنه لا توجد في مكتوباته الترغيبات والتأكيدات مثلما نجدها فيما تناولها حول الصلاة والزكاة والصيام. وتفيد بعض المصادر النقشبندية بأنه خرج من بلده عازمًا على أداء مناسك الحج وذلك بعد وفاة أبيه عام 1007هـ/1598م إلا أنه لما وصل إلى شيخه عبد الباقي بالله الذي قال له: "أنت ذاهب إلى زيارة بيت الله، ولكن لو مكثت هنا لبعض الأيام لكان ممكنًا أن تحصل على بغيتك مما ستطلبه في الحرمين الشريفين... وقال له عليك أن تمكث فقط لثلاثة أيام ولو ارتحت نفسيًا فتكمل وإلا فستغادر للحرمين الشريفين..."²

وعلى حسب كلام الشيخ السرهندي وصل هو إلى معدن الإرشاد ومنبع المعارف خلال فترة وجوده عند شيخه ومن خلاله، ومن هنا ربما لم يفكر بعد ذلك أن يغادر إلى الحرمين لأداء مناسك الحج والعمرة.³ وللعلم فإن شيخه الباقي بالله أيضًا لم يفكر في أداء مناسك الحج، حتى تفيد بعض المصادر أن الوزير الكبير عبد الرحيم خان خانان أرسل بمئة ألف روبية كنفقة السفر لأداء الحج لدى المعرفة عن عزم الشيخ على ذلك، فرفض الشيخ مساعدته المالية وأعادها إليه مع التوبيخ.⁴ ولو كانت هناك بعض الظروف المادية الملائمة وغيرها في بداية أمر الشيخ السرهندي، لتحسنت كثيرًا حياته، لا سيما بعد تقوية علاقته مع بعض الوزراء الكبار الذين ساعدوه مادياً في إدارة الخانقاه الذي أسسه في مدينته السرهند وعاش طول حياته فيها، فلماذا لم يفكر الشيخ السرهندي أن يسافر الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج والعمرة؟! علماً أنه كان هناك رواج عام ورغبة شديدة عند المسلمين في الهند في ذلك الوقت في

¹ راجع: المكتوبات، 142-143/1، رقم المكتوب: 96

² راجع: حضرات القدس، 12-11/2

³ راجع: المكتوبات الربانية، 435-423/1، رقم المكتوب: 290

⁴ زبدة المقامات، ص 52

السفر إلى الحرمين الشريفين لتحصيل العلوم الإسلامية لا سيما علوم الحديث ولأداء مناسك الحج والعمرة، وهناك بعض الشخصيات المعاصرة للشيخ السرهندي الذين سافروا إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة ومكثوا لفترة لتحصيل علوم الحديث ولهم دور كبير في نشر علوم الحديث في الهند، ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي (958-1052هـ/1551-1642م).¹

وعلى كل حال لا نجد في مكتوبات الشيخ السرهندي مما تفيد أنه حاول من خلال مكتوباته في خلق الرغبة عند أركان الدولة وترشيدهم إلى تكميل هذا الركن من أركان الإسلام.² وفي الحقيقة لم يكن لدى الشيخ أحمد السرهندي رغبة في أداء مناسك الحج وما كان ينوي أن يتخصص في علوم الحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في ذلك الوقت في الحجاز التي صارت مركزاً علمياً مهماً وتجمعاً خاصاً للعلماء والفضلاء،³ لأنه دخل إلى ممارسة التزكية والسلوك وكان يرغب فقط في الاطلاع على تراجم بعض الشخصيات الصوفية، كما عبّر عن ذلك في إحدى رسالاته فيقول: "لا يميل قلبي إلى مطالعة الكتب ولا يطيب به إلا ما كان فيه ذكر مناقب المشايخ الكبار العالية وأحوالهم السامية الواقعة في المقامات، فيستحسن لي مطالعة أمثال ذلك. وأحوال المشايخ المتقدمين أكثر رغبة فيها...".⁴

¹ عن رحلته إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة وفي طلب العلم راجع "زاد المتقين في سلوك طريق اليقين".

² تجدر الإشارة هنا إلى أنه لم يحاول أحد من الوزراء والأمراء غير الأمير ميرزا عزيز الدين كوكا أن يسافر إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة.

³ وقد عبّر الشيخ في بعض رسائله عن رغبته في تحصيل علوم الحديث والفقه، فيقول: "وقد حصلت لي محبة كثيرة في حق العلماء وطلبة العلوم، وتستحسن لي سيرتهم، وأتمنى أن أكون في زميرتهم، وتتذكر مع طلبة العلوم "التوضيح والتلويح، من المقدمات الأربع ونبأحت معهم ونقرأ "الهداية" أيضاً من الفقه، وأشارك العلماء أيضاً في القول بالإحاطة والمعية العلميتين". راجع:

المكتوبات، 23-22/1، رقم المکتوب: 8

⁴ راجع: المكتوبات الربانية، 30-27/1، رقم المکتوب: 11

ومن أهم الموضوعات التي تطرق إليها واسترعى انتباه أركان الدولة، إلى جانب أداء الفرائض الدينية، هي: التمييز بين الحلال والحرام، والاجتناب عن الإسراف والتبذير على أساس أن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، ومراعاة حقوق العباد فيما بينهم، والالتزام الشرعي في المأكل والمشرب والملبس، والتواضع في التعامل مع الخلق أجمعين لأنه من الصفات المحمودة ويدل على طهارة النفس ويدعو إلى المودة والمحبة والمساواة بين الناس وينشر الترابط بينهم ويمحو الحسد والبغض والكراهية من قلوب الناس وفوق هذا كله فإن التواضع يؤدي إلى رضا المولى سبحانه وتعالى. والدعوة إلى الابتعاد عن علماء السوء والتقرب إلى العلماء الصالحين المتقين. ومن المعلوم أن لكل هذه الصفات علاقة مباشرة مع حياة المسلم اليومية الرتيبة التي تنضبط كل جزئياتها بالشرعية الإسلامية. والمهم أن الشيخ في كثير من مکتوباته خاطب أركان الدولة حول المعرفة الكاملة عن المال الحرام والحلال والفرق بينهما، مؤكداً على الانتباه الشديد بهما وتسديد الحقوق المالية للآخرين. ومن المعروف عن السلاطين والأمراء في العصور الوسطى أنهم كانوا يرتكبون المخالفات الشرعية في الشؤون الإدارية والمالية، وكانت هناك طرق وقنوات عديدة غير شرعية للحصول على الأموال عن طريق تطبيق بعض القوانين غير الشرعية في الشؤون المالية مثل فرض قانون المحاصيل غير الشرعية، وصرف الأموال بالتبذر والإسراف على حياة الترف واللهو واللعب والتنعيم، وصرف أموال الدولة والشعب على تحقيق غاياتهم الشخصية والأسرية، وكانت الإدارة المالية وكثير من رجالها كان المعروف عنهم عمليات الرشى والفساد المالي.

وتوجه الشيخ السرهندي ببعض مکتوباته إلى الأمراء وأركان الدولة في هذا الصدد، فيقول في أحد مکتوباته المرسلة إلى بعض الإداريين مع المشورة على الاحتياط في اللقمة وما يتعلق به: "والنصيحة الأخرى الاحتياط في اللقمة لا ينبغي للإنسان أن يأكل كل ما التقاه من أي مكان كان من غير ملاحظة الحل والحرمة الشرعيتين؛ فإن الإنسان لم يترك سدى حتى يفعل كل ما يريد بل له مولى جل شأنه كلفه بالأمر والنهي وبين مرضاته وخلافها بتوسط الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات الذين هم رحمت للعالمين والمحروم من السعادة من يقتضي خلاف مرضاة مولاه ويتصرف في ملكه

وملكه بلا إذنه، فينبغي الاستحياء حيث يراعون رضا صاحب المجازي ولا يريدون فوت دقيقة في هذا الباب ومولاهم الحقيقي قد نهاهم عن الأمور غير المرضية...¹

وقد نصح الشيخ بعض الإداريين بالصدق والأمانة في الشؤون المالية فيقول: "...إن رد نصف دانق إلى شخص أخذه عنه ظلمًا بلا وجه شرعي أفضل من أن يتصدق بمائتي درهم. ولو كان لشخص من العمل الصالح مثل عمل نبي وبقي في ذمته حق شخص مقدار نصف دانق لا يدخل الجنة حتى يؤدي ذلك...² وينبّه الشخص الإداري الآخر على رغبات الدنيا والحرص عليها، ناصحًا له باجتناّب كلي للأشياء الحرام والمشتبه فيها، فيقول: "... أخشى من أن ينخدع الأصحاب أولو الألباب مثل الأطفال بمزخرفات الدنيا الدنية التي لها طراوة وحلاوة في الظاهر وأخاف ميلهم من المباح إلى المشتبه ومن المشتبه إلى الحرام، فيبقون خجلين منفعلين من مولاهم. وينبغي أن يكون في التوبة والإنابة قدم راسخ وأن يعتقد في المنهيات الشرعية سمًا قاتلاً...³

نستطيع أن نقدر المجهودات المضنية التي بذلها الشيخ في تقويم الإدارة المغولية ماليًا وإداريًا وأنصحهم بالابتعاد عن المحرمات والمشتبهات، إلى جانب قيامه بترسيخ مبادئ الإسلام نحو قضية الأموال وكيفية الصرف فيها. وإنه من الملاحظ، لا سيما بعد الاطلاع على المکتوبات المرسلّة إلى السلطان وأركانه للدولة، أن الشيخ السرهندي على الرغم أنه نصح في هذه المکتوبات مرارًا وتكرارًا بأهمية إصلاح السلاطين وأركان الدولة، مع التوضيح والتأكيد على اتباع الشريعة الإسلامية والعمل بها مع التوجه إلى الأعمال المشينة التي تمت في عهد السلطان أكبر حيال الشريعة الإسلامية من انتهاك حرمة الشريعة الإسلامية، وارتكاب المخالفة للقوانين الشرعية وهتك العادات والتقاليد الإسلامية، إلا أنه لا توجد تعليمات وإرشادات ونصائح واضحة في هذه المکتوبات والتي تفيد أنه طلب من أركان الدولة والسلطان نفسه أنه لا بد أن تتم الأعمال الإدارية

¹ راجع: المکتوبات، 174/2، رقم المکتوب: 69

² راجع: المکتوبات، 193/2، رقم المکتوب: 87

³ راجع: المکتوبات، 190-189/2، رقم المکتوب: 81

ومسؤوليتها من خلال الشريعة الإسلامية، أي توضع الأصول والضوابط الشرعية في الأموال ووسائل دخلها وخرجها وصرفها، وتطبيق القوانين الشرعية برمتها في المحاكم القضائية المركزية والمحلية لتحقيق العدل والإنصاف على أرض الواقع، والقضاء على العادات والتقاليد غير الإسلامية، والتعامل مع الشعب في ضوء تعليمات نصوص القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة. وهناك بعض المكتوبات المرسلة إلى السلطان جهانگیر نفسه، وبعضها إلى أبنائه ذكر فيها الشيخ مجالسه العلمية والدينية وما قام فيها من الوعظ والتذكير للسلطان جهانگیر ولكنه لم يلفت انتباه السلطان إلى هذه الأمور المذكورة أعلاه بكلام واضح في هذه المكتوبات.

وفي الرسالة المرسلة إلى السلطان جهانگیر دعا فيها الشيخ للتوفيق والتسديد والفتح والنصر، وأكد على أن العملية العسكرية والجهاد تقوي قوائم الدولة القاهرة وتؤيد أركان السلطنة الباهرة التي بدورها تساعد معنويًا وماديًا على ترويج الشريعة الغراء على أساس أن الشرع تحت السيف، موضحًا أسباب الفتح والنصر. وقسمها إلى قسمين: قسم: جعل مربوطًا بالأسباب وهو صورة الفتح والنصرة المتعلقة بالعمليات العسكرية والجهادية، والقسم الثاني: حقيقة الفتح والنصرة الكائنة من عند مسبب الأسباب وقوله تعالى "وما النصر إلا من عند الله" إشارة إلى ذلك وهي متعلقة بعسكر الدعاء، فعسكر الدعاء سبق بذله وانكساره عسكر الغزو وترقى من السبب إلى المسبب". ويختم الشيخ هذه الرسالة قائلًا: "وهذا الفقير وإن لم يكن لائقًا بأن يجعل نفسه في عداد جنود الدعاء ولكن بمجرد اسم الفقر ولاحتمال إجابة الدعاء لا يجعل نفسه فارغًا من دعاء الدولة القاهرة ويكون رطب اللسان بالدعاء والفاخرة بلسان الحال والقال "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم"¹

وفي رسالة أخرى مرسلة إلى أبنائه ذكر فيها الشيخ السرهندي مجلسه العلمي والديني مع السلطان جهانگیر، والذي انعقد في رمضان المبارك ألقى فيه الشيخ كلمته أمام السلطان حول مقاصد بعثة الأنبياء والمرسلين، وسبب ختم النبوة، وعدم استقلال

¹ راجع: المكتوبات، 300-299/3، رقم المكتوب: 47

العقل والإيمان بالآخرة وعذابها وثوابها، ومن إثبات رؤية الله في يوم القيامة، والاتباع للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، وسنية التروايح، وبطلان التناسخ ومن أحوال الجن ومن عذابهم وثوابهم وغيرها من الموضوعات الدينية المهمة. وأكد الشيخ على أن السلطان سمع كلامه بجدية تامة.¹

وعلى كل حال لا يعني أن الشيخ السرهندي ما كان يريد إصلاح حياة السلطان وأركان الدولة السياسية والإدارية حسب الشريعة الإسلامية، إنما الحقيقة تكمن في أنه كان يرغب في إصلاح شامل للعلماء والصوفية والسلطان وأركان الدولة والعوام وكل طبقات المجتمع الهندي معًا، وكان ينبغي أن تكون كل هذه الشرائح من المجتمع تتبع السنن النبوية في حياتها اليومية الرتيبة. وفي الغالب كان يحس الشيخ أنه لو تم إصلاح السلطان وأركان الدولة على أساس أنهم لو التزموا بالشريعة الإسلامية في حياتهم العامة، لكان خيرًا لهم ولعامة الناس للسير بسهولة على طريقة الشريعة الإسلامية في إظهارهم الخاص مع انشغالهم في حياتهم المهنية والأسرية. ومن هنا نجد الاختلاف البسيط في محتويات المكتوبات المرسلة إلى العلماء والصوفية وأركان الدولة، حيث معظم النقاط المهمة المذكورة فيها مشتركة بينهم جميعًا ومن أهمها: طاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والممارسة بالتزكية والإحسان من خلال الفكر الصوفي النقشبندي وتعليماته.² وفي الواقع كان لمهمة الشيخ السرهندي ثلاثة أركان ألا وهي تصحيح العقائد، وتطبيق الشريعة، وتزكية النفس والسلوك، والركن الثالث على حسب توضيحه تكملة وتابع للركنين الأولين، وكان يريد إصلاح الناس على هذا المنهج، وأكد على ذلك في كثير من مكتوباته مرارًا وتكرارًا.³

¹ راجع: المكتوبات، 294/3، رقم المكتوب: 43

² يكتب الشيخ عن حقيقة حصول الشكر بإتيان أحكام الشريعة، فيقول: "والشكر لله المنعم تعالى وتقدس إنما يكون بتصحيح العقائد أولًا: على مقتضى آراء الفرقة العلية والتصفية والتزكية؛ ثانيًا: على حسب سلوك الصوفية العلية من هذه الفرقة الناجية السنية أي النقشبندية، ووجوب هذا الركن الأخير استحساني بخلاف الركنين السابقين... راجع: المكتوبات، 116-117، رقم المكتوب: 71

³ في إحدى رسائله الموجهة إلى بعض الإداريين يقول: "رزقكم الله سبحانه الاستقامة على جادة الشريعة المصطفوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. والذي لا بد منه للإنسان هو تصحيح

نتائج عامة

وقد رأينا من خلال هذه المباحث المذكورة أعلاه أن الشيخ السرهندي قام بشرح العقيدة الإسلامية وتوضيحها والعبادات والأحكام الشرعية ومقاصد الشريعة والفكر الإسلامي ودعا النخبة السياسية والعلماء والصوفية إلى ترويجها ونشرها في المجتمع الهندي؛ ذلك كله من خلال ملفوظاته المكتوبة، وبذل مجهودًا كبيرًا في تحقيق هذه الأهداف، وهذا كله جميل، ولكن ينبغي لنا أن نعرف أنه ليس الوحيد الذي قام بذلك بل كانت هناك بعض الشخصيات من المحدثين والعلماء الكبار مثل الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، والشيخ طاهر البتني، والشيخ على المتقي وغيرهم ممن لهم دور كبير في نشر علوم الحديث والقضاء على البدع والخرافات ونشر التعليم الديني وفتح المدارس الإسلامية وغيرها من الإسهامات الجليلة. ثم يجب علينا أن ننبه على ما وقع فيه الشيخ من زلات وأخطاء فادحة، حتى يرى نفسه فوق كافة الشيوخ الصوفية، وأستاذه عبد الباقي، حتى فوق سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وادّعى القيومية وهي من شطحاته مثلما قال بعض الصوفية قبل ذلك، "سبحاني ما أعظم شأني" و"ليس في جبتي سوى الله" وغيرها.¹

والسؤال الذي يطرح على نفسه هو إلى أي مدى نجح الشيخ أحمد السرهندي في تقويم السلطان جهانگیر، والشخصيات المهمة من الوزراء، وأعيان الدولة؟ هل ساعدت رسائله ومكتوباته على تغير أحوالهم الدينية وأحوال الناس الآخرين؟ وهل هم بدورهم قاموا بنشر الإسلام والشريعة الإسلامية بواسطة القنوات المشروعة والمنظمة؟ وفي الواقع هذه الموضوعات خارج نطاق هذا البحث؛ لأنه ستتطلب بحثًا

العقائد أولًا على مقتضى آراء أهل السنة والجماعة الصائبة الذين هم الفرقة الناجية، وإتيان الأعمال الصالحة ثانيًا بموجب الأحكام الفقهية. فإن ساعد التوفيق الإلهي بعد تعلم أحكام الفرائض والسنن والواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمشتبهات وحصول هذين الجناحين الاعتقادي والعملية، يمكن الطيران نحو عالم الحقيقة... راجع: المكتوبات الربانية، 140/1، رقم المكتوب: 94، وأيضًا، 222-221/1، رقم المكتوب: 191 وأيضًا، 169-159/2، رقم المكتوب: 67

¹ عنما كتبه عن تفوقه على الأئمة والصحابه راجع: المكتوبات، 22/1، رقم المكتوب: 11

مستقلًا لمناقشتها، والبحث عن النتائج التي ترتبت على مجهوداته في سبيل الفكر الإسلامي. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن جميع الحركات الإصلاحية التي نشأت في العصور التالية تأثرت بالطريقة النقشبندية لاسيما بأفكار الشيخ أحمد السرهندي. ولا شك أنه من خلال هذه المبادرات الإصلاحية كان يريد أيضًا توسيع نطاق السيادة للطريقة النقشبندية على حساب الطرق الصوفية الأخرى، مما أدى إلى الصراع بين جميع الطرق الصوفية آنذاك وحتى في العصور التالية في عصر الدولة المغولية. ولكنه يعدّ من أكثر مفكري التيار الصوفي الإصلاحي في القرن الحادي عشر الهجري تأثيرًا في الأجيال الممثلة في عصر الاستعمار البريطاني، لا سيما أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي وغيرهم، والذين شكّلوا امتدادًا لدعوته سواء في مجال التربية الإسلامية أو نشر الأفكار الصوفية النقشبندية بواسطة أعمالهم الفكرية أو عن طريق تأسيس المؤسسات التعليمية والفكرية، وكذلك تأثر به الشخصيات الإسلامية الأخرى من المدارس الفكرية الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع العربية:

1. أ. ر. جب ورفقاؤه: الموسوعة الإسلامية الميسرة (ترجمة: راشد البراوي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2013م.
2. أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الإمام السرهندي حياته وأعماله، دار القلم، القاهرة، 1414هـ/1994م.
3. أحمد الفاروق السرهندي: رسالة تهليلية، أكاديمية زوار، كراتشي، 2011م.
4. أحمد الفاروق السرهندي: إثبات النبوة، أكاديمية زوار، كراتشي، 2011م.
5. أحمد الفاروق السرهندي: المكتوبات المسماة بـ"الدرر المكنونات النفيسة" (ترجمة عربية: محمد مراد المنزلوي القزاني، وتصحيح: عبد الحميد فردوس)، المطبعة الميرية، مكة المكرمة، 1316-1317هـ/1899م.
6. ظهير الدين بابر: بابر نامه (ترجمة عربية: ماجدة مخلوف)، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013م.
7. عبد الأحد: الجنات الثمانية، مخطوط عربي تحت رقم "عبد الأحد مجموعة رسائل الشيخ، شيفة عربية رقم 72/65، مكتبة آزاد جامعة عليغراه الإسلامية.
8. عبد الحي الحسيني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، دار ابن حزم، بيروت، 1420هـ/1999م.
9. عبد القادر أحمد عطاء: التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتراس في عصر النابلسي، دار الجيل، بيروت. د.ت.
10. فرهاد دفتري: الإسماعيليون في العصر الوسيط: تاريخهم وفكرهم (ترجمة عربية: سيف الدين القصير)، دار المدى، سوريا، 1999م.
11. محمد بن طاهر المقدسي القيسراني: تذكرة الحفاظ (تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي)، دار الصميعي، الرياض، 1415هـ.

12. محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (تحقيق: زهير الشاويش)، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ.
 13. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1374هـ.
 14. المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، مصر، 1418هـ/1997م.
- قائمة المصادر والمراجع الفارسية والأردية:
1. أبو الفضل: أكبر نامہ، کلکتا 1873-1887م؛ ترجمة إنجليزية هنري بيفرذج، کلکتا، 1902م.
 2. أبو الفضل: آیین اکبری (ترجمة: مولوي محمد فدا علي طالب)، دار سنگ ميل، لاهور، 2007م.
 3. أحمد فريدي: خواجہ باقی باللہ، لکھنؤ، 1978م.
 4. إعجاز الحق قدوسي: تذکرہ صوفیاء سرحد، مرکزی اردو بورڈ، لاهور، د.ت.
 5. ایم اسلم: سرمایه عمر، ندوة المصنفين، لاهور، 1976م.
 6. بايزد الأنصاري: خير البيان، جامعة كابل، 1975م.
 7. بدر الدين: حضرات القدس (ترجمة: عرفان أحمد خان)، لاهور، پاکستان، د.ت.
 8. جہانگیر: توزک جہانگیری (تحقيق: سيد أحمد)، عليگرہ، 1864م؛ ترجمة أردية: مولوي أحمد علی، لاهور، پاکستان 1972م؛ ترجمة إنجليزية: اليگزندر روجرز (Alexander Rogers)، مراجعة: هنري بيفرذج (Henry Beveridge)، لندن، 1909م.
 9. خلیق أحمد نظامي: تاريخ مشايخ جشت، إدارة أدبيات، دهلي، 1980م.
 10. دارا شکوه: سفينة الأولياء، آگرا، 1269هـ.
 11. سيد صباح الدين عبد الرحمن: مذهبي رواداري، دار المصنفين أكاديمية شبلي، الهند، د.ت.

12. السيد محمد عابد ميان: أنوار العارفين، دہلی، 1936م.
13. شرف الدین علی یزدی: ظفرنامہ یزدی، کلکتا، ہند، د. ت.
14. ضیاء الحق الصدیقی: ذکرِی مذهب کا تفصیلی جائزہ، کراتشی، د. ت.
15. ظفر الإسلام إصلاحی: عہد اسلامی کی ہندوستان میں معاشرت، معیشت اور حکومت کی مسائل"، دار المصنفین، 1430ھ/2009م.
16. عارف نوشاہی: خواجہ أحرار، أكاديمية بورب، إسلام آباد، پاکستان، 2010م.
17. عبد الحق المحدث الدهلوي: سلوك طريق اليقين (ترجمة أردية: مسعود أنور العلوي)، قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة عليگراه، 2009م.
18. عبد القادر البدایونی: منتخب التواریخ (ترجمة أردية: علیم أشرف خان)، قومي كونسل براي فروغ أردو زبان، 2008م.
19. عبد المجید: ذکرِی مذهب اور إسلام، مجلس تحفظ ختم نبوت، بلوچستان، د. ت.
20. عروج القادري: تصوف اور اهل تصوف (ترتيب: رضي الإسلام الندوي)، مركزي مكتبة إسلامي، دہلی، 2011م.
21. فريد العطار: منطق الطير، الهند، 1297ھ.
22. کمال الدین حمد إحسان: الروضة القيومية، لاهور، د. ت.
23. محمد حسن: مشايخ نقشبندية مجدديّة، إدارة أدبيات دلي، الهند، 2008م.
24. محمد مسعود أحمد: سيرة مجدد ألف ثاني، کراتشي، 1396ھ/1976م.
25. محمد منظور نعماني، تذكرة إمام رباني، مكتبة فرقان، لکهنؤ، 1970م؛ دار الإنشاعة، لاهور پاکستان، 1977م.
26. محمد ميان، علماء هند کا شاندار ماضي، دہلی، 1985م.
27. محمد هاشم کشي، زبدة المقامات، مكتبة نعمانية، إقبال رود سيالكوت، 1407ھ.
28. مفتي غلام سرور، خزينة الأصفياء (ترجمة وتحقيق: محمد ظهير الدين بهتي)، مكتبة نبوية، لاهور، پاکستان، 1414ھ/1994م.

29. نواب صمصام الدولة شاهنواز خان، مآثر الأمراء (ترجمة أردية: محمد أيوب قادري، طبع مركزي أردو بورد، لاهور، باكستان، 1388هـ/1969م-2007م).
30. نور الدين محمد عبد الرحمن جامي، نفحات الأنس (ترجمة أردية: سيد أحمد علي)، لاهور، 2002م.

قائمة المصادر والمراجع الإنجليزية:

1. Athar Abbas Rizvi: A history of Sufism in India, Fourth impression 2009, Munshiram Publication, Delhi, India.
2. Athar Abbas Rizvi: Muslim Revivalist movements in northern India in the sixteenth and seventeenth centuries, Agra, India 1965.
3. Athar Abbas Rizvi: Religious and intellectual history of the Muslims in Akbar's reign (Munshi Manoharlal publication, Delhi).
4. Beni Prasad, History of Jahangir, Allahbad, India 1962.
5. Burhan Ahmad Faruqi: The Mujaddid's concept of Tawhid, Lahore 1940.
6. Iqbal Sabir: Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir in Contribution of Shaikh Ahmed Sirhindi to Islamic Thought, Edited by Abdul Ali and Zafarul Islam (Institute of Islamic Studies, Aligarh, India 2005).
7. Khaliq Ahmed, Nizami: Akbar and Religion (Idarah –i-Adabiyat-i-Delhi 1989).
8. Khliq Ahmad Nizami: State and culture in Medieval India, Delhi 1925.
9. Muhammad Abdul Haq Ansari: Sufism and Shari`ah: A study of Shaykh Ahmad Sirhindi's effort to Reform Sufism, (Islamic foundation U.K. 1986).

10. R.P. Tripathi: Rise and fall of the Mughal Empire, Allahbad, India 1985, P.340.
11. Tariq Ahmed: Religio-political ferment in the North West frontier during the Mughal period, (Idarah-I Adabiyat-I Delli, Delhi 1982).
12. Yohanan Fridmann: Sheikh Ahmed Sirhindi, McGill 1971.

قائمة المجلات والدوريات:

1. عز الدين الناجح، مقارنة تداولية لحكمة عطائية، دورية "الخطاب" المحكمة الصادرة عن جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر. العدد الثالث مايو عام 2008م.
2. نذير أحمد، فرقة نقطوية بر ايك نظر "نظرة عابرة على الفرقة النقطوية"، مجلة فكر ونظر، عدد يوليو عام 1960م، ط: جامعة عليكرة الإسلامية، الهند.

من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري

- القاضي أبو المعالي أظهر المباركفوري¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

مقدمة الكاتب

نحمده ونصلي على رسوله الكريم، أما بعد!

فهذه قصتي للثقة بالنفس والعصامية كتبها لأجل تشجيع وتحريض الطلاب الذين يتوجهون نحو المباني الفخمة لدور العلوم والجامعات بعقولهم الوقادة وأذهانهم الذكية لكي يتعلموا تحت إشراف وعناية الشيوخ والأساتذة المهرة متبعين مناهجها التعليمية والتربوية الجيدة، ولكنهم عادة ما يفشلون في أهدافهم، وأخيرًا يحصلون على شهادات عجزهم وذلهم. وذلك لأن مستوى التعليم والتربية قد أصبح فاسدًا بل مميئًا للعلم وأصحابه بسبب القائمين على هذه المدارس والمهتمين بها. وبالعكس من ذلك فالقائمون يتهمون الطلاب بكل ما حدث ثم يتنفسون الصعداء، وإن حاول البعض منهم أن يتقدموا بأنفسهم فهؤلاء القائمون يفترون عزائمهم.

فليعتبر مثل هؤلاء الطلاب بطلاب المدارس الصغيرة كأمثالنا، وليجتهدوا لتحقيق أمانيتهم الغالية السامية. لم أقصّ زمن دراستي الابتدائية لإطراء نفسي ولا لإعلاء

¹ كاتب هندي كبير له "رجال السند والهند" و"العقد الثمين" وسلسلة ذهبية للعلاقات بين الهند والعرب.

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

ذكري، فلا يقرأها الطلاب الأعزة من وجهة النظر هذه بل ليقروها كي يتشجعوا بها على النمو والتقدم.

ولقد ألفت من قبل كتابًا باسم "تعليمي سرگرمياں عهد سلف میں" (الأنشطة التعليمية في زمن السلف)، ولم يكن يهدف ذلك الكتاب سوى تشجيع الطلاب وتحريضهم، وهذه حلقة ثانية من تلك السلسلة الذهبية. وكذلك كتاب "علماء سلف" للشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني جيدٌ ومفيدٌ جدًا، وهو من كتيبي التي تحسن بها مستقبل حياتي، فليقرؤه الطلاب كذلك.

القاضي أظهر المباركفوري

1/ ربيع الأول 1407 هـ - 5/ نوفمبر، 1986 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه أجمعين.

نسبي ومولدي: ولدت في داري بمباركپور (Mubārakpūr) الساعة الخامسة صباح اليوم الرابع لشهر رجب سنة 1334 هـ المصادف لليوم السابع لشهر مايو سنة 1916 م. وأما داري فهي الدار الرابعة الواقعة على الجانب المقابل للشارع شمال الدار المسكونة والتي هي ملتقى لحي بوره صوفي (Purah Sūfi) وحي حيدرآباد (Hyderābād)، ثم انتقلنا إلى الدار الثالثة قبلها والتي قد قضيت فيها طفولتي وشبابي وزمن دراستي. لقد خصصت لي الحجرة الخارجية، وكنت بكرة أولاد أبي. سماني جدِّي لأمي المرحوم أحمد حسين الرسولپوري (ت 26/ رجب 1359 هـ) بـ "عبد الحفيظ"، ولكنني اشتهرت بـ "القاضي أظهر المباركپوري". وكان أبي الشيخ الحاج محمد حسن بن الشيخ الحاج لعل محمد بن الشيخ محمد رجب بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ إمام بخش بن الشيخ علي المتوفى 11/ ربيع الأول 1398 هـ. وأما أمي فهي حميدة بنت الشيخ أحمد حسين بن الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ جمال الدين المتوفاة في 22/ ذي الحجة سنة 1352 هـ. لقد ضبطت

أخبار وتراجم آبائي الكرام من قبل جدي لأبي وجدي لأمي في كتاب "مآثر ومعارف" و"تذكرة علماء مباركفور".

كان جدي لأمي يدرّس في تلك الفترة في دكا (Dhaka) فبشّره بمولدي ومولد خالي عبد الباري شيخ تلك المنطقة العارف بالله الشيخ الشاه عبد الله كما دعا لنا الخير.

لقد هاجر جدّي الأعلى كژا مانك بور (Kara Mānakpūr) إلى مباركبور مع الشيخ الراجة مبارك بن السيد أحمد بن الراجة السيد نور بن الراجة السيد حامد الجشتي المانكبوري (ت 2/شوال 965هـ) زمن سلطنة السلطان نصير الدين همايون، ومنذ تلك الفترة نرث منصب نيابة القضاء أبًا عن جد، والذي نجد طابعه في كل صغير وكبير من العائلة، ونمارس الغيرة وعزة النفس وصدق القول والإباء إلى حد بعيد. و أتذكر حتى الآن أحداثًا ووقائع لبدء طفولتي أضرتّ بغيرتي وقد صقلت إباي وأنفتي فيما بعد.

كانت عائلتي كبيرة للغاية فكان لأبي ثلاثة أشقاء عبد الله وأسد الله ومحمد حسين. وكان أبي (محمد حسن) أصغرهم، وكنت بكرة أولاده. فكان كل فرد من العائلة يحبّني ويلطف بي.

كنت أرافق أولاد حارتي في كافة أنواع اللعب، فكنت ألعب معهم، وكنت أصيد، وأتزرّه وأرتكب كل شقاوة تليق الطفل إلا أنني كنت أنهاهم عنها. فكانوا يلقبوني بـ"المولوي" (الواعظ) حتى دعاني بنفس الخطاب غيرهم من أولاد الحارة وكبارها. كنت مشغوفًا بصنع اللعب ومولعًا بصيد الطيور والأسماك. فكنت أطوف مع أبناء الأعمام في الحدائق والحقول والأرياف والأشجار خارج القسبة. كانت هذه الحال حتى الدراسة الابتدائية للفرسية والعربية، فكنت أمضي معظم فرصي في اللعب. وزدّ على تلك الجو العائلي الخالي من الأنشطة العلمية، فكان اثنان من إخوتي الأربعة لا يعرفان سوى القليل من القراءة والكتابة، وكنا يقضيان حياة متديّنة. كنت صالحًا بسيطًا في الطفولة، ولقد ضعف بصري بسبب الرماد في العين. فكانت أُمّي تهتمّ بي، وكانت قلقة لحياتي المتأهله إذا كبرت، وكانت تشاطر همّها هذا مع الآخرين. كانت جدّتي لأمي رحيمة بنت الحافظ الشاه نظام الدين السريانوي المتوفاة في 26/ رمضان 1378هـ امرأة

صالحة وعابدة. وقد أرضعتني، و كانت تحبّي حبًا جمًّا. وفي أغلب الأحيان كانت تدعوني إلى رسولپور (Rasūlpūr) في الصباح، وكانت ترجعني إلى مباركپور في المساء. وكان يقوم بهذه الخدمة من كان يتعلّم عليها من طلاب مباركپور.

وُهِبْتُ ذاكرة قوية فلم أنس حتى الآن أحداثًا وقعت حينما كنت ابن ستة أشهر أو سنة. فكانت أمّي تتلو القرآن، وأنا في حضنها وأسمع ما كانت تتلوه. وكذا كانت هي تدرّس أولاد وبنات الحارة، ولذا فقد نبتت في رغبة في العلوم الدينية منذ الطفولة كما عثرت على أخبار ومعلومات عن الأنبياء وخاتمهم والصحابة وتابعهم ومن تبعهم. وكنت أتصفّح كتب أمي، وهكذا فكان حضنها هي مدرستي الأولى. وأصبحت مواظبًا على الصلاة منذ أن بلغت العشر سنوات من عمري. فمضت طفولتي في رعاية والدتي وجدتي لأمي اللتين كانت نفسيتهما وبيئتهما علمية ودينية يزيّنها تقوى الله وعبادتهما المخلصة بينما كانت بيئة العائلة والحارة مختلفة تمامًا عنها. فقد ولدت في هاتين البيئتين المضادة بعضهما للبعض، وتأثرت بهما طفولتي. فما يوجد في نفسي من البرودة والحرارة يرجع سببه إلى هذا التضاد والذي يبدو في بعض الأحيان حتى اليوم.

بداية التعليم المنظم: ولو أني جعلت أقرأ وأدرس قليلاً من لدن أمي وجدتي لأمي، ولكني ألحقت بكتاب الحارة للتعليم المنظم والذي كانت تدرس فيه القاعدة البغدادية والقرآن الكريم ومبادئ اللغة الأردوية ومبادئ الإسلام. كنت أدرس في الدار على والديّ الكريمين، ثم ألحقت بمدرسة إحياء العلوم. وكنت آنذاك أقرأ الجزء الثالث من القرآن الكريم الذي أنهيت قراءته على الحافظ علي حسن المرحوم كما ذكرت، وبدأت أقرأ قليلاً من اللغة الأردوية قبل أن أدخل المدرسة، فتعلّمت الأردوية بعدما أنهيت قراءة القرآن على المنشئ عبد الوحيد اللاهريوري الذي توطّن مباركپور، ووقف حياته على التدريس في مدرسة إحياء العلوم. وأما الحساب فقد تعلّمته في هذه المدرسة على المنشئ أخلاق أحمد المتوفى 18/ ذي الحجة سنة 1404هـ.

وفي تلك الفترة شغفتُ بجمع الأوراق الملونة والخرائط وأنواع من النقود كما كنت أجمع علب الكبريت، وكنت أغرس شجيرات مختلف الأنواع والأزهار. وبجانب الألعاب

الأخرى رغبت في تربية الحمام، وبقيت أرتبها لسنوات، الأمر الذي جعلني غائبا عن المدرسة. فذات مرة ضربني أبي مبرحا، وجرتني إلى المدرسة. فقام عوجي، وجعلت أحضر المدرسة بصورة منظمة. وفي هذه الفترة تافت نفسي لجمع الكتب الأردوية؛ فجعلت أبحث عنها، وأجمعها من هنا وهناك. وفي 1346هـ صدرت أول طبعة لكتاب "سبيل الآخرة" لجدّي لأمي والذي أثرت قراءته في فخفت الموت والقبر والقيامة، ولم يزل خوفها في قلبي إلى هذه الأيام.

تعلّمت الفارسية على الشيخ نعمة الله المباركبوري المتوفى 28/ ربيع الثاني سنة 1362هـ، وعليه تعلّمت جودة الخط الأردوي والعربي. وبالجملة فقد تعلّمت بطريقة أو أخرى اللغة الأردوية والفارسية، وبلغت من العمر حوالي 15 سنة، ثم شرعت في تعلّم اللغة العربية.

فترة تعلّمي للعربية تمتدّ على عشر سنوات من صفر 1350هـ حتى شعبان 1359م. ولما بدأت أتعلّم العربية كنت قد بلغت من العمر 14 أو 15 سنة، وهي فترة عنفوان الشباب فتندشط كافة القوى العقلية. فإن كانت البيئة ملائمة فيصير الإنسان عالياً رقيقاً، وإلا فيحرم كافة أنواع التقدم البشري، ولكن منهم من تفعل موهبته فعلاً ولو أن الظروف لا توافقها. وأما أنا فأعتبر نفسي من بين هؤلاء السعداء حظاً ونصيباً.

وفاة الأم وبداية أنواع من البلاء: لقد نشأت في رعدة العيش ورخائه حتى أن فرغت من تعلّم الأردوية والفارسية. وكانت طبيعة والدتي علمية ودينية خالصة، ولقد عمّ الدار الخير والبركة للقناعة والبساطة كما كانت تجارتنا نامية. توفيت أُمّي في 1352هـ حينما كنت أدرس "الكافية" وغيره من الكتب. فأنهك همّها شبابي، وبقيت أحزن عليها لسنوات. وكدت أنسى نفسي بعد هذا الحادث؛ فكان أبي يغدو ويروح لأجل التجارة، وكنت أكبر أولاد أبي؛ ثلاثة ذكور وأنثى واحدة، فصعب عليّ أن أخرج لنيل العلوم كما كانت شؤون العائلة الأخرى تعرقل السبيل حتى جعلوا يتحدثون عن إيقاف دراستي، ولكني أبدت الصبر. فواصلت دراستي كما انشغلت بالشؤون العديدة، وأنهيت دراساتي في مدرسة إحياء العلوم ولم أخرج من القصبة سوى سنة واحدة للتخصص في الحديث

من الجامعة القاسمية (مدرسة شاهی) في مرادآباد. وخلال هذه الفترة في 1345هـ ذهبت إلى الجامعة القاسمية في غيا، ولكني رجعت منها بعد شهرين.

بيئتي العلمية: قضيت فترتي الدراسية كلها في مبارکپور. وكان يتوفر فيها وفي ضواحيها علماء مهرة وکتاب بارعون. ولعل کافتهم كانوا يخدمون العلم والدين في مختلف المواضيع. فلم أبلغ من العمر ما استفيد فيه من الآخرين، ولم أجد الفرصة لها إلا أنه قد قرأت أعمالهم من بعد، وسمعت عنها. فتشجعت على خدمة العلم، واستهديت منها. وممن رأيتهم أو استفدت منهم:

- الشيخ عبد العليم الرسولپوري (الشقيق الأكبر لجدي لأمي) المتوفي في 1341هـ، رئيس المدرسين في مدرسة چشمه رحمت بغازپور (Ghāzīpūr)، أذکر صورته حتى الآن. كان عالماً كبيراً لعصره ومفتياً ومدرّساً وطبيباً مصنفًا.
- الشيخ عبد السلام المبارکپوري (ت 1343هـ) كاتب "سيرة البخاري" ومدرّس دار الحديث الرحمانية بدلهي، زرته مرة للمداواة بمرافقة أبي.
- شمس العلماء الشيخ مناظر حسن الفاروقي المبارکپوري (ت 1347هـ) مدرّس دكا وأحب أصدقاء جدّي لأمي. لم أوفق زيارته.
- الشيخ عبد الحق الأملوي مترجم "تلبیس إبليس"، كان يقيم بصورة منتظمة بمدرسة میان صاحب بدلهي وتوفي بها، لم أوفق زيارته كذلك.
- الشيخ محمد أحمد اللہراوي (ت 15/ شوال 1368هـ)، كان يبيّض "تحفة الأخوذي" بجماعة من العلماء في تلك الفترة. كنت أزوره للمداواة كما كنت أذهب إليه بدون مسوِّغ. سألتني ذات مرة عن الكتب التي أدرسها، فذكرت له أسماءها، فقال إنك متخلف للغاية في المنطق فاجتهد فيه. ولما رأيت شغله العلمي والتأليفي تشجعت على الكتابة. ولقد سمعت بلسانه أول مرة المثل العربي السائر "من ساوى يوماه فهو في الخسران"، فليكن اليوم القادم أفضل من الماضي. يهديني هذا المثل حتى الآن.

- الشيخ محمد شريف المصطفى آبادي (ت 2/ ذي الحجة 1372هـ) كاتب "الإفاضة القدسية في المباحث الحكمية" و"نسيم الكلام في تأييد شريعة خير الأنام"، كان عالماً فاقد النظر في المنطق والفلسفة وعلم الكلام وتعلّم عليه الأساتذة. وكان يمكث في الوطن، وهو من أخلص أصدقاء جدّي لأمي. كنت أزروه كما كان يشرف دارنا بزيارته. كانت جلساته علمية بحتة.
- جدي لأمي الشيخ أحمد حسين الرسولبوري (ت 26/ رجب 1359هـ) العالم المتبحر، والمعلّم الكاتب والطبيب الحاذق، كان أديباً للعربية وشاعراً له ديوان. كان يدرّس في دكا، وكان يؤوب إلى الدار في العطلة. فكان يشتغل ليل نهار في قراءة الكتب وكتابتها وصنع الأدوية وغيرها من الأعمال. وفي أيامه الأخيرة لزم الدار لسنوات، فاغتنمت الفرصة لمشاهدة أشغاله العلمية، فاستضأت به كثيراً. ولما توفي كنت في مراد آباد أتخصص في الحديث.
- خالي الشيخ محمد يحيى (ت 11/ صفر 1387) كان ذكياً للغاية وجامعاً للعلوم، فاستفدت منه كثيراً، وصقل ذوقي العلمي. فكل ما امتلكته من التراث العلمي يرجع فضله إلى خوّلتي.
- الشيخ الحكيم محمد صابر (ت 8/ رجب 1399هـ) كانت بين عائلته وخوّلتي علاقة علمية قديمة، فكنت أختلف إليه حين أيامي الدراسية الأولى. أشار عليّ قراءة "وفيات الأعيان لابن خلكان"، ودلّني على أهميته وجمعه للمعلومات، فاستفدت منه كثيراً. وقد أخذت منه العديد من الكتب للقراءة مما خلق في ذوق الأدب العربي من الشعر والنثر.
- الملا رحمت علي إسماعيل المباركبوري (ت 1944م) كان عالماً متبحراً من فرقة البوهرا، وقضى معظم أوقاته حياته في مومبائ. ولما اختلف عن الملا سيف الدين طاهر خرج من عنده بجماعة، ورفع القضية ضده والتي تعرف بـ"قضية الغلة". ولما فشل فيها فتح له دكاناً لأسباب التجميل في مباركبور. كان الملا أديباً جيداً للعربية، وشاعراً فحلاً له. ألف عديداً من الكتب الدينية، وسافر إلى مصر والشام

وإيران والحجاز غير مرة. كنت أجلس في دكانه، وكانت أحاديثه علمية ودينية. وكان يعبرني كتب مذهبه الخطية لدراستها. ولقد قرأت "رسالة الغفران" للشاعر الفيلسفي الشهير أبي العلاء المعري في تلك الفترة و قد منحني إياها. و وعد أنه سيلحقني بالأزهر الشريف، ولكنه لم يستطع الذهاب إلى القاهرة ولا أدخلني الأزهر الشريف. استفدت منه في الأدب العربي، ووقفت بفضلله على التعاليم الخفية لفرقة البوهر.

الاختلاف إلى دار المصنفين بأعظم كره: في تلك الفترة كان علماء بارزون شقي في دار المصنفين بأعظم كره مشغولون بالكتابة والتحقيق. كانت دار المصنفين مركزاً للسياسة على مستوى المحافظة بفضل الشيخ مسعود علي، وكنت أتردد إليها بمرافقة أصحابي. وكان السيد سليمان الندوي يتوقف قليلاً حينما كان يرانا، وكان يسأل عن أحوالنا. وفي بعض الأحيان كان يزور بنفسه مدرسة إحياء العلوم، ولكني لم أتمكن من الاستفادة منه أو من دار المصنفين. والواقع أن دار المصنفين كـ"شجرة ممنوعة" في حق الآخرين إلا أنني استفدت كثيراً من إصداراتها وترجماتها العلمي مجلة "معارف" وقد صقلت ذوقي التأليفي.

بيئة المدرسة وأساتذتها: هذه كانت بيئي العلمية المحدودة التي قضيت فيها عشر سنوات لدراستي، فتعلّمت على أساتذة وعلماء الديار، ولم أخرج منها بسبب الظروف الاقتصادية والعائلية. كانت مباركبور، في تلك الفترة، ساحة النزاعات والصراعات بين الشيعة والسنيين، وبين أهل السنة والديوبنديين. فكان مبارز كل فرقة أو مذهب وكأنه يخرج إلى الساحة فيبارز، وكانت عامة هذه الديار تدعو علماءها من الخارج. فتكفّر من خالفها أو تلحد من لم يتبع مذهبها. وكانت الخطب والمناظرات تجري لأشهر، وهي تنتهي إلى الخصام والقتال ومن ثم إلى المحاكمة. وكانت العامة والخاصة كلتاهما تعتبر قضاء الوقت فيها وضياح مواهبها وصرف أموالها جزءاً من واجبات الدين وأعمال الخير. ولأجل العصبية الفرعية كانت الأحاديث الفردية تتحوّل إلى قضية سياسية. كان مركز حزب الديوبنديين مدرسة إحياء العلوم. وعلاوة على تلك كانت جلسات جمعية العلماء وحزب المؤتمر والحركات والأنشطة السياسية والدينية على مستوى الوطن والأحوال

الطارئة كانت تخلق ظروفًا مثيرة ومهيّجة، وكنا نحن الطلاب نحضرها. وكانت عملية التعلم والتعليم تبدو صعبة في هذه الفوضى وكانت تفقد الظروف الهادئة المطمئنة التي يتطلبها هذه العملية. ولكن من العجب أن هذا العهد هو العهد الزاهر لمدرسة إحياء العلوم، فما كان هذا الهاء ولا كانت هذه البركة في المدرسة لا من قبل ولا من بعد؛ فقد طار صيت تعليمها وتربيتها في الآفاق، وكان كل طالب من هذه المدرسة يحاول التقدم وأن يصبح شخصية يشار إليها بالبنان. كان هذا كله من فضل إخلاص وأثرة أساتذة القصة الذين كانوا منقطعين إلى التعليم والتدريس صابرين ومقتنعين براتب قليل مبلغه من عشر روبيات إلى عشرين روبية بعيدين عن الرغبة في المال ومتاع الحياة الدنيا، وكانوا يلقون من عشرة إلى اثني عشر درسًا يوميًا. وليس هذا فقط بل كانوا يدعون الطلبة إلى بيوتهم خارج الدوام، فيعلمونهم ما يفيد مستقبلهم، ويربّونهم ما يزيّ أنفسهم. كانوا يجهدون أنفسهم ثم يشجعون الطلاب على الاجتهاد والكّد والجّد. وكانوا حريصين على أن يتعلّم تلامذتهم، فكانت علاقة الأستاذ مع تلميذه علاقة قريب مع قريبه، بل صديق مع صديقه.

أساتذة مدرسة إحياء العلوم: أول أستاذ تلمذت عليه من بين أساتذة المدرسة هو الشيخ المفتي محمد يسين المباركبوري (ت 22/ محرم 1404هـ). فقد درست عليه معظم الكتب، ولقد استفضت من بساطته وصلاحه وخلوصه ولطفه بي. وأما المنطق والفلسفة فقرأت الجزء الكبير منهما على الشيخ شكر الله المباركبوري (ت 5/ ربيع الأول 1361هـ)، وأنا تلميذه الأخير الذي علّمه بكل رغبة ونشاط، وله سهم أكبر في تشجيعي وتربيته النفسية. وكذا قرأت بعض كتب المنطق على الشيخ بشير أحمد المباركبوري (ت 3/ شوال 1404هـ)، وقرأت تفسير الجلالين على الشيخ محمد عمر المظاهري المباركبوري. وهكذا مارست العروض والقوافي لدن خالي الشيخ محمد يحيى الرسولبوري (ت 11/ صفر 1387هـ) كما قرأت عليه بعض دروس الهيئة. وله دور كبير وجليل في تربيتي؛ فكان يوقّر لي كتب العربية النادرة للقراءة، وليس من بين أساتذتي من كان أديبًا وشاعرًا وكاتبًا سواه، وكل ما نلته اليوم يرجع فضله إليه. فهذه نتيجة إخلاصه وجهدي الشخصي.

أساتذة الجامعة القاسمية (الشاهية) بمراد آباد: ومن أساتذة الجامعة القاسمية بمراد آباد الذين تعلّمت عليهم الشيخ فخر الدين أحمد (ت 1392هـ) الذي قرأت عليه صحيح البخاري وسنن ابن ماجه وسنن أبي داؤود، والسيد محمد ميان (ت 16/ شوال 1395هـ) الذي قرأت عليه سنن الترمذي، والشيخ محمد إسماعيل السنبهلي (ت 1395هـ) الذي قرأت عليه صحيح مسلم، وخلال هذه الفترة أقمت بالجامعة القاسمية لشهرين فدرست الباب الأول من ديوان الحماسة ومقامات الزمخشري وقام بالتدريس السيد محمد ميان. كان السيد المرحوم أديب العربية، وكاتب الأردوية، وصاحب طبيعة دينية خالصة فاستفضت كثيرًا من إخلاصه ومحبته وتشجيعه.

تأسيس جمعية الطلبة: وفي نفس الفترة أقيمت جمعية الطلبة بمدرسة إحياء العلوم لتربية الطلاب الفكرية والنفسية، وتوسيع نطاق معلوماتهم. ولهذا الغرض أقيمت مكتبة عظيمة فخمة جمع فيها الآلاف من الكتب الموثوق بها من كل علم وفن لاسيما التاريخ والأدب، وتم جلب العديد من الجرائد والصحف السياسية والدينية والأدبية والعلمية التي كان يستفيد منها الطلاب. ولعل كل كتاب في تلك الفترة أنهيت قراءته، وكذا كان الطلاب يمارسون الخطابة في كل جمعة، وأصدرت مجلة شهرية باسم "الإحياء" من جمعية الطلبة كنت مدير تحريرها. كان الشيخ شكر الله مدير المدرسة ومحركها، وكان يعتني بتعليم وتربية الطلاب عناية بالغة. وكان يودّ أن يخلق فيهم عزة النفس والغيرة وعلو الهمة وعظمة الخلق واليد الطولى في العلوم، فكان يحاول أن يتقدم طلابه في كل فرع من فروع العلم.

لم تكن تساعدني وسائل الضيقة وأوضاعي الخاصة أن التحق بالمدارس العليا، فقد نزعتم من فرصي سنة خرجت فيها عن الديار، ولكن علو الهمة والهيام بنيل العلوم قد جنّني أن ألتحق بالأزهر الشريف لنيل الدراسات العليا حتى لم تزل هذه الأمنية من صدري بعد أن كبرت، ولكني قد حوّلت الخيبة إلى النجاح بفضل رغبتى واجتهادي بأن جعلت بيتي ومدرستي الأزهر الشريف وجامع الزيتونة وجامع قرطبة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وحصلت على مالن أحسب معتكفاً في الديار. وهذا كله بفضل الله ومحبة الأساتذة وجهدي وعزمي. ولقد جننت في تلك الفترة جنوناً وهمت هياماً؛

فكنت أتخيّل دائماً دور العلم الإسلامية القديمة الشهيرة من بغداد وبخارا والأندلس وغرناطة وأساتذتها وطلابها، وكنت أستفيض من حسناتهم وبركاتهم.

وإذا وافق جهد الدارس الجهد وسعيه المضني همّة التقدم والرغبة فيه والنشاط له فيمكن أن يكون عظيماً وهو في مكان ضيق حقير، وإذا لم توجد فيه هذه الصفات فلن يعظم ولو هو في مكان واسع كبير. ما مسني أيّ معهد علمي وتحقيقي وتربوي كبير ولا اهتديت من شخصية كبرى، وزدّ عليها عدم مساعدة أوضاعي الداخلية، ولكني مع ذلك مطمئن بأنني قد حصلت بفضل رغبتني وجهدي وعلوّ همتي وصنع نفسي على كل ما يمكن الحصول عليه في المعاهد العلمية الكبرى وتحت إشراف الشخصيات العملاقة. وكان من الممكن أن تحرم شجيرة شخصيتي، كما يحدث عادة، النمو والنشأة في ظلال شخصية كبرى أو معهد علمي كبير، ولم توفّق النمو الحرّ والإثمار في جوّ تحيط به هذه القيود.

فائدة المنهاج الدراسي النظامي: لا شك أن المنهاج الدراسي النظامي مفيد ونافع جداً، ولو أنه مرّ بكثير من التهذيب. فلقد وضع العديد من المدارس منهاجاً دراسياً خاصاً بها، ولكنها لم تخلق علماء ينافسون خريجي المنهاج الدراسي النظامي فيقوموا بكتابة مؤلفات ورسائل كمثليهم، ولهم فكرة جامعة ونظرة ثاقبة في العلوم والفنون الدينية. إني لا أخالف التغيير في المنهاج الدراسي فلننقم بالتغيير فيه طبقاً للظروف والمتطلبات، ولكن لنقدّم الإمام التام بالعلم والفن والعقيدة الثابتة والعمل عليها على ما سواها لأن هذا هو الهدف وراء قيام المدارس الدينية فهي قائمة عليه وساعية له. ولقد درست حسب هذا المنهاج، وكل ما حصلت عليه راجع فضله إليه.

بركة المواظبة على المطالعة: كنت أعتقد أن التعليم العربي صعب فكنت أغيب عن المدرسة كثيراً، وكان وراء غيابي هذا إهمالي عن الدراسة، وقصري في الفهم، وعجز طريقة التعليم. وهذه كلها تجمعت فيّ حتى لم أحضر المدرسة لعدة أشهر، والحال أنني قد أنست إلى العربية منذ طفولتي إذ كنت أطلع القرآن الكريم بترجمته الأردوية كلّ يوم، وكنت أتفكر في المعاني الأردوية لكلمات القرآن في ضوء الترجمة. ولما فرغت من قراءة "ميزان" و"منشعب" و"علم الصيغة" و"نحو مير" جعلت أفهم خطبة الجمعة،

وقمت بتمرين كثير لقواعد اللغة العربية. وكنت أقرأ "علم الصيغة" و"نحو مير" حينًا بعد حين. وكذا حفظت عن ظهر القلب "خواص الأبواب" لـ"فصول أكبري"، وأحفظ القضايا النحوية لهذه الكتب إلى اليوم كما كانت من قبل، واستفيد منها في حياتي الحاضرة. ولما قرأت، فيما بعد، عشر مقامات من "مقامات الحريري" بحاشية الشيخ محمد إدريس كما حقها فنما في الذوق الصحيح للعربية وآدابها، وتبصّرت في مبادئها وما يتعلق بها من مثل اللغة والاشتقاق والأبواب والصلات والنحو والصرف والخواص وغيرها مما سهّل لي فهم الكتب الدراسية وغير الدراسية، ونمت في الثقة بالنفس مما قوى همتي وعزيمتي. لم يكن يدرّسنا الأستاذة بدون مطالعة فكان من الضروري للطلاب ألا يحضروا الفصل إلا بعد أن قرأوا الدرس القادم فحاولوا حلّ معضلاتها وفهم معانيها، وهم أيضًا كانوا يطالعون في الليل فكتنا نطالع الكتب الأربعة الدراسية ليلاً بكل اجتهاد، وكنا نفوّض المعضلة إلى الأستاذ إذا لم يمكننا حلّها. وهكذا فلما أصبحنا قادرين على الدراسة أنهيت دراسة "منية المصلي" و"نور الإيضاح" و"القدوري" و"كنز الدقائق" و"شرح الوقاية" في سنة واحدة فقط، وكنت أقرأ حتى ست صفحات من "شرح الوقاية" في يوم واحد. وكذا بدأت دراسة "تاريخ الخلفاء" في تلك الأيام ولكني تركته بعدما قرأت بعض الدروس لأنه لم يكن من الكتب الدراسية بل كان مما تجب مطالعته فحسب. وقد حدث أني كنت أقول بعد قراءة العبارة إنني قد فهمتها فكان الأستاذ يتقدّم في التدريس. هذا كله كان بفضل قوة مطالعتي التي أوجدها حفظ قواعد اللغة وممارستها والاجتهاد في الأدب العربي. ولقد أجهدت نفسي لها منذ البداية، ولكني مع ذلك لم أنبذ الكلمات السيئة عن الأستاذة، وما انتقدتهم قط. وإن حدث شيء من هذا النوع فقد عوقبت على ذلك. والواقع أني استفضت منهم كثيرًا.

وهكذا كنت أدّرس بعض الكتب في زمن الدراسة، وكان الطلاب يدرسون بكل رغبة ونشاط. وكان منهم من كان زميلي في الدرس، وكانوا يجبروني على التدريس إذا لم أرد تدريسهم حتى كان يقع بيننا النزاع في هذه القضية. وهكذا فقد كنت أدّرس كما كنت أدّرس. وهذا قد أفادني كثيرًا. وكنت أحمل كل وقت كتابًا من غير المقررات الدراسية، وعندما كنت أفرغ من قراءة الدرس وتكراره كنت انشغل بدراسته. وما أعجب تغيير

مدارسنا العربية وما أكثر حزنًا انحطاطها العلمي أن الطلاب كأمثالنا كانوا غير جديرين وموهوبين لدى الأساتذة قبل اليوم بأربعين سنة أو أكثر، فكان الأساتذة يلوموننا بأننا لا نعرف شيئًا، وأننا لا نليق بأن نجالس العلماء، ونضيّع أوقاتنا في رحاب هذه المدرسة. وأما نحن فكنا نقول لهم بأسلوب صبياني في بعض الأحيان: إنكم ستذكروننا فيما بعد". وصدق ما ظننا. إذا وُلِدْتُ في الدارس قوة المطالعة شعر في داخله بالشرح والسرور بالقراءة، وبلغت رغبي في قراءة الكتب غير الدراسية حدّ الجنون. فلم أكن أجتهد في قراءة الكتب الدراسية سوى لأنجح في الاختبار بدرجة جيدة. فلم أحاول ولو مرة أن أكون "ممتازًا" أو "جيدًا جدًا"، ولكنني نجحت في كل مرة "جيدًا جدًا"، وبلغت في بعض الأحيان درجة "ممتاز". وبالعكس من ذلك فقد كنت مشغوفًا بقراءة الكتب غير الدراسية فكنت أحمل كل أن كتابًا من غير المقررات الدراسية حتى كنت أنظر إلى الكتاب وأنا أتناول الطعام، وكنت أدرس الكتب غير الدراسية لساعات بالليل بعدما أفرغ من قراءة الكتب الدراسية، وكنت أعتكف على الكتاب أمام مصباح الغاز في ليالي الصيف، وربما كانوا يجبروني على القيام عنه والحال أن بصري كان ضعيفًا منذ طفولتي فقد جعلت أضع النظارة فور ما بدأت أدرس العربية فكان بعض الأساتذة يقول للطفه بي: "لا تقرأ هذا القدر فتعي" فكنت أجيب عليه: إذا عميت فسيتوقف العمل". وبسبب كثرة المطالعة والتصفح كانت عيني تحرقان في بعض الأحيان، وكانت الحبوب تظهر فهما، وكنت أعاني من الدوخة التي كانت تسبّب نوعًا من الإغماء لوقت غير قصير.

وربما كنت أدافع عن الإمام الشافعي في الفقه وكان الأستاذ يحاول أن يقنعني، وكنت أتفكر دائمًا لم لا تدرس كتب أئمة الأحناف المتأخرين لاسيما علماء ما وراء النهر، ومن أين يمكن لي الحصول على أمهات كتب القدماء التي تحتوي على الروح الصافية للفقه الحنفي، واستخرجت الفروع من الأحاديث والآثار، وعلى هذا فقد رغبت شديدًا في الكتب النادرة لأئمة الأحناف الصادرة عن إحياء المعارف النعمانية بحيدرآباد فجمعتها، وقمت باستعراضها بكل حرية ورحابة صدر. فقد كان الشيخ أبو الوفاء الأفغاني (ت 13/ رجب 1395هـ) رئيس لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدرآباد حنفياً متشدداً فبحث عن هذه الكتب، ونشرها بتعليقه عليها، ثم قال لي بعد وقت طويل: إني أود أن

أحرق كتب علماء ما وراء النهر هذه، وذلك لأن تداولها بين الناس قد قلّ وجود كتب أئمة الأحناف كأمثال الإمام أبي حنيفة والإمام محمد والإمام أبي يوسف وغيرهم حتى ضاع العديد منها فصرفوا النظر عنها، وجعلوا كتب المتأخرين مصدرًا ومأخذًا للفقهاء الحنفي. وبسبب دراسة إصدارات إحياء المعارف النعمانية وحجة الله البالغة نما فيّ ذوق القضايا الفقهية في ضوء الأحاديث والآثار.

وكذا يخطر ببالي كثيرًا أن القرآن والحديث اللذين هما مأخذ الدين جُعِلَا على الدرجة الثالثة في المنهاج الدراسي النظامي، ويتم تدريسهما بصورة عابرة أو نظرة سارحة. وعلى هذا فقد اشتريت المشكوة وتفسير الجلالين وتفسير ابن كثير، وكنت أدرسها كما كنت أدرس موطأ الإمام مالك وموطأ الإمام محمد.

الكتب الموجهة التي درستها: لقد تعرّفت على الأعمال العلمية للسلف أولاً بـ "مسدس حالي" و"علماء سلف" ثم بفهرست ابن النديم ووفيات الأعيان، ورغبت في تقليدها وتتبعها بعدما قرأت أخبارهم وسيرهم. وفي تلك الفترة سافر خالي الشيخ محمد يحيى بعد الفراغ من نيل العلوم والفنون إلى دار المبلغين بلكناؤ والتي أقيمت حديثاً. و كان يرسل إليّ كتب الشيخ عبد الشكور أو يأتيني بها، وأما أنا فكنت أقرأها باهتمام ورغبة. وكذا أخذت منه الكتب الأخرى في ردّ التشيع. وقد توقّر لي عدد ملموس من مثل هذه الكتب، ثم اختير (خالي) مدرّساً في مدرسة چشمه رحمت بغازيبور، فكان يحمل لي كتباً من مكتبته وبعدما أنهى قراءتها كان يرجع بها. فالكتب التي قرأتها بوسيلته والتي تذكّرت أسماءها منها: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ودلائل النبوة للأصبهاني، وسبحة المرجان في آثار هندوستان لغلام علي آزاد البلغرامي، وأكام المرجان في أحكام الجان لأبي بكر شبلي البغدادي، وحياة الحيوان للدميري، والصواعق المحرقة لابن حجر المكي، والعمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، والمحاسن والأضداد للجاحظ، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والميزان الكبرى للشعراني وغيرها.

وكذا أخذت فقرأت من لدن الشيخ الحكيم صابر خان الكتب التالية: فقه اللغة للثعالبي، وأمثال العرب للزبي، ونقد الشعر لابن قدامة، وكتاب الصناعتين للعسكري.

وقرأت ما يلي من الكتب مستعيراً من مكتبة مدرسة إحياء العلوم: سيرة ابن هشام ووفاء الوفاء للمسعودي والمستطرف وديوان الفرزدق. وهكذا استفدت مما يلي من الكتب بطريقة أو أخرى: وفيات الأعيان لابن خلكان وكتاب الملل والنحل للشهرستاني والعقد الفريد لابن عبد ربه ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري وتهذيب التهذيب وتوالي التأسيس وغيرها.

هذه علاوة على الكتب التي كنت أشتريها، وكنت مشغولاً بقراءتها. وسأقدم فهرستها فيما بعد. وكذا قرأت كل ما في مكتبة جمعية الطلبة من الكتب قليلها أو كثيرها، واستفدت منها. وحينما ظفرت بكتاب جديد كنت انقطع إلى دراسته. وبجانب قراءة هذه الكتب كنت أجمع المختار منها وأكتب المقالات والحال أني لم أقدر على فهمها تماماً حتى تلك الفترة بل البعض منها كان فوق مستوى فهمي ولم أستطع سوى استيعاب القليل منه، ولكن كلما فهمت قويت همتي العلمية، ورغبت في المزيد من المطالعة والقراءة.

المناظرة والمناقشة: وفي تلك الفترة كنت أناظر البعثة النصرانية في السوق كل ثلاثاء خطاباً وكتاباً، وفي هذا الشأن أمنت النظر في التوراة والإنجيل والكتب في ردّ النصراني. وبسبب كثرة المطالعة وقراءة الكتب ازدادت معلوماتي كثيراً، ولذا امتزت عن طلبة المدرسة في الخطابة، وكنت ألقى الخطاب قبل الأساتذة في الجلسات المنعقدة في القصبة أو خارجها.

الشعر: نما في ذوق الشعر منذ الطفولة، وجعلت أقرض الشعر الجيد بدون إصلاح الآخرين. كانت قصائدي ومنظوماتي تنشد في الجلسات الدينية والسياسية والعلمية كما جعلت تنشر. ووافقه كتابة المقالات وهي أيضاً بدون إصلاح من الآخرين، وهي بدورها جعلت تنشر في الجرائد والمجلات.

وبالجملة فقد كدت أن أبلغ ذروة الشهرة في كثرة المطالعة والاطلاع الواسع وكتابة المقالات وذوق التأليف والشعر والمناظرة والخطابة، وانفتحت لي أبواب المواهب، وجعلت أشعر بجودة الطبع والنشاط العلمي في كل مجال من مجالات العلم والفن، ونمت في الثقة بالنفس فبلغت الغاية التي أردتها. وكان أساتذتي مسرورين بهذا كله، وكانوا يشجعونني

كثيراً. والواقع أنما حصلت عليه يرجع فضله إلى إخلاص أساتذتي ومحبتهم وتعليمهم وتربيتهم. فكانوا يجتهدون بأنفسهم كما كانوا يطلبون من تلامذتهم أن يجتهدوا، وكانوا يبخعون أنفسهم بعيدين عن الثروة والجاه على أن يصبح تلامذتهم مثقفين.

شراء الإصدارات وجمع المخطوطات: ومنذ أن بدأت أدرس اللغة الأردوية رغبت في جمع الكتب فكنت أستعير الكتب من زملائي كما كنت أشتريها بنفسني، وكذا جمعت خرائط الأماكن المقدسة و غيرها مما كنت أعثر عليها في هذه القصبة الصغيرة في صندوق صغير من خشب جاءت به أمي من رسولبور وكنت أقرأها وأرتبها من جديد بعد يومين أو ثلاثة فكانت هذه أول مكتبتي أو متحفني الإسلامي. ولما جعلت أتعلّم العربية ازداد ذوقي لقراءة الكتب فكنت أخذ الكتب الدراسية من مكتبة جدّي لأمي مما شوقني لجمع الكتب ثم اشتريت ميزان ومنشعب وعلم الصيغة والكافية والمرقاة وكفاية المتحفظ وكنز الدقائق وديوان المتنبي ومقامات الحريري كما اشتريت من كتب الأردوية تواريخ حبيب إله، والكلام المبين، وحدائق البيان، والفاروق، وكانت تأتيني مجلة "مولوي" من دلهي بصورة مستقلة. ولقد قمت بتجليدها وجمعها لديّ.

ولما عرفت قدرًا من العربية ورغبت في قراءة الكتب غير الدراسية للعربية جعلت أبحث عنها هنا وهناك، وشرعت في قراءتها. وفي تلك الفترة طلب خالي المرحوم محمد يحيى فهرس إصدارات مصر وفهرس كتب المكتبة الرشيدية بدلهي من عبد الصمد وأولاده تجار الكتب بسيدواره (سورت) على عنواني ثم طلبتهما لي، وبعد فترة طلبت فهرس إصدارات أبناء المولوي محمد غلام رسول السورتي تجار الكتب بمومبائ والمكتبة العربية الكبرى بمومبائ، ولقد نشرت فهرس الإصدارات كلها سوى المكتبة الرشيدية بدلهي باللغة العربية من مصر، ولقد صين البعض منها حتى الآن في مكتبتي. كانت هذه الفهارس تفصّل أسماء الكتب وأسماء مؤلفيها وأنسابهم وسنين وفاتهم وأجزاء الكتب وأسعارها كما كانت تعرّف ببعض الكتب. فكانت هذه الفهارس تبدو موسوعة علمية للإصدارات العربية ومؤلفيها، فقد حصلت بها على المعلومات الوافرة عن مؤلفات السلف وإصدارات مصر والشام، واهتدي بها ذوقي العلمي فكنت أقرأها مرارًا وأراجعها ثم كنت أختار منها حسب ذوقي وسعتي. فكان قلبي يودّ أن أشتري كل ما ذكر فيها، ولكن

ظروفي الاقتصادية كانت تحول دون ذلك. فبدأت أشتغل بمهنة التجليد فجمعت كل أسبابه وآلاته، وجعلت أقوم بتجليد الكتب؛ كنت أحمل الأسباب من أعظم كرهه حيث كنت أذهب إليها راجلاً وأعود إلى الدار بعد شرائها حتى الظهر فكنت أقطع 12 ميلاً في ساعات معدودة. كل ما كنت أكتسب من التجليد أجمعه لشراء الكتب، ولقد اتخذت حيلة أخرى بأنني جعلت أشتري الكتب من المكتبة الرشيدية بدلهي بسعر التجار فكنت أنال ترخيص أربع أنات (قروش) في روبية على الكتب العامة، وأنتين في الكتب المصرية، وأما نسخ القرآن الكريم وأجزاؤه فكنت أنال ترخيصات أكبر عليها؛ فكنت أشتري نسخ القرآن الكريم والكتب الأخرى على طلب من طلاب المدرسة وأهالي القصبة، وأبيعها لهم على السعر المذكور في الفهرس. وما بقي لي من فوائد الترخيص بعد أجرة البضائع كنت أحتفظ بها، وعندما كنت أشتري الكتب فكنت أشتري كتاباً يوافق وذوقي حسبما انتفعت، وهكذا فكان يبلغني شهرياً طردان أو ثلاثة عن طريق البريد أو القطار بما فيها كتاب يختص بي. وفي بعض الأحيان لم أقدر على جمع المبلغ المطلوب فلم أتمكن من شراء الكتاب الموافق لذوقي لشهور عديدة، وهكذا فقد توفرت لي ذخيرة ملموسة من أمهات الكتب العربية النادرة وإصدارات مصر والشام وبيروت طوال عشر سنوات لدراستي. وقد بلغ بي الانتظار والاضطراب لهذه الكتب إلى أنني كنت أرى في المنام الكتب التي كانت تبلغني في الصباح فكنت أقصد مكتب البريد أو محطة القطار فأتي بالطرد. كان ذلك اليوم بالنسبة لي يوم العيد فكنت أقرأ الكتاب لأيام وأقلبه وكنت أصلي ركعتين شكرًا لله. ولقد صليت شكرًا لكل كتاب بلغني في تلك الأيام بل لم تنقطع هذه السلسلة لسنوات بعدها، ثم كنت أبادره بتجليده حسب ذوقي. وفي بعض الأحيان حينما لم يرضني الجلد كنت أفكه ثم أقوم بتجليد جديد. فكتب تلك الفترة كلها مجلدة بيدي هاتين. ثم كنت أبحث عن أخبار وترجمة الكاتب وأضبطها، وكنت أغلف الكتاب. وحتى الآن ستجد كل كتاب لي مغلفًا بالورق كما قد ضبط عليه قيمته وتاريخ شرائه.

شراء بعض الكتب المهمة مع ذكر قيمتها وسنة شرائها: فيما يلي فهرس الكتب العربية غير الدراسية مع قيمتها وتاريخ شرائها، وهي ستخبر القراء كيف تطورت علمًا وعقلًا حسب السنوات، وماذا كانت أسعار الكتب في تلك الأزمنة، وماذا أصبحت الآن:

1. مختار الصحاح للرازي: اشتريته بروبية هندية واحدة في شعبان سنة 1353هـ. هذا أول كتاب بلغني مما بلغني من إصدارات مصر. كان الشيخ شكر الله قد طلب ميزان الاعتدال وتذكرة الموضوعات والمستطرف من أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي بمومباي، فوصل إليّ هذا الكتاب مع تلك الكتب ثم اشتراه العديد من الطلاب بواسطتي.
2. أدب الكاتب لابن قتيبة: اشتريته بروبيتين.
3. كتاب الأضداد في اللغة لابن بشار الأنباري: اشتريته بروبية هندية واحدة. بلغني هذان الكتابان في شهر رمضان سنة 1353هـ من قبل عبد الصمد وأولاده تجار الكتب في سورت.
4. كتاب المعارف لابن قتيبة: اشتريته بروبية هندية واحدة ونصف روبية في شهر رجب سنة 1354هـ.
5. ديوان النابغة الذبياني: اشتريته بعشر آناات هندية.
6. ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح الأعلام الشنترى: اشتريته بخمس آناات هندية.
7. العلم الخفاق في علم الاشتقاق للنواب صديق حسن خان: اشتريته بست آناات.
8. ديوان الخنساء مع ديوان حاتم الطائي: اشتريته بثماني آناات تقريباً، بلغني هذه الكتب الأربعة في شوال 1354هـ من المكتبة العربية الكبرى بمومباي.
9. مقدمة ابن خلدون: اشتريتها بروبية هندية واحدة وأربع آناات. أعطاني المفتي محمد يسين روبية واحدة كجائزة على نجاحي بالمركز الأول في الامتحان السنوي لمقامات الحريري 1354هـ فأضفت إليها أربع آناات واشترت بها هذه المقدمة.
10. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: اشتريته بروبيتين هنديتين تقريباً.
11. العمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني في مجلدين: اشتريته بروبيتين هنديتين.

- بلغني هذان الكتابان من المكتبة الرشيدية بدلهي في صفر 1355هـ.
12. الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري: اشتريته بروبية هندية ونصف.
13. طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي: اشتريته بروبية هندية وخمس آنات.
- بلغني هذان الكتابان من المكتبة العربية الكبرى بمومبائي في 16/ ربيع الثاني سنة 1355هـ.
14. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني في ثمانية مجلدات: اشتريته بعشر روبيات. جاءني هذا الكتاب من المكتبة الرشيدية بدلهي في شهر رمضان سنة 1355هـ. كان سعره الحقيقي 12 روية هندية، وبلغ السعر عشر روبيات ونصفًا بعد تخفيض آنتين على روية، ولكن جزءًا من صفحات المجلد الثامن الخالية قد ضاع فخفض السعر إلى عشر روبيات. ولقد قمت بتجليد المجلدات الثمانية وحدائنا ثم كسرت التجليد فازدوجت مجلدين في جزء.
15. فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري: اشتريته بروبية و14 آنة، وبلغني في شوال 1355هـ.
16. كتاب الفهرست لابن النديم: اشتريته بثلاث روبيات عن طريق بعض أصدقائي من أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي بمومبائي في 26/ رجب سنة 1356هـ.
17. شرح نزهة الفكر لابن حجر العسقلاني: اشتريته بثلاث آنات ونصف.
18. زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم في أربعة مجلدات: اشتريته بأربع روبيات.
19. ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي بشرح التبريزي الموجز في مجلدين: اشتريته بروبيتين.
- بلغتني هذه الكتب الثلاثة من المكتبة الرشيدية بدلهي في شهر رجب 1356هـ.
20. الكامل في اللغة والأدب للمبرد في مجلدين: اشتريته بثلاث روبيات ونصف.
21. فقه اللغة وسر العربية للثعالبي: اشتريته بروبية وثمان آنات.

- بلغني هذان الكتابان من المكتبة الرشيدية بدلهي في شهر رمضان 1356هـ.
22. مشكاة المصابيح (طبعة أصح المطابع بدلهي): اشتريته بروبيتين وتسع آنا، وبلغني في 17/ شوال 1356هـ.
23. ديوان مجنون: اشتريته بثلاث آنا، وبلغني في ذي الحجة 1356هـ.
24. تفسير ابن كثير في أربعة مجلدات: اشتريته بعشر روبيات، وبلغني في 12/ ربيع الأول 1357هـ.
25. صحيح البخاري بحاشية السندي في مجلدين: اشتريته بروبية و14 آنة، وبلغني في 15/ رجب 1357هـ ثم طلبه العديد من الطلاب بواسطتي.
26. إحياء العلوم للغزالي في أربعة مجلدات: في حواشيه كتاب المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للعراقي وكتاب تعريف الإحياء بفضائل الأحياء لعبد القادر العلوي وكتاب الإملاء عن إشكالات الإحياء للغزالي وعوارف المعارف للسهروردي، اشتريته بأربع روبيات، وبلغني في 16/ شوال 1357هـ.
27. تذكرة الحفاظ للذهبي في أربعة مجلدات: اشتريته بعشر روبيات ونصف، وبلغني في 4/ ذي الحجة 1357هـ.
28. كتاب الخراج للإمام القاضي أبي يوسف: اشتريته بروبيتين ونصف، وبلغني في 24/ ربيع الآخر 1358هـ.
29. تفسير الجلالين مع أسباب النزول في مجلدين: اشتريته بروبية واحدة.
30. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: اشتريته بروبية ونصف.
- لم أكتب تاريخ شرائهما، وبلغتني هذه الكتب من المكتبة الرشيدية بدلهي.
31. سنن ابن ماجه
32. سنن النسائي
33. سنن الترمذي

كانت هذه الكتب قديمة فاشتريتها بثمن رخيص من دارس في مراد آباد في 1369هـ. هذه 33 كتابًا في 58 مجلدًا والتي ميزانيتها حوالي 70 روبية في ذلك العهد، وهي اليوم تعادل آلافًا من الروبيات. لقد اشترت هذه الكتب بقروش جمعتها بصعوبة في حين كانت يدي ضيقة، وكان قد أحاط بي البؤس والشقاء.

وفي نفس الفترة التي كنت أدرس فيها اللغة الأردوية شغفت حبًا بجمع النقود النادرة وغيرها من العجائب، وكنت أبحث في تلك الفترة عن كتب خطية ونادرة. وقد كان بلغني أنه كانت في عائلتي كتب خطية لا تحصى، ثم ألقيت تلك المخطوطات في كيس كبير في بئر. وقد بقي حتى زمن أبي مصحف نسخه جدي الأكبر، ولكنه قد ضاع قبل أن أولد وأبلغ الحلم، إلا أنني وجدت مجموعة خطب قديمة يوجد في نهايتها الخطبة الثانية للجمعة وخطبة العيد مما قد كتبها هو، وفي نهايتها ضبطت السنة 1297هـ. خطها عربي جيد، وهي محفوظة لديّ إلى الآن. وقد بقيت في عائلتي شهادات لنيابة القضاء قد حفظتها بعدما ألصقت الأوراق في ظهرها، ولكنها أيضًا قد ضاعت بأيدي أفراد عائلتي الجهلاء، إلا أنني قد نقلتها في تلك الفترة، ثم نشرتها في كتابي "مآثر ومعارف". فلم يبق سوى شهادة. وكذا عثرت في تلك الفترة على نسخ خطية لـ "قصة شاه جمجمه" و "الله خدائي" فحفظتها إلى اليوم.

وكان أحد شيوخ الحي الحاج ولي الله تاجر كتب بازار يعرض كتبه على صُفّة "قدم رسول" يومًا في الأسبوع. فكنت أزوره، وأقرأ الكتب. فلما شهد ولعي بالكتب أعطاني نسخة خطية نادرة لـ "تفسير مرتضوي". هذا تفسير منظوم لبعض السور للشيخ غلام المرتضى بن الشيخ تيمور الحنفي الإله آبادي المعروف بجنوب والتي كتبت عام 1198هـ. وربما توجد نسخة أو نسختان لهذا التفسير في الهند، فكتبت في نهايته بقلبي ما يلي: "اين نسخه قديمه متبركه در مبارك پور يك از تاجران كتب كه پير كهن سال بود، نامش حاجي ولي الله بود ودر ديار عرب يك زمانه فروکش مانده بود مرا بطور هديه در 1354هـ عنایت فرمود، وبعد چند سال انتقال كرد، نزد من يك اول منظوم تفسير

است كه بزيان اردو مسلسل گفته شد، والله أعلم بالصواب. وأنا العبد الأفقر القاضي عبد الحفيظ أطهر المباركپوري، غفر له ولمتعلقه أجمعين¹.

ولقد اشتريت كتيبًا خطيًا جميلًا من أحد تجار القصبة بست أنات ضبط فيه أسماء شهداء بدر وأحد بخط جميل بالعربية. جدولها وما بين الأسطر مذهب فكتبت في طرف منه ما يلي: "ملككت هذا الكتاب المبارك بالبيع الشرعي يوم الخميس 29/ شوال 1357 هـ وأنا القاضي أبو المعالي عبد الحفيظ المباركفوري، بخواب اندر متعلق اين نسخه مباركه مرا بشارت شده بود"².

والكتب التي كانت توافق وذوقي، ولم أقدر على شرائها كنت أنقلها. وكنت أعني بذلك كثيرًا؛ فكنت أقوم بتسطير الأوراق السميكة، وأشتري القلم الجيد، وأصنع المداد الذي لا يزول، وكنت أضبط اليوم والوقت والسنة في نهاية كل كتاب. ومما يجدر بالذكر بعض الكتب التي نسختها:

1. كتاب النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت 384 هـ). هذا الكتاب في 32 صفحة، ونسخ في 12/ صفر 1354 هـ. قدّمت للكتاب، وذكرت ترجمة الكاتب في نهاية الكتاب بالعربية.
2. كتاب الألفاظ المترادفة لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني: هذا الكتاب في 16 صفحة، ونسخ في 14/ جمادى الثانية 1354 هـ. قدّمت له بالعربية حيث ذكرت ما هو المترادف، وما هي أسبابه أخذًا من مختلف الكتب.
3. ديوان امرئ القيس: نقلت أبيات امرئ القيس من شرح ديوان امرئ القيس المطبوع، ثم زدتها أخذًا من مختار الصحاح وغيره من الكتب. هذا الديوان في 33

¹ ترجمة: أهدى إلى هذه النسخة المباركة الحاج ولي الله أحد تجار مباركپور العجائز والذي أقام بالعالم العربية لمدة في 1354 هـ ثم توفي بعد ذلك بسنوات. هذا أول تفسير أردوي منظوم للقرآن لدي، والله أعلم بالصواب.

² ترجمة: لقد بشرت بهذه النسخة في المنام

صفحة. ذكرت في بدايته ترجمة الشاعر في خمس صفحات. نسخته في شهر رمضان 1354هـ.

4. مختصر الجرجاني في أصول الحديث للعلامة مير سيد شريف علي بن محمد بن علي الجرجاني: هذه الرسالة في 16 صفحة، وتم نسخها عصر الاثنى عشر من شهر صفر 1355هـ.

5. ديوان الفرزدق: هذه النسخة أعدتها من ديوانه المطبوع من بيروت. في بدايتها ذكرت ترجمة الشاعر بالعربية، ثم جاء الديوان كله 114 صفحة. تم نسخ الديوان ضحى الجمعة السادس عشر من جمادى الثانية 1355هـ.

6. أنباء الأذكياء في حيات الأنبياء للإمام السيوطي: هذه النسخة نقلتها من نسخها المنشورة. هي في 14 صفحة، وتم نسخها في 7/ ربيع الأول 1358هـ.

7. كتاب الدرر للأصمعي: هذا كتاب موجز للغاية، ونشر من بيروت مع بعض الرسائل تنتهي على 83 درة ثم تأتي رسالتان للحري "سينية" و"شينية". وهي في 12 صفحة، وتم نسخها في 20/ صفر 1355هـ.

8. العروض والقوافي: هذه الرسالة نشرت من بيروت فنقلتها، وقرأتها على الخال محمد يحيى في ثلاث جلسات.

9. نقلت سيرة النبي بكاملها من الاستيعاب.

10. فقه اللغة: نقلت الفصل الأول منه والفوائد اللغوية والأدبية وتاريخ الأدب العربي والمختار من الأبيات والألغاز آخذاً من فقه اللغة وغيره من كتب اللغة والأدب.

وكذا نقلت قصص العلماء وأخبارهم في مذكرة على شكل كتاب صغير، وهي موجودة إلى الآن. ولم تنقطع سلسلة الأخذ والجمع من الكتب العربية طوال زمن دراستي. وهكذا فقد كتبت المئات من الصفحات.

وبالجملة فقد كان توقّر لي مكتبة غنية للمخطوط والمطبوع من الكتب خلال فترتي الدراسية، وهي كانت تحتوي على المصادر الأولية والمراجع القيمة، وكنت أقضي جلّ

نهارى فيها، ثم أبيت بين ظهرانيها. فكنت أضعها في رف بصورة منظمة، ولم أكن أدع أي كتاب بدون ترتيب، وكنت أضع الأوراق البيضاء في بداية الكتاب حين تجليده. وكنت أعني بذلك، وأكتب فيها الفوائد والمعاني المفيدة للكتاب أخذًا من الكتب الأخرى، وكذا كنت أصون الكتب من تكديرها، وكنت حذرًا للغاية في تناولها. وأما أصدقائي وزملائي فلم تكن لهم أي رغبة في هذه الكتب "غير المفيدة"، فلم أضطر إلى الضن بكتبي هذه "القيّمة" ولم أكن أخاف ضياعها. ولأجل رغبتي في الكتب فقد توقّرت لي مكتبة ثرية لأمّهات الكتب جمع فيها ذخيرة عظيمة للمخطوطات والمنشورات العربية، ضاقت الحجرة عن سعتها.

كتابة المقالات وتأليف الكتب: كانت مكتبة جدي لأمي الشيخ أحمد حسين الرسوليوري عظيمة جدًا وكانت تحتوي على ثلاثة رفوف كبرى منها مطبوعات ومنشورات العربية والفارسية والأردوية بترتيب جميل. كان جدّي لأمي يرجع من دكا في العطلة، وكان يشتغل ليل نهار بقراءة الكتب وتأليفها وصنع الأدوية. فكانت الكتب تلقى على الحصر، وكان يقتبس ويأخذ منها. وأما أنا فكنت أرى شغله العلمي، ولكن لم أجروّ على التقرب منه، فإن غادر المكان كنت أقلّب أوراقه ثم أتركها كما هي. وفي بعض الأحيان كان يشعر بذلك فكان يسأل: من جاء هنا؟، وعندما يسمع اسمي يسكت ولا يقول شيئًا.

كان جدّي لأمي يقيم خارج الديار لأجل التدريس كما كان يفعل خالي لأجل الدراسة فإن وقّقت الذهاب إلى رسولبور حين غيابه كنت أقرأ الكتب من مكتبته، ثم أعيدها في نفس المكان وفي نفس الحال. وكان معظم الكتب يعلّق عليها جدّي ويضع الحواشي حتى أن بعض الكتب كان يكتب في بدايتها صفحات عديدة فكنت أمعن النظر فيها والحال أنني كنت عاجزًا عن فهمها، ولكنني وقّقت ذوق الأخذ والاقتباس من هنا فجعلت أنقل ما تركه حسب مستطاعي زمن دراسي للأردوية. ولما دخلت في الصفوف العربية، ورغبت في قراءة الكتب ومطالعها فاستضأت من هذا النور، فملت إلى كتابة المقالات وتأليف الكتب.

لم يعط أساتذة ومسؤولو مدرسة إحياء العلوم ذوقًا للكتابة والتأليف. فذات مرة طلبت منظمة "بزم أحباب حيدرآباد" (منظمة رفقاء حيدرآباد) من طلاب المدرسة مقالة

في سير الأئمة الأربعة فقد أجهد الأساندة أنفسهم، وكابدوا الصعوبة في ترتيبها، ومن ثم شعروا بخلق ذوق الكتابة في الطلاب وبقيام المنظمة لهم باسم "جمعية الطلبة"، واشتروا الكتب المستندة من مختلف العلوم والفنون لاسيما التاريخ والأدب، واشترت الجرائد والمجلات العلمية والأدبية والدينية، وأصدرت مجلة خطية شهرية باسم "الإحياء" التي لم تتقدم وراء بعض الأعداد. ولقد انتعفت كثيراً من هذه الكتب والرسائل لاسيما كتب دار المصنفين وندوة المصنفين والجامعة المليية الإسلامية ودار التراجع، ومجلات "معارف" و"برهان" و"جامعة". إن هذه الكتب كانت تحمل هوامش وإحالات فهي التي دلّني على مصادر العربية ومراجعتها الأولوية فتاقت نفسي في الانتفاع المباشر منها فاشترت العديد من كتب التاريخ والطبقات.

ولما قدرت على الكتابة والتأليف نقلت أخباراً موجزة لسير وتراجع الخلفاء الأربعة والأئمة الأربعة من كتب أمي الحنون، وجمعتها في كراسة صغيرة طبق ذوقي آنذاك، وقمت بتجليده بالسلك، وجعلت له لوحاً فوقه أحمر وأسفله أسود. كان هذا أول أثر من ذوقي التأليفي والكتابي. فلما دخلت في الصف الثاني أو الثالث الأردوي جعلت كراسة صغيرة مجلّدة لذكر المعاني الصعبة للكلمات، وكذا جمعت أبيات المديح النبوي في كراسة صغيرة للغاية في تلك الفترة، ثم قمت بتجليدها الجميل. وذوق تأليفي في الطفولة هو الذي تسبّب في تأليف الكتاب.

بداية كتابة المقالات: لما بدأت أدرس العربية نما في ذوق كتابة المقالة بجانب القريض، وبدأت أفكر في كيفية نشرها في الجرائد والمجلات. فأول ما نشر اسمي بشأن لغز هو في مجلة "پیام تعلیم" الصادرة عن الجامعة المليية الإسلامية بدلي. ولما بلغ الخبر الشيخ شكر الله دعاني وهنّأني به، ثم نشرت مقالة موجزة لي في "أخبار الجمعية" بدلي بعنوان "واردها كي خطرناك تعلیمی اسکیم" (مشروع واردها التعلیمی الخطر)، ثم نشرت لي مقالة في صفحة واحدة في موضوع "مساوات" (المساواة) في مجلة "مؤمن" بيداويون في 1353هـ، وتعتبر أولى مقالاتي، ثم نشرت لي مقالة أخرى في صفحتين فيما بعنوان "رها دين باقي نه إيمان باقي" (ما بقي الدين ولا تبوّأ الإيمان) وفي نفس الفترة نشرت لي مقالة بعنوان "بلاکشان اسلام" (من امتجّن إسلامه) في صحيفة "العدل" الأسبوعية بغوجرانواله

(بنجاب). ولقد نشر المدير هذه المقالة في مكان الافتتاحية. وبعدما نشرت هذه المقالات جنّ جنوني بكتابة المقالات بحيث نظمت لها فاشترت من السوق طاولة بروجية وأنتين كما اشتريت مقعدًا بست أنات، وصنعت مقلمةً كبيرةً وجميلةً، ثم طليتها باللون الأسود، وكتبت على ظهرها بالأحرف العربية البيضاء "علّم بالقلم"، ثم أعددت مدادًا أحمر وآخر أسود، واشترت أقلامًا من أنواع عديدة، ثم وضعت على الطاولة الكواغد والأقلام بترتيب جميل، وشرعت في قراءة الكتب وكتابة المقالات وقول الشعر. لم يهديني في الشعر سوى ذوقي فشجّعني الاعتماد على النفس فلم يهديني أحدٌ إلى توفير المعلومات وتنوع الأساليب؛ فكنت أكتب المقالة مرارًا وتكرارًا ثم أشطّتها وهي لا توافق ذوقي إلا بعد جهد جهيد. وكذلك كنت أتفكّر في قبولها للنشر أو ردّها، ولكنها حينما تنشر بدون تغيير كبير، فكنت أتشجّع من جديد، وأقعد لإعداد مقالة أخرى.

الشيخ سيد محمد ميان ومجلته "قائد": وفي هذه الأثناء (1357هـ) جاء الشيخ سيد محمد ميان المرحوم من مدرسة شاهي بمراد آباد ليتّأسّس الجلسة السنوية لجمعية الطلبة عندنا، والشيخ محمد ميان هو الذي قد أصدر مجلة "قائد" من مدرسته. فأنشد له صديقي الشيخ عثمان بعض أبياتي التي نشرها الشيخ في مجلته لطفًا بي، وأكّد على أن أكتب لها المقالات. وهكذا فقد جعل الشيخ المرحوم ينشر مقالاتي وقصائدي في مجلته، وأصبحت من مساهمها المنتظمين. فتحقق أمني، وهمت غرامًا بالكتابة. وكنت أعدّ المقالات تترى؛ أوقّر لها الكتب، وأهذب المقالات، وأقوم بإصلاحها بنفسي. وحينما أتم مقالة كنت أرسلها بدون تأخير. وكان الشيخ ينظر في هذه المقالات فيجعلها تبلغ المستوى العالي، ويشجّعني في رسائله إليّ. كتب إليّ ذات مرة مخاطبًا إياي بـ "الشيخ القاضي عبد الحفيظ أطهر المباركفوري المتخرج من دار العلوم بديوبند": "مقالاتك تبلغ المستوى العالي. ولا أطريك مخافة أن تعتبر المجلة أدنى من أن تنشر فيها مقالاتك" فرددت عليه بكل احترام وتكريم: "إني أدرس في مدرسة إحياء العلوم، وأقرأ "الهداية" وما شابهها من الكتب". ثم ارتحلت إلى الجامعة القاسمية وتلمذت عليه، وكانت مقالاتي تنشر في مجلة "قائد" مادامت المجلة تصدر. ذات مرة سألت الشيخ المرحوم كتاب الخراج للإمام أبي يوسف فأعطانيه الشيخ ملاطفًا عليّ

فغلّفه بكاغذ جيّد، وكتبت اسم الكتاب وصاحبه بالأحرف الضخمة الجميلة. فلما رجعت الكتاب إليه أخذه وقال: ظننت أنك ألّفت هذا الكتاب، فقلت له أن يدعو الله لي. فلما نشر كتابي "رجال السند والهند"، وأرسلته إلى الشيخ المرحوم كتبت مشيرًا إلى ذلك الحادث في زمن الدراسة: "هذه بركة دعائكم وفضل عنايتكم أني حرّيت أن أوّلف الكتاب". والواقع أن الشيخ المرحوم هو أول من أحسن إليّ، وربّاني في هذا الأمر. فإن لم يلتفت إليّ، ولم ينشر مقالاتي في مجلته عسى أن لم أكن قادرًا على التأليف والكتابة، ولذهبت مواهبى الفطرية ضحايا أوضاعي غير الملائمة.

وبعدما نشرت مقالاتي وقصائدي قدّم ذوقي للتأليف والتحقيق خطوة أخرى جريئة وعازمة جنبًا بجنب الشعر والكتابة، فقمت بتأليف خمسة كتب زمن دراستي؛ اثنان منها بالعربية والثلاثة الباقية بالأردوية. وهي كما يلي:

1. قمت بشرح قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير بالعربية، وسمّيتها بـ "خير الزاد في شرح بانت سعاد". وهو في 20 صفحة ذات حجم كبير. يستهل الشرح بمقدمة بالعربية في ثلاث صفحات ذكرت فيها أخبار كعب بن زهير، وسبب القصيدة، وتقطيع الأبيات. هذا الشرح موجود لديّ حتى الآن، واعتبره خطوة أولى لي في مجال التأليف.
2. جمعت أخبار وأحداث العلماء السلف وأئمة العلم والفن تحت عناوين مختلفة أخذًا من وفيات الأعيان وتذكرة الحفاظ وفهرست ابن النديم، وأعددت رسالة بالعربية باسم "مرآة العلم" في 54 صفحة بحجم متوسط. تنتهي هذه الرسالة على أبيات عن العلم وأصحابه في ست صفحات. توجد هذه الرسالة لديّ كذلك.
3. بدأت سلسلة المقالات بعنوان "أئمة أربعة" (الأئمة الأربعة) في مجلة "قائد"، وبدأت هذا التحقيق أخذًا من وفيات الأعيان وتذكرة الحفاظ وتهذيب التهذيب وفهرست ابن النديم طبقًا لمستوى ذلك الوقت؛ فأولًا أخذت المجلد العاشر من تهذيب التهذيب من مكتبة الشيخ عبد الرحمن المباركوري وانتفعت منه. انتهت هذه السلسلة على الإمام مالك لأسباب لا يعني هذا الموضوع ذكرها، ثم ربّتها في صورة كتاب بعد أيام. وهي كانت تشتمل على سير موجزة للأئمة الأربعة. ونسخها مركز

تنظيم أهل سنت بلاهور حينما كنت مقيماً بلاهور لأجل النشر في حين انقسمت البلاد الهندية في 1947م، وكنت في وطني. فبلغتني النسخة لإصلاحها. فقامت بالتصحيح، ورجعتها إلى عنوانها، ولكني لم أعرف ماذا حدث بعدها. وقد أقيمت نسخة منها. ولما ذهبت إلى مومبائ في 1368هـ، وزرت شركة سلطان بهندي بازار فأعطيتها النسخة الثانية، ولكن مالکها قد هاجر إلى باكستان الشرقية (بنغلاديش حالياً) بعد أيام. فلم أعرف مصيرها إلى اليوم. كانت هذه المجموعة جامعة للسیر، ولو أنها كانت موجزة في مئة وخمس وعشرين صفحة تقريباً.

4. اخترت أخبار وأحداث الصحابييات (رضي الله عنهن) الممتعة والمفيدة من الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة، ورتبت كتاباً باسم "الصالحات"، وأعطيتها لملك دين محمد وأولاده تجار الكتب بالسوق الكشميرية (بلاهور). فلا علمت عن نهاية الكتاب، ولا امتلكت نسخة أخرى له.

5. وفي الفترة نفسها أعددت كتاباً منظوماً باسم "أصحاب صفه" (أصحاب الصفة) مشتملاً على 225 بيت، وكان الأسلوب مولهاً مليئاً بالتكريم والاحترام؛ فقد جمع فيه أسماء وأخبار أصحاب الصفة على طراز "شاهنامه إسلام"¹ ولما رآها الشيخ السيد فخر الدين أحمد أعجب به، وأصلح في مكان منه، ثم أرسله الشيخ سيد محمد ميان إلى الشيخ إعزاز علي لإعادة النظر فيه. فقام الشيخ إعزاز بإصلاحه، ورجع الكتاب إليّ. ولما رجعت إلى الوطن ترجمت بعض الكتب لشركة شباب بمومبائ (أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتی) لنفس السنة (1359هـ)، وكذا أعطيتها "أصحاب صفه"، ولكنه لم ير النور، ولا أجد نسخته لديّ. ولقد تأسفت عليه شديداً. فقد كان عملاً جيداً للغاية.

نماذج بدائية للمقالة والشعر: وقد سلف أني جعلت أكتب شيئاً ما منذ تعلّمي اللغة الأردوية. ولما بدأت أتعلّم العربية ازدادت رغبتني هذه. وفي تلك الفترة جاء الشيخ محمود

¹ "شاهنامه إسلام" ملحمة الإسلام لصاحبها حفيظ الجالندهري (ت 1912م) وهي باللغة الأردوية وكتبها الشاعر على طراز "شاهنامه" لفردوسي الشاعر الفارسي الشهير.

الحسن مدير تحرير "مومن" الصادرة عن بدايون جاء مباركبور لتوسيع نطاق الاشتراك لمجلته، فلم أزل ألقاه وأكرّر زيارته. فلما شهد رغبتى قال لي أن أكتب المقالات واعدًا بأنه سينشرها، فشجّعني قوله هذا، وتعجّلت بإعداد مقالتي وإرسالهما إليه. إحدى هاتين المقالتين كانت تعنون "مساوات" وهي نشرت في عدد ديسمبر 1934م (1353هـ). كانت هذه أول مقالتي فكتبت فيها:

"تحقيق المساواة بطريقة عادلة بين البشر ضروري إلى حد لا يمكن تنظيم دولة بدونها، ولن تزدهر بغيرها أمة من أمم العالم. فالدين أو القانون الذي يفرغ من المساواة يكون غير تام إلى حد بعيد، وهكذا الجماعة أو المجتمع الذي يفشل في تحقيق العدالة التامة بين أعضائه يجب فناؤه من صفحات العالم اليوم أو غدًا. فالشيء الذي يسيّر كل نظام أو مجتمع هو المساواة حقًا. ولا نجد اليوم قومًا من أقوام العالم أو دينًا من أديانه لا يدعي بتحقيق المساواة، إلا أنه لما يقوم رجل عادل بامتحانه وتفحصه فلا ينجح في هذا الامتحان سوى دين الإسلام، وهذا هو الواقع أن الإسلام قد أقام المساواة في هذا العالم في حين كان العالم كله محاطًا به من حبّ الظهور والإعجاب بالنفس. يشهر أن الإسلام قد جاء لكي يمحو الوثنية من العالم، ولا شك أنه قد محا عبادة الأوثان المصنوعة من العالم، ولكنه كذلك محا أوثان الكبرياء. فالعرب الذين كانوا غارقين في الافتخار بالشرف العرقي والقبلي كما كانوا يعبدون الأوثان والأصنام التي صنعتها أيديهم ذاتها، وكانوا يظلمون الضعفاء والبائسين فلما جاء الإسلام أزال هذه اللعنة من وجوه العرب، وأنعم على الفقراء، واعتنى بالموالي، الأمر الذي أوجد في العرب قوة اجتماعية سيطروا بها على العالم كله في وقت قليل للغاية، وأصبح الإسلام دينًا عالميًا في مدة غير طويلة. هذه حقيقة تاريخية لن تنكر عن انتشار الإسلام وإذاعته، ولكنكم إذا تفكّرتُم قليلًا اتضح لكم أن المساواة هي التي لعبت دورًا رياديًا في ازدهار المسلمين المغتبط، ولذا فلم يغفل عنها الإسلام في حال من الأحوال في عصر من عصوره. ونجد الكتب الإسلامية في عصرنا مليئة بهذه الفكرة الأساسية الطاهرة، وأن كل بند من بنوده، وحكم من أحكامه توجد فيه المساواة التامة فلا تجد شعبة من شعبه أو قسمًا من أقسامه إلا وقد اعتنى فيه بهذا الجانب المهمّ."

ومنذ دراستي للغة الأردوية نما فيّ ذوق الشعر وكنت آنذاك ابن 13 سنة أو أكثر، ولم أتلّمذ لشاعر ما في مجال الشعر كعادتني في الكتابة فهداني ذوقي في هذا المجال كذلك، وتقدمت واثقاً بنفسني فخضت فيه خوضاً وكانت المشاغل مثل قراءة الكتب غير الدراسية بجانب قراءة الكتب الدراسية، وكتابة المقالات وقرض الشعر تجري جنباً بجنب. وزدّ عليها أعمال وخدمات البيت فكنت أقرض منظومات ملّية وقومية وسياسية ودينية في جلساتها كل يوم. وفي تلك الفترة عزموا على التبرع العام للمسجد الجامع الجاري بناؤه، وكان الناس متحمسين للغاية. فكنت أقرض حتى خمس منظومات في يوم واحد فقد بلغت من الشعر غاية الهيام والجنون، وكانت الأبيات تتدفّق من داخلي تدفّق الماء من العين؛ وفي بعض الأحيان كان الجمهور يحيط بي، ويطلب مني قرض المنظومة عفو الخاطر، لأنهم قد عزموا على زيارة أحد المخيّرين. فكنت أسرع لهم القريض، وكانوا ينشدونها فكان الروبيات تنزل نزول المطر من السماء. وكان الشيخ شكر الله يشجّعني أمام الجماهير ويطريني. فذات مرة أرسلني إلى حكيم في دكانه، فأعطاني الحكيم معجوناً يقوّي ذهني وذاكرتي. فعدت به إلى الشيخ، فأوصاني بتناوله في الصباح وفي المساء، وبأن لي أنه يزيدني قوة في الحافظة. فقلت له إني لا أشعر بضعف في قوة حفظي، فرجعت إليه. وفي تلك الفترة نشرت بعض غزلياتي ومنظوماتي، فأول منظومتي نشرت هي "مسلم كي دعا" (دعاء المسلم) في مجلة "الفرقان" (عدد جمادى الثانية 1357هـ).

ولقد قرضت منظومات لا تحصى عن التبرع لبناء المسجد الجامع فجمعت كلها بعنون "أذان كعبه" فلنقرأ بعض أبيات منظومة من هذا النوع:

نظر جب (جب) ¹ اٹھائی جا رہی ہے

جھلک کعبہ کی پائی جا رہی ہے ²

¹ زدتها من عندي لاستقامة الوزن

² ترجمة: كلما نرفع أنظارنا نجد لمحة عن الكعبة

نظر میں نور پیدا ہو رہا ہے یہ دل شاد تمنا ہو رہا ہے
زمین پر عام چرچا ہو رہا ہے فلک پر شور برپا ہو رہا ہے
کوئی مسجد بنائی جا رہی ہے¹

بناؤ جامع مسجد بناؤ بڑھاؤ دین کی شوکت بڑھاؤ
کماؤ دولت عقبی کماؤ بلاؤ روح حاتم کو بلاؤ
یہاں ہمت دکھائی جا رہی ہے²

مسلمان! سن ذرا گوش صفا سے مسلمان! کام لے جود و سخا سے
مسلمان! جوڑ رشتہ مصطفیٰ سے مسلمان! تیرے مذہب سے خدا سے
محبت آزمائی جا رہی ہے³

تعالیٰ اللہ یہ پر نور مسجد حقیقت میں ہے رشک حور مسجد
ہے نگہ خاص کی منظور مسجد سدا اطہر! رہے معمور مسجد
بہت بہتر بنائی جا رہی ہے⁴

¹ ترجمة: وأن البصر يجد نورًا جديدًا، وأن القلب يفرح بما قد تمتّى، وأن الأرض يعلن فيها، وأن السماء تضحّ بأن مسجدًا يتم بناؤه.

² ترجمة: قوموا ببناء المسجد الجامع قوموا، وزيدوا شوكة الدين زيدوا، واكتسبوا بثروة الآخرة اكتسبوا، وفاخروا روح حاتم فاخروا فالناس كلهم يتجروا.

³ ترجمة: أيها المسلمون! أنصتوا لما تقول صفا، وقوموا بالجود والسخاء، واتصلوا برباط المصطفى، ورباط الدين والله فهذا امتحان محبتكم.

⁴ ترجمة: تعالیٰ اللہ، هذا مسجد فيه نور، ولا شك أنه مما تغتبط به الحور، وأنه بني بعناية خاصة، عمّر الله هذا المسجد للأبد، إنه يبني جميلًا وجذابًا.

ولقد كتب ابن رشيق في باب "من رفعه الشعر ومن وضعه" لكتابه "كتاب العمدة" عن شعراء علا ذكرهم أو أخل بسبب شعرهم، فقد أعان شعري الفطري في رفع ذكرى كثيرًا؛ فكانت منظوماتي وقصائدي تنشر بكثرة في جريدة "زمزم" بـلاهور وجريدة "مسلمان" (كوثر فيما بعد)، واشتهرت كشاعر إسلامي. وهذه هي السمعة التي بلغتني مركز أهل سنت بأمرتسر، وجريدة "زمزم" بـلاهور، وهذه هي التي تسببت في وصولي إلى ممبائ. وهكذا فقد أفادتني شاعريتي كثيرًا، ولكن اليوم لا علاقة لي بها. فلا أدري هل بنتها أو دلتني هي على طريق سوي ثم غادرتني.

والقريض في العادة لا يفيد الدارس خلال فترة الدراسة، ولكنه لو مارسه الدارس بأسلوب متزن مقتصد لاستحسن وأفاد فإنه يصقل الذهن والفكر.

دراسة الأدب العربي: ولقد تعلّمت العربية على أساتذة منحدرين من أربع قصبات في مدرسة لها منهاج دراسي قديم من مقرراتها اللغة العربية وآدابها. وتدرس في مثل هذه المدارس الكتب القديمة للشعر والأدب بطريقة قديمة، لأن لغة الكتاب والسنة هي اللغة العربية القديمة. والمدارس العربية في الهند تهدف إلى تعليم الكتاب والسنة مباشرة بالعربية، ولكن هذا المنهاج الدراسي قد خلق كتابًا كبيرًا في الهند تعتبر مؤلفاتهم ذات مستوى عالٍ نظرًا لحواشيها وشروحها لكتب العربية وآدابها.

ذوق للعربية نتيجة القراءة لمقامات الحريري وديوان الحماسة وديوان المتنبي والسبع المعلقة ودراسة كتب اللغة والأدب. ففي 1355هـ كتبت شرحًا عربيًا لقصيدة "بانة سعاد" فكتبت مقدمتها كما يلي:

"الحمد لله الذي أسبغ علينا من النعم، وجعل في لسان العرب من اللطائف والحكم. والصلاة والسلام على حبيبه نبينا المكرم المبعوث إلى كافة الأمم. وعلى آله وأصحابه الذين هم مصابيح الظلم. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلّم. أما بعد فيقول العبد الأحقر القاضي عبد الحفيظ محمد أظهر المباركفوري إني أردت أن أشرح قصيدة "بانة سعاد" التي طارت شهرتها في أطراف العالم والأبعاد لكعب بن زهير بن أبي سلمى رضي الله عنه ووفقني الله في منتصف شوال المكرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بعد الألف فشرحتها

كيفما قدرت طاوياً كشح القيل والقال لئلا يوجب الملل والاختصار لئلا يكون سبباً للكلال، وسمّيته "خير الزاد في شرح بانث سعاد". وهذا أول جولان يراعي في ميدان القرطاس وأنا غمر جاهل من مثل هذا الشأن فإنه ما اغبرّ مذنيطت عني التمائم ونيطت بي العمائم إلا برهة من الزمان وأنا معترف بعجزني وألتمس من السادة الكرام، أن يصفحوا عن زلاتي ويعرضوا عن أن يأخذوني عرضة للملامة. والمسؤول من الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ومنه التوفيق والعصمة ومنه الاستعانة في كل أمر".

الميول الطبيعية: ولعل فترتي الدراسية كلها مضت في عسر وبؤس فقد فضّلت القناعة والبساطة في الطعام واللباس، فلم يكن رخاء العيش ورغدته، في تلك الأيام، كما نجده اليوم؛ فقد كان الناس عادة متعودين على الخشونة والبساطة في الشؤون الاجتماعية، فلم يكونوا يشعرون بالبؤس والعسر، بل كانوا كلهم مقتنعين بما هم فيه وراضين عما وقّقوا له، كما كانت حياتهم هذه ذات خير وبركة. وأما أنا فقد كنت أوقّر ما أحتاج إليه حسب ذوقي وميلي، ولم أشعر في وقت من الأوقات بأنني أدنى منزلة.

فقد كنت ألبس، عادة، القميص والإزار الأبيضين المصنوعين من القماش الخشن الغليظ، ولم أكن ألبس الشيرواني إلا قليلاً، ولكني كنت أأاري القميص بالصدرية. وأما الكوفية فكانت مثل القارب مصنوعة من قماش غالٍ. وكانت أحذي ثمينة بالمقارنة لذلك العصر، وكنت أحمل قارورة العطر في جيبى دائماً، وكنت أغسل الملابس بيدي. ولم أترك هذه العادة حتى الآن، ولكني أشعر بأن هذه الغاية من البساطة لا تستحسن، بل تضر في بعض الأحيان وتنبئ عن البخل وتسبب الحقارة.

طلاب المدرسة الذين كانوا يأتون عادة من القصية وضواحيها من القرى المجاورة كانوا يجتمعون لدى مصلى العيد بعد العصر، وهو مكان واسع في شماله غدير كبير لسمُودي¹ (Samūdi) وفي الجزء الخلفي سلسلة أشجار النيم وفي جنوبه ميدان لا حدّ له وفي ضواحيه زرع أخضر يخلب اللب. كان هذا كله يقدّم مشهداً جذاباً ساحراً كأن

¹ اسم غدير أصله الشيخ محمود فبدلت الشين بالسين وحذفت "خ+مح" في العامية وزيدت الياء للنسبة

"كنار آب ركن آباد" و"گلگشت مصلى" المذكورين في غزلية حافظ الشيرازي¹ قد قدّما هنا وفي نفس هذه الفترة كتبت منظومة بعنوان "برسات كي چاندني رات" (الليلة المقمرة في موسم المطر) جاء فيها الشعر التالي:

دور کچھ یاں سے سمودی کے کنارے آم پر اک پیچھا دے رہا تھا جاں پیا کے نام پر

ترجمة: كانت زلماء تنتحر لأجل حبيبها البعيد من هنا، وهي على شجرة للمانجو على ساحل من سواحل سمودي.

وبعد صلاة العشاء كنت أنشغل بقراءة الكتب الدراسية التي كانت أربعة في العادة، وكنت أحاول أن أحلّ بالليل ما استصعب من الدروس التي سوف يتم تدريسها في اليوم القادم، ثم كنت أخوض في قراءة الكتب غير الدراسية وكتابة المقالات وقرض الأبيات. وعندما كنت أفرغ منها أقصد السرير من حيث لا أغفل عن قراءة كتاب من الكتب غير الدراسية أو قرض منظومة من المنظومات والقصائد.

وبجانب الأنشطة العلمية والتعليمية فقد بلغ بي علو الهمة والعزيمة والاعتصامية ذروة الكمال، ولكني لم أكن أغفل عن تكريم الكبار واحترامهم غير متجاوز الحدود فيها. ففي بعض الأحيان كان أغنياء القصة وأثرياءهم يدعون الطلاب وشيوخهم فكنت أحتال كيلا أحضرها، وأقتنع بما وقر لي من الخبز الجاف.

ولما ذهبت إلى مراد آباد كنت مضطراً أن أحمل طعامي من بيت من البيوتات. وفعلت هذا لبضعة أيام مختلفاً عن أعين الناس مجبراً نفسي على هذا، ثم أخذت منحة من المدرسة قدرها روبيتان ونصف، وهكذا نجوت من هذا الذل والهوان، وبدأت أتناول الطعام في فندق فوجبة منها كانت تكلفني ست بيسات. ولم أصرف إلا ستين روبية، على

¹ هذه التلميحات أخذت مما يلي من شعر حافظ الشيرازي (ت 792هـ):

بدہ ساقی مئے باقی کہ در جنت نخواہی یافت کنار آب رکن آباد وگلگشت مصلا را

ترجمة: أيها الساقى! ناولني ما بقي من الخمر بساحل "ركن آباد" و"گلگشت مصلا" لأنك لا تجدتها في الجنة.

الأكثر، أخذتها من داري حين إقامتي بمراد آباد. وهكذا فقد فرغت من نيل العلوم والفنون، ولم أصرف إلا قليلاً.

ولقد أفادني كثيرًا في حياتي المستقبلية القناعة والبساطة ومعرفة الذات وقلة الاختلاط بالناس. وهذا من فضلها أني لم أختلط بأهالي مومبائ ولو أني أقمت بها لمدة غير قصيرة، ولقد رددت العديد من الهدايا والمناصب السامية التي قدّموها لي بكل احترام وتقدير، وكرهت التملق ولم تذهب ضحية سحرها وثروتها الطبيعة التي رُبّيت عليها في رحاب المدرسة، والحمد لله على أني قد لزمت حجرة ضيقة في هذه المدينة، وقمت بأعمال لا يقام بها إلا برواتب عالية في معاهد التأليف والتحقيق ومن ثم يكتسب بها.

ما اكتسبت من مؤلفاتي ولا أخذت أجرة على تأليفها ولا قمت بالكتابة لهذا الغرض، بل كل ما كتبت قمت به تحت عاطفة خدمة العلم ونشره ومن ثم أعطيتها للناسين لكي يعمّموا نفعها.

وأول زيارتي لدلهي كانت حين إقامتي بمراد آباد، فوقفت الذهاب إلى ندوة المصنفين، ولقيت مديرها الشيخ المفتي عتيق الرحمن العثماني. وكان يرافقي صاحبي الشيخ عثمان. وفي هذه المرة أيضًا عرّف بي الشيخ عثمان بأسلوب ملؤه المبالغة والإطراء فقال لي المفتي المرحوم أن أكتب المقالات لمجلته "برهان". وقد خطر ببالي توًا أن مقالاتي لا تبلغ مستوى هذه المجلة، ولكن بفضل الله العلي الكبير أن المفتي المرحوم قد نشر ثمانية كتب لي من هذا المجمّع في صورة جيد، والآن جاء دور إدارة التحرير الشرف لمجلته الغراء.

ولقد شغفت حبًا بالكتب التي طبعت على الأحرف الحديدية فكنت أكثر شراءها، وكنت أغتبط بنشر الكتب عليها، وأمل أن تنشر مؤلفاتي فيها ومن ثم كان يطرق بعقلي وذهنّي أني رجل لا ظهير لي ولا ناصر فهذه الأمنية ليست لي سوى أضغاث أحلام، ولكنها أيضًا تحقّقت بفضل الله فقد طبعت ثلاثة كتب لي من كل من مومبائ والقاهرة على هذه الأحرف كما نشرت ترجمة كتابي الأردوين من القاهرة والرياض.

كنت أهتم بالسنن والنوافل كثيرًا في طفولتي، وكانت معظم أحلامي صادقة. وكنت أحبّ بيان أسماء الناس بعد رؤية وجوههم، وكان ظني هذا يصدق تسعين بالمئة إلا أنني لم أخض في الدعاء والتميمة، ولكني كنت أقرأ في هذه الفترة الكتب مثل "أعمال قرآني" و"تعويذ سليمان" و"نقش سليمان" و"حرز سليمان"، وكنت أشهد كرامات أخيلتي وأفكاري فإن واصلت السير على هذا الطريق كان من الممكن أن أصبح صوفيًا زاهدًا معروفًا. وهذا هو السبب في أنني أتذوّق الإحسان والتصوف فكريًا حتى الآن ولو أنني بعيد عنه فعلًا، وأحبّ التصوف الحقيقي، وأكرّم الصوفية الصالحين، وأمتع نفسي كثيرًا بقراءة تراجم وسير المشايخ والرجال الصالحين.

لما نما فيّ ذوق الشعر بالغت فيه حتى جعلت أكتب المنظومات والقصائد في المنام فلو بقيت هذه الحال لأصبحت شاعرًا فحلًا، وأما التعليم والتدريس فقد بدأت سلسلته منذ دراستي، وأردت أن أقضي حياتي فيه، فإن كان جوّ المدرسة صافيًا فهذه حياة هادئة مباركة، ولو قبلني أصحاب المدرسة لأصبحت مدرّسًا ناجحًا، ولكني على الرغم من ذلك واصلت هذه السلسلة بطريقة أو أخرى. إلا أن هذه الميول غلبها طابعُ البحث والتحقيق من حيث أنني مع قضاء حياتي كلها في الشغل الحقيق كالصحافة (سوى الفترة البدائية القصيرة التي قضيتها في مجال التدريس) لم أحبّ أن أصبح صحفيًا أو مراسلًا للصحافة، بل جعلتها سببًا من أسباب المعاش فقط، وشغلت نفسي بالبحث والتحقيق، وأدّيت وحدي ما استطعت أن أودّيه من خدمات العلم والفن.

"مقال في بلاد البنغال" دراسة تحليلية

- د. أرنك زيب الأعظمي¹

مدخل:

لم يزل العرب يزورون الهند منذ زمن سحيق إما لأجل التجارة أو لأخذ الثقافة أو لنشر الدين أو لسبب السياسة. وهذه الدوافع والأسباب تدل دلالة واضحة على أن قامت علاقة وطيدة بين البلدين منذ أن لم يعرف التاريخ مرحلة الضبط والتدوين. وقد قام بعض هذه الزوّار والرحالة بتدوين مذكراتهم أو بحكاية ما شاهدوه من المناظر وما كابدوه من المشاكل، وهذه كلها منشورة في غضون صفحات كتب التاريخ العربي، وأبرزها أخبار الصين والهند وعجائب الهند وفتوح البلدان ورحلة ابن بطوطة وكتاب الهند ولكن هذه كلها قصة الهند القديمة حينما لم ينظر إليها غراب البين والقسمة. فالرحلات التي دوّنت بعد القسمة أيضًا ليس قليلًا عددها وأبرزها رحلة محمد بن ناصر العبودي الذي جال في العالم كله ليطلع على أوضاع المسلمين وأحوالهم من كل جانب فدرس عن كثب أوضاعهم المادية والاجتماعية والدينية. ومن بين بلاد العالم التي زارها محمد العبودي الهند وبنغلاديش وباكستان ونيبال وبورما وكتب عن كل منها كتابًا خاصًا. وأما الهند فقد ألّف عنها كتبًا عديدة لاتساع أرجائها فكتب عن كشمير وكتب عن أوترا براديش وكتب عن غوجرات وبيهار ومدراس إلا أنه ازدوج رحلته لبنغال وبنغلاديش فكتب عن أخبارها وأوضاعها بعنوان "مقال في بلاد البنغال".

موجز عن العبودي: محمد بن ناصر العبودي (1345هـ-1930م) أديب ومؤلف ورحالة سعودي ولد في مدينة بريدة، كان تعليمه دينيًا. شغل العبودي منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي. أتاح له عمله في الرابطة وقبلها في الجامعة

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي،

الإسلامية زيارة معظم أصقاع العالم، فكان لمشاهداته العديدة واطلاعاته أن تثمر أكثر من مئة وستين كتابًا في أدب الرحلات ويكون بهذا قد حقق رقمًا قياسيًا في كتب الرحلات العربية. منح الشيخ محمد ميدالية الاستحقاق في الأدب عام 1394هـ. من أبرز أعماله جولة في جزائر البحر الزنجي، ورحلة إلى جزر مالديف، ورحلة إلى سيلان، وصلة الحديث عن أفريقية، وزيارة لسلطنة برونائ الإسلامية، إطلالة على أستراليا، والأمثال العامة، وسوانح أدبية، والعالم الإسلامية والرابطة، وهذا ما استوحيته من الناس، ومعجم أسر عزيزة، وكتاب الكلمات الدخيلة في لغتنا الدارجة.¹

هدف هذه الرحلة: زار محمد بن ناصر العبودي هذه البلاد لسبب سياسي وديني وذلك لكي يدرس أوضاع المسلمين من جوانب شتى ومنها الاجتماع والمادة والسياسة والدين فيقول في مقدمته:

"وكنيت في زيارة رسمية لجزر المالديف التي عدت منها إلى كولمبو عاصمة سيلان أو (سيرلنكا) كما صارت تسمى الآن، وقد كتبت كتابين عن رحلتي في مالديف وسيلان وكتبت هذا الكتيب عن رحلتي السريعة إلى بلاد البنغال".²

وقال مشيرًا إلى هذه الرحلة:

"وهي رحلة عاجلة لم تستغرق إلا أيامًا معدودة ولذلك لم تكن الكتابة عنها شاملة موسعة".³

وقال مشيرًا إلى احتواء هذه الرحلة على أخبار وأوضاع المسلمين:

"وقد تعودت من قراء العربية الكرام أن يتقبلوا ما أكتبه عن البلدان الإسلامية أو عن الجماعات المسلمة بالإقبال بل والتشجيع، لأن الحديث عن الإسلام والمسلمين أمر يهم الجميع".⁴

¹ الموسوعة الحرة

² مقال في بلاد البنغال لمحمد بن ناصر العبودي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة

الأولى، 1993م، ص 5

³ المصدر نفسه، ص 5

⁴ المصدر نفسه، ص 5

وقال مشيرًا إلى تفقّد أحوال المسلمين اللاجئين إلى بنغلاديش:

"وجدت في مطار كوكس بازار جمهرة من المستقبلين على رأسهم الأستاذ مير قاسم علي مدير مشروع الإغاثة الذي تقوم به رابطة العالم الإسلامي في مكة لإخواننا اللاجئين المسلمين من بورما، وهو المقصود بزيارتي لهذه المنطقة".¹

وقال كذلك:

"ندارسنا الأوضاع العامة في هذه البلاد بصفة عامة والأوضاع الإسلامية بصفة خاصة".²

بدأ محمد العبودي زيارة كولكاتا من الثاني عشر لشهر ديسمبر سنة 1978م³ وغادرها في اليوم الثالث عشر لنفس الشهر⁴ فأقام بها ليومين ثم غادرها لزيارة بنغلاديش وأقام بها لثلاثة أيام.⁵

نظرة سارحة على محتويات هذه الرحلة: هذه الرحلة تحتوي على 111 صفحة. تبتدئ الرحلة من الصفحة الخامسة التي تشتمل على مقدمة ذكر فيها الدافع على رحلته إلى هذه البلاد كما أشار إلى أشياء أخرى تتعلق بها. ثم يأتي عنوان "مرور بالهند" على الصفحة الثامنة. وأما الصفحة التاسعة فهي تحوي خريطة الهند وذكر موقع البنغال فيها وذكر سفره من كولمبو إلى مدراس في الصفحات 10-18 ثم ذكر ركوبه للطائرة وما مارسه من الأمور والتجارب. تبتدئ قصة كولكاتا من الصفحة العشرين وتنتهي هذه القصة على الصفحة التاسعة والثلاثين؛ فذكر فيها إقامته بها ومعاملته أهاليها معه كما وصف رجالها ونسائها وأوضاعها السيئة وذكر تجارتها ومواصلاتها ووضعها القديم البالي. ثم يأتي عنوان "إلى بنجلاديش" وتبتدئ قصتها من الصفحة

¹ المصدر نفسه، ص 86

² المصدر نفسه، ص 53

³ المصدر نفسه، ص 22

⁴ المصدر نفسه، ص 36

⁵ المصدر نفسه، ص 53

الثالثة والأربعين؛ فذكر مقدمة وجيزة كما ذكر تاريخها آخذًا من كتاب "الهند في العهد الإسلامي" للسيد عبد الحي الحسني ومن خلال حديثه عن بنغلاديش ذكر مطار داكا وجولته في مدينة داكا فذكر مساحتها ورجالها ونسائها وملابسهم وبعثة المساجد وقرية كتوبارا وحي المسلمين الفقراء وبيت المكرم وشيتاكونج ومطارها وكوكس بازار وضواحيها ومعسكر دوها وابالن وسبب نزوح البورماويين إلى بنغلاديش ويوم النصر وقرية رامو وقرية شرنقا وسوق دوها بازاري. هذه القصة تنتهي على الصفحة الثمانية بعد المئة ثم يأتي فهرس المحتويات من الصفحة التاسعة بعد المئة حتى الصفحة الحادية عشرة بعد المئة. ومن خلال جولته القصيرة تحدّث العبودي عن رجالها ونسائها وبيوتهم ومعاملاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والدينية والسياسية وزيارة المطاعم والفنادق ووضعها السيء ومنتجات بنغلاديش وفقرها في الصناعة وما شابهها من الأمور والأوصاف التي سأذكر الكثير منها في هذه المقالة تحت عناوين مختلفة.

المقارنة: وخلال حديثه قام محمد بن ناصر العبودي بالمقارنة بين بلاده وبلاد الهند، وبين كولكاتا وبنغلاديش، وبين الشرق والغرب فتودّ فيما يلي أن نشير إلى بعض مباحث هذه المقارنة:

يقارن بين شوارع الهند وبنغلاديش فيقول:

"أما الطرق التي مررنا بها فإنها جيدة جدًا بالنسبة إلى الطرق الموجودة في الضواحي الهندية للمدن الرئيسية ولا يفضلها إلا أجزاء معينة في مدينة دلهي العاصمة وسوف نلاحظ أن الأحياء الحديثة من مدينة داكا العاصمة أحسن من الأحياء الحديثة في المدن الهندية".¹

ويقارن بين مواصلات الهند وبنغلاديش كما يلي:

"أما العربات التي يسحبها الرجل بالركاب على قدميه فلا توجد أصلًا هنا كما لاحظت أيضًا هنا على ندرة استعمال عربات الثيران لحمل الأثقال كما هي مستعملة في الهند".²

¹ المصدر نفسه، ص 53

² المصدر نفسه، ص 58

ويقارن بين قرى الهند وبنغلاديش فيما يلي:

"القرى هنا حتى الآن في المسافة التي نسير فيها ليست متشابكة كما هي في الهند وذلك لا يعني أن العمارة ليست متصلة بل هي كذلك ولكن التجمعات السكانية ليست متصلة".¹

ويقارن بين البنغال وبنغلاديش كما يلي:

"وقد بهرني في هذه المدينة الإسلامية مستوى النظافة العامة فيها والذوق العالي في تخطيط شوارعها وتنسيق حدائقها، والمباني الحديثة البهيجة المنظر التي لا يكاد يوجد لها مثيل في كثير من المدن الهندية، وبخاصة إذا قورنت بمدينة كلكتا التي هي من البنغال الذي ينتمي إليه أهل هذه البلاد من حيث الجنس واللغة إلا أنهم يبتعدون عن أولئك من حيث الدين وحتى من المظهر فهؤلاء المسلمون أنظف ثيابًا وأصحّ أبدانًا، وأكثر نضارة حتى إنك تستطيع أن تقول فيهم بالنسبة إلى بنغال كلكتا ما تقوله في بنغال كلكتا بالنسبة إلى باقي الهند وهو أنهم منهم ولكن هناك فروقًا بينهم وبينهم لا تخرجهم عن أن يكونوا منهم".²

ويقول في مكان آخر:

"وانطلق السائق بعربته وسط شارع عريض جميل، وبين مارة هم ومن في المطار إذا قارنهم بمن يفترض أنهم من جنسهم من البنغاليين في كلكتا رأيت هؤلاء أنظف ثيابًا، وأبدانًا، وأكثر صحة، وأندى أجسامًا، وهذا الشارع لا يوجد له نظير في كلكتا من حيث النظافة والتنسيق والذوق الفني".³

ويقارن بين طهارة بصر الرجل الهندي مقابل الرجل العربي:

"--- حتى أن المرأة الأجنبية التي تخالف المرأة الهندية في كل شيء تقريبًا فإن الرجل الهندي لا يلتفت إليها، ولا يتبعها بصره كما يفعل العربي مثلًا ولا تراه يلتفت إلى زميله

¹ المصدر نفسه، ص 100

² المصدر نفسه، ص 55

³ المصدر نفسه، ص 50

أو رفيقه يلفت نظره إليها فضلاً عن أن يتابعها بالمشي أو يطري جمالها بشيء يعبر به عن إعجابه كالصغير مثلاً¹.

ويقارن بينها وبين البلاد العربية بالنسبة لتغلبهم بالحضارة الأجنبية الحديثة:

"وهذا من أعجب العجب أن يحافظ هؤلاء الإخوة، أو قل: أن يستطيعوا أن يحافظوا على هذا القدر من عدم خروج النساء من المنازل في الوقت الذي كانوا فيه تحت الاستعمار الإنكليزي ثم في الوقت الذي كانوا فيه مشتركين في الحكم مع باكستان التي لا تمنع خروج النساء إلى العمل والشوارع فيها. على حين أن أهل بعض البلاد العربية قد أخذوا يتسابقون إلى تقليد الغرب تسابقاً حتى وصلوا إلى مضماره في هذا المجال وربما فاقه بعضهم فيما يضرّ ولم يلحق به فيما ينفع البلاد ولكن في الانطلاق والسفور لا يقصرون عنهن باعاً"².

ويقول بعد ذكر راتب أساتذة مدرسة بنغال الضئيل:

"إن ذلك مبلغ زهيد ولو رأى فقراؤنا من أهل البلدان العربية حالة هؤلاء الإخوة وعلموا بها لاستطاعوا أن يتبرعوا بما يكفيهم فكيف بالأغنياء"³.

العبودي يثني على الأخلاق والخدمات: وبما أن هذه البلاد ينذر فيها وجود الأخلاق الحسنة والخدمات الجيدة فقد أثنى الزائر حيث وجدها فمثلاً يثني على محاسن أخلاق ومعاملات سائقي السيارات:

"ويلاحظ المرء أن سائقي سيارات الأجرة في هذه البلاد والعاملين الآخرين على وجه العموم يتمتعون بأخلاق عالية، ومعاملة حسنة للراكب والمتعامل معهم رغم ما توجي به مظاهرهم وهندامهم ورغم انخفاض معيشتهم ---"⁴.

¹ المصدر نفسه، ص 34

² المصدر نفسه، ص 61

³ المصدر نفسه، ص 76

⁴ المصدر نفسه، ص 16

ويثني على خادم وفيّ وجده:

"--- وكان فرحي غامراً حين أعطاني بطاقة الدخول لأن ذلك سوف ينجيني من ضياع يوم على الأقل أنا في أشد الحاجة إليه، وإذا بالحمال الوفي لا يزال واقفاً رغم طول الوقت يضع حقيقتي في الميزان ثم يذهب ليدلّني على قاعة الانتظار الخارجية فأعطيته من الحلوان (البقشيش) ما أرضاه".¹

ولعل العبودي لم ينظر إلى التزام الخادم حتى يأخذ الحلوان، وهذه من عادات خدام البنغاليين أنهم لا يزالون يلتزمون بك حتى تعطيهم شيئاً ثم يتعدون عنك ولقد مارست هذه العادة منهم كثيراً حينما كنت في البنغال فربما احتجت إلى نهرهم وطردهم غير مرة.

ويثني على أدب أهل كولكاتا للغير وهدوءهم:

"ومع ذلك فإنني رأيت عندهم هدوءاً في الركوب وأدباً للغير عند المرور والنزول قلّ أن يوجد له نظير في البلاد العربية".²

ويثني على خدمة المضيفات وهذه من عادات المضيفات أنهن يخدمن إلى حد النهاية:

"أما المضيفات أنفسهن فإنهن من الهنديات ولكنهن كلهن هذه المرة من الشمال يظهر ذلك من سحنهن ومن بياض بشرتهن إلا أن أشكالهن غريبة حقاً فهن بين الجنس المغولي والجنس الهندي والظاهر أنهن من سكّان جبال الهمالايا، أو ما قرب من تلك الجهة، وخدمتهن جيدة، وهن يجاملن الركاب ويصبرن على تلبية حاجاتهم الكثيرة من الماء والوسائد والاستفسارات".³

والسفور عامّ في الهند ولاسيما في المدن فترى الفتيات الهنديات سواء كنّ مسلمات أو غير مسلمات لا يعتنين بالتحجب بينما قد أمرهن نبيهن ﷺ بهذا ولكن من لي تمتثل بأمر الرسول ﷺ. يقول العبودي وهو يثني على أدب الفتاة المسفرة:

¹ المصدر نفسه، ص 17

² المصدر نفسه، ص 18

³ المصدر نفسه، ص 20

"وفي شوارع هذه المدينة الهندية الكبرى وفي شوارع غيرها من المدن الهندية وفي ميادين تلك المدن ومحلاتها العامة كالفنادق والمطاعم يرى الغريب المرأة الهندية سافرة الوجه بل ظاهرة الظهر والبطن ولكنه لا يرى أبدًا مناظر معاكسات أو مغازلات أو أشياء في الشارع يخجل منها المرء، أو يندى جبينه، فالرجل لا يفعل ذلك مع المرأة والمرأة لا تفعله مع الرجل حتى مع الرجل الغريب فإنها تمضي في سبيلها وإذا لفت نظرها الغريب فإنها تنظر إليه كما تنظر إلى شيء غريب آخر أو هكذا تظهر للناس فلا فرق في نظرها- في الظاهر- بين نظرتها إلى الرجل حتى وإن أعجبها مظهره وبين نظرتها إلى الطفل أو حتى إلى السيارة وذلك لأن تربيته قد فرضت عليها ذلك وهي وأهل بلدها قد اختاروا هذه التربية أو اختيرت لهم من أسلافهم فساروا عليها".¹

وحتى يثني على الرقص الهندي الذي يتسم بأشياء نفقدها في الرقص الآخر:

"--- فالرقص الهندي مشهور عندنا بأنه لا يقصد منه الإغراء أو إظهار مفاتن الجسم، كما هو معروف عندنا عن رقص النساء، وقد تبين بعد ذلك أن ما سمعناه صحيح".²

المجتمع البنغالي: المجتمع البنغالي مجتمع مختلف عن مجتمعاتنا في أشياء ولذلك نقول في معظم الأحيان إنه مسلم بنغالي أو هندوسي بنغالي وهذا يعني أن لهم بدعات محدثات تبينها عن غيرهم من أهالي الهند ولقد فصل العبودي هذا المجتمع ولو أنه لم يذكر كل ما نحتاج إليه فنشير إلى ما أشار إليه ونملاً الفراغ من عندنا فإنني قد مارست هذا المجتمع لخمس سنوات:

يكتب العبودي ويسوي بين أهل كولكاتا وأهل بنغلاديش وذلك لأنهم من جنس واحد وأن كلتا المنطقتين كانتا واحدة قبل قسمة البلاد:

"--- وبذلك تكون الحركة كلها داخل منطقة واحدة هي المنطقة البنغالية من الهند القديمة غير أن أغلبية السكان في البنغال الشرقي الذي أصبح يسمى الآن

¹ المصدر نفسه، ص 33

² المصدر نفسه، ص 35

"بنجلاديش" تدين بدين الإسلام ولذلك صار جزءًا من باكستان بعد تقسيم الهند إلا أن سوء الإدارة الباكستانية وغلبة الثقافة الهندوكية البنغالية ---¹.

وهذا هو الحق أن أهالي كلتا المنطقتين هندوس ثقافة أكثر من أنهم مسلمون متحلون بالثقافة الإسلامية، ولقد مارسهم فلم أجد إلا قليلاً نادراً ممن يعرف كيف يقرء السلام حتى كلما لقيتهم وذكرت لهم اسمي سألوني: هل أنت مسلم؟

ومن تشابههم واتحادهم في الموضوع أنهم يفتخرون بثقافتهم البنغالية ولغتهم ويفضّلونها على غيرهما فكثيراً ما قلت لهم إن هذه ليست إسلامية فقالوا إنها ثقافتنا البنغالية. وأما عصبيتهم للغتهم فقد ذكرت لي بعض النساء المسنات في بنجلاديش والتي كانت حاضرة القسمة إن بلادنا انفصلت عن باكستان لأنها اضطرتنا إلى تعلّم اللغة الأردوية وثقافتها. يقول العبودي:

"--- إلا أن سوء الإدارة الباكستانية وغلبة الثقافة الهندوكية البنغالية التي من أهمها كون اللغة البنغالية هي السائدة في تلك المنطقة واستغلال الأهالي الذين خدعوا بالوطنية البنغالية، وقيام الهند الحاقدة على الإسلام، والمعادية لباكستان وتأييد القوة الخارجية بل اجتماع القوتين الخارجيتين العظيمتين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي على تأييد الهند ضد باكستان كل ذلك جعل الجزء الغالي من الوطن الباكستاني أو قل من الوطن الإسلامي الكبير في القارة الهندية ينفصل عن شقيقه باكستان الغربية ويقلب اسمه إلى الاسم الهندي القديم: بلاد البنغال".²

ويقول كذلك:

"--- هم (البنغاليون) يعانون نقصاً في كل شيء إلا شيئاً واحداً هو عنجهية الوطنية البنغالية مع أنهم مسلمون ومتى كان الإسلام معترفاً بالوطنية الضيقة؟"³

¹ المصدر نفسه، ص 48

² المصدر نفسه، ص 48

³ المصدر نفسه، ص 99

وأما عصبيتهم للغتهم البنغالية فلنقرء قول العبودي التالي:

"--- ولكن يلفت النظر أن اللغة التي تكاد تكون هنا وحيدة هي اللغة البنغالية بحروفها السنسكريتية غير المتناسقة فيما يظهر للناظر الغريب --- ولم تستطع اللغة الهندية الوطنية وهي مأخوذة من السنسكريتية القديمة أن تحل محلها إلا على نطاق محدود وفي ولايات محدودة".¹

ويقول في موضع آخر:

"وقد رأيت لافتات مكتوبة على أوراق وخرق بيض في المسجد معلقة فيه ولكنها كلها بالبنغالية".²

ويقول حينما وجد مدرسة كتب عليها بالعربية:

"كانت المكان الوحيد فيما شاهدناه الذي عليه حرف بالعربية إذ كتبت عليها عبارة (المدرسة الهاشمية) باللغة العربية وباقي اللافتة بالبنغالية إلا أننا عندما دخلناها وجدناها مركزاً من مراكز تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي ---".³

ولنقرء ما يلي كذلك:

"هذه حالة هذا الطريق الطويل الممل في هذه المنطقة الموغلة في أدغال بلاد البنغال التي لا أثر ولا وجود فيها لغير اللغة البنغالية فلا تعرف منها شيئاً ولا أثر ولا وجود فيها لغير الجنس البنغالي المسلم فلا ترى وجهاً لأدمي من جنس آخر".⁴

ولو سمّيناه إرهاب البنغالية وثقافتها لما جانبنا الصواب.

وبعد الحديث عن عصبيتهم الثقافية واللغوية يبيّن الكاتب عن لونهم فيقول:

¹ المصدر نفسه، ص 56

² المصدر نفسه، ص 74

³ المصدر نفسه، ص 96

⁴ المصدر نفسه، ص 99

"أخذت أتأمل سحنات الوجوه، وأبصر حركات الناس فإذا بهم وكأنهم جنس آخر من الناس إلا أنهم لم يخرجوا بذلك عن دائرة الجنس الهندي وهذا من عجائب الهند ففهم من سحنة الهند وسمرتها كما في سائر أهل الهند".¹

ويمضي قائلاً:

"فأهل كلكتا على وجه العموم سمر ولكنهم ليسوا أكثر أهل الهند سمرة بل هم أقل سمرة من أهل مدراس ---".²

وعلى هذا فلا يجد الرحالة العربي أي جمال فيهم لا جمال خلقي ولا جمال فطري فيقول:

"وبعد هذه الجولة المتعبة التي كان مصدر تعبها من المشي عدم رؤية الأشياء الجميلة لا من أهل البلاد الذين كانوا لعمر الحق مؤدبين مع الغريب ---".³

"والمناظر لا تكاد تختلف خضرة طبيعية ليس فيها أي أثر لمراعاة الجمال بل هي خضرة لم يراع فيها التنسيق ---".⁴

وبعد النظر على الجمال الخلقي والفطري يعود إلى ملابس الرجال والنساء في بنغلاديش فيشير إلى ملابس النساء أولاً ثم يدلّ على ملابس الرجال فيقول:

"--- هنّ قد لبسن لباساً كلباس الباكستانيات قميص طويل يضرب إلى حوالي الركبة وسراويل يصل إلى الكعبين إلا أن سراويلهن ليست واسعة كسراويل الباكستانيات ---".⁵

"ولباس النساء اللاتي رأيتن وهم يعملن في وصفته وأما النساء القليلات اللاتي رأيتن في الشارع فهو اللباس الساتر الطويل الذي يستر البدن كله".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 27

² المصدر نفسه، ص 27

³ المصدر نفسه، ص 31

⁴ المصدر نفسه، ص 102

⁵ المصدر نفسه، ص 60

⁶ المصدر نفسه، ص 61

ويقول عن ملابس الرجال:

"وأما الرجال فإن لباسهم الأغلب الأعم هو الفوطة التي تلفّ حول الخصر حتى تصل إلى الكعبين من الأسفل ومن فوقها قميص عادي".¹

"وفي بعض الأحيان وهذا قليل جدًا يكون اللباس القميص والسرّوال الأفرنجي".²

ثم يرفع البصر فيجد المباني المصنوعة من الحصير والعود إما كان ذا طابق أو طابقين فيقول وهو يصف مسجداً:

"ووصلنا المسجد الآخر في الركن الجنوبي من المعسكر فإذا به أيضاً مثل غيره أشبه بعشة من الحصير والأعواد إلا أنه منسق البنيان وفيه زيادة لاحظتها وهو أنهم قد بنوا سطحه على شكل سنام من الحصير مثل غيره ولكنهم أضافوا سقفاً آخر كما يكون في البلدان المترفة مستعاراً للتجميل فهم هنا وضعوا حصيراً فوق رؤوس المصلين على شكل مستوأي مسطح وهو زائد لا حاجة إليه في الوقاية من المطر".³

ولعل السبب وراء هذا هو سوء حال أهاليها فيصف الرحالة فقر وبؤس أهالي كولكاتا:

"وفي المساء ما بعد العصر إلى قرب العشاء كانت جولة أخرى في مدينة كلكتا الكبيرة - -- فدخلهم المالية منخفضة وأجسامهم ليست ضخمة ومآكلهم ليست كمآكل الآخرين وحاجتهم أو قل ما يتحقق لهم من حاجاتهم هو أقل من غيرهم بقليل ---".⁴

ولهذا ولأسباب أخرى يمشي أغلبيتهم حفاة فيقول الرحالة:

"--- وأكثر أهلها يمشون وهم حفاة الأقدام ربما كان ذلك بسبب رطوبة أرضهم".⁵

ويعدّ الأمراض الفاشية فيهم فيقول:

¹ المصدر نفسه، ص 61

² المصدر نفسه، ص 61

³ المصدر نفسه، ص 74

⁴ المصدر نفسه، ص 32

⁵ المصدر نفسه، ص 100

"ومن هناك كان الاطلاع على غرفة نوم المرضى من الرجال --- وأكثر هؤلاء لا تظهر عليهم علامات نقص التغذية مع المرض وهناك من هم مرضى بأمراض عادية وقال لي الأطباء: إن أكثر الأمراض شيوعاً عندهم هي الملاريا وفقر الدم الذي هو في الحالات العادية ليس مرضاً وإنما هو بسبب فقد التغذية".¹

وبجانب فقرهم وضيق يدهم لا يكدّون أنفسهم في الاكتساب والحصول على الأموال الكثيرة فيقول الرحالة:

"--- والفرق بين الاثنين هو الفرق بين الناس في البلدين فأولئك قوم متعلمون يقدّمون للحياة كثيراً من العمل ثم يستعملون كثيراً من وسائل الحياة، وهؤلاء الهنود قانعون بما هم فيه يقدّمون اليسير من العمل، إما اليسير كيّفاً أو اليسير مقداراً، ويقنعون بما يتمتعون به من الحياة على مقدار ما يبذلون من عمل".²

ومن بين هذه المسائل تأتي مسألة المرأة فقد وجد الرحالة أغلبية من غير خارجات من البيوت أو إذا خرجن فهن متحجبات إلا القلائل منهن في القرى أو ما جرّته زخرفة الحياة الحديثة:

"من أهم ما يلفت نظر القادم من الهند إلى هذه البلاد أو حتى من باكستان الغربية الفرق الواضح بينهما وبين دكا في موضوع المرأة وخروجها في الشوارع فهي تكاد تكون غير موجودة أصلاً بل إنه ظهر لي من خلال هذه الجولة أن خروج المرأة في دكا رغم الاستعمار الإنكليزي الطويل هو أقلّ من خروجها في بلادنا في الرياض مثلاً وإن كان خروجها في الرياض يكون وهي متحجبة فهي هنا لا تخرج أصلاً وإن خرجت وهذا قليل نادر فإنها قد تكون متحجبة".³

"--- إضافة إلى بعض القرويات أو الفلاحات اللاتي رأيتهم يمشين غير متحجبات على أطراف المدن وبعدد محدود أيضاً".⁴

¹ المصدر نفسه، ص 90

² المصدر نفسه، ص 39

³ المصدر نفسه، ص 60

⁴ المصدر نفسه، ص 60

"وكننا نرى النساء وبعضهن هزيلات بشكل ملفت للنظر وبعضهن أحسن حالاً وكلهن من المسلمات ولكن كلهن سافرات فهن في حالة لا يستطعن معها هن أو ذووهن التفكير في موضوع الحجاب الذي يتمسك به أهل المدن في هذه البلاد حتى أهل العاصمة".¹

وأما عن مآكلهم فقد حكى لنا الرحالة عن وقودهم وأحب أنواع الطعام لديهم ووجود الفلفل فيها وطريقة تناولهم ووقاحتهم حين غسل الأيدي وتناول الحلوى وما شابهها فنقتبس طرفاً من أقواله وحكاياته كما يلي:

"ثم ارتفعت الطائرة فأصبحنا نرى ما يشبه الدخان على الأرض اعتقد أنه ناشئ عن كون معظم الأهالي يوقدون على عشائشهم بالحطب إذ هو الوقود الرئيسي عندهم".²
"وقد قابلنا بعض السيارات التي تحمل الحطب من الغابات للوقود لأن الإيقاد بالحطب هو الغالب على أهل هذه النواحي".³

"ومررنا بسوق فيه بعض الخضراوات وهي ليست كثيرة كما قلت مما يدل على أن الأهالي لا يعتبرونها مهمة في الغذاء وإنما يعتمدون كل الاعتماد على الأرز والسمك".⁴
"--- وطلبت سمكاً وأرزاً فجاءوا بالأرز قليلاً وجاءوا بالسمك في وسط المرق ولا أدري أي نوع من السمك ولكنه ليس له طعم السمك الذي نعرفه وله عظام كما تكون العظام التي هي بين عظام الغنم وعظام الدجاج".⁵

"--- ولكن لحم الدجاجة هو أنفوس اللحوم وأغلاها في هذه البلاد --- إن لحم الغنم عندهم رخيص بالنسبة إلى الدجاج --- إن المطعم هذا لا يقدم إلا الدجاج".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 72-73

² المصدر نفسه، ص 49

³ المصدر نفسه، ص 88

⁴ المصدر نفسه، ص 59

⁵ المصدر نفسه، ص 82

⁶ المصدر نفسه، ص 81

"وكان العشاء من الكاري واللحم والأرز طلبت منهم أن يكون خاليًا من الفلفل فجاءوا به نازًا تأجج منه".¹

--- وبدأ الزملاء يأكلون مثل ما كل الناس يأكلون إذا جاءهم صحن الأرز يللمم الرجل أطرافه بأطراف أصابعه كأنما يخلطه بها ثم يمرس بعضه مع بعض ليدخل الإدام إليه ثم يبدأ الأكل بيد واحدة ولا يستعملون المعلقة في الأكل مطلقًا".²

--- عندما كنّا نحضر الماء مع الصابون ليغسل الضيوف أيديهم في وعاء فرفضت ذلك وقلت أرجو أن تدلّوني على حوض الحمام حتى أغسل فيه يدي".³

"وخرجت من هذا المطعم وأنا نادم على دخوله لأنني عندما ذهبت لأغسل يدي رأيت الناس يغسلون أيديهم اليمنى وأفواههم وهم لا يتحاشون من رفع الصوت بالنخخة وما يتبعها".⁴

وبعد الفراغ من الطعام عادة ما يأكلون الحلوى أو التنبول فيقول الرحالة:

--- فذهب معي في جولة على السوق واستراح مني الرفاق على أكواب من الشاي المخلوط باللبن وهو من إنتاج بلادهم وعلى شيء من الحلوى".⁵

"وعندما تنبل أخونا الدكتور مستفيض الرحمن سألته: ما فائدة هذا التنبول؟ فقال: ما فائدة الشاي والقهوة؟ فقلت: الأمر مختلف --- وشيء آخر وهو أنه يسرّ النفس --- وهذا أيضًا يدلّ على أن فيه شيئًا".⁶

هذا في جانب وفي جانب آخر وجد العبودي أن فنادقها أيضًا تخلو من النظافة فيقول:

¹ المصدر نفسه، ص 105

² المصدر نفسه، ص 82

³ المصدر نفسه، ص 95

⁴ المصدر نفسه، ص 83

⁵ المصدر نفسه، ص 103

⁶ المصدر نفسه، ص 82

"وقد عرض عليّ الأخ (مير قاسم) أن أشرب معه كأسًا من الشاي أو أتعشى في إحدى هذه المقاهي فاعتذرت إليه عن ذلك مع أنني محتاج إليه ولكن مستوى الخدمة والنظافة فيها يمنعني من تناول ذلك".¹

ولقد وصف الرحالة أخلاقهم وعاداتهم فنوّد أن نذكر طرفًا منها كما يلي:

ينتقد كسلهم في اكتساب شيء في الحوار الذي جرى بينه وبين الترجمان: "--- ألا يستطيعون أن يعملوا ويشتروا بأجرهم ماعزًا أو غيره؟ فقال: ومن أين العمل؟ وكيف يعملون؟ إن الأقوياء الأثداء الذين لديهم خبرة فيه يعوزهم العمل، وهؤلاء لا يعملون ولم يتعودوا ذلك".²

يشير إلى بخل أغنيائهم في معونة فقرائهم: "--- ولكن ألا يستحق المسلمون الأثرياء الذين علموا بحالتهم ولم يتقدموا لمعونتهم أن يلاموا على ذلك؟"³

ويشير إلى انتهازية البنغاليين بمناسبة:

"--- وقد صحبني من الجمرك إلى موظف الصحة الذي يفحص البطاقات الصحية الصفراء للمسافرين المغادرين على خلاف العادة وحاولت أن أردّ هذا الموظف ولكنه لم يتركني إلا في قاعة المسافرين في المطار وطلب مني أن أعمل شيئًا لجعله يذهب إلى البلاد العربية فاعتذرت إليه".⁴

وينبئ عن حبهم للمال وأصحابه:

"هذا وقد لاحظت أن العربي في هذه البلاد الهندية يعظمونه ويكبرونه لأمرين أحدهما ماله يرجون منه نوالًا أو لمجرد تعظيم ذي المال ---".⁵

¹ المصدر نفسه، ص 103

² المصدر نفسه، ص 73

³ المصدر نفسه، ص 77

⁴ المصدر نفسه، ص 108

⁵ المصدر نفسه، ص 108

وأما عن التعليم فقد أشار الرحالة إلى حالة المعارف في بنغلاديش فنودّ أن ننقل من رحلته مقتبسات كي يسهل فهم عناية أهاليها بالتعليم ومستواهم فيه:

"--- إن التعليم فيها يسير على الطريقة التقليدية --- طلابها أقوياء العربية بالنسبة إلى غيرهم وإلى ضعف اللغة العربية في جميع بلاد البنغال بل عدم وجودها في أكثر الأحيان --- إن الدراسة في هذه المدرسة على ثلاث مراحل: الأولى مدتها ست سنوات ونسميها مرحلة الداخل والثانية أربع سنوات واسمها الفاضل، وأنشأنا حديثاً مرحلة أعلى أسميناها مرحلة الكامل وندرس فيها أمهات كتب الحديث كالصحيحين والمسند".¹

وبخصوص تلاوة القرآن فقد رأيت أغلبية البنغاليين لا يجيدون تلاوة القرآن فيفرح الرحالة حينما وجد طالباً أجاد تلاوة القرآن فيقول:

"وفي ختام الزيارة قدّم المدير أحد الطلبة وقال إنه يريد أن يسمعكم شيئاً من تلاوة القرآن الكريم واسمه محمد شاه فقرأ آيات من القرآن الكريم بتلاوة مجودة جيدة".² ولقد وجدت إمام المسجد الجامع في حيّ الذي كنت أقيم فيه يتلو: رأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي (يدعو) اليتيم بدلاً من (يدع) والفرق بين يدعو ويدع واضح لكل عارف بالعربية.

منتجات بلاد البنغال: ولو أن العبودي لم يقيم بدراسة مسببة لمنتج ومحصلات بنغلاديش إلا أنه أشار إلى ما رآه بعينه هاتين فيقول إن بنغلاديش متخلفة في مجال الصناعة:

"وهناك الصناعات اليدوية القديمة التي في حوانيت الحدّادين والتجارين، ولم أستطع الوقوف عليها والاطلاع على أعمالهم فيها بسبب الزحام وضيق الوقت وإن كان يظهر عليها من البعد أنها بسيطة غير متقنة فليست مظاهر الصناعات القوية أو الدقيقة موجودة لديهم".³

¹ المصدر نفسه، ص 96-97

² المصدر نفسه، ص 97

³ المصدر نفسه، ص 59

ويقول معلقًا على يوم النصر:

"وهو اليوم الذي جرّدهم من أسباب قوتهم فأصبحوا لا حول لهم ولا قوة لا من القوة الاقتصادية ولا الصناعية ولا العسكرية ولا حتى الكفاية من الأشياء الضرورية إذ لا يزالون يستوردون الغذاء الرئيسي لهم وهو الأرز من باكستان وهم يعانون نقصًا في كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو عنجهية الوطنية البنغالية ---".¹

ومع ذلك إنه يشير إلى بعض المنتجات والمحصولات فيقول:

"---وأراني شيئًا قليلًا من الأوعية التي صنعت من الخوص والأخشاب ---".²

"وتجولنا في السوق فرأيت أواني من الفخار المحلي الأحمر الجميل اللون فسألت عن ثمن الواحدة فأجاب البائع إنه تاكا ---".³

ويقول عن حقول الأرز الغذاء الرئيسي لديهم:

"وأكثر ما يراه المرء هنا حقول الأرز في حياضه التي بعضها غارق في المياه وبعضها يبذر الفلاحون أو يعالجونه بالشتل ---".⁴

ويقول عن الفواكه التي وجدها:

"--- وأن هناك فاكهة محلية يمكنه أن يستعيض عنه بشرائها مثل الموز الذي يوجد في جميع فصول السنة ومثل المانجو التي توجد في فصل الصيف ---".⁵

ويقول عن النارجيل وفائدته:

"--- وقد اشترينا منه بعض ثمار النارجيل بغية التزود بمائها للشرب لأنه نظيف ولذيذ ومفيد للجسم ترى لي من التجربة".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 99

² المصدر نفسه، ص 67

³ المصدر نفسه، ص 104

⁴ المصدر نفسه، ص 87

⁵ المصدر نفسه، ص 57

⁶ المصدر نفسه، ص 86

ويذكر النمر من خلال الحديث عن الغابات:

"وقال لي الأستاذ مير قاسم علي إنه يوجد فيها من الحيوانات المفترسة النمر".¹

وأنه لم يجد حمارًا من بين الحيوانات فقال:

--- والناس عنها (الركشا النارية) في شغل بلقمة العيش أو السلامة من السفر بالأرجل

ولو كان ذلك على حمار مع العلم بأنني لم أر في كل هذه الأرياف حمارًا واحدًا".²

فهذا يعني أن بنغلاديش لم تكن تنتج قدرًا ملموسًا من أنواع الصناعات والأغذية والفواكه بل كانت فقيرة وعائلة على بلدانها المجاورة.

يوم النصر: يوم النصر بالنسبة لأهالي بنغلاديش هو اليوم الذي انفصلت فيه بنغلاديش عن باكستان وذلك على الاختلاف الواضح فيما بينهم في اللون واللسان والثقافة فالباكستانيون أجمل منهم ولغتهم الأردوية وثقافتهم إسلامية بينما البنغاليون فلا يوجد فيهم جمال وأما لغتهم فهي البنغالية وثقافتهم هي التي عضوا عليها بالنواجذ فلا يميلون عنها قيد أنملة ولو دعاهم الرب أو دينه أو رسوله ﷺ. انفصلت بنغلاديش عن باكستان وأعانتهم فيه الهند وأشياها وبذلك أصبحت بنغلاديش كلحم على وضم للهند. يقول العبودي مشيرًا إلى هذا الجانب الحزين للبلاد:

"من سوء حظنا أن كان هذا اليوم هو الذي يسمّونه يوم النصر وهو يوم انفصالهم عن شقيقتهم باكستان وتأسيس الدولة البنغلاديشية وهو في الحقيقة يوم النصر الحقيقي للهند لا لهم ولا لغيرهم من المسلمين فقد تركهم هذا اليوم لقمة سائغة للهند تفعل بهم ما تريد دون أن تخشى من أن يكون لذلك رد فعل من أحد، وهو اليوم الذي جردهم من أسباب قوتهم فأصبحوا لا حول لهم ولا قوة لا من القوة الاقتصادية ولا الصناعية ولا العسكرية ولا حتى الكفاية من الأشياء الضرورية إذ لا يزالون يستوردون الغذاء الرئيسي لهم وهو الأرز من باكستان وهم يعانون نقصًا في

¹ المصدر نفسه، ص 88

² المصدر نفسه، ص 98

كل شيء إلا شيئاً واحداً هو عنجهية الوطنية البنغالية مع أنهم مسلمون ومتى كان الإسلام معترفاً بالوطنية الضيقة".¹

ويقول وهو يقارن بينها وبين باكستان:

"إذاً هذا اليوم نذكرنا نحن المسلمين الحريصين على قوة الإسلام بيوم من أيام نصر الأعداء ويوم من أيام إضعاف المسلمين وليس ذلك مقتصرًا علينا بل كثير من أهل البلاد يعرفون ذلك ولكنهم يذكرون لك مظاهره فإذا سألتهم عن الأرز أ رخيص هو؟ أجابوا: إنه رخيص في باكستان. والفاكهة؟ إنها رخيصة في باكستان حتى الحجاج سألتهم عن عددهم من بلاد البنغال هذه؟ فأجاب الحجاج إنهم من باكستان كثير".²

تجارة بنغلاديش: حال التجارة في بنغلاديش لم تكن حسنة في تلك الفترة فقد زار الرحالة أسواقها فوجدها سيئة للغاية فيقول كما يلي:

"ومررنا بعدة قرى لم نقف فيها أو على الأصح بعدة أسواق للقرى لأنهم يجعلون السوق على الطريق الذي لا طريق غيره مبنياً بالأسفلت لسهولة المواصلات ويأتي أهل القرى يحملون بضائعهم على رؤوسهم ويبيعونها ويشترؤون بثمنها ما يحتاجونه من الأسواق".³

ويقول في مكان آخر:

"السوق مليء بالبضائع الخفيفة التي يحتاجها أهل القرى وليس فيه من المصنوعات الثقيلة شيء".⁴

والواقع الذي ذكره الرحالة أن بنغلاديش لم تكن تصنع شيئاً مهماً فلم تكن تصدر البضائع وبدلاً من ذلك أنها كانت تورّد الأرز وما كانت تحتاجه إليها إلا أن حاجياتهم

¹ المصدر نفسه، ص 99

² المصدر نفسه، ص 100

³ المصدر نفسه، ص 102

⁴ المصدر نفسه، ص 101

كانت محدودة وتلك إما لفقرهم أو لبخلهم المعروف الذي شهدته خلال فترتي التعليمية الممتدة لخمس سنوات فلا يأكلون في الصباح إلا الأرز المقلي الذي يأكلونه في الظهر وفي العصر كذلك ويهتمون له كأنهم يأكلون الدجاجة.

جوانب سيئة لبلاد البنغال وأهلها: ومن خلال إقامته لثلاثة أيام شهد الرحالة عديدًا من مساوئ أخلاق البنغاليين فنشير إلى البعض منها فيما يلي:

(1) الخصومة، يقول الرحالة: "وذلك الطعام الذي جرت الخصومة حوله لو رآه الواحد منا في بلادنا لأصابه الجوع"---¹.

(2) وسخ كولكاتا، يقول الرحالة: "مع أن كلكتا مشهورة بأنها أكثر المدن الكبرى في الهند تأخرًا من حيث النظافة والتخلف في المرافق العامة"---². و"الفنادق النظيفة ليست كثيرة في كلكتا".³

(3) ضررها أكبر من نفعها، يقول الرحالة: "كلما أوغلنا في المدينة زادت كثافة المارة وازدحام البيوت حتى وصلنا قلب المدينة الغاص بالناس فإذا به ذو بيوت متلاصقة، وأرصعة غير مصونة، وأرض مسفلة، ولكن سفلة ضررتها أكثر مما نفعها"---⁴.

(4) عدم الأمن، يقول الرحالة: "لا يحسن الدخول إلى المدينة (كلكتا) في الليل لأن المرء لا يأمن في ذلك الوقت، وإنما الأفضل لك أن تقضي الليلة في فندق المطار وهو ليس بعيدًا عنه ثم تدخل البلد في الصباح".⁵

(5) كثرة التنبول، يقول الرحالة: "أول ما تعجب له هو كثرة الحوانيت الصغيرة التي تباع التنبول للمارة ويكون صاحبها في الغالب متربعا على دكانه وفي الغالب يكاد يكون قد شغله كله بجسمه لأن الدكان يكون صغيرًا لعدم حاجته إلى الكبير والسعة، وترى المارة يقفون عنده ويشتررون ويضعون في أفواههم، وبعضهم تراه

¹ المصدر نفسه، ص 19

² المصدر نفسه، ص 22

³ المصدر نفسه، ص 26

⁴ المصدر نفسه، ص 23

⁵ المصدر نفسه، ص 20-21

وقد وضعه قبل ذلك فأصبح فمه أحمر كمؤخرة القرد، وتراه يبصق في بعض الأحيان فتشمئز من ذلك ولكنك ربما تعتاد على رؤيته لأن البصاق في شوارعها كثير".¹

(6) سوء حال المباني في كولكاتا، يقول الرحالة: "--- وصلنا إلى بعض العمارات الحديثة --- إنها للجي-ش وقد لاحظت أن أكثر البنايات في كلكتا كئيبة المنظر إذ قل أن تجد عمارة ذات طلاء بهيج بل قل أن ترى عمارة يخيل إليك أنها جديدة وربما كانوا لا يهتمون بالمظهر كثيراً".²

(7) طوفان ركشاوي، يقول الرحالة: "ولم يكن بد من أن يستعمل السائق بوق سيارته باستمرار، ويتأني في مشيته حتى يستطيع أن ينفذ من بين هذا الجمع من عربات الركشا المعتادة التي تنحت عنها حتى العربات الأخرى من الركشا المتخذة من الدرجات النارية وإذا بي أرى سيارتنا تكاد تكون السيارة الوحيدة في هذا الطوفان الركشاوي إن صحّ التعبير لأن هذه العربات هي وسيلة الانتقال الشخصي المفضلة عندهم فهي رخيصة الثمن وسهلة الاستعمال ولا تتطلب وقودًا وتدخل في كل مكان".³

(8) العبادة، يقول الرحالة: "--- ثم خطب باللغة العربية التي لا يفهمها منهم أحد خطبتين متوسطتي الطول إحداهما وهي الأخيرة من الخطب التقليدية التي كنت أسمعها في بلادنا تكرر كل جمعة منذ أن عقلت، ولا شك في أنه لم يفهمها منهم أحد وكان يمدّ الكلام المسجوع في الخطبة مدًا ويتغنى بها تغنيًا ---".⁴ وبعد انتهاء الصلاة جعل الإمام يدعو دعاء طويلاً مسجوعًا باللغة العربية أول الأمر والناس يؤمنون على دعائه وهم لا يعرفون معناه ثم أخذ يدعو بالبنغالية --- وقد استغرق ذلك أكثر من وقت الصلاة بكثير والناس منتظرون لم يتحرك منهم أحد

¹ المصدر نفسه، ص 28 وكذا انظر الصفحة 101 للرحلة

² المصدر نفسه، ص 38

³ المصدر نفسه، ص 58

⁴ المصدر نفسه، ص 78-79

من موضعه ---¹ "وبعد أن فرغ من هذا الدعاء الطويل قام الناس إلى صلاة النافلة وقمت وصلّيت ركعتين كعادتي ولما فرغت أردت أن أخرج ولكن لا تزال الصفوف قائمة تغلق الطريق على من يريد الخروج ---²."

البقرة وتقديسها وتعظيمها: البقرة كانت مقدّسة في الهند منذ زمن قديم فقد عدّوها مباركة ومقدّسة حتى اعتبرت بعض كتب الديانة الهندوسية ذبحها أعلى أضحية وأفضلها لدى الآلهة. ولكن هذا الجانب الديني قد تحوّل اليوم إلى جانب سياسي. وفي كل زمن أساء الحكّام استخدام الدين فأخذوه ما دام الدين أفادهم ونبذوه وراء ظهورهم حينما لم يحتاجوا إليه. ولنقرء ما شهد الرحالة بالنسبة للبقرة. عندما ركب الرحالة الطائرة خيّرتهم المضيضة عن نوع الطعام؛ لحم أو نبات فيقول الرحالة إنه قد خطر بباله أن يقول إنه يريد لحم البقرة ولكنه امتنع عن إظهار ما بخاطره مخافة أن يغضب منه الهندوس:

"حال موعد توزيع الطعام وإذا بالمضيضة تأتي بطعام بين يديها في صحاف من اللدائن الصغيرة وهي تخاطب الركاب بكلمة ظهر لي كأنها واحدة فيجيبونها بنعم أو لا --- ولما جاءت وقالت لي ذلك قلت لها: لا، بل أنا من أكلة لحوم --- وأردت أن أقول البقر، لا البشر بطبيعة الحال ولكني ذكرت أنني في البلاد التي تعبد البقر فقلت: لا داعي للخصومة وسكت ---³."

ويقول في موضع آخر:

"ابتدأ الطريق وهو ذو اتجاهين يفصل بينهما جزيرة غير عريضة مزروعة بالحشائش والنباتات غير المزهرة ومسورة بالأسلاك حذرًا من أن تأكلها الأبقار السائبة التي هي معظمة، بل مؤلّهة في هذه البلاد الهندية"⁴.

¹ المصدر نفسه، ص 79

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ المصدر نفسه، ص 19

⁴ المصدر نفسه، ص 23

وعلى هذا فيشير إلى كثرة الأبقار:

"--- وأحواض للأرز بعضها حديث أخضر وأكثرها قديم قد قطف حبه وبقي قشه في الأرض ترعاه الأبقار --- والأبقار كثيرة كثرة ملفتة للنظر فهي أكثر هنا في الهند ويلمها في الكثرة مما يؤكل الدجاج".¹

وبهذه المناسبة نودّ أن نذكر مقتبسًا من "مشاهدات في الهند" حيث انتقدت أمينة السعيد درجة البقرة وعبادتها في الهند:

"وأوّل ما يسترعي النظر في كراتشي وفي غيرها من المدن الهندية، كثرة البقر في الطرقات، وما لها من سلطان على الحياة العامة، فصاحبة الجلالة البقرة الهندية تتمتع بتكريم وتبجيل وحرية لا تتوافر لخير أفراد الشعب، وذلك لأن الهندوس يعبدونها، ويعتبرونها أمّ الله، لأنها تدرّ لبنًا يهب الحياة للناس ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة تجول قطعان البقر في الطرقات كما يحلو لها، فلا يجروّ أحد على إيذاءها أو إبعادها عن طريقه. وقد تفتحم الحوانيت في بعض الأحيان، فإن كان صاحب تلك الحوانيت هندوسيًا، تركها تعيث في المكان فسادًا؛ أما إذا كان مسلمًا، وحاول إخراجها قسرًا، قامت معركة دينية حامية بين الطائفتين قد تراق فيها الدماء، وتذهب الأرواح".²

لغة هذه الرحلة: لغة هذه الرحلة، كما رأيتم نماذج منها، ليست أدبية، إنها لغة الرحلات التي يفضّل فيها الرحالة السهولة والوضوح ويذكر ما يشهده أو يحكي ما شهده الآخرون غيره، ولكن وجدنا من خلال دراستها نماذج جميلة لوصف بعض ما شهده إلا أنه أيضًا يخلو من الصبغة الأدبية كما رأينا في رحلة "مشاهدات في الهند" للأمينة السعيد التي لغتها أدبية على الرغم من لغة الرحلات الأخرى مثل "رحلاتي في

¹ المصدر نفسه، ص 102

² مشاهدات في الهند للأمينة السعيد، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، أغسطس 1946م، ص

العالم" إلا أن السعداوي تخطئ في اللغة والبيان بينما العبودي بريء من هذا إلا في مواضع تزل فيها أقدام العرب عادة.

فيصف العبودي سائقًا كان يسعل طول الطريق:

" --- فأحضرها وركبت معه وليتني لم أركب فقد كان يسعل طول الطريق بشدة وبطريقة مؤلمة لنفس من يسمعه وكان الطريق الذي يبلغ طوله من المطار إلى الفندق عشرين كيلومترًا يعجّ بالحافلات التي تنفث دخان الديزل المؤذي إلا أنني اضطررت أن أفتح نافذة السيارة وأن أخرج رأسي من السيارة ما استطعت فرارًا من الهواء داخل السيارة الذي لوّثه السائق بسعاله ونفائثه".¹

ويصف غرفة الفندق ذي الدرجة الأولى كما يلي:

"ونزلت في الفندق في غرفة تقرب من أن تكون من غرف فنادق الدرجة الأولى غير أن كل ما فيها هو من منسوجات الهند ولكن بعضها يصعب علينا استساغته من ناحية الفندق مثل الكراسي الخشبية التي يصعب تحريكها وزحزحتها، ومصابيح الإضاءة المغلفة بأغلفة كبيرة جدًا من الزجاج والحبال وهي مدلاة في السقف تضرب رأس الذي لا يفتن لها، إضافة إلى أن الغرفة تحتاج إلى ترميم".²

ويصف الركشا وما يخلق في نفس الرجل المترحم من قلق واضطراب:

"ومن عربات الركشا التي يؤلم منظرها النفس، ويحز في الفؤاد ذلك بأنك ترى رجلًا قد يكون ضعيف البنية هزيل البدن مصفر الوجه، وإن كان وجهه لا يعدم بقعة حمراء فيه تلك هي فمه الذي يكون أحمر من أكل التنبول تراه وهو حافي القدمين قد أمسك بيديه خشبتين أو قل اثنتين من العصي - جمع عصا - قد ربطتا إلى عربة ذات عجلتين قد ركب فيها شخص أو شخصان وقد يكون الراكبون أسرة أكثر من شخصين وهو يجرّ هذه العربة بهم بين زحام الناس والسيارات وهو إذا وصل مكانًا

¹ مقال في بلاد البنغال، المصدر نفسه، ص 13

² المصدر نفسه، ص 14

مرتفعًا جمع جسمه وبذل كل جهده لكي يستطيع أن يجرّ منه العربة وإذا بلغ منخفضًا حاول أن يقف حتى يخفف من اندفاعها ومن حسن حظه وأمثاله أن المرتفعات والمنخفضات هنا قليلة.

والمؤلم أن الراكب الذي يبدو سعيدًا في مركبه المظلل حتى عن الشمس والمطر وهو يرى ذلك الإنسان الشقي يجرب به العربة ماشيًا في الشوارع حتى يصل به إلى مقصده مع أن الراكب قد يكون أقوى جسمًا وأكثر لحماً من السائق".¹

ويصف البنغاليين كما يلي:

"فأهل كلكتا على وجه العموم سمر ولكنهم ليسوا أكثر أهل الهند سمرة بل هم أقل سمرة من أهل مدراس ولكنهم أكثر نحوًا في الأجسام، وأقصر قامات، وأمارات العوز ظاهرة على وجوه جمهورهم، وشيء أهم من ذلك هو أن المرء يستغرب من عدم التناسق في تقاسيم وجوههم وفي أجسامهم مثل ما يشعر بذلك إذا رأى بعض أهالي سيلان".²

ويصف بركة السباحة كما يلي:

"ثم رأيت بركة للسباحة ليس فيها سباحون لأن الوقت ليل وإنما أحاطوها بأنوار جميلة نثرت بينها الموائد وعلى بعضها أناس يأكلون وأردت الدخول لتناول شيء خفيف من الطعام في هذا الهواء الطلق ولكن رجلًا عند الباب اعترضني قائلاً: أتيت هنا لتتعشى؟ فقلت له: إنني أريد أن أكل شيئًا خفيفًا. فقال: ذلك يكون في كوفي شوب أي في المقصف وإن كانت ترجمتها الحرفية حانوت القهوة ولكنها تطلق اصطلاحًا على المقصف الذي يقدم مأكولات خفيفة على مدار الوقت أو أكثر الوقت من الليل والنهار".³

ويصف نافورة جميلة وجدها:

¹ المصدر نفسه، ص 24-25

² المصدر نفسه، ص 27

³ المصدر نفسه، ص 51

"وكان مما مررناه عندما استأنفنا الجولة ميدان تتوسطه نافورة على شكل زهرة كبيرة متفتحة بيضاء وأوراقها خضراء وأرصفتها ممتازة وأشياء من المباني والشوارع قل أن يوجد مثلها سواء في أصل تخطيطها أو العناية بها في الهند وقالوا لنا إن كل هذا كان من زمن الاشتراك في الوحدة مع باكستان، ولم يعمل شيء منه بعد ذلك".¹

ويصف ميناء نهرياً كما يلي:

--- وكان من أهم ما رأيته ذلك الميناء النهرى العظيم الذي اشتهرت به هذه المدينة وفيه عدد من البواخر ومن أهم ما يلفت النظر فيه المصنع الكبير للاسمنت ومعدات نقل المواد الخام من البواخر إلى المصنع ثم نقل الاسمنت بعد ذلك للتصدير إلى أماكن أخرى في البلاد".²

وبجانب تمهر الرحالة في الوصف فقد نجد في هذه الأوصاف جوانب عديدة من البلاد التي زارها ومما تمتلكها من المشاهد والمناظر التي تلفت النظر إليها.

¹ المصدر نفسه، ص 57 وهكذا كل ما تتمتع به بنغلاديش من المفاخر يرجع فضلها إلى باكستان، يقول الرحالة عن بيت المكرم: "البيت المكرم وهو مسجد جامع ضخم واسع ليس في ساحاته وأفنائها فقط وإنما فيما يستوعبه من عدد المصلين بني في عهد حكومة باكستان ويطل على ميدان في العاصمة، عليه إستاذ رياضي وسوق شعبي مسقوف والمسجد نفسه مؤلف من سبع طبقات، أي نعم إنه مسجد مؤلف من سبعة طوابق أسفلها حوانيت وأسواق تجارية ثم المصلى هو وما فوقه أماكن للصلاة"، المصدر نفسه، ص 78

ويقول في مكان آخر وهو ينتقد سوء حال بنغلاديش بعدما انفصلت عن باكستان: "ودخلت السوق فإذا بي أتيقن أن البنغال هذه التي رضيت أو رضي القائمون على أمرها بأن تنفصل عن باكستان ليست من البلاد السعيدة في الصناعة والإنتاج الزراعي المتعدد الجهات ---"، المصدر نفسه، ص 56 ويقول منتقداً حكومة مجيب الرحمن: "ولم أجد أي أثر للحكومة التي تسمي نفسها (جمهورية بنجلاديش الشعبية) فإذا كان ذلك يدل على أنها تعمل لخدمة الشعب فأى خدمة ألزم من خدمة هؤلاء المساكين الفقراء الذين تركوهم للأجانب الذين يخالفونهم في الدين يفعلون بهم ما يشاؤون"، المصدر نفسه، ص 71

² المصدر نفسه، ص 105

سيرته الذاتية: عندما يكتب كاتب أو يقرض شاعر فلا بد من أن تتجلى شخصيته أو أن يبدو طابعه الخاص في كتاباته أو أبياته. ومن هذه الناحية كلما نعيد النظر إلى هذه الرحلة نجدها تحتوي على جوانب خلقية من حياة كاتبها محمد العبودي فمثلاً ينتقد معاملة السائقين فيقول:

"أما سائق السيارة التي أركبها فما رأيت أمهر منه في هذه البلاد، ولكن ما رأيت أقل رحمة منه لهؤلاء الساحبين لعربات الركشا ولا لأولئك المارة البائسين، فهو إذا حاذى أحداً منهم ألح على بوق سيارته القوي يندرهم ويحذرهم دون أن يقف أو يخفف من سيره فيضطرونهم للوقوف أو الانحراف والابتعاد عن طريقه، أما أنا فقد اجتمع عليّ عاملان من التأثير أحدهما من منظر أولئك البائسين من الحفاة الساحبين للعربات. والثاني: الخوف من منظر حادث يضيع سائق السيارة فيه نفسه ولكن ذلك لم يحدث حتى وصلنا إلى بناء ليس بذاك من بعيد ---"¹

ويقول كذلك إنه لا يودّ أن يتعب الآخرين غيره:

"رغم كون السفارة قد تلقت برقية من رابطة العالم الإسلامي بأنني سوف أصل، ورغم كون السفير السعودي هو الأستاذ فؤاد الخطيب وهو صديقي --- فإنني لم أبرق له بوصولي إلى دكا لأنني لا أحبّ أن أتعب أحداً من جهة ---"²

ويقول وهو يمدح التبشير وخدماته:

"--- على أن الذي ينبغي التنويه به أنه ليس كل من قدّم من الأوروبيين معونة للجمعيات المسيحية لكي تقدّمها للمحتاجين في العالم إنما يريد بذلك أن يدخل المعانين في النصرانية ففي أولئك من يقدّم ما يقدّمه من عمل خيري بدافع إنساني يدفعه وهو يرى ما يتقلب فيه من نعمة وثروة إلى أن يقدّم شيئاً من ذلك للمحتاجين والمعوزين"³

¹ المصدر نفسه، ص 25

² المصدر نفسه، ص 52

³ المصدر نفسه، ص 77

وكذا إنه يمنع أن ينفق على المتسولين فيقول:

"--- وبعد الخروج بصعوبة من المسجد الجامع رأينا جماعة قد نصبوا مكبراً للصوت وهم يخطبون قالوا: إنهم من الجماعة الإسلامية وعند السيارة عاد الشحاذون يلحّون ويلحفون ولكنني لم أعط أحداً منهم لأنك إذا أعطيت واحداً لم تتخلص من الآخرين إضافة إلى أن مظهر الاستجداء الجماعي بهذه الطريقة مما يشوّه صورة هذا الاجتماع العظيم في النفس".¹

ويقول مشيراً إلى ما يقوم به الفقراء من جهد مضمّن للحرق مما يأكله الأغنياء:

"وأكثر ما يراه المرء هنا حقول الأرز في حياضه التي بعضها غارق في المياه وبعضها يبذر الفلاحون أو يعالجونه بالشتل ونحوه فتراهم وقد غاصت أرجلهم في الوحل الأسود وهم يحاولون الانتقال من مكان لآخر فيه والعمل وسط هذا الوحل فلا يسعك إلا أن تتذكر أنك كنت في بلادنا العربية تأكل الأرز ولا تدري من تعذب من خلق الله في زرعه وحصاده وتهينته ---".²

ويقول مترحماً على الأطفال الفقراء الذين يجمعون الحطب للبيع:

"وأكثر الأطفال الذين يحضرون الحطب هذا نصفهم الأعلى عارٍ من الثياب وقد رأيت بنية عمرها في حدود العاشرة أو الحادية عشرة معها حزمة من الحطب فسألتها عن الثمن فلم تعرف الإنكليزية كما لا يعرفها عامة أهل الريف هذا وإنما ترجم لي أحد الرفاق فأجابت أنها تبيعه بستة تاكات أي ريال وربع فقلت لها: بخمسة فامتنعت ولو باعتني إياه لأعطيها ثمنه وتصدقت بالحطب عليها وإنما سألتها لأعرف ثمنه فهي قد حملته من مكان لا شك في أنه ليس قريباً وبقيت تبيعه فترة وأهلها كم عانوا في قطعه من الأخشاب وتكسيه كل ذلك بريال وربع ولكن الريال والربع قد يكون فيما لهم سداد

¹ المصدر نفسه، ص 81

² المصدر نفسه، ص 87

من جوع في شيء يشترونه من الأرز الذي كان رخيصًا عندهم فارتفع ثمنه نسبيًا بعد انفصالهم عن باكستان".¹

ويقول وهو يفضل المساواة في الانتظار:

"وهذا ألمني كثيرًا إذ ماذا يضيرني إذا انتظرت حتى يأتي دوري وماذا ينفعني إذا قدمت على غيري؟ إلا أن أشعر بأنني قد أسأت إلى إسلامي بجعلي غير المسلمين من الأوروبيين وغيرهم يأخذون فكرة عن المسلمين بأنهم لا يحبون العدل والإنصاف الذي يقضي بأن يكون من يحضر قبل غيره له حق التقديم على من جاء بعده".²

ويقول وهو يبيّن الفرق بين العمل والنسب:

"--- لما قلت لأحد علمائهم: أرجو أن نكون عند حسن ظنهم بنا في التمسك بالدين، قال: يكفي أن تكونوا في جوار الحبيب، فقلت له: شكرًا ولكن هذا لا يكفي لأن المكان لا يقدّس أحدًا وإنما يفيد الإنسان عمله وما كسبت يده".³

الختام:

بدا مما كتبنا آنفًا أن البنغال وبنغلاديش ولو أنهما بلدان ينفصل أحدهما عن الآخر إلا أنهما تتشابهان في كثير من الأمور والتقاليد، وتتعبسان في العناية باللغة البنغالية وثقافتهما. زارهما الرحالة لأمر رسمي لكي يطلع على أوضاع المسلمين الدينية والاقتصادية والاجتماعية في البلدين ولكنه حاول خلال رحلته أن يسلط الضوء، قدر المستطاع، على جغرافيا هذين البلدين من حقولهما وجبالهما ومشاهدهما الفطرية، وعلى محصولاتهما ومنتجاتهما وأسواقهما التجارية. ولقد أسهب الرحالة في ذكر المجتمع البنغالي وخصائصه وميزاته مما يصفو أو يكدر، وبصرف النظر عن بعض المواضع فقد أصاب الرحالة في آرائه وانطباعاته فالبنغاليون قوم يقطنون فينا

¹ المصدر نفسه، ص 101-102

² المصدر نفسه، ص 107

³ المصدر نفسه، ص 108

ولكن ليسوا منا بل هم ليسوا من أحد من العالمين، لهم لغتهم وثقافتهم ولهم مذهبهم الخاص في الأمور الدينية. أثنى الرحالة على ما أرضاه من عاداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم كما انتقد ما لم يرض عنه من المعاملات والتقاليد.

مما تتميز به هذه الرحلة أنها تنبئ عن السيرة الذاتية للرحالة فلا يتحيز الرحالة في رحلته إلى أي بلد أو قوم حين القيام بالمقارنة بل يرجع الحق في القول ويتحرى الصدق في الانطباع حتى أنه ينتقد العرب في عديد من الأمور والعادات ولا يخاف لومة لائم. لغة هذه الرحلة سلسلة وبريئة عن الأخطاء والزلات سوى في بعض المواضع حيث يخطئ العرب أو يتسلل الخطأ من أجل المطابع.

النيلوفر

(The Lotus)

- الأستاذ بدر جمال الإصلاحي¹

النيلوفر نبات مائي جميل من فصيلة النيلوفريات، وورقه كبير مستدير يعوم على سطح الماء، وأزهاره جميلة، كثيرة القوالات، تعوم أيضًا، منه أنواع تعيش في مستنقعات وبحيرات في القارات القديمة، ومنه نوع جعل منه المصريون الأقدمون موضوعًا فنيًا.

أشهر هذه الأنواع تلك التي تنبت في المناطق المعتدلة، منها نوع كان مرغوبًا فيه بمصر القديمة للطحين الذي كان يصنع من ساقه وحبوبه، ومنها أنواع تزرع للترين قد يبلغ قطر ورقتها مترين.

والنيلوفر ينبت في المياه الراكدة، له أصل كالجزر وساق ملساء تطوى بحسب عمق الماء، فإذا ساوت سطحه أوردت وأزهرت.

ويقال له أيضًا "اللينوفر"، وهي كلمة فارسي أصلها،² أو هي سندسكيتية.

وكلمة النيلوفر مركبة من "نيل" معناه أزرق و"أث" معناه وريقة فمعنى هذه الكلمة المركبة: الزهرة ذات الوريقات الزرقاء.³

إن النيلوفر ذو منافع كثيرة وهو تنجذب الأنظار إليه لحسن منظره وجمال أزهاره وهو يتفتح بألوان مختلفة. وله أنواع كثيرة، بعضه ينبت في الأنهار والغدران بنفس

¹ كاتب هندي كبير نال جائزة رئيس جمهورية الهند لخدمته للغة العربية وأداها

² المنجد في اللغة: كلمة النيلوفر

³ فرهنك أصفية: كلمة النيلوفر

الفطرة بينما يزرع بعض أنواعه في غدران الحدائق للزينة في مختلف ألوانها الأحمر والأبيض والأصفر والأزرق وغيرها.

وله فوائد اقتصادية أيضاً، تحصل من بعض أنواعه بذورها، فتحمص وتستعمل في الحلويات والأدوية، هذه البذور تكون كالبندق في حجمها وصلابة قشرها، وتستعمل أصوله الناعمة الطويلة المنتشرة في الغدير كالخضار، ويصنعون منها الإددام اللذيذ المقوي للبدن، ويأكلونها أيضاً مسلوقاً مع الزبادي وهي مقوية لذيدة لذيدة جداً.

وفي الزمن الماضي كان الهنود يأكلون الطعام على أوراقه المدورة الغليظة الصلبة الواسعة، يبلغ حجمها إلى القدم والنصف تقريباً، ويسمّون أوراقه في لغتهم "بهوج پتر" (Bhoj Patr: ورق الطعام) أي الورق الذي يוכל فيه.

وكان الهنود القدماء يكتبون على أوراق النيلوفر، فأولاً كانوا يحكّونها بالخزائر الكبيرة ويجعلونها ناعمة الملمس ثم يكتبون عليها الرسائل والكتب، حفظت مثل هذه الرسائل والكتب في بعض المكتبات والمتاحف.

ويوجد نوع من النيلوفر في الغدران والوديان، يستخرجون من ثماره حبات صغيرة كالخردل ويأكلونها محمصة أو نيئة، وكذلك يستخرجون من طين الغدران أصوله ويأكلونها مسلوقة أو نيئة.

ينبت هذا النوع في الغدران في شهر يوليو، وتتفتح الأزهار في شهري أغسطس وسبتمبر على السيقان التي تكون تحت الماء، والأزهار تعوم على سطح الماء. وتنضج ثمارها في شهري أكتوبر ونوفمبر.

وكل أنواع النيلوفر لا يتحمل برد الشتاء فتموت أوراقها وسيقانها ولكن يبقى في الغدران والأودية أصولها وبذورها، فينبت مرة ثانية في الموسم. إن أزهار النيلوفر وأوراقها تملأ الغدران حسناً وجمالاً في الصيف ويصبح منظرها جميلاً جذاباً جداً. يتمتع المازون بمنظرها البهيج.

رغب الهنود القدماء في جمال النيلوفر، فرسموا صور أزهاره وأوراقه وسيقانه على جدران معابدهم، وصوّروه في كتبهم، وجعلوه زهرًا وطنيًا لهم.

والهنود يشبهون القلب بالنيلوفر، يقول الشاعر الهندي حيدر علي آتش:

ہمیشہ جوش گریہ سے رہا پانی میں اے آتش

کبھی تازہ نہ میں نے اپنے اس دل کا کول دیکھا

ترجمة: وإن كان النيلوفر قلبي سقي بماء دموعي ولكن ما رأيته قط طازجًا وطيبًا بل يكون، دائمًا، مضمحلًا حزينًا.

إن أهل الهند وفارس يسمّون بناتهم بالنيلوفر لجمالهن وبهائهن وبركتهن ومنافعهن. والنساء اللاتي يسمّين بالنيلوفر كثيرات، ومنهن نيلوفر خاتون زوجة أدر خان وأمّ مراد الأول. يروى أن عثمان خان مؤسس السلطنة العثمانية كان يمضي في بعض أسفاره في 1299م فرآها أمام بيت أبيها فأراد أن تكون عروسة لابنه أدر خان، فقبض عليها وذهب بها إلى بلاطه وكان عمرها آنذاك 12 سنة وبعد بضع سنوات زوّجها من ابنه أدر خان، وقد أنجبت لبعليها مراد الأول وسليمان باشا، وكانت نيلوفر خاتون مخيرة ذات فضل كبير، فقامت بكثير من الأعمال الرفاهية منها تأسيس خانقاه في "بروسا" وتعمير القنطرة على نهر "بروسا" وكلاهما تسمّيان باسمها "نيلوفر"، وقد دفنت بعد وفاتها في مقبرة "بروسا" بجوار بعليها أدر خان.¹

ومن أنواع النيلوفر نيلومبوجوزي أو النيلوفر الهندي (Indian Lotus) أو النيلوفر المقدّس (Sacred Lotus) وهو نوع من النبات يتبع جنس النيلومبو من الفصيلة النيلومبية، نبات مائي معمر ذو جذور ريزومية، الأوراق قرصية كاملة الاستدارة، يتوسطها ساق قوسي طولها من 30-100 سم فتصبح طافية فوق سطح الماء، الأزهار كبيرة بيضاء أو وردية يصل قطرها من 30 سم، وتظهر في أواخر الربيع والصيف والثمار كثيرة الثقوب.

¹ أردو دائرة معارف اسلامية، 22 (نيلوفر)

يتكاثر النبات بالبذور والريزومات واحتلت زهور النيلوفر درجة كبرى في حياة المصريين القدماء والهنود، فكانوا يقدمونها للضيوف تحية لهم ونقشوها على جدران معابدهم وأبوابها، كما قدموها لألهتهم.

يتميز نبات النيلوفر الهندي المقدس الطويل ذو الجذور المجوّفة بلونه البني ونسيجه المقرمش الصلب، وهو ينمو في المستنقعات وله أوراق خضراء كثيرة تستعمل لمعالجة مرض ذات الرئة، تطفو زهرته البيضاء التاجية الشكل على وجه الماء وتكثر زراعته في الصين في هذه الأيام.

يفضل تناول جذور النيلوفر الهندي مطهواً على طريقة التقلية السريعة في الخضر الجذرية الأخرى مثل القرطب أو الأعشاب البحرية مثل الأرامي والهيچيكي أو يسلق على طريقة النيشي مع الشيتاكي والفجل أو داخل صلصة التتبيل كما يتوافر النيلوفر بشكل جذور مجففة أو مسحوق أو بذور.

يساعد النيلوفر على إذابة الدهون والمخاط من الرئتين والشعب الهوائية والحلق والجيوب الأنفية خاصة الدهون المتكونة من استهلاك منتجات الألبان أو البيض، كما يساعد شاي جذور النيلوفر على تهدئة احتقان الرئة، وإزالة أي مشكلات في الجيوب الأنفية، وكذا يخفّف من السعال المزمن. وتساعد اللصقة الطبية المصنوعة من جذور النيلوفر على تفتيت المخاط وإزالة المترسب في الجهاز التنفسي.¹

أسماء النيلوفر في اللغات المختلفة:

النيلوفر الزهر الوطني للهند، ويكون زهره جميلاً وكبيراً في الحجم، وله شهرة فائقة في الهند، والهنود يعرفونه ويعترفون بجماله وفوائده منذ قديم الزمان ويسمّونه بأسماء مختلفة. توجد أسماءه في اللغة السنسكريتية (لغة الهند القديمة) Kamal (كمل) Padam (پدم) Pankaj (پنکج) Saroj (سروج) Utpal (أتپل) Nilotpal (نیلوتپل).

¹ لينظر الموضوع على الشبكة: zepcodezoo

والكلمة الأخيرة عندما وصلت إلى فارس صارت نِيلُوفَرُ ومن هناك وصلت إلى البلاد العربية فصارت نِيلُوفَرُ.

ويسمى في الإنجليزية باسم Lotus (لوتس) واسمه العلمي Nilumbian Nucifera (نيلمبين نيوسي فيرا).

وشجيرته تنبت في الماء وتوجد في المناطق الحارة من فارس والهند وأستراليا، والبلاد الإفريقية والأمريكية، وتكون أزهاره بيضاء وحمراء عادة، وله ألوان مختلفة متعددة كالأزرق والأسود والأصفر والبنفسجي وغير تلك وأوراقه تكون مدوّرة كالمجنة.

ويستخرجون من قصبان أوراقه ليفًا يصنعون منها الفتيلات التي يستعملونها لإنارة السرج وكذا ينسجون منها الثياب الثمينة الغالية. يحصل الشفاء من كثير من الأمراض بلبسها. وجذوعه تكون مخلخلة مستقيمة وتنتشر تحت الماء في الوحل. وتنبت الجذور والنباتات الجديدة على عقد الجذوع. يوجد النيلوفر في أكثر بلاد العالم، ولاسيما في البلاد الحارة المطيرة، ينبت في البحيرات والغدران وحتى في الحقول والأودية. والنيلوفر ينتشر ببذوره وجذوعه وله أنواع كثيرة لونًا وشكلًا. وعادة ما تكون ألوانه الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر، وأوراقه مدورة كالصحن الكبيرة، ويتصل وسط ورقها بالقضيب الدقيق الناعم ذي الثقوب المتعددة، وهذا القضيب يكون مختفيًا في الماء ويكون لونه أخضر خفيًا، ويشرع يتفتح في آخر شهر مارس، ويجري عمل التفتح إلى سبتمبر، ويستحصل من قضيب النيلوفر ليف يصنع منه الفتيلات التي تنور بها السرج. وكانوا ينسجون الثياب من هذه الألياف في قديم الزمان، وجاء في البيد (كتاب الطب القديم) أن ليس الثوب المنسوج من ألياف النيلوفر يذهب بالحصى، وتتفتح أزهاره بالصباح وتدوم طول النهار، ووريقات أزهاره لا تتساوى في العدد، ويكون بين الوريقات ثماره، تحيط بها شعيرات ويجذب أريج أزهار النيلوفر الذبابات والفراشات إليها والنحل يمص رحيقها لتصنع منه العسل. وعسل النيلوفر مفيد جدًا للأمراض العيون.

يوجد في العالم أنواع كثيرة للنيلوفر، ولزهوره أشكال وألوان مختلفة حسب أنواعه، وفي جزيرة (أمرا) بأمريكا نوع من النيلوفر يكون حجم زهره خمسة عشر إنشًا وحجم ورقه ست أقدام والنصف، وبعد سقوط وريقات الأزهار تشرع ثماره في النمو، وبعد

أيام قليلة تتكون فيه البذور. ثماره بيضاوية الشكل خضراء اللون ولكن بعد النضج يصير لونها أسود وتكون البذور لذيدة توكل نيئاً ومسلوقة ومحمّصة، ويصنع منها الإدام الشهى وهو يستعمل في الأدوية أيضاً، وتكون جذوره غليظة ذات الثقوب. وعندما تجف الغدران يستخرجون جذوره الغليظة ويأكلونها ويصنعون منها الطحين بعد تجفيفها، تكون براعمه في الماء بيضاء ناعمة، وتكون لذيدة حلوة في الأكل، ويستخرجون الزيت من أزهاره، يوجد النيلوفر في جميع أنحاء الهند، ويسمّون النوع الأحمر منه Raktūtphal (رکتوت فل) أي النيلوفر الأحمر ويسمّون النوع الأزرق منه Nilotpal (نيلوت فل) ومن هذه الكلمة الأخيرة أخذ في العربية اسمه "النيلوفر".

ينبت النيلوفر الأزرق في كشمير ولأسيما في شمالها ويوجد أيضاً في بعض أنحاء الصين، والنيلوفر الأصفر ينبت في أمريكا وسائيريا وألمانيا الشمالية وغيرها.

ويوجد في العالم كثير من أنواع النيلوفر وبعض الناس يسمّون الزنابق المائية بالنيلوفر خطأً. ينبت النيلوفر في الماء الراكد أو شبه الراكد ويتميز من الزنابق المائية بأن الماء يزلّج عن أوراقه ولا يمكث أبداً ولكن يمكث الماء على أوراق الزنابق المائية وببّله، والفرق الثاني بينهما أن أوراق النيلوفر ترفع عن سطح الماء بينما أوراق الزنبق المائي تفتش على سطح الماء.

تكون أزهار النيلوفر الهندي وردية اللون دائماً والنيلوفر الأبيض والأحمر والأبيض والأصفر يكون في الحقيقة الزنابق المائية، يقال له في السنسكريتية Jal Padam (جل پدم). والزنابق المائية تنبت في المناطق الحارة وتعود أزهاره وتفتش أوراقها على سطح الماء وتكون قضبانها ذات ثقوب وتشتمل أزهارها على وريقات كثيرة مرتبة، وجذورها منتشرة تحت الماء في الوحل.

استخدامات النيلوفر:

لكل حصص من النيلوفر فوائد طبية يصنع منها الأدوية في الطب الأيورفيدي وفي العلاج بالمثل وفي الطب اليوناني أيضاً ولأسيما أهل الصين والهند وماليزيا يستعملونها في علاج الأمراض المختلفة.

أهميته الثقافية:

إن النيلوفر معروف في بلاد العالم كلها لجماله وبهائه، ويقف المازون على الغدران والمستنقعات التي تكون أزهاره متفتحة فيها معجبين بها ليمتنعوا بحسنها وبهائها، وجاء ذكر النيلوفر في كتب الهند القديمة، وكانوا يحسبونه مباركا ويعتقدون بتقديسه، وله أهمية دينية وثقافية في الأديان الهندوسية والبوذية والجينية ولذلك جعله أهل الهند زهرا وطنيا لهم.

وجاء في كتب الهندوس القديمة أن الإله برهما تولد من نيلوفر نبت من سرّة الإله فيشنو، ولقب الهنود القدماء آلهتهم "لكشي" "يدما" و"كملا" و"كملاسنا" ومعنى هذه الكلمات السنسكريتية "النيلوفر".

ويعتقدون أن الإله فيشنو ذو الأيدي الأربع. قد قبض بأيديه الأربع على Shankh (شنك: الخرزة الكبيرة التي ينفخون فيها فيصدر منها أصوات عالية) و Chakra (چكر: الدائرة) و Gada (گدا: الحجر المدور المصق بالقضيب الحديدي) و Padam (پدم) النيلوفر.

وتوجد صور النيلوفر وعلاماته منقوشة على جدران المندار¹ في الهند وأكثر تماثيل بوذا توجد جالسة على زهر النيلوفر.

وكذلك كان قدماء مصر يحبون النيلوفر بل كانوا يقدّسونه فنجد صور النيلوفر ونقوشه في كتبهم ومعابدهم ورأى بعض العلماء أن النيلوفر مهدد الأصلي مصر ومن هنا ورد في الهند. والهنود يشبهون الوجه واليد والرجل الجميلة بأزهار النيلوفر الحمراء، والعين الجميلة بأزهار النيلوفر الزرقاء، كما يقول الشاعر الهندي:

لوگ بھولے سے جسے نیل کنول کہتے ہیں

وہ تری جھیل سی آنکھوں میں کھلا کرتا ہے

¹ مَنَادِرُ على زنة مساجد جمع مَنَدِرُ كلمة سنسكريتية قمنا بتعريفها وهي تعني المعابد الهندوسية. ولقد نعكف على هذه الكلمة لأن "المندر" كلمة خاصة لمعبد هندوسي " بينما المعبد كلمة عامة

ترجمة: التي يسمونها "النيلوفر" وهم فأنها تتفتح في عينيك مثل البحيرة.¹

وجاء في كتب الهند التاريخية والدينية أن أزهار النيلوفر تتفتح عند طلوع الشمس وتغلق عند غروبها، وأن جذوره غذاء شهى للفيل والتّم، يأكلونها برغبة شديدة. في الهند تصنع من أوراق النيلوفر المراوح ويزعمون أن مراوح النيلوفر يتسلّى بها العاشق ويتصبّر. والجدير بالذكر في هذا المكان أنه في الهند تعشق المرأة الرجل وتهيم به على عكس أمة العرب حيث يعشق ويهيم الرجال بالنساء. وقد قسّم كتاب "كام شاسترا" (كتاب الشهوة الجنسية) النساء إلى أربعة أقسام فمنها القسم الأول "بدمنى" ومعناه اللفظي (النيلوفر).

النيلوفر في الأساطير الهندية القديمة:

في الثقافة الهندية القديمة نال النيلوفر أهمية كبرى فجاء في "وشنوبران" أن "إندرا" وهي إلهة الغيوم والأمطار مدحت "لكشي" وهي إلهة المال والثروة، فقالت: إن إلهة المال "لكشي" جالسة على النيلوفر وأيديها كجذوع النيلوفر في البياض والنعومة وعيونها كأوراق النيلوفر، ويا من وجهها كزهر النيلوفر ويا من عشيقه من نبت من نافة النيلوفر (أي الإله فيشنو) إني أعبدك".

فاتضح جلياً مما ذكر أن النيلوفر كان ولا يزال في الثقافة الهندية مقدساً ومباركاً ويعتبرونه رمزاً للجمال والطهارة والخير والبركة.

الناسك الأكبر ويد وياس ألف كتاباً عظيماً عن حقيقة الكون والإنسان يحتوي على ثمانية عشر جزءاً، يسمّى الجزء الثاني منه Padam Purāṇa (كتاب النيلوفر). قد ذكر فيه:

"إن خالق الكون الإله برهما الذي ولد من النيلوفر الذي نبت من نافة "فيشنو" وأن الإله فيشنو خلق الكون وبين أصول خلق الأرض والسماوات والنجوم والشمس والقمر".

¹ فيريد الشاعر أن يقول إن الزهرة التي تتفتح في عينيك يجب أن تسمى "نينوفر" لأنها تتفتح في العين والعين تعني "نين" بالسنسكريتية بينما هي شهيرة بنيلوفر" والحال أن "نيل" تعني البحيرة. فالناس يخطئون في تسمية هذه الزهرة.

ويزيّتون الكتب وجدران المعابد وسقوف القباب وجدرانها والعمود بصور أزهار النيلوفر، وتوجد في أيدي أغلب آلهة الهندوس أزهار النيلوفر المقدّس ومن مشاهير آلهتهم التي لها علاقة خاصة بأزهار النيلوفر براهما (فيشنو) ولكشي وغيرهما.

وفي معبد الآلهة Jagdamba (جگدمبا) الواقع في مدينة كاجوراهو (Khājuraō) تمثال إلهتهم اسمها Chatrbhujī (تشتربهجي: ذات أربع أيدي) قدها نحو ست أقدام، تحمل في يدها زهر النيلوفر وهبنا أيضاً نصبت صورة الشمس على شكل رجل طوله خمس أقدام وفي يديه أزهار النيلوفر.

وفي أوديفور (Udaipur) براجستان معبد هندوسي اسمه Padmāwātī Mātā Jal Kamal (پدماوتي ماتا جل كمل مندر) معبد الإلهة ذات النيلوفر وقد بني على شكل زهر النيلوفر، وفي هذا المعبد نصبت تماثيل الإلهات بدماوتي، ولكشي، وسرسوتي، وأمبيكا. كل هذه التماثيل جميلة جاذبة للغاية، وقد صنع تماثيل بدماوتي بالرخام الأبيض.

وفي مديرية دهولفور (Dholpur) بولاية راجستان موضع يقصده الزائرون من كل أنحاء الهند، توجد فيه حديقة يزرعون فيها النيلوفر.

وفي مديرية أورنغ آباد (بولاية بهار) معبد الشمس صنعت قمته على شكل النيلوفر، ونقشت صورة نصف النيلوفر على عمود الملك أشوكا المنسوب هناك.

وقد بني معبد "بهائي آپاسنا" في دلهي على شاكلة زهرة النيلوفر المتفتحة، لذلك يسمونها "Lotus Temple" (معبد النيلوفر). وإن مركز قوات الجسم السبع المذكورة في Yoga (اليوغا) يستعمل بالنيلوفر.

طريقة زرع النيلوفر في الحديقة:

وأفضل طرق زرع النيلوفر أن يحفر الغدير وترصف أرض الغدير بالآجر والسمنت وأسلاك الحديد، وجدران الغدير تصنع أيضاً بالآجر والسمنت، ويكون عمق الغدير ثلاث أقدام على الأقل، وأن طول الغدير وعرضه يكون حسب الحاجة، وبيتغي كل شجر النيلوفر مئة مربع قدم، وإن كان الغدير أقل من ذلك فيصير بلا فائدة، ويحسن

أن يكون تحت الغدير ثقبه ليسهل إخراج مائه حيناً بعد حين، ويمكن تنظيفه فلا بد أن يكون فيها الميزاب، ويلقى التراب الممزوج بالسماذ في الغدير ويكون سمك التراب نحو قدم واحدة ثم يلقي الرمل على التراب ويكون سمك الرمل إنشاً واحداً.

وإن كان الغدير كبيراً جداً فالمناسب أن تستعمل الصناديق الكبيرة من الخشب فلا يلقي التراب والسماذ إلا في الصناديق فهكذا ينجو الزارع من مشقة ملأ الغدير بكثير من التراب والسماذ، وعلى ذلك يسبب تراب الغدير كدورة الماء لأنه أكثر الأحيان يحتاج إلى قطف أزهار النيلوفر

وجني ثمارها أو يحتاج إلى تنظيف الغدير من أوراق النيلوفر القديمة الفاسدة فيسبب التراب كدورة ماء الغدير.

تزرع بذور النيلوفر تحت التراب نحو إنشين في أول مارس ويحسن أن يحصل على شجيرات النيلوفر فتغرس في الغدير المعد لزراعة النيلوفر، وينبغي أن يكون الغدير مملوءاً بالماء التنظيف دائماً.

والغدير المحفور الحديث العهد يملأ ماءً ثم يخرج ماؤه عدة مرات لأن يصفو الماء من النور والأوساخ لأن النور والأوساخ تضر بالنبات وينبغي أن يلقي التراب والسماذ قبل ستة أو خمسة أشهر من غرس النيلوفر. وماء الغدير المملوء يصير في أول الأمر أخضر ثم يصفو ويصير لونه أبيض لماعاً، وينبغي أن يملأ الغدير بماء النهر أو المطر أو بماء البئر العذب ولا يملأ بماء الأنابيب لأنه يكون ممزوجاً بكلوئين. والكلوئين يضرّ بالنبات ويمرّضه ويوقف نموه. وينبغي أن يكون الغدير أمام الشمس كي يستفيد نبات النيلوفر من أشعتها وحرارتها ولا يكون في ظلال الأشجار الساحقة والجدران العالية.

المصادر والمراجع

1. العديد من الكتاب: المنجد في اللغة، دار المشرق، بيروت، 1997م
2. المولوي السيد أحمد الدهلوي: فرهنگ آصفيه، نيشنال أكاديمية، دلهي، 1974م
3. أردو دائره معارف اسلاميه (دائرة المعارف الإسلامية بالأردنية)، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، 1989م
4. الموقع على الشبكة: zepcodezoo
5. الموقع على الشبكة: the planet lust

استعراض كتاب:

استعراض: غياث الإسلام الصديقي الندوي¹

عنوان الكتاب: صفحات من حياة المغفور له بإذن الله تعالى السلطان سعيد بن

تيمور سلطان مسقط وعمان

اسم الكاتب: الدكتور صالح البلوشي

عدد الصفحات: 200

الناشر: روزورد بوكس، نيو دلهي، الهند

سنة النشر: 2016م

لا يقتصر هذا الكتاب على السيرة الكاملة للسلطان سعيد فحسب بل يتطرق إلى أهم جوانب حياته ومساهماته لعمان وأهلها متحدًا عن نشأته وتعليمه، وجولاته الميدانية الداخلية، وتسلمه لمقاليده الحكم، والوضع المالي للدولة ورحلته حول العالم، كما يلقي ضوءًا وافيًا على مقاومته العنيدة والبطولية لاقتطاع ولاية جوادر العمانية لصالح باكستان، إضافة إلى خلفية تاريخية عن جزر كوربا موربا (الحلانيات)، ويقدم قصة البحث عن النفط في عمان، وجهود السلطان سعيد لتقديم خدمات أفضل لعمان وأهلها من بريد وبرق ورعاية طبية وغيرها.

¹ باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دلهي ومحاضر ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية ذاكر حسين دلهي التابعة لجامعة دلهي.

في بداية الكتاب شكر المؤلف كل من ساعده في تأليف وطباعة هذا الكتاب بنصح ومشورة وما إلى ذلك. وهو يشكر على وجه الخصوص الدكتور أرنك زيب الأعظمي أستاذ اللغة العربية وآدابها في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملوية الإسلامية، بنيو دلهي، على مراجعة هذا العمل وإخراجه وطابعته. وفي المقدمة سرد المؤلف خلاصة هذا الكتاب.

كان السلطان سعيد بن تيمور سلطاناً سابغاً من سلاطين مسقط وعمان، ووالده تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد بن سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي. ولد السلطان في 13 أغسطس 1910م، وتسلم الحكم في عمر 22 عاماً، وفترة الحكم من 11 فبراير 1932م إلى 23 يوليو 1970م، وتوفي في 19 أكتوبر 1972م.

التحق السلطان سعيد بكلية مايور بمدينة أجمير الواقعة في ولاية راجستان الهندية بتاريخ 14 فبراير 1922م، وهذا ما تعز به الهند. وكان السلطان مشهوداً له بحب الدراسة والمطالعة والتعلم. ولم يكتف السيد سعيد بأن يتلقى العلم من داخل الصفوف الدراسية لوحدها بل قرر أن يخرج منها ليرى بنفسه أحوال البلاد والعباد فعرف بشغفه الشديد للتجول والترحال كلما أمكنه ذلك خلال الإنجازات الدراسية سواء بالسفر إلى مسقط لرؤية أهله أو بالسفر داخل الهند، وهو ما أمكنه من زيارة أماكن عدة في الهند من بينها حصار، وأمبالا، وغيرهما فاكتسب علماً عملياً وفهماً وإدراكاً لحقائق الحياة، ومعرفة بتاريخ البلاد التي يعيش فيها هو وأهلها، وحياتهم ومعاشهم ومعاناتهم خلال الأزمات وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى.

وحينما بلغ السيد التاسعة عشرة من عمره أي في عام 1929م، عينه والده رئيساً للمجلس فعمل على ضبط الأمور المالية للدولة. ومن بين الأمور البارزة التي عملها أنه لم يجدد عمل وزير المالية عند نهايته في ديسمبر 1930م، ومع انهماك في الشؤون المالية أصبح في يوليو 1931م وزيراً للمالية بحكم الواقع لأنه كان يدير كافة الأمور المالية.

كان السلطان سعيد في الثانية والعشرين من عمره حينما أصبح سلطاناً لمسقط وعمان وذلك في 10 فبراير 1932م. ولكونه رجلاً يتمتع بشخصية قوية فقد تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقه وواجهها بجلد وقوة شكيمة رغم صغر سنه.

عندما استلم السلطان حكومة مسقط وعمان كانت خزينة الدولة خالية بسبب الديون، وأصيبت البلاد بضرب موجة الجفاف، فقاوم السلطان كل ذلك بحزم وعزيمة. ألقى المؤلف الضوء على جهود السلطان سعيد في هذا المجال فقال في مقدمة الكتاب:

"سيظل التاريخ يذكر أن السلطان سعيد واجه كافة الظروف غير المواتية بعق وحكمة مقرونين بالحزم فبدأ بنفسه قبل غيره فكان أول عمل قام به عند وصوله لسدة الحكم أنه خفض راتبه من سبعة آلاف روبية في الشهر إلى ثلاثة آلاف روبية وباع يخته وسيارته، كما تولّى الإشراف المباشر على إدارة الموارد المالية للدولة، ووضع نظامًا ماليًا صارمًا، وكبح جماح الإنفاق غير الضروري، ونظم الجمارك حتى تمكن بعد سنين من الجهود المضنية من موازنة الإيرادات مع المصروفات". (صفحات من حياة المغفور له بإذن الله تعالى السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان، ص 9-10)

وبعد تقلّد مقاليد الحكم كان من بين أولى أوليات السلطان أن يزيد معرفته وعلمه بأحوال الآخرين فقرّر القيام بجولة حول العالم من 28 يونيو 1937م إلى 24 يونيو 1938م، فرحل إلى عدّة بلدان بما فيها الهند، وسنغافورة، واليابان، والولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا وألمانيا، ومصر.

والجدير بالذكر أن السلطان سعيد زار الولايات المتحدة الأمريكية بدعوة من رئيسها روزفلت فرانكلين الذي استقبله في البيت الأبيض في 3 مارس 1938م. وبذلك أصبح أول حاكم دولة عربية يزور أمريكا. وخلال الحرب العالمية الثانية جاهد السلطان سعيد للتخفيف من معاناة شعبه. ومن بين الأمور التي قام بها في هذا المجال أنّه أصدر أوامره بتوزيع المواد التموينية بنظام الحصص أي أن يحصل كل فرد على قدر معيّن من المواد التموينية كلّ شهر.

تميّز السلطان سعيد بمهارات هائلة في المحادثات والمفاوضات والمناورات السياسية كما ظهر في التمسك برأيه في معاملة منطقة جواور وجزر كوريا موريا. أراد السلطان أن يدخل التعليم الحديث إلى عمان فافتتح في عام 1936م المدرسة السعيدية في

منطقة صلالة. وفي عام 1940م افتتح السلطان المدرسة السعيدية في مسقط. ومع ظهور التبشير الأولى لإنتاج النفط خطط السلطان سعيد لإعادة تأهيل المدرسة الابتدائية في ولاية "صور" وتوفير احتياجاتها بتكلفة قدرها خمسون ألف روبية.

وفي عام 1969م أصدر السلطان أوامره لإصدار عملة وطنية موحدة على شكل أوراق مالية ونقود معدنية. وفي مايو 1970م بدأ تداول العملة السعيدية الجديدة والتي كانت من فئات 100 بيسة، وربع ريال، ونصف ريال، وريال واحد، وخمسة ريالات، وعشرة ريالات.

وفي آخر الكتاب ملاحق أولها برنامج الزيادة الرسمية للسلطان سعيد بن تيمور إلى دلهي، الجمعة 12 نوفمبر إلى الاثنين 22 نوفمبر 1937م، وثانيها برنامج الزيادة الرسمية للسلطان سعيد بن تيمور إلى لندن من 28 مارس إلى 12 أبريل 1938م، وثالثها معاهدة التجارة والملاحة بين المملكة المتحدة وسلطان مسقط وعمان الموقعة بمسقط في 5 فبراير 1939م، ورابعها معاهدة تنازل بين صاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية وسلطان مسقط وعمان فيما يتعلق بجزر كوريا موريا (صلالة بتاريخ 15 نوفمبر 1967م)، وخامسها كلمة السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان عن تاريخ الوضع المالي في السلطنة في الماضي وما يؤمل أن يكون عليه الحال في المستقبل بعد تصدير النفط (شوال 1387هـ/ يناير 1968م)، وسادسها اتفاق بنكي بين سلطان مسقط وعمان وبنك إيران الملكي بتاريخ 10 يوليو 1948م.

وأتبعها المؤلف سبع خرائط في سبع صفحات وهي لسلطنة عمان وشبه جزيرة مسندم، وجزيرة مصيرة، وجزر كوريا موريا وخرائط مكبرة لجزر وجزر كوريا موريا، وشبه جزيرة جوادر وخريطة ولاية جوادر. وأتبعها المؤلف صور السلطان بمناسبات مختلفة في ست صفحات، والطوابع لريالات سلطنة مسقط وعمان في صفحتين، ونماذج الطوابع البريدية العمانية في صفحتين.

وبما أنّ الدكتور قد اختار لنفسه موضوعَ حياة السلطان سعيد بن تيمور، فقد جمع ما تشبّث في حياته وسيرته، وجاء بتحقيقٍ علميٍّ جميل. ويبدو من قراءة الكتاب أن الكاتب قد بذل قصارى جهوده في تحقيق أهمّ الأحوال والظروف التي مرّ بها السلطان سعيد في مراحل حياته المختلفة. فجاء هذا الكتاب في أسلوبٍ علميٍّ حديثٍ وهو يشتمل على 200 صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على تقرّظ، ومقدّمة، ومدخل، وتفاصيل حياة السلطان، وستة ملاحق، والمصادر والمراجع لهذا الكتاب، وسبع خرائط بجانب صور السلطان في مناسبات مختلفة، وطوابع الريالات العمانية، والطوابع البريدية العمانية، والفهرس. ونشره مطبع "روزورد بوكس"، نيودلهي، الهند، في عام 2016م.

إنّ الهدف الأساسي من تأليف هذا الكتاب هو تسليط الأضواء على صفحات من حياة سلطان عمان الراحل، رحمه الله تعالى، والذي قاد البلاد لما يقارب من أربعة عقود من الزمن، وإنه لحق من حقوق الأجيال المعاصرة والمقبلة أن يعرف حقائق أحداث من التاريخ العماني المعاصر.

قام بمراجعة هذا الكتاب وطباعته الدكتور أونك زيب الأعظمي، أستاذ اللغة العربية وآدابها في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملكية الإسلامية، بنيو دلهي، الهند. وقرض الدكتور قصيدة عربية لتقرّظ هذا الكتاب وهي تحتوي على ثلاثين بيتاً. ويبدو من هذه القصيدة أنّ له اليد الطولى في الأدب العربي ولا سيما في قرض الشعر باللغة العربية.

ندعو الله - عزّ وجلّ - أن يوفّق المؤلف القدير مزيّداً من خدمة اللغة العربية وآدابها وأعلامها البارزين، فإنها لغة المسلمين، ولغة العلوم والفنون، ولغة أهل الجنة. والله هو الموفق وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

الدكتور أورنك زيب الأعظمي:

قصيدة في تهنئة الدكتورة هيفاء شاكري بتشرفها بجائزة رئيس
جمهورية الهند

تعالوا نقم بالنحرِ فالشُرْبِ فالسَخا
وفضّل كلّ الناس جاءوا ببدة
لهم ذكريات في مجالٍ يخصّهم
ومنهم زميلي³ التي يعني اسمها⁴
فتاة لقد أنشأها الإله برغبة
فتاة بجُنّ البرّ⁶ رؤياها بالعشا
فتاة لها ما زال يدعو الملائكُ
لها خير أخلاق: فلما لقيتها
وجدت لها علمًا وبرًّا وما طغت⁹،
فإن رئيس الهند قد أكرم الوري
وقاموا بأعمال يبجلها الدنا¹
تجدّد ما خلفوا من العلم والسُما²
فتاة لها خلُقٌ وخلُقٌ مع النُهي⁵
فركب ما شاء بأحسن ما يرى
وبالفجر والظهر، وبالغرب والضحى
ويدعو لها الناس وتدعو لها النسا⁷
وجدت لها حظًا وفيرًا من الخجي⁸
لها عزة قعساء¹⁰ قد صانها التقى

¹ الدنيا جمعها الدنا: العالم

² السُما: المفخرة

³ الزميل على وزن القتل للصفة وهو يذكر ويؤنث

⁴ اسمها هيفاء وهي تعني فتاة جميلة ذات خلق عظيم وعقل حاد

⁵ النُهي: العقل

⁶ البرّ: عامة الناس

⁷ النسا: النساء، حذفت الألف للقافية

⁸ الخجي: الحياء

⁹ ما طغت أي اتقت

¹⁰ قعساء: قديمة ثابتة

لقد أنشأتها أمها والتي سَمَتْ
وتكره كل السوء، مكثرة لما
وأما أبوها والذي كان عالمًا
وثم توخى جامعات العرب⁶
وبعد الفراغ من تعاليمه التي
وكان شغوفًا بالعلوم وبالذي
وكان أديبًا شاعرًا باحثًا لها
فقام بتحرير التأليف جودة
ولكن حواه الداء يأتيه بالشلل
فناده رب العرش نحو جواره
ولو عاش حتى ينظر ما قد تفضلت
لقد فضّلوا هذي الفتاة، وأنصفوا،
لقد علّمت شعبين: هندًا وأعرُبًا¹²

مميّزة بالعلم والحلم والقِرَى¹
يصدّ² سبيل الهند³ واللغو والمذى⁴
تخرّج من دار تشهّر بالعلی⁵
لكي يشبع منها وينهل ما استقى
تحصّلها، قام يهذب من بدا⁷
رووه، بعدلٍ، من أحاديث مصطفى⁸
لكي يأثر ما ينتج الذكر والعلی
فعلم لغة الفرس، حقّق ما حرى⁹
فأوشك أن يفنى وسار إلى الودی¹⁰
فلجى النداء بالسرور وبالرضی
به بنته الهيفاء، ليس لها السوى¹¹
على ما حوته من فعالٍ ومن علّی
فصارت تثقف مهد الكفر والهدی

¹ القرى: الضيافة

² يصدّ: يمنع

³ الهندو: الهنديان وهو كلام لا يعني

⁴ كل نقد فارغ بالهزء

⁵ أي دار العلوم بديوبند الشهيرة في العلوم الإسلامية

⁶ أي الجامعات العربية

⁷ استخدمت هذه الكلمة للإشارة إلى العرب الذين كان معظمهم بدوًا في زمن من الأزمان

⁸ الحديث النبوي

⁹ ما حرى: كتابات الحريري المسماة بالمقامات

¹⁰ الودى: الهلاك والفناء

¹¹ ليس لها السوى: هي فاقدة النظير

¹² مشيرًا إلى تعليمها للهنود والعرب على السواء

وقامت بتأليف الرسائل التي
لها ترجمات لوَنَّتْها فصاحةٌ
تحدِّثنا دومًا بعاميتها التي
لها خير أعمالٍ كتابًا وخدمة
فإن كرمَها الهند بالعِزِّ والصَّهَى⁵
فيغمرنا كلَّ السرور، ونفخرُ
فندعو الإله أن يزيدَ من عمرها
أضاءت بها دنيا العلم والفن والمُنَى¹
وتبلغ ما لا تبلغ الهندُ بالسُّما²
تباهي بها العُربُ، وتبتهت الحِجَى³
لها ما يثير العصر، حقًّا، على القنا⁴
فقد صدَّقت ما ظنَّت من الأمل⁶ والتوى⁷
بما نالها هذه الزميلة من غلى
بصحتها الحسنى، وبالعلم والتقوى

¹ المُنَى: الخيال (الأدب)

² السما: الصبى البعيد الحسن

³ الحِجَى: العقل

⁴ القنا: البغض والحسد

⁵ الصهَى: المال الكثير

⁶ الأمل والأمل: يسكون الميم وفتحها سواء

⁷ التوى: الأمنية

الندوة الدولية حول:

الحكمة الهندية: بانتش تانترا (كليلة ودمنة)، تقاليد، تاريخ، وثقافة

- غياث الإسلام الصديقي الندوي¹

نظّم قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي بالتعاون مع الأقسام الفارسية والسندسكريتية والأوردية، ندوة دولية لفترة ثلاثة أيام حول الموضوع "الحكمة الهندية: بانتش تانترا (كليلة ودمنة)، تقاليد، تاريخ، وثقافة" في الفترة ما بين 8-10 مارس/آذار 2016م.

وقبل افتتاح هذه الندوة، اهتمّ القسم نفسه بعقد المحاضرة التاسعة من سلسلة محاضرات البروفيسور خورشيد أحمد فارق التذكارية بمساعدة مالية من المجلس الوطني لترويج اللغة الأوردية التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية، في الساعة 10:00 صباحًا في قاعة المحاضرات لكلية الآداب بجامعة دلهي. وقام بإلقاء المحاضرة الدكتور سيد منور نينار حول "تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية"، تقدم فيها بدراسته المقارنة القيمة عن هذا الموضوع؛ نسّقها الأستاذ الدكتور سيد حسنين أختر. وألقى مدير الندوة البروفيسور محمد نعمان خان وهو رئيس اتحاد أساتذة وعلماء اللغة العربية لعموم الهند ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي سابقًا، ضوءًا وافيًا على حياة البروفيسور خورشيد أحمد فارق وأعماله القيمة في مجال اللغة العربية، كما قام البروفيسور ولي أختر الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي، بتعريف الضيف المحاضر، وأبرز خدماته الملموسة في مجال

¹ - باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دلهي.

اللغة العربية، وبالتالي تقدّم رئيس الجلسة البروفيسور محسن عثمانى عميد كلية الدراسات العربية بجامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية بحيدرآباد سابقاً، بكلمته الرئاسية وقام فيها بتعليقات ثمينة على المقالة المذكورة. وأخيراً قام الأستاذ الدكتور نعيم الحسن الأثري بإزجاء كلمة الشكر والتقدير لجميع الحضور بهذه المناسبة.

ثمّ انعقدت الجلسة الاستقبلية لهذه الندوة في الساعة 11:30، وترأسها البروفيسور سيد شاهد مهدي مدير الجامعة المليّة الإسلامية بدلهي سابقاً، وكان سعادة الأستاذ حاتم تاج الدين سفير جمهورية مصر العربية بنيو دلهي، ضيفاً مبعجلاً فيها، بينما كانت البروفيسورة ميني ساوهني عميدة كلية الآداب بجامعة دلهي، ضيف شرف. وقدم البروفيسور آنند براكاش عميد كلية العلاقات الدولية في الجامعة نفسها، محاضرة عنوانها "فيوض الحكمة: تحليل نفسي لـ"باننش تانتر"، وأدلى الكلمة الاستقبلية البروفيسور ولي اختر الندوي ولفت انتباه الحضور إلى أهمية الموضوع.

اشتملت هذه الندوة على أربع عشرة جلسة بما فيها جلسات متزامنة خاصة باللغة الأوردية والفارسية والهندية، ترأسها البروفيسور عبد القادر الشاذلي والبروفيسور بن عامر توفيق وكلاهما من الجمهورية التونسية، والبروفيسور صلاح الدين عمري رئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كراه الإسلامية سابقاً، والبروفيسور شفيق أحمد خان الندوي رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المليّة الإسلامية بدلهي سابقاً، والبروفيسور أيوب تاج الدين الندوي رئيس قسم اللغة العربية بنفس الجامعة، والبروفيسور ابن كنول رئيس قسم اللغة الأوردية بجامعة دلهي، والدكتور إم. كي. جاتلي رئيس قسم اللغات الهندية الحديثة بجامعة دلهي سابقاً، والبروفيسور آر. سي. شرما رئيس قسم اللسانيات بجامعة دلهي، والدكتورة صالحة رشيد أستاذة قسم اللغة العربية والفارسية بجامعة الله آباد، والدكتور محمود فياض رئيس قسم اللغة الفارسية بكلية ذاكر حسين التابعة لجامعة دلهي، والدكتور محمد أكرم أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة دلهي، والدكتور جاويد نديم أستاذ قسم اللغة العربية بجامعة مولانا آزاد القومية الأوردية، حيدرآباد.

وفي الجلسة الوداعية أعرب البروفيسور راميش بهاردواج رئيس قسم اللغة السنسكريتية بجامعة دلهي، عن خواطره تجاه الانسجام الطائفي في المجتمع الهندي ودور اللغات المختلفة في تقويته، وبالتالي عبّر الضيف الشرف البرفيسور زبير أحمد الفاروقي رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الملّية الإسلامية سابقًا، عن الفرح والسرور لاهتمام القسم العربي بتعريف حكمة الهند عن طريق هذه الندوة، بينما قدّم الضيف الشرف الدكتور رافي تيك تشانداني وهو مدير المجلس القومي لترويج اللغة السندهية التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية، التهنية إلى القسم العربي على عقد هذه الندوة، ونوّه بمساعي المساهمين فيها والقائمين عليها.

وبهذه المناسبة قال الضيف المبجل السيد بي بي شرما رئيس الأمانة الوطنية للكتب، في كلمته: "يحسن بنا أن نعيش منسجمين وناصحين للجميع، هذا ما يعلّمنا كتاب كيلة ودمنة/باننش تانترا عن طريق القصص والحكم على لسان الحيوانات والبهائم. وهذا ما يفتح لنا أبواب الفضائل والمصالح الاجتماعية، ويجنبنا من الأعمال الشائنة. وأخيرًا فقد ألقى البروفيسور ارتضى كريم مدير المجلس القومي لترويج اللغة الأوردية التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية، كلمته الرئاسية، حثّ فيها الحضور على الاستفادة من الحكمة الهندية المذكورة في كيلة ودمنة/باننش تانترا. استغرقت الندوة الدولية ثلاثة أيام (8-10 مارس)، أُلقيت فيها حوالي ستين مقالة علمية قيمة باللغة العربية والأوردية والإنكليزية والهندية والفارسية، تتعلّق بالموضوع، وشهدها عدد ملحوظ من الضيوف من جمهورية مصر العربية، والجمهورية التونسية، كما حضرها كثير من الأساتذة من مختلف الجامعات الهندية وفي مقدمتهم البروفيسور شريف حسين قاسمي رئيس قسم اللغة الفارسية بجامعة دلهي سابقًا، والبروفيسور عبد الحق رئيس قسم اللغة الأوردية بجامعة دلهي سابقًا، والبروفيسور كفيل أحمد القاسمي رئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كراه الإسلامية سابقًا، والبروفيسور مسعود أنور العلوي رئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كراه الإسلامية، والبروفيسورة عائشة كمال، والبروفيسور حبيب الله خان، والبروفيسور رضوان الرحمن، والبروفيسور عليم أشرف خان، والبروفيسور

توقير أحمد خان، والدكتور نسيم اختر الندوي، والدكتور قطب الدين، والدكتور أصغر محمود الندوي، والدكتور محمد قاسم عادل الندوي رئيس قسم اللغة العربية في كلية ذاكر حسين التابعة لجامعة دلهي، والدكتور سيد محمد طارق الندوي، والدكتور عامر جمال، والدكتور ظفير الدين القاسمي، والدكتور مشتاق أحمد قادري، والدكتور علي أكبر شاه، والدكتور مهتاب جهان، والدكتور راجيندر، والدكتور علي جاويد، والدكتور شميم، والدكتور مشتاق أحمد القادري. وشارك فيها عدد كبير من الباحثين من مختلف المعاهد الهندية الحكومية التي تعني بتعليم اللغة العربية وآدابها.

وصلت الندوة إلى نهاية المطاف بعد ما نوه منسق الندوة الأستاذ الدكتور سيد حسنين اختر بجهود الأساتذة والطلبة في إنجاح هذه الندوة وقام الأستاذ الدكتور مجيب اختر بإدلاء كلمة الشكر لجميع الضيوف والمساهمين والحضور.

الأستاذ بدر جمال الإصلاحي ينال جائزة رئيس جمهورية الهند لخدمته للغة العربية وآدابها للسنة 2016م

- محمد معتصم الأعظمي¹

تمنح حكومة جمهورية الهند أربع جوائز على خدمة اللغة العربية وآدابها. إحدى هذه الجوائز تمنح لمن لم يتجاوز عمره خمسًا وأربعين سنة. وأما الجوائز الثلاث الباقية فهي تمنح لمن تجاوز عمره ستين سنة. الجائزة الأولى تسمى " Maharishi Badrayan Vyas Samman" بينما الجائزة الثانية تسمى "Certificate of Honour".

الأستاذ بدر جمال الإصلاحي بدأ دراسته من قريته حيث شدّ من العلم ثم التحق بمدرسة الإصلاح بسرّامير، أعظم كره من ولاية أوتارا براديش (الهند)، وتخرج فيها عام 1967م فتعلم فيها اللغة العربية ودرس كتب الأدب العربي وعلوم القرآن والأحاديث والفقه وما إلى ذلك ثم ذهب إلى مدينة سهارنפור من ولاية أوتارا براديش (الهند) حيث التحق بـ"مظاهر العلوم" وأسكن غليله العلمي فيها ثم التحق بـ"دار السلام" عمراباد من ولاية تامل نادو (الهند) وتخرج فيها وحصل على شهادة الفضيحة عام 1978م. وبعدما فرغ من المنقول والمنقول من العلوم جعل يخدم العلم والفن فعلم في مختلف المدارس الإسلامية كما عمل في مختلف الجرائد اليومية والمجالات الشهرية حتى ألقى عصاه في "مدرسة الإصلاح" التي هي بمثابة المدرسة الأم لديه. وهو كان يدرّس فيها قواعد اللغة العربية والأدب العربي والترجمة من العربية إلى الأردوية وبالعكس. تقاعد عن هذه المدرسة في عام 2016م.

¹ عضو تحرير المجلة و باحث في مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

وبجانب هذا عمل الأستاذ الإصلاحي كمدرس للغة العربية والفارسية في كلية مولانا آزاد بـ"أسرته" من مديرية جونفور (أوترا براديش) عام 1968م، وكذا درّس في قرية "ميرزا فور" من مديرية أعظم كره عام 1971م، ودرّس اللغة العربية والفارسية والعلوم الإسلامية في قرية "مانغراوان" من أعظم كره عام 1972م، ودرّس اللغة العربية والفارسية في الجامعة الإسلامية بـ"مدن فوره" وفي "جامعة ضياء العلوم" بـ"كاتششي باغ" من مديرية فارانسي منذ عام 1973 إلى 1977م، وفي "جامعة الفلاح" بـ"بلريا غنج" من مديرية أعظم كره في الفترة ما بين 1978-1979م، وكذا سافر إلى السعودية العربية وعمل بها كمدرس اللغة العربية للأطفال العرب في مدرسة بـ"بريدة وعنيزة" منذ عام 1982م إلى عام 1986م، وهكذا انسلك في سلك "جامعة الرشاد" عام 1987م وعمل فيها كمدرس اللغة العربية وأدائها حتى عام 1992م،

وكان مولعًا بالكتابة والتأليف منذ نعومة أظفاره فكان المقالات والبحوث في مختلف موضوعات الدراسات العربية والإسلامية وكانت الكتابة عن الحيوان والطير والزهر موضوعًا رغبًا لديه فكتب عن "البر" و"الأسد" والفيل" والبقرة" و"الطاؤوس" و"النيلوفر" و"الوردة" وغيرها وكذلك قام الأستاذ الإصلاحي بترجمة بعض الكتب من العربية إلى الأردوية وبالعكس وأبرزها "الأحرف المقطعة" الذي نشرت ترجمته في مجلة "الرشاد" الشهرية الصادرة عن جامعة الرشاد بأعظم كره. أبرز هذه المقالات والترجمات ما يلي:

1. الكركدن الوحيد القرن الهندي الكبير

2. والأسد

3. والبر

4. والطاؤوس طائر هندي جميل

5. والمها: جمال الأدب العربي

6. والفيل

7. والإبل
8. والكلب
9. والبقرة في مختلف الأديان والحضارات
10. وعلاقة مولانا آزاد بجامعة الأزهر
11. والشيخ عبد السلام الندوي
12. والشيخ الطاف حسين حالي والدراسة النقدية لشعره
13. والشيخ اختر أحسن الإصلاحي
14. والأميرة جهان آرا وحياتها الحافلة بالعلم والأدب والزهد
- صدرت له أربعة كتب قام بكتابتها أو ترجمتها إلى العربية. وهي كما يلي:
1. التبيان لما في الهند من الحيوان: هذا الكتاب يتحدث عن الحيوانات الهندية مثل الأسد والفيل والبقرة.
2. الهدية الالهية في الشخصيات الهندية: هذا الكتاب ينطق عن الشخصيات الهندية من مثل الأمير خسرو وجهان آرا وألطف حسين حالي ومحمد علي جوهر وغيرهم من الشخصيات الكبيرة في الهند.
3. منشي نولكشور: حياته وآثاره: هذا الكتاب يتناول الناشر الهندوسي الشهير منشي نولكشور والذي قام بنشر العديد من كتب العلوم العربية والإسلامية والفارسية كما وظّف المسلمين ولم يشب جانبه شيء من العصبية.
4. قرآن پاک میں حروف مقطعات: هذه ترجمة كتاب "الأحرف المقطعة" ألفه كاتب عربي
- نهى الأستاذ بدر جمال الإصلاحي على فوزه بجائزة رئيس جمهورية الهند للشيخ، التي تسمى بـ "Certificate of Honour" والتي أعلن عنها يوم عيد استقلال الهند 15/أغسطس لهذه السنة وسيتم تسليم الجائزة في حفل يقام في قصر الرئاسة الهندي إن شاء الله تعالى.
- المجلد: 5 العدد: 34 428 يوليو - ديسمبر 2016

والجدير بالذكر أن الأستاذ هو ثاني اثنين من بين العلماء الإصلاحيين الذين نالوا هذه
الجائزة الفخمة فالإصلاحي الأول الذي نال هذه الجائزة هو الشيخ ضياء الدين الإصلاحي.
ويناسبنا بهذه المناسبة أن نذكر أن الدكتور أورنك زيب الأعظمي، مدير تحرير هذه المجلة،
قد نال جائزة رئيس جمهورية الهند للشباب في سنة 2014م كما نالت هذه الجائزة إحدى
أعضاء هيئتها التحريرية الدكتورة هيفاء شاكري في العام 2015م.